الى الشباب في الدين والحياة

الدكتور

عبد المنعم النمر

مؤسسة

مختار

للنشر والتوزيع

القاهرة

الى الشباب في

الدين والحياة

بسم الله الرحمن الرحيم

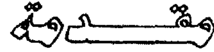
﴿ رَبَّنا إتِنا مِن لَّدُنك رحْمة وهىء لنا مِنْ أمْرِنا رَشَدا ﴾

صدق الله العظيم

إهداء

* إلى الذين يحرصون على شخصيتهم الإسلامية فى أنفسهم وفيمن حولهم . .
* إلى الذين غابت عنهم هذه الشخصية ، أو ضلوا الطريق إليها . . .
* إلى هؤلاء وأولئك . . .
* أقدم هذه الأحاديث عن الدين والحياة ، باقة تجذب النفوس إليها بتنوع أزهارها وألوانها ، وبما يفوح من عبيرها .
* راجياً أن يجد فيها الجميع زاداً طيباً لهم ، على طريق الحياة المرتجاة فى ظل من رعاية الله ورضاه . . .

دكتور عبدالمنعم النمر



— وحمدا لله على نعمه وصلاة وسلاما على هادبنا ومرشدنا وقائدنا وشفيعنا خاتم المرسلين سيدنا محمد وعلى آله وصحبه ومن اهتدى بهديه .

وبعد . فأمامك نحو ثمانين موضوعا من الموضوعات التى تتشوق إلى معرفة رأى الدين فيها ، حتى لا يختلط عليك الصحيح بغير الصحيح . وتسير فى حياتك على نور من ربك . . أقدمها إليك فى طبعة جديدة ، لتتزود بها فى مشوار حياتك . .

وهى ليست كل الموضوعات التى يهمنى ويهمك أن تعرفها . بل هناك كثير وكثير من الموضوعات الحياتية ، التى تحب أن تعرف رأى الدين فيها ، وهذه سأقدم مايمكن تقديمه منها إليك فى كتب أخرى ، تضم شيئا مما ألقيت به الضوء فى الاذاعة والصحف على الجوانب المهمة فى الحياة ، ووجهة نظر الدين فيها . .

وكلنا حريصون على المعرفة ، حريصون على أن نضبط خطواتنا فى الحياة على هدى ديننا الذى تكفل لنا بالحياة الطيبة فى دنيانا وآخرتنا . .

— « وما توفيقى إلا بالله عليه توكلت وإليه أنيب » ؛

دكتور عبدالمنعم النمر
٤٠ شارع صالح حقى . . مصر الجديدة

١ العرب قبل دعوة الرسول

قال الله تعالى : ﴿ هُوَ الَّذِى بَعَثَ فِى الْأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنهمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آياتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الكِتَابَ والحِكْمَةَ وإن كَانُوا من قَبْلُ لفِى ضَلَالٍ مُّبِينٍ ﴾ [١] .

لأمر أراده الله للعرب اختار محمداً خاتم أنبيائه ورسله منهم ، فقد كانوا قبل بعثته يعيشون على هامش الحياة ، فى صحراء الجزيرة وأوديتها ، وبين جبالها ، منعزلين عن العالم حولهم . قانعين بالمعيشة القاسية التى يعيشونها على أرض هذه الجزيرة القاحلة ، يولدون ويعيشون ويموتون لا يرون إلا الجبال حولهم ، ولا يمتهنون إلا رعى الإبل والغنم ، وأحيانا يمتهن قليل منهم من سكان المدن القليلة حرفة التجارة داخل الجزيرة أو خارجها .

لم يعرف أحد منهم حياة الاستقرار ، إلا أولئك الذين كانوا ينعمون بخيرات اليمن وأمطارها فى الجنوب ، وإلا هؤلاء الذين كانوا يعيشون على أطرافها ممن كانوا يتصلون بالدولة الفارسية فى الشرق ، أو الرومانية فى الشمال أو كانوا يعيشون حول البيت الحرام .

أما الجزء الأكبر من الجزيرة فقد كان مجدباً ، وكان أهله يعيشون فى ارتحال وراء إبلهم وغنمهم ، حيث يظنون الماء والمراعى ، ويقاسون ما يقاسيه أمثالهم من شدة الحياة وقسوتها ، كل أملهم فى الحياة : أن يجدوا ماء ومرعى ، فإذا وجدوا ذلك أقاموا ، وإن فقدوه ارتحلوا ، طلبا له . . .

---

١ ـ سورة الجمعة آية (٢) .

لم يكن لهم اتصال بالعالم المتحضر حولهم ، فى الشرق أو الغرب ، ولم يحاول أحد كذلك الاتصال بهم .

ومن ذا الذى يغامر فى قلب الجزيرة ومجاهلها ، ليتصل بهم ، ولم يكن فيها من الثروات أو الخيرات ما يجعلها مطمعاً للطامعين حولها ؟ فكانت الطبيعة القاسية التى يعيشون فيها سبباً فى حمايتهم من أطماع الطامعين ، وإن كانت من ناحية أخرى ، عزلتهم عن كل ما يجرى فى العالم حولهم ، وعزلت عنهم كثيرا من أنواع العلم والمعرفة والحضارة ، التى كانت معروفة فى ذلك الوقت ، لدى دولتى الفرس والروم . .

فعاشوا متأخرين عن العالم حولهم ، قانعين بمعارفهم المحلية القليلة ، وإن كان ذلك أتاح لهم من ناحية أخرى خصائص وفضائل ، قلما توجد فى غيرهم ، هى نبت الطبيعة التى عاشوا فيها ، فكانوا كرماء أحرارا ، شجعانا ، يكرمون النازل بهم ، ويأبون الذل والضيم ، ويهبون لنجدة من يحتمى بهم ، ويستجير بجوارهم ، ولا يبالون بالموت فى سبيل الدفاع عن شرفهم ، وكرامتهم وحريتهم .

وكانوا يعيشون فى ظل عصبية القبيلة . لا يعرفون سواها ، إذ لم تكن لهم جماعة عامة تجمعهم ، فكانوا مفتتين متفرقين ، كما كانت المنازعات والحروب كثيراً ما تقوم بينهم ، لسبب معقول وغير معقول ، وربما تستمر بينهم أعواماً لأسباب تافهة ، بسبب حميتهم ، وشدة عصبيتهم .

وهم فى جزيرتهم وحياتهم المنعزلة يعيشون على تراث غير سليم من ديانة إبراهيم وإسماعيل عليهما الصلاة والسلام ، فقد تقادم عليهما العهد ، فكان ذلك سبباً فى تغييرها وتبديلها .

والرسالات التى جاءت بعدهما كانت فى غير الجزيرة العربية ، أو على طرفها الشمالى ، ولم يستطع دعاة الموسوية أو المسيحية أن يغامروا كثيراً فى قلب الجزيرة العربية ويعيشوا بين أهلها ، ليدعوهم إلى ديانتهم ويحولوهم عما اعتادوه أجيالاً متعددة ، من مراسم الوثنية . اللهم إلا قليلاً فى اليمن ، وفى الأطراف أو الأماكن التى تأثر سكانها بديانات من اتصل بهم من الشمال أو الشرق ، فعرفوا

المجوسية ، واليهودية ، والمسيحية ، وبقيت الأكثرية الساحقة من أهل الجزيرة على ديانتهم الممسوخة ، يعبدون الأصنام ، ويصنعون التماثيل من الأحجار ، ونصبونها بينهم ، ويتقربون اليها ، معتقدين ـ خطأ ـ أن هذه الأحجار تقربهم إلى الله ، فأكثروا منها ، وتفانوا فى الإخلاص لها واحترامها حتى ملأوا بها الكعبة بيت التوحيد .

وهكذا عاش العرب فى جزيرتهم ، بدوا رحلاً وراء الماء والمرعى ، منقطعين عن العالم ، متخلفين عنه ، قانعين بتقاليدهم ومعارفهم المشتتة ، عاكفين على عبادة الأصنام ، يعتدى بعضهم على بعض ، ويتسلط القوى فيهم على الضعيف ، ليس لهم دين صحيح يخضعون له ، ولا وحدة عامة توحد أمرهم ، وتجمع شملهم ، بل يعيشون مفتتين مفرقين ، قبائل ، بل ربما تتفرق القبيلة ، ويفنى بعضها بعضا . .

وكانوا مع ذلك كله أصحاب عقول راجحة ، ذوى نجدة ومروءة وإباء وشمم . كانوا خامة طيبة ، تحتاج إلى من يصوغها .

وكانوا أرضاً خصبة تحتاج إلى من يرويها ويتعهدها ، لتخرج أطيب الثمرات ، وأجمل الأزهار والرياحين . .

وكانوا كالمعدن الأصيل ، يعلوه الصدأ من كثرة الإهمال ، ويحتاج إلى من يجلو صدأه ، ليظهره على حقيقته ، معدنا كريما يبهر الأنظار .

فكانوا الأمة التى اختار الله منها محمدا ﷺ خاتم رسله وأنزل بلغتها قرآنه الكريم ، وجعل فى قلب مدنها قبلته ، وبيته الحرام ، فأعلى شأنها ، وخلد لغتها ، وجعلها بفضل رسوله أمة وسطا « خير أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ » .

وكانت بخصائصها الفاضلة التى تميزت بها عن غيرها ، جديرة بفضل الله تعالى واختيار رسوله منها . .

وليس أدل على هذه الجدارة من أن الرسول ﷺ لم يختره الله لجواره الكريم ، إلا وقد استجاب أهل الجزيرة لدعوته ، وتوحدوا جميعا حولها ، ووهبوا أموالهم وأنفسهم فى سبيلها ، ونفضوا عن أنفسهم ، ما علق بها من غبار الجاهلية

ونقائضها ، وحملوا بعد ذلك دعوة الإسلام ، فى أمانة وإخلاص للبلاد التى حولهم ، وضربوا أروع الأمثلة فى التفانى لخدمة هذه الدعوة ، فكانوا رسلها وحملتها فى كل مكان ، يذهبون إليه ، وكانوا بأخلاقهم المثالية الإسلامية خير نموذج وقدوة ، للذين اختلطوا بهم ، فى البلاد التى فتحوها ، حتى جذبوا قلوبهم للإسلام ، وصارت هذه البلاد المفتوحة ، بلاداً عربية قلباً وقالباً ، وتوحدوا جميعاً حول راية الإسلام ، فنشأت بذلك دولة واسعة قوية ، فى مدة قصيرة ، لم يعهد فى مثلها قيام الإمبراطوريات والدول الكبيرة .

ولو لم يكن العرب خامة طيبة ، وأرضاً خصبة ، ومعدنا كريما أصيلا لما حدث كل هذا الذى أدهش التاريخ ، من قيام أمة عربية ، ذات حضارة قوية ، فى زمن قصير ، قدمت ولا تزال تقدم للبشرية أجل الخدمات .

٢ القران والعرب

يقول الله سبحانه وتعالى ﴿لقدْ أنزَلْنَا إلَيْكُمْ كِتابا فيهِ ذِكْرُكُمْ أفلاَ تعْقلُون﴾ [١] .

من الحقائق التى لا ينازع فيها أحد أن الإسلام هو الذى جعل من العرب المتفرقين أمة موحدة ، وجعل رعاة الإبل قادة العالم ، وسادة الدنيا ، وصانعى حضارة اقتبست منها أوروبا حضارتها ، واستمدت نهضتها .

ولولا الإسلام لظلت اللغة العربية داخل حدود شبه الجزيرة محصورة بين الجبال والصخور والوديان . . . ولم تصبح لغة عالمية ، تتحمس لها أمم لم تكن عربية ، وتتخذها لغة رسمية لها ، وتتسابق إذاعات العالم فى الإذاعة بها .

ولولا الاسلام لما وجدنا أمما لم تكن غربية تصير عربية ، ولما امتد العالم العربى من الخليج إلى المحيط .

ولولا الإسلام ماكان من المنتظر أن يقف التاريخ طويلاً يتحدث عن العرب ، ويسجل أمجاد العرب وحضارة العرب . . .

ولولا الإسلام والقرآن الذى نزل بلغة العرب ، لما وجدنا مئات الملايين من غير العرب يحبون العرب ، وتهفو قلوبهم الى بلاد العرب .. ويتجهون فى عبادتهم إلى الله من الشرق والغرب إلى الكعبة فى بلاد العرب ، ويقطعون الأميال ، ويبذلون الأموال ، ويركبون الأهوال ، ليحجوا إلى الأماكن المقدسة

---

١ ـ سورة الأنبياء الاية ١٠ .

في جزيرة العرب . .

لولا الإسلام والقرآن لما وجدنا أمما لا تتكلم العربية تحب لغة العرب ، ويصر خطباؤها على المنابر أن يخطبوا بالعربية ، برغم أن المستمعين لهم لا يفهمونها ، لاعتقادهم أن العبادة والخطبة لا تصحان إلا بلغة العرب .

حقا أنه مجد هبط على العرب ، حين هبط جبريل بأول آية من القرآن على محمد العربي ﷺ ، أول مرة فى شهر رمضان ، وهو يتعبد فى غار حراء ، على أرض الجزيرة العربية ، فكان بدءاً لنزول القرآن ورسوله محمد عليه الصلاة والسلام . .

فرفع الله ذكرهم ، وأعلى شأنهم ، وكان بدءاً لصفحة جديدة فى تاريخ الجزيرة العربية ، وسكانها العرب ، وسجل الله ذلك عليهم حين قال : ﴿ لقدْ أنزلْنَا إليكُمْ كِتاباً فيه ذِكْركُمْ ﴾ .

ثم هز عقولهم هزاً رفيقاً ، ولفت نظرهم ليتدبروا مجدهم المرتقب ، ويتجاوبوا مع القرآن ، فقال لهم بعد ذلك : مباشرة : ﴿ أفلا تعْقِلُون ﴾ وقال : ﴿ وإنَّهُ لَذِكْرٌ لَّك ولِقوْمِك وَسَوْفَ تُسْألُون ﴾ [1] وفى مكان آخر يقول لهم : ﴿ إنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنا عَرَبِيًا لَعَلَّكُمْ تعْقِلُوَن ﴾ أو يقول : ﴿ إنَّا أنزلْنَاهُ قُرْآنا عَرَبِياً لعلكُمْ تعْقلُون ﴾ [1] وذلك ليحفزهم إلى التأمل والتعقل ، حتى يعرفوا فضل الله عليهم ، وعظمة المهمة التى وكلها إليهم . ويقبلوا على ما فيه عزهم ، ومجدهم ، وفخارهم ، على الرسول الذى اختاره الله من بينهم ، وعلى القرآن الذى نزل بلغتهم .

وكان ذلك مما أثار حقد اليهود وحسدهم ، وهم قوم سول لهم غرورهم وكثرة الأنبياء فيهم ، أن يدعوا احتكار النبوة فيهم ، وأن الله لا يختار رسولاً من أمة غير أمتهم ، فقال بعضهم لبعض : ﴿ ولا تُؤْمِنُوا إلاَّ لِمَن تَبعَ دينكُمْ قُلْ إنَّ الْهُدى هُدى الله ـ أن يُؤْتى أحَدٌ مِثْل مَا أُوتِيتُمْ أوْ يُحاجُّوكُمْ عِند رَبِّكُمْ ﴾ [2] فرد

---

١ ـ سورة الزخرف ٤٤ .

١ ـ الأولى فى مفتتح الزخرف والثانية فى مفتتح يوسف .

٢ ـ سورة آل عمران ٧٣ ، ٧٤ .

الله عليهم قولهم ، وأبطل زعمهم وقال لمحمد : ﴿ قُلْ إنَّ الفضْل بيد الله يُؤْتيهِ من يَشاء والله واسعُ عَلِيمٌ . يَخْتَصُّ بِرحْمَتِهِ من يشاءُ والله ذُو الفضْل العظيم ﴾ .

فأعطى الله الفضل محمدا والعرب ، واختص برحمته محمداً والعرب .

وكان العرب كالتربة الخصبة ، إذا نزل عليها الماءُ ﴿ اهْتَزتْ وَرَبَتْ وَأنْبَتَتْ مِنْ كُلِّ زَوْجٍ بَهيجٍ ﴾ .

فلم يلبثوا إلا قليلاً حتى عرفوا قيمة الرسول والرسالة ، فاستجابوا لدعوة الله ، وأقبلوا على القرآن يحملونه فى صدورهم ، ويتخذونه دستوراً لحياتهم ، وهدوا به الأمم حولهم ، شرقاً وغرباً .

فتحولت هذه الأمم بفضل القرآن إلى أمم عربية ، تحمى لغة القرآن ، وترفع راية الإسلام ، وتكونت منها كلها إمبراطورية عربية إسلامية واسعة ، وحضارة عربية إسلامية راقية ، ولم يكن من الممكن أن توجد هذه الإمبراطورية أو الحضارة العربية بدون الإسلام والقرآن . .

وإذا كان الإسلام وكتابه ـ القرآن ـ قد صنع للعرب جميعا ـ سكان الجزيرة وخارجها ، كل هذا المجد ، وهذه العظمة ، فماذا يا ترى يكون موقف هؤلاء الآن من الإسلام والقرآن ؟

الحال كما نرى !! غرام بالغرب وحضارته ، وانصراف عن القرآن وهدايته !!

ولئن تعللوا الآن بالضعف بالنسبة إلى بعض الدول القائمة ، فقد كان أجدادهم فى الجزيرة أكثر منهم ضعفاً ، بجوار الدولتين اللتين كانتا تقتسمان النفوذ ، حينذاك ـ دولة الفرس ، ودولة الروم ـ ومع ذلك لم يهابوهما ، بل انطلقوا بفضل الإسلام ، وقوة العقيدة ، واستقامة السلوك الذى رباهم الإسلام عليه ، انطلقوا يدكون الظلم وعروش الدولتين ، ويقضون عليهما ، وعلى نفوذهما ، ويرفعون كلمة الله على ربوعهما .

لم يكونوا كثرة فى العدد ، ولا قوة فى العدد ، ولكنهم كانوا أصحاب عقيدة ورسالة عادلة ، وأخلاق فاضلة ، كانوا يحملون هدى القرآن ، فتغلبوا به على كل عقبة ، ولم تقف أمام قوتهم قوة . .

هذه حقائق التاريخ التى نعرفها عن ماضينا ، ولربما كنا الآن نملك من أدوات النصر المادية ، أكثر وأقوى مما كان يملكه أجدادنا ، ولكن . نعم . ولكن ينقصنا عنصر واحد ، هو العنصر الفعال فى كسب النصر ، وتحقيق العزة والمجد ، عنصر الإيمان . . عنصر الاعتزاز بالدين والقرآن .

إن القرآن الذى كان عنصر الحياة للمسلمين الأول ، قد نحاه المسلمون الآن عن حياتهم . قد يحظى من البعض منا بتلاوة عابرة ، أو اقتناء مصحف فاخر ، أو الاستماع لقارىء حسن الصوت ، أو قراءته على ميت من الأموات ، أما أن نجعله روح حياتنا ، وربيع قلوبنا ، وأساس تربيتنا . . فلا ! بل تروج عندنا الأفكار المتحللة ، والآراء والأنظمة المستوردة ، ونعتنى بها ، وندافع عنها ، ونقيم حياتنا عليها ، والقرآن وتعاليمه ، والإسلام ومبادئه ، ويعيش بيننا فى غربة !!

كأن لم يكن هو صانع أمجادنا ، وباعث نهضتنا ، ورافع رايتنا من قديم !! .

بل قد نرى المجتمع يحتفل بمن يطعن على القرآن ويحاول تشويه تعاليمه وصرف القلوب عن هديه ونوره ، ولا يحفل بمن يدعو إلى كتاب ربه . . وإلى خيره فى دنياه وآخرته بل قد يهمزه ويلمزه ، ويسىء إليه ، ويقول عنه : رجعى متأخر !! .

بل قد نرى المجتمع يعظم أرباب الفن واللهو ، ويشجعهم ويسخو عليهم ، ولا يحظى داعيهم إلى الدين والقرآن ، حتى بكلمة تكريم وتشجيع !!.

لا ياقوم . إن هذا ليس فى صالحنا ، وليس هذا هو الطريق إلى العزة ، إن كنا حقا من طلاب العزة والمجد ، ولا يمكن أبداً أن يكون الرقى إهدار الماضى المجيد ، والتخلى عن المبادىء القويمة ، لأنها قديمة .

إن الأمم التى لا ماض لها تعتز به ، وتبنى عليه ، هى أمة كاللقيط ، وسط ذوى الأحساب والأنساب ، والذى يتنكر لماضيه ، وينسلخ عنه ، إنما يتنكر لآبائه ويزدرى أصوله ، ويقطع جذوره .

أيها الأب المسلم ؛ أيتها الأم المسلمة ، إننا جميعا نحرص على أن نهيىء

لأبنائنا مستقبلاً طيبا ، ونحرص على ضمان معيشة طيبة لهم ، فلنحرص على أن نهيء لهم زاداً من هدى الله ، ونوراً من كتابه ، يضيء لهم طريق الحياة ، ويسعدهم يوم يلقون الله .

أيها الشاب العربي المسلم : أيتها الفتاة المسلمة . . إننا نحن الاباء نصنع المستقبل لكم ، ونحب بعاطفة الأبوة أن تكون أيامكم أسعد من أيامنا ، وحظكم أوفر من حظنا ، ومن أجل هذا أناديكم فى لهفة الوالد وحنانه ، وحرصه على مستقبل أبنائه أن اعتزوا بدينكم ، وكونوا جنودا أوفياء لدعوة نبيكم ، والتمسوا الهدى فى حياتكم من وحى السماء ، لا من أفواه الهدامين الأدعياء .

﴿ وأن هذا صراطى مُسْتَقِيما فاتَّبعُوه ولا تتَّبعُوا السُّبُل فتفرَّق بِكُمْ عَنْ سَبِيله ذلكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعلَّكُمْ تَتَّقُون ﴾ ﴿ يا أيها النَّاس قدْ جاءَتْكُم موْعِظةٌ مِن ربِّكُمْ وشِفاءٌ لِما فى الصُّدُور وَهُدى ورحْمةٌ لِلْمُؤْمِنِين ﴾ .

٣ القران والعلم

لا يزال بعض الناس يفهم أن الدين شيء والعلم شيء آخر ، وأن هناك ما يمكن أن يسمى تعارضاً بينهما .

وهذا ولاشك أثر من آثار المفاهيم والأفكار المستوردة الدخيلة علينا وعلى ديننا ، فقد سادت فى الغرب موجة من تحكم رجال الدين فى العقول ، وفيما تصل إليه من علوم ومكتشفات ، حتى حكموا بقتل علماء ، لا لشيء إلا لأنهم وصلوا إلى جديد فى العلم لم يكن معروفا من قبل .

فلما انتصرت الثورات فى أوروبا كان أول شيء فعله رجالها فصل الدين عن الدولة ، حتى لا تتحكم الكنيسة فيما تنتجه العقول ، وتصل اليه من كشوف واختراعات ، ومن هنا ساد فى الناس هناك أن الدين شيء ، والعلم شيء آخر ، وأن الدين يعارض العلم .

وحينما نقلنا نحن من أوروبا علمها وأفكارها نقلنا فيما نقلناه هذه الفكرة ، دون تمييز ، ودون معرفة بحقيقة ديننا ، الذى جعل من خصائصه الأولى : إحترام العقل والعلم ، بل الحث على العلم والدعوة إليه .

وفى آيات القرآن الكريم التى تعرض مظاهر الكون ، تحس أن الله سبحانه يستحث العقول لكى تتأمل وتفكر فى صنع الله ، ومظاهر قدرته فى خلق السموات والأرض ، لتصل عن طريق التأمل والاستنتاج إلى معرفة الله والايمان به .

ولهذا نجد كثيراً من الآيات الكريمة التى تعرض مظاهر الكون يختمها الله

بقوله : ﴿ إنَّ فى ذلِك لآياتٍ لِقوْمٍ يَعْقِلُون ﴾ .

﴿ لآياتٍ لأولى الألْبَابِ ﴾ أى العقول .

وهذا اسمى تقدير للعقل وللعلم .. حتى نجد الآية الكريمة تخص العلماء وحدهم بشرف معرفة الله وخشيته :

﴿ إنَّما يَخْشَى الله مِنْ عِبادِهِ العُلَماءُ ﴾ .

وقد جاءت هذه الآية بعد قوله تعالى :

﴿ ألم تَرَ أنَّ الله أنْزَل مِنَ السَّماءِ مَاءً فَأخْرجْنا بِهِ ثمراتٍ مُخْتلِفاً ألْوانُهَا وَمِنَ الجبال جُدَدٌ ﴾ أى عروق وطرق - ﴿ بيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ ألوانُهَا وَغِرابيبُ سُودٌ ﴾ أى مشتدة السواد .

﴿ وَمِنَ النَّاسِ والدَّوَابِ والأنْعَام مُخْتلِفٌ ألْوانُهُ كذلِك ﴾ .

وهذه الآية الكريمة كما ترى تشمل موضوعات : علوم طبقات الجو والنبات والجيولوجيا والحيوان ، يعنى شملت كل العلوم التجريبية ، وفى أولها دعت إلى التأمل والبحث فيها ، ولا يتم البحث والتأمل إلا بالوصول إلى دقائقها ومعرفة خصائصها .

وحينما يعرض الله سبحانه مظاهر قدرته فى خلق الإنسان من نطفة إلى أن يصير بشراً سوياً فى آيات كثيرة أو يقول :

﴿ يخلقكم فى بطون أمهاتكم خلقا من بعد خلق فى ظلمات ثلاث ﴾ [١] انما يعرض أشياء غير منظورة أمامنا ، وهو فى عرضه هذا يدعو العقول للبحث لتستكشفها بعرضه القرآن منها . ولقد قال المفسرون أنها غلاف البطن والرحم والمشيمة ثم جاء علم التشريح فأثبت أنها أغشية داخل البطن ، لم يمكن معرفتها بدقة إلا من قرن واحد فى ضوء العلم الحديث ..

ومع الأسف لم يجتهد المسلمون فى معرفة هذا ، وكان هو الأولى بهم ، لأن القرآن أمامهم يدعوهم للتأمل والمعرفة من قرون ، وقد تحدث علماءُ الطب

---

١ - سورة الزمر ص ٦ .

وأفاضوا فى فائدة هذا الغُلُق أو الظلمات كما يعبر القرآن ، لتكوين الجنين والمحافظة عليه . وحين يقول الله : ﴿ وفى أَنْفَسِكُم أفلاَ تُبصرون ﴾ (٢) يدعو دعوة قوية إلى البحث فى أنفسنا : فى كيفية خلقنا وتطورنا جسمياً وما يتركب منه جسمنا من أجهزة دقيقة . وفى غرائزنا وعواطفنا ، وفى اختزان المعلومات ، واستذكارها ، إلى غير ذلك من العلوم التى تتصل بالإنسان مما تكفل به علم الطب بكل فروعه وعلم النفس بفروعه كذلك وغيرهما . .

وهكذا ترى أن القرآن الكريم وفهمه فهماً دقيقاً ، يقوم على العلم ، ولا يمكن بعد ذلك أن يصادم العلم ، أو يحد من انطلاقه والله سبحانه يعلم ورسوله كما يعلم أتباعه هذه الدعوة المباركة ﴿ وَقُل ربِّ زِدْنِى عِلْماً ﴾ والعلم كما عرفنا لا يقف عند علم العبادات ، بل يشمل كل علم يخدم الإنسان ويرقى به ويسهل له الحياة ويبصره بقدرة الله . وإذا كان الله قد عرض هذه المظاهر لنصل إلى الإيمان به ، فإن الايمان العميق لا يتم إلا بعد البحث فى الدقائق والتفاصيل لنعرف بديع صنع الله . .

والله سبحانه يجعل بذلك للعلم غاية ، ويربطه بالإيمان ، حتى لا يضل ولا يطغى ، ولا يستعمل الإنسان المسلم علمه للتدمير والتخريب ، وهذه ميزة الدعوة للعلم فى الإسلام . .

العلم مع الإيمان والخلق الكريم . . .

التطبيق العملى :

وإذا كان هذا كله حديثاً نظرياً ، فإن النفس بطبيعتها تحتاج فى تأكيد اقتناعها إلى شاهد واقعى من حياة المسلمين الأول ، الذين بنوا حياتهم وشكلوها على هدى القرآن والسنة . هل فهموا من دينهم هذا الفهم الذى عرضناه ، وهل انطلقوا فى حياتهم على أساس هذا الفهم ؟

الحقيقة أن الواقع الحقيقى للمسلمين يشهد بأن الإسلام دفع العرب وكل من آمن معهم دفعة قوية إلى نهضة علمية ، لم يعرفوها من قبل ، بل ولم تعرفها

---

٢ ـ الذاريات : ٢١ .

الأمم الغربية فى ذلك الوقت ، ويشهد كذلك بأن الحضارة الإسلامية المزدهرة إنما نشأت فى ظل الإسلام ورعايته ، وعلى يد علماء مؤمنين بدينهم ، مخلصين له اتخذوا من القرآن هادياً لهم ، وحارساً فى كل خطوة خطوها ، وفى كل لبنه وضعوها فى صرح هذه الحضارة .

ويشهد بأن المسلمين كانوا أساتذة العلم ، فى كل مجال من مجالات هذه الحضارة ، وأن أوروبا بنت نهضتها الحديثة على أساس من علومهم وأبحاثهم .

حتى وجدنا علماء الغرب المنصفين يشيدون بالمسلمين وعلومهم وحضارتهم فيقول سديو) « لقد كان المسلمون منفردين بالعلم فى تلك القرون المظلمة فنشروه فى كل مكان وطأته أقدامهم ، وكانوا هم السبب فى خروج أوربا من الظلمات إلى النور » .

ويقول عالم أمريكى عن علماء الإسلام : « إنهم شرعوا يطلبون العلم فلم يدعوا فرعاً من فروعه إلا حذقوه ، وصاروا أئمته . . وأنهم الذين اكتشفوا علم الجبر وغيره من علوم الرياضة والحياة ، وإننا لندهش حينما نرى فى مؤلفاتهم من الآراء العلمية ما كنا نظنه من ثمرات العلم فى هذا العصر » .

هذا المجد العلمى العظيم للمسلمين السابقين لم يكن إلا ثمار الدعوة القرآنية للعلم ، وتطبيا سليما لها فى مجالات الحياة فليس لأحد عذره إذن إذا تباطأ أو قصر فى مجال العلم ، وهو دعوة القرآن له ، وهذا هو ماضى أسلافنا المسلمين فيه . .

ولنبحث إذن عن سر تأخرنا العلمى ، ولا نلصقه بالإسلام ، وليكن عندنا القدر الكافى من الشجاعة لنقر بأن العيب فينا ، والإهمال منا . . حتى نشمر عن ساعد الجد ، ونسابق الأمم فى ميدان التقدم العلمى . .

وهذا التقدم فى حاجة إلى رعاية منا للعلماء وإلى تخطيط سليم ، يمكن أن نستمد أهمه من القرآن الكريم كذلك فالله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ يرفع الله الذين آمنُوا مِنْكُم والذِين أوتُوا العِلْم درجات ﴾ [١] وهو يعلمنا بذلك أن نحيط

---

١ ـ المجادلة : ١١ .

العلم والعلماء عامة بالتقدير والرعاية والتكريم لهم فى الحياة ، كما كرمهم الله ، حتى يخلصوا فى عملهم ويتقدموا فى إنتاجهم .

والله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ فاسْألُوا أهْلَ الذِّكْرِ إنْ كُنْتُم لا تَعْلَمُون ﴾ [٢] وهو يعلمنا بذلك أن يكون عندنا علماء متخصصون بكل علم وأن نرجع فى أمورنا لأهل الخبرة والاختصاص ، ونضع كل إنسان فى مجال اختصاصه ونأخذ برأيه ، لنضمن سلامة الخطة ، وسلامة التنفيذ لها . .

فلنسأل أنفسنا لا عن موقف الإسلام من العلم ، فهذا موقفه عرفناه ، ولكن عما فعلناه ، ويمكن أن نفعله فى مجال العلم ، وفى وضع كل عالم متخصص بمجاله الذى يتقنه ، وتوفير الرعاية الكريمة له ، ليتفرغ لعلمه ، ويؤثر خدمة وطنه فى نهضته المرتقبة بدلا من الهجرة منه إلى الدنيا الواسعة .

ومع ما عرفت من بعض الشواهد عن دعوة القرآن اتباعه ليتبحروا فى العلم بكل فروعه ، حتى يصححوا عبادتهم ، ويصلحوا دنياهم ، أذكر لك آية كريمة ؛ اعتبرها فى الواقع أقوى دعوة للمسلمين ، ليكونوا أسبق الناس جميعا إلى العلم وإلى التكنولوجيا . .

وهذه الآية هى قوله تعالى : ﴿ وأعِدُّوا لَهُم ما اسْتطعْتُم مِنْ قُوَّة وَمِنْ رِبَاطِ الخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ الله وَعَدُوكُم وآخرين من دونِهم لا تَعْلَمُونَهُمُ الله يَعْلَمُهُم ﴾ [١] .

وتسألنى وما ارتباط هذه الآية بالعلم ؟ أقول لك إن هذه الآية تدعو المسلمين إلى أن يعدوا القوة التى ترد أعداءهم وترهبهم ، وتجعلهم يخشون سطوة المسلمين وقوتهم فلا يحدث أحد منهم نفسه بالاعتداء على المسلمين أو التحرش بهم . . وهذا هو منطوق الآية الواضح لكل من يقرؤها أو يسمعها . .

ووراء هذا المنطوق تكمن الدعوة إلى العلم وإلى التكنولوجيا . . فالمسلمون لا يستطيعون أن يصلوا إلى هذه الدرجة من إعداد الجيوش المسلحة ، بكل

---

٢ ـ الأنبياء : ٧ .

١ ـ الأنفال : ٦٠ .

أسلحة الحرب ، وأدواتها التى نعرفها والتى يجد فيها جديد كل يوم ، إلا إذا كانوا أولاً متسلحين بالعلم وبالصناعة التى تنتج من الدبوس الصغير حتى الصواريخ العابرة للقارات ، ومراكب الفضاء التى تصل إلى القمر ، ولا يكفى فى امتثالهم لأمر الله ، أن يكونوا مثل غيرهم فى علمه وصناعته بل لابد من أن يكونوا متفوقين عليه علماً وصناعة حتى تكون لديهم القوة الرادعة التى لا تتوفر لغيرهم ، والتى تحقق لهم السيادة والعزة التى كتبها الله لهم .

ومن غير المعقول أن يأمر الله المسلمين هذا الأمر ثم يحول بينهم وبين الأسباب التى تساعدهم على تحقيقه ، ومن غير المعقول أن يدعو الله المسلمين ويحثهم لأن يكونوا أعز أهل الأرض ، ثم يحول بينهم وبين العلم أقوى الدعائم لتحليل هذه العزة .

وإذا كان الإعداد للقوة واجباً شرعياً وهو منطوق الأمر . قوله تعالى : ﴿ وَأَعِدُّوا ﴾ فإن من القواعد المسلم بها شرعاً وعقلاً أن مالا يتم الواجب إلا به فهو واجب . وإعداد العدة والقوة واجب ولا يتم هذا الواجب ويتحقق إلا بالعلم والتبحر فيه ، وبالصناعة القائمة على العلم والمهارة فيها . . فالتبحر فى العلم بكل فروعه والمهارة فى الصناعة بكل أشكالها ، واجب شرعى على المسلمين ، يحاسبهم الله عليه ويعاقبهم إذا هم أهملوا فيه . .

أرأيت يا أخى دعوة القرآن إلى العلم وإلى التكنولوجيا ؟ . . هل يستطيع أحد بعد أن يفهم هذا أن يتجرأ ويدعى أن هناك تعارضا أو عداء بين الإسلام والعلم ؟ .

إن المسلمين الآن مقصورن ، ومخالفون لأمر الله ، لأنهم أهملوا العلم وتركوا ميدانه لغيرهم فاستذلهم وهكذا أراد الله لهم .

ولا يفوتنا أن نشير إلى أمر يجب الإلتفات إليه ومعرفته ذلك أن الله سبحانه حين أمر المسلمين بإعداد القوة أقصى ما تكون القوة ، لم يجعل الغاية منها الاعتداء ، والإذلال وتخريب الديار وحصد النفوس ، بل جعل الغاية منها الردع ، حتى يكف الأعداء المعروفين وغير المعروفين عن الإعتداء عليهم ، أو

بمعنى آخر جعلها لحفظ السلام : ﴿ تُرْهِبُون به عَدُوَّ الله وَعَدُوَّكم وآخرِين مِنْ دُونِهِم ، لا تَعْلمُونَهُمُ الله يَعْلمُهُم ﴾ .

نعم فهو دين القوة ودين الخلق والسلام .

وصدق الله العظيم : ﴿ وَرَضِيتُ لكُمُ الإسلام دِيناً ﴾ ..

٤ من أعز الناس ؟

ما حكاه تاريخنا هذه الحادثة الصغيرة التى حدثت فى أيام الخلفاء العباسيين يقول التاريخ « إن أحد الخلفاء العباسيين دفع ولديه إلى الفرّاء العالم الكبير ليعلمهما ويؤدبهما . فلما انتهى من درسه وقام لينصرف من مجلسه تسابق وليا عهد الخليفة العباسى أيهما يقدم النعل للفراء بل أخيه ، واختصما ثم تصالحا واتفقا على أن يقدم كل واحد منهما فردة من حذائه . .

ولما علم الخليفة العباسى بذلك أرسل إلى الفراء فلما حضر قال له : من أعز الناس أيها العالم الجليل ؟ قال الفرّاء : لا أعلم أحدا أعز منك يا أمير المؤمنين قال : لا . . ولكن أعز الناس من تسابق وليا عهد أمير المؤمنين فى تقديم نعله إليه » .

حادثة وقعت فى لحظة من الزمن البعيد ، ولكنها رويت وعنى بها الناقلون فدونوها فى الكتب حتى بقيت وستبقى . . لنتعلم منها الكثير المفيد لنا فى حياتنا .

فهى قبل كل شىء تعلمنا وتعرفنا كيف كان السابقون يكرمون العلم والعلماء ويعرفون قدر المعلم ، ويرفعونه فى أنفسهم ، ويوفرون له من الإجلال والتقدير ماهو جدير بكل معلم يربى النفوس وينمى العقول ، ويزكى الأرواح مما يتحدث عنه شاعرنا شوقى رحمة الله عليه حين قال :

أرأيت أعظم أو أجل من الذى
يبنى وينشىء أنفسا وعقولا

ثم هو يعلمنا كذلك احتفال أسلافنا بالعلم وحرصهم على تربية أبنائهم وتعليمهم وتحليتهم بالعلم والأدب ، حتى يكون لهم سنداً وحارساً فى حياتهم وفى مناصبهم الكثيرة . وقد كانت وصية الخليفة الأموى لأبنائه « يابنى تعلموا العلم فان كنتم سادة فقتم وإن كنتم رعية فزتم » .

لقد رأينا الطالبين الشابين ولدى أمير المؤمنين يحرصان على تكريم معلمهما إلى حد أن يحرص كل منهما على أن يحمل النعل له فيلبسه ويتخاصما لأن كلا منهما أراد أن يفوز وحده بتكريم المعلم بهذه الصورة وهما من هما مكانة وعلو شأن . . وحين علم والدهما الخليفة بذلك لم يأنف ولم يتضايق ، بل سر وكان أكثر من ولديه تكريماً للمعلم ، فأحضره وأجرى هذا الحوار معه ، وأفهمه أنه بعلمه وأخلاقه بلغ منزلة لا يبلغها أحد سواه .

صورة أسوقها لشبابنا اليوم ، ولا أريد منهم ولا أطالبهم أن يكرروا نفس ماحدث ولكنى أريد منهم أن يحرصوا على المعنى الكريم الذى ملأ نفسى الأميرين الشابين . وهو تكريم معلمهما فجعلهما يكرمانه بهذه الصورة ، دون إنفة أو كبرياء . .

ومما لاشك فيه أنهما لم يفعلا ذلك إلا لما لمساه من إخلاص معلمهما وتقواه وحسن رعايته لطلابه وحرصه على تعليمهم وتربيتهم .

وما توج به الخليفة تصرف ولديه ، وإشعاره المعلم الفراء أنه أعز الناس صورة أقدمها كذلك لآباء الشباب الذين يدفعون أبنائهم صفحة بيضاء للمعلمين فيتخرجون علماء بفضل ما بذله المعلمون لهم من علم وتوجيه حسن .

أما المعلمون فإنى أقول لهم - وأنا منهم - أن الفراء المعلم لم يحظ بهذا التكريم إلا لما بذله من جهد وإخلاص ورعاية لله فى تعليمه لطلابه .

وتتجمع هذه الصور كلها لتؤكد فى نفوسنا ما كان عليه أسلافنا من اهتمام بالعلم وتكريم أهله ففازوا وسادوا وحكموا الدنيا وعزوا وعز بهم الاسلام .

إن عصرنا هو عصر العلم ، وديننا هو دين العلم بكل فروعه وأشكاله ، ونهضتنا وقوتنا تحتاج إلى العلم ولا تتحقق إلا به ، وخير ما ينفق من مال وجهد

هو ماينفق فى سبيل العلم ، وإذا كان العلم يحتاج إلى المال لنشره فان المال يحتاج إلى العلم لحراسته وحسن توجيهه .

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم
لم يبن ملك على جهل وإقلال

وقد قال الإمام على رضى الله عنه لأحد أبنائه :

« يابنى العلم يحرسك وأنت تحرس المال » .

وكل من العلم والمال يحتاج إلى التقوى وطاعة الله ، واتقوا الله ويعلمكم الله .

٥ ليس الاسلام مسؤولا

واقع المسلمين الذين يعيشون فيه الآن ، وتخلفهم عن غيرهم فى مجالات العلم والصناعة أتاح لأعداء الإسلام أن يتهموه بالقصور عن مسايرة التقدم العلمى والتكنولوجى وفتح المجال أمام أصحاب « مكاتب الاستيراد الفكرى » لينادوا باستيراد أسس فكرية من الخارج ليبنى المسلمون عليها نهضتهم وتطورهم وتقدمهم . . وانطلى هذا النداء على بعض شبابنا الذين يجهلون الإسلام وتفتحه ، حتى ظنوا أنه لا نهضة لنا إلا نحينا الاسلام عن طريقنا ، واستوردنا بدلا منه أفكاراً من الخارج يمكن أن ننهض على أساسها .

والواقع أن المسلمين بجمودهم الفكرى ، وخملوهم الذهنى ، وبعدهم عن فهم حقيقة دينهم ، وتنظيمه للحياة والأخذ به ورضوخهم زمناً طويلاً للواقع السيىء الذى فرض عليهم من الداخل ومن مستعمريهم فى الخارج ، أقول إن المسلمين بهذا كله هم الذين جنوا على دينهم وعلى أنفسهم ومكنوا للتخلف من الأخذ بتلابيبهم ، كما مكنوا الأقوياء من السيطرة عليهم والاستهانة بهم ، ودينهم برىء من هذا الواقع السيىء ، ومن التهم التى توجه اليه لأن الإسلام جاء إلى أناس فى غاية التخلف والضعف والبعد عن مظاهر الحضارة الفكرية والعلمية فصنع لهم واقعا مزدهرا بكل أنواع الأزدهار فى المجال المادى والفكرى والعلمى ، وحينما ذهبوا إلى أوروبا المتخلفة فى أسبانيا حولوها إلى كعبة علم وحضارة ومصدر اشعاع لأوروبا كلها . . ولازالت الأسس الإسلامية التى صنعت هذه الحضارة وهذا التقدم كما هى ولكننا أهملناها ولا تزال صلاحيتها لصنع التقدم العلمى والتكنولوجى فى عصرنا الحاضر وفيما بعده كما هى . فليس

هناك نص أو فكر إسلامى سليم يقف عقبة فى طريق هذا التقدم بل إن النصوص من القرآن ومن السنة تفرض على المسلمين أن يصنعوا هذا التقدم وتأمرهم أمراً كأمرهم بالصلاة والصيام أن يكونوا أسبق الأمم فى مجال العلم بكل فروعه والصناعة بكل أشكالها حتى يجدوا أنفسهم أقوى أهل الأرض فى كل ناحية من نواحى الحياة ليتاح لهم أداء وظيفتهم كحراس على كلمة الله وعلى العدل والسلام فى الأرض كما أراد الله لهم .

ومن الأسف أننا نجد بعض الناس لا يحلو لهم الحديث إلا فى اتهام الإسلام بهذا التخلف وهم فى هذا إما مغرضون أو كسالى جبناء يريدون أن يبعدوا أنفسهم عن المسئولية ، والا فليقل لى هؤلاء أو غيرهم :

هل قال لكم أحد أن الإسلام يحارب أن تتعلموا ، أو أن تنشئوا المصانع ، أو تخترعوا وتكتشفوا خيرات بلادكم وتستغلوها لصالحكم ، هل منعكم أحد باسم الإسلام أن تكونوا الجيوش القوية ، وتقيموا مصانع للأسلحة ، والطائرات والبواخر والأساطيل والمصانع المدنية ، والمدارس والجامعات والاختبارات العلمية ؟ هل منعكم أحد باسم الإسلام أن تؤسسوا مجتمعكم وتقيموه على أساس من العدالة الاجتماعية ؟ وهل . . وهل ؟ .

لقد بحث أصوات العلماء ، وصدرت مئات أو آلاف الكتب الإسلامية من أجل دعوة المسلمين لليقظة والتقدم العلمى والصناعى وتوجيه أموال الأمة لهذا المجال النافع لا للبذخ والترف والفساد .

والناس فى واقعهم المر يلهون ، وعن صالحهم يعرضون فمن الملوم ؟ .

إن المتحدثين بأسم الإسلام يحذرونكم فعلا من مظاهر الانحلال والتفسخ الخلقى وتقليد الغير فى مباذله وتحلله ، ولكن مع الاسف مازلنا نندفع فى هذا التقليد الضار ، معرضين عن كل تحذير منه .

أما ما يدعو إليه الإسلام والمتحدثون باسمه وتدعو إليه ضرورة الحياة من الوعى والتقدم العلمى والصناعى والاجتماعى والخلقى فلا نزال عنه فى غفلة ساهين فمتى نفيق ؟ .

٦ القران والطابور الخامس

لفت نظرى وأنا أتلو آيات كريمة من سورة التوبة ، أنها تتحدث عن ظاهرة مرض اجتماعى ، فى بعض صفوف المسلمين المتجمعين حول رسول الله ﷺ ، وتنقدها وتنذر أصحابها ، وتفضح نواياهم وسلوكهم .

وهذه الظاهرة وإن كانت قد حدثت فى مجتمع المدينة من قرون إلا أنها بحكم طبيعة النفوس التى لا تتغير يمكن أن تحدث فى مجتمعات أخرى ، وفى أزمان أخرى كذلك .

ومن هنا ندرك سر تحدث القرآن عنها ، حتى يتجنب المخلصون من المسلمين أن يقعوا فيما وقع فيه ضعاف الإسلام من قبل ، وحتى يحذر القواد ورعاة الأمم مثل هذا الصنف من الناس فى سيرهم لتحقيق غاياتهم ، وبناء أممهم .

والآيات تحكى ما حدث من ضعاف الإسلام ، أو على الأصح من المنافقين حين دعا الرسول ﷺ المسلمين إلى التجهز لملاقاة الروم ، الذين كانوا يعدّون عدتهم للهجوم على المسلمين من ناحية الشمال ، فأراد الرسول أن يعجل بالسير اليهم ، حتى يكسر غرورهم ، ويتلافى هجومهم ، وكان الوقت صيفاً ، شديد الحرارة ، والمسافة صحراوية طويلة الى منطقة تبوك . . فكان امتحانا فعلاً لقوة الايمان فى النفوس : ﴿ لِيَمِيز الله الخبيثَ من الطيِّبِ ﴾ .

فظهر المنافقون على حقيقتهم ، وكان الذى يراهم من قبل ، يحكم بأنهم مسلمون مخلصون ، لأنهم يصلون مع الرسول ، ويظهرون الغيرة على الإسلام ، بل ربما بالغوا فى ذلك ، وأكثروا من الكلام عن حبهم لله ورسوله ،

وعندما تبدو بوادر حرب قد يسارعون إلى اظهار الحماس لها ، تغطية لموقفهم ولكن حين يجد الجد ينكشفون ، وتظهر نواياهم الخبيثة ، فينتحلون مختلف الأعذار ، ليتخلفوا عن المعركة ، ويحدثوا بذلك خلخلة فى الصفوف ، وايقاع الضعف فى النفوس ، شأنهم شأن ما نسميهم الآن بالطابور الخامس والمخذلين .

وتكشف الآية نفسية هؤلاء فتقول : ﴿ لَوْ كانَ عرضاً قريباً (أى متاعاً وما لايتوقعون الحصول عليه عن قرب) وسفرا قاصدا (أى لا مشقة فيه) لاتَّبعُوك ولكن بَعُدتْ عَليْهُم الشُّقَّة . وسَيَحْلِفُون بالله لو استطعْنا لخرجْنا معكُم ، يُهْلِكُون أنفُسَهُم (أى يعرضونها للهلاك بالتخلف والحلف) والله يَعْلمُ إنَّهُمْ لكَاذِبُون [١] ﴾ لأنهم يستطيعون الخروج ، ولكنهم لا يريدون التضحية ، متسترين بأعذار باطلة واهية . . فمنهم من يحتج بأنه لا يستطيع مفارقة أولاده وزوجته مدة طويلة ، وفى الروم نساء جميلات قد يفتتنّ بهن ، وهذا عذر أقبح من الذنب ، يحكيه الله عنهم ويرد عليهم :

﴿ ومِنهُم من يقُول ائذن لى ولا تَفْتِنِّى ، إلا فى الفِتْنة سقطوا وإنَّ جهنَّم لمحيطة بالكافرين ﴾ [٢] .

ويدمغهم الله بالحقد الكامن فى صدورهم على الرسول والمخلصين له : ﴿ إن تُصِبْك حَسَنة تَسُؤْهُمْ وإن تصبْك مُصِيبةُ يقُولُوا (أى يقول بعضهم لبعض) قدْ أخَذْنا أمْرنا مِن قَبْلُ (ولم ندخل الحرب) ويتولُّوا وهُمْ فرِحُونَ ﴾ [١] .

فيعلم الله رسوله أن يرد عليهم ، ويضع أمامهم الحقيقة التى يؤمن بها ولا مفر منها ﴿ قُلْ لن يُصيبنا إلَّا ما كتب الله لنا هُوَ مَوْلانا وعلى الله فليَتَوكَّل المُؤْمِنون ﴾ [٢] .

---

١ - سورة التوبة : ٤٢ .

٢ - التوبة : ٤٩ .

١ - التوبة : ٥٠ .

٢ - التوبة : ٥١ .

ومن هؤلاء الضعاف المنافقين من يحتج بحرارة الجو ، ويثبط غيره بهذه الحجة ، حتى لا يذهب للحرب ، فيفضحهم الله ويضع امامهم مصيرهم الذى ينتظرهم :

﴿ فرح المخلَّفُون بِمقْعدِهِم خِلافَ رسُول الله ، وكرهُوا أن يُجَاهِدُوا بأموالِهِمْ وأَنْفُسِهِمْ فى سبيل الله وقالُوا لا تَنْفِرُوا فى الحرِّ قُلْ نارُ جَهَنَّمَ أشَدُّ حَراً لَوْ كانوا يفْقهُون ، فليضحَكُوا قليلا ولْيَبْكُوا كثيرا جزاء بِما كانُوا يكْسِبُون ﴾ [1] .

صور من الأعذار المتهافتة ، انتحلها أصحابها فى ذلك الوقت من واقع زمانهم ومكانهم قصها الله علينا فى كتابه ، لا للهو ولا للسمر بل لنأخذ منها فى حياتنا درساً وعبرة ، لأنه سبحانه يعلم أن من طبيعة ضعاف النفوس على مر الأزمان ، أن يتخلفوا حين يجد الجد ، وينتحلوا أعذاراً ، من واقع زمانهم ومكانهم كهذه الأعذار ليظلوا بعيدين عن المعركة والدفاع عن دينهم وأوطانهم .

طبيعة فى ضعاف الإيمان والعزائم دائما ، لا تتخلف مهما يتغير الزمان والمكان ، عرفناها من كلام رب العالمين الذى يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور ، وعلمناها أيضا من دراستنا لأحوال الأمم وتاريخها ، ونلمسها كذلك فى الحاضر الذى نعيشه . وندفع أصحابها باسم « الطابور الخامس »

ولكن . هل أثر هذا الضعف فى عضد الرسول وصحابته المخلصين ؟ لا . بل خرجو للمعركة ، وعادوا ظافرين بالنصر والرضا من الله : ﴿ لكنِ الرسولُ وَالذِين آمنُوا معهُ جاهدُوا بِأَمْوالِهِم وأَنْفُسِهِمْ أولئك لَهُمُ الخيرْات وأُولَئِك هُمُ الْمُفْلِحُون أعد الله لَهُمْ جنَّاتٍ تَجْرِى من تَحْتِها الأنْهارُ خالدِينَ فيها ذلِك الفوْزُ العظيمُ ﴾ .

وهكذا كل من يحب أن يسير على منهج الرسول .

---

١ - التوبة ٨١ ، ٨٢ .

٧ القران هل يصلح لكل زمان ومكان ؟

كان من رحمة الله بعباده أنه لم يتركهم سدى بل أرسل لهم رسلا من بينهم لترشدهم إلى الطريقة السليمة فى عبادة ربهم ، وإلى آداب السلوك والمعاملة الحسنة ، فيما بينهم ، ليسعدوا فى دنياهم وآخرتهم ، وكان سيدنا محمد ﷺ هو خاتم الأنبياء والمرسلين كما يقول الله تعالى فى قرآنه الحكيم : ﴿ مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أبا أحد من رِّجَالِكُمْ وَلَكِن رسُول الله وخاتم النَّبِيين ﴾ [1] ولذلك كانت رسالته عامة لجميع البشر ، عرباً وغير عرب ، ولكل زمان ومكان ، حتى تقوم الساعة كما يقول الله تعالى :

﴿ وما أرْسَلْنَاكَ إلاَّ كافَّة لِّلنَّاس بشِيراً وَنَذِيرا ﴾ [2] والله الذى ختم الرسالات برسالة محمد ، هو الذى أنزل عليه القرآن ، ليكون دستوراً عاماً للمسلمين إلى قيام الساعة ، وأودع فيه من خصائص الخلود والبقاء ، ما يجعله صالحاً لأن يستمد منه المسلمون هدايتهم وتشريعهم فى كل زمان ومكان .

والدارس للقرآن الكريم يجد أنه قد اشتمل على آيات تدعو إلى العقيدة السليمة من الإيمان بالله الواحد ، وملائكته وكتبه ورسله واليوم الآخر . . وآيات تدعو إلى أصول الفضائل ، ومكارم الأخلاق ، وتبينها ، كالصدق والعدل والوفاء بالوعد إلخ . . وآيات تبين العبادات المفروضة على المسلمين ، وتدعوهم إلى القيام بها كالصلاة والزكاة والحج والصيام . . وآيات إخبارية

---

١ ـ سورة الأحزاب : ٤٠ .
٢ ـ سورة سبأ : ٢٨ .

تقص علينا أخبار الأمم الماضية مع رسلها الكرام كإبراهيم وموسى وعيسى وغيرهم . . كما تسجل المناقشات التى كانت تدور بين محمد ﷺ مع قومه ، وترد عليهم ، وتتنبأ بأمور غيبية فى المستقبل ، ستقع . وقد وقعت ، وتحققت كانتصار الروم على الفرس ، ودخول المسلمين المسجد الحرام بمكة بعدما طردوا منها . . إلخ .

وأعتقد أن الآيات التى اشتملت على ذلك كله ليست محل جدل من المسلمين لأن موضعها ثابت باق لا يتغير ، إذ لا يستطيع عاقل أن يقول إن الايمان بالله لم يعد ملائما للعصر ، وإذا قال فهو مخالف لفطرة الإنسان ، وسيغلب على أمره ، وتنتصر الفطرة ، كما لا يستطيع أحد أن يجادل فى العبادات المفروضة ، ولا فى أصول الفرائض ، ولا فى الأخبار الثابتة . . ويقول إنها غير صالحة لزماننا . .

بقيت بعد ذلك آيات الأحكام التى تشرع للمسلمين طريقة المعاملات الحلال منها والحرام ، والآيات التى تتحدث عن الكون ومظاهره .

وأعتقد أن الذين يتساءلون هذا السؤال (هل القرآن صالح) ؟ إنما يقصدون به هذه الآيات ، لما يتخيلونه من تعارض وتصادم أحياناً بين ما حرمه القرآن من معاملات ومأكولات أو مشروبات ، كتحريم الربا ، والخمر ، والميتة ، ولحم الخنزير ، وبين واقعهم الذى يقوم على التعامل بالربا ، وأكل الحيوانات دون ذبحها ، وأكل لحم الخنزير ، وشرب الخمر ، ومراقصة المرأة الأجنبية وما شابه ذلك ، مما منعها الإسلام وحرمه ، بينما تقوم عليه الحياة فى بعض المجتمعات وتستسيغه ، ولا نرى فيه مانعاً . .

وكذلك ما يظنون من تعارض بين العلم ، وبين ما قدمه القرآن من بعض الحقائق العلمية .

وأحب قبل أن أرد على هذا التساؤل أن أقول إن القرآن الكريم دعا الناس إلى الايمان ، وإلى تطهير النفس بالعبادة ، ودعا الى العلم ، وإلى العمل ، وإلى العدل ، والمشاورة ، وإلى التعاطف والتحاب والتواد ، والتعاون ، ودعاهم إلى الصدق والوفاء . واتقان العمل ، وعدم الفتن ، والكذب والاستغلال والغدر والنفاق . ودعاهم إلى النظافة والعناية بالجسم .

وفى كلمة جامعة دعاهم إلى أن يكونوا أقوياء فى إيمانهم ، وفى علمهم ، وفى عملهم ، وفى جسمهم وتفكيرهم ، وفى انتاجهم ، وفى أخلاقهم ليكونوا بذلك كله مجتمعا مؤمنا قوياً متماسكاً متحاباً .

ودعوة القرآن هذه هى الدعوة المثالية التى لو استجاب الناس لها ، لكان مجتمعهم مثالياً ، وعاشوا إخوة سعداء . .

ولا يمكن لعاقل أن يعترض على هذه الدعوة ، لأنها غاية كل إنسان فالقرآن بهذا يحقق أمل البشرية على اختلاف عصورها وثقافتها . .

وحين نزل القرآن وسار المسلمون على هدى تعاليمه ، تكون منهم المجتمع القوى فى كل نواحيه ، وسادوا الدنيا وعمروها ، وأوجدوا حضارة مزدهرة اقتبست منها أوروبا نهضتها الحديثة ، ولم ينتكسوا إلى حين أهملوا تعاليمه وتركوها .

نعود بعد ذلك لهذا التساؤل فنقول : إن الإسلام قد أقام نظامه وتعاليمه على أسس وأهداف ، ترمى الى تنشيط الروح والجسم والعقل واحترام ذلك كله وصيانته ، وصيانة الجماعة من كل ما يضعف تماسكها . والله الذى أنزل القرآن وخلق الإنسان هو الخبير بالنفوس وبما يصلحها . . ولكل نظام فلسفته وأهدافه .

ولاشك أن الذين نشأوا فى ظل بيئة غير إسلامية ، وأقاموا حياتهم على نظام يبعد عن أنظمة الإسلام ، ولو فى بعض نواحيه ، قد يدفعهم تمسكهم بحياتهم ونظامهم إلى أن يتهموا الأنظمة الأخرى المخالفة لهم بأنها غير صالحة .

لأنهم نظموا حياتهم على أعمال وأسس تخالف الاسلام . . ويرون أنهم لو أخذوا بالإسلام فى بعض من أحكامه لما استقامت حياتهم .

وهؤلاء قد يكون لهم العذر فيما يتصورون ، لأن أنظمة الإسلام وتعاليمه ، كل لا يتجزأ ، وكذلك كل نظام لابد أن تتهيأ الفرصة لتطبيقه كله . فى مجال الحياة ، وحينئذ يمكن النظر فيه : هل أفلح فى ايجاد الحياة المنسقة ، وسعد الأفراد والجماعات فى ظله أولا ؟

أما أن يعيش الإنسان فى جو غير الجو الإسلامى ، وبين أناس بعيدين عن روح الإسلام ، ومندفعين فى تيار غير تياره ، ثم يريد أن يطبق فى هذا الجو حكما من أحكام الإسلام فى شؤون الحياة مخالفا لما هم عليه ، فلاشك أن ذلك سيصعب تطبيقه عليه وعليهم ويرون فيه مصادمة للحياة القائمة ، وذلك كمن يقتلع شجرة من بيئة ، ويريد زرعها فى بيئة مخالفة فلاشك أنها ستذبل . . وليس العيب فى الشجرة ومعدنها وصلاحيتها ، ولكن العيب فى أسلوب العمل والتطبيق .

فمثلاً ، الإسلام حين حرم الربا ، مهد له بإقامة المجتمع المسلم المتكافل المتعاون ، وعرف المسلمين بأنه « من فَرَّج عن أخيهِ كُربةً من كُرَبِ الدُّنيا فَرَّج الله عنه بها كربةً من كُرَب يَوْمِ القِيامةِ ، ومن يَسَّرَ على مُعْسِرٍ يَسَّر الله عليه فى الدُّنيا والآخرة » . وحببهم فى البذل ، ومعاونة المحتاج ، فأقبلوا على التعاون مدفوعين بالأمل فى ثواب الله ، لا فى قروش يأخذونها ، أجرا على معاونتهم لأخيهم ، وحينئذ لم يعد مجال للربا فى المجتمع الإسلامى ، ولا شك أن تشريع الإسلام وأهدافه فى هذه الناحية ، والعيش فى ظله ، خيرمن التشريع الغربى الربوى والعيش فى ظله . .

وفى عصرنا الحديث قامت دول قوية على أساس تحريم الربا فى مجتمعها لأن تحريمه تحريم لاستغلال حاجة المحتاج ، وأخذ مال منه نظير معونته وهو ما يتجه اليه المجتمع الحديث ويفخر به ، فلا يقبل إذن من إنسان نشأ فى ظل النظام الربوى ، أى اعتراض على الإسلام لتحريمه الربا ، لأنه إنسان تحكمه البيئة والظروف التى يعيش فيها .

على أنه مما ينشرح له صدر كل مؤمن بالقرآن أن يعلم أنه مرَّ عليه الآن أربعة عشر قرنا ، ولم يستطع أن يقول ، بأن الربا هو النظام المفضل ، أو يثبت على القرآن أى تناقض أو تصادم بينه وبين الحقائق العلمية المقررة ، أو بينه وبين المصلحة الإنسانية .

بل مما يزيد قلبه انشراحا أن يعلم أن الاكتشافات العلمية الحديثة ، جاءت مؤيدة لما جاء فى القرآن ، من حقائق علمية حول الإنسان أو الكون ، مع أنه لم ينزل ليكون كتاباً علمياً يسرد الحقائق العلمية ويشرحها ، بل إن ذلك جاء

عرضاً وهو يلفت نظر الإنسان إلى قدرة خالقه ، وإلى مظاهر الكون امامه ليعرف خالقه ويؤمن به .

فهناك آيات تحدثت عن تطور الجنين فى الرحم ، ثم جاء العلم الحديث بأجهزته وآلاته فقرر ما تحدثت عنه الآيات قبله بأكثر من ألف سنة ، وذلك فى قوله :

﴿ ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فى قرار مَكِينٍ ثُمَّ خلقْنا النُّطفة علقة فخلقنا العلقة مُضْغَة فخلقْنا المُضغَة عِظاما فكَسونا العِظَام لحْماً ثُمَّ أنشأْنَاهُ خَلْقاً اخر فَتَبَارك الله أحْسَنُ الخَالِقِين ﴾ (١) .

بل إن القرآن قرر أن الجنين يحاط بثلاثة أغشية ثم جاءَ العلم الحديث بعد أكثر من ألف سنة ، فأكد هذه الحقيقة العلمية وذلك فى قوله تعالى : ﴿ يَخْلُقُكُمْ فى بُطُونِ أمَّهَاتِكُمْ خَلْقاً من بَعْدِ خَلْقٍ فى ظُلُمَاتٍ ثلاثٍ ﴾ (٢) .

وكثير من أمثال هذه الآيات جاء العلم الحديث ليؤكد ما قررته وسبقته فيه ، وكلما تقدم العلم الحديث فى اكتشافاته زادت أيات القرآن الكونية والعلمية وضوحاً وجلاءً ، ، مما يؤكد لنا أن القرآن الكريم منزل من عند الله ، جاء لمصلحة العباد ، ولا يمكن أن يكون ضد مصلحتهم ، ولا يمكن أن يصادم مصلحة أو حقيقة مقررة ، وأنه دستور الله وحقائقه الخالدة .

ولقد قام التشريع الإسلامى على قواعد ومبادىء ثابتة ومرنة ، فى الوقت نفسه ، وأمكن للسابقين على أساسها أن يستمدوا منها ، أو يبنوا عليها أحكاماً تفصيلية ، لكل ما واجههم من مشكلات ، وقضايا جديدة ، فى البيئات المختلفة ، والأزمنة المتعاقبة ، التى عاشوا فيها ، ولم يعرف أنهم عجزوا عن ايجاد حكم لأية مشكلة أو قضية ، بل إنهم زادوا على الواقع ، فروضا فرضوها لمشكلات ، وبينوا حكمها ، ولم يقف العلماء المتأخرون عاجزين عن إبداء أحكام لبعض المعاملات إلا أنهم وجدوا أمامهم قضية إغلاق باب الاجتهاد

---

١ ـ سورة المؤمنون : ١٤ .

٢ ـ سورة الزمر ، من الآية : ٦ .

فتحرجوا وأثروا السلامة !!

وبالرغم من هذا ارتفعت الأصوات الغيرى الآن ، تطالب بعدم الرضوخ لهذه القضية ، وتدعو العلماء الفاهمين إلى الاجتهاد ، ولو بشكل جماعى حتى يجدوا حلولاً لمشكلاتنا الحديثة ، ولكن تبقى معنا الحالة النفسية للجماهير التى خضعت زمنا طويلاً لغير أنظمة الإسلام حتى استساغتها ، وأصبحت الأحكام الإسلامية شبه غريبة عنهم ، ومن هنا يكثر التهرب أو التهيب منها ، أو التساؤل عما تلقاه من حظ فى تطبيقها ، شأن كل نظام جديد على الناس .

ولكن كم رأينا أنظمة جديدة بل وغريبة تُفرض ، وتصاغ لها التشريعات التى تأخذ طريقها فى التطبيق . فهذا التهيب أو التساؤل يجب أن ينتهى ، وهذا الحاجز يجب أن يكسر والأمر فى هذا يحتاج إلى ايمان المسئولين وهمتهم وعزمهم . بجوار همة العلماء وعزمهم ونشاطهم وعدم تهيبهم . على أن هناك أمورا واضحة لا خلاف عليها ، بل يلتقى الجميع عندها - علماء ومسئولين - ولا حجة لأحد فى عدم الإقدام على تنفيذها ، لعلاج ماتردى من أمورنا علاجا نابعاً من ضمير الأمة ودينها ، فتحيطه بكل رعايتها ورضاها . .

فمن الذى يجرب هذا ؟

ذلك هو الرجل المحظوظ الذى يقف معه التاريخ ليسجل خطواته المباركة ، من أجل دينه وأمته . .

٨ الاسلام والطبيعة البشرية

ماذا يحبه الإنسان لنفسه فى هذه الحياة ؟

وماذا يريده الإسلام للإنسان فى هذه الحياة ؟

سؤالان يتحدد فى ضوء الإجابة عليهما موقف الإسلام من مصالح الإنسان فى حياته التى يحياها على هذه الأرض ، أو بمعنى آخر يتحدد موقف الإسلام من الحياة . هل يقف فى طريقها يحاول تحديد نموها وازدهارها ، أو يعمل بنظمه ومبادئه على ازدهارها واستقرارها ؟ .

والقرآن الكريم الذى أنزله الله خالق الخلق ، العليم بذات الصدور ، يقرر فطرة الإنسان فى حبه لأشياء فى هذه الحياة فيقول : ﴿ زُيِّن للنَّاس حُبُّ الشَّهوات مِن النساء والْبنين [1] والْقناطير المقنْطرة مِن الذَّهب والفِضَّة والخَيْل الْمسوَّمة والأَنعام والحرْث ﴾ .

ذلك ما يحبه الإنسان ويقبل عليه . . فهل يصادم الإسلام هذا الحب فى نفس الإنسان ، ويتجاهل طبيعته التى يعتبر حبها لهذه الأشياء من عوامل قيام هذه الحياة وتعميرها ؟ .

وأول ما يقابلنا للأجابة عن هذا السؤال هو الكشف عن رأى الإسلام فى تمتع الإنسان بهذه الحياة ، وتنعمه بما يحبه فيها . .

ورأى الإسلام فى هذا واضح ، حيث يعتبر التمتع استجابة لما يريده الله من

---

١ - سورة آل عمران من الآية : ١٤ .

النعم التى أنعم بها على خلقه فى قوله تعالى :

﴿ وأمَّا بِنعْمَةِ رَبِّكَ فحدِّثْ ﴾ . وفى قول رسوله عليه الصلاة والسلام : ﴿ إنَّ الله يُحبُّ أن يرى أثر نِعْمَتِهِ على عبْدِهِ ﴾ .

وفى قوله تعالى كذلك : ﴿ يابنِى آدم خُذُوا زينتكُمْ عِند كُلِّ مسْجِد وكُلُوا واشرَبُوا ولا تُسرِفُوا إنهُ لا يُحِبُّ المُسرِفِين . قُلْ منْ حرَّم زِينَةَ الله التى أخْرج لعباده والطَّيِّبات من الرِّزْق ، قُلْ هى لِلذِين آمنُوا فى الحياة الدُّنْيَا ، خَالِصة يَوْم القيامةِ ﴾ (١) ونلاحظ هنا أن الله سبحانه نسب هذه الزينة إليه حيث يقول : ﴿ زينَة الله الَّتِى أخْرَج لِعِبادِهِ ﴾ وهو سبحانه لا ينسب إلا الطيب المحبوب .

والآية تنكر فى شدة قول الذين يدعون أن الله حرَّم على الانسان التمتع بزينة الله . . لأن فى هذا إهداراً للفطرة ، وتعطيلاً للإحساس بنعم الله على عباده ـ والله لم يخلق المتع فى هذه الحياة من مال ، ونساء وبنين ومأكولات ومشمومات ومنظورات ليعرض الإنسان عنها ، ويمتهنها ، أو يزدريها ، بل لكى يتمتع بها بالطريقة التى تزيده إحساساً بفضلها ، وقيمتها فى حاضره ومستقبله ، وتحرك قلبه ولسانه بشكر الله عليها . .

ومن أجل هذا أنكر على أناس من الصحابة الفضلاء نزوعهم لحرمان أنفسهم من هذه المتع ، وتحريمها على أنفسهم ، حتى ولو كان ذلك بقصد القربى من الله ، كما قالوا ، لأن التقرب إلى الله لا يكون على حساب تعطيل التمتع بنعمه ، وإهدار الفطرة ومصادمتها ، فإن الله لم يرد هذا طريقاً إلى رضاه . .

ومن أجل ذلك سماهم معتدين ، لأنهم بحرمانهم أنفسهم من زينة الله التى خلقها لهم ، يكونون قد اعتدوا على فطرة الإنسان واعتدوا على ما شرعه الله للتقرب به اليه ـ وليس منه ما فعلوه ـ فقال سبحانه : ﴿ ياأيُّها الذين آمنُوا لا تُحرِّمُوا طيِّبات ما أحل الله لكُمْ ولا تَعْتدُوا إنَّ الله لا يُحِبُّ المُعْتدين . وكُلُوا ممَّا رزقكم الله حلالا طيِّبا واتَّقُوا الله الذى أنتمْ به مُؤمِنُونَ ﴾ (٢) .

---

١ ـ سورة الأعراف ٣١ ، ٣٢ .

٢ ـ سورة المائدة ٨٧ ، ٨٨ .

ومن هذا كله نفهم وجهة نظر الإسلام من التمتع بزينة الحياة حيث يوجه الإنسان اليها ، وينكر عليه حرمان نفسه منها . .

والإنسان بطبيعته يحب هذه الزينة ، ويقبل عليها ، ومن هنا يتلاقى الإسلام مع طبيعة الإنسان السليمة ، ولا يصادمها ، وكل القيود التى وضعها على التمتع بنعم الله إنما هى قيود تحد من الإنحراف ، وتحول بين الإنسان ، وبين سوء استغلال هذه النعم ، ولهذا نجد الله سبحانه يقول : ﴿ وَكُلُوا واشْرَبُوا ولا تُسرِفُوا ﴾ [١] ويقول الرسول ﷺ : « كُلْ ماشِئْت والْبسْ ما شِئْت ما أخطأتْكَ خَصْلَتَان : سرفٌ ومَخيلةٌ » مما يضر بالأموال ، أو بالصحة ويبددها ، أو يضر بالروح ويفسد صفاءها . .

وهكذا تجد حتى القيود التى فرضها الإسلام على التمتع ، إنما كانت من أجل توفير الجو الصالح ليتمتع الإنسان بهذه الحياة ، أو من أجل حسن التمتع بها ، وعدم وجود آثار سيئة تترتب عليها . .

وصدق الله العظيم : ﴿ الذى خلق فسوَّى . والَّذى قدَّرَ فَهَدَى ﴾ [٢] .

إن الله سبحانه حينما أباح للإنسان التمتع بالنعم التى أنعم بها عليه ، كان يعلم الطبائع ، وما فيها من نزوع لمجاوزة الحد ، مما يقلب النعمة نقمة ، ويحول الخير الذى يحبه الله للانسان ، إلى شر ينغص عليه حياته ، ويخلق له ولغيره المشكلات ، ولذلك وضع سوراً حول هذه النعم ، حتى لا يفسدها العابثون ، وحدد الطريق الذى يسير فيه الإنسان ليتفادى الألغام التى تفتك بحياته . .

ومن هنا كان الحلال والحرام . . الحلال الذى يتيح الإنسان متعة أوفى وأعظم ، أو يقدم له الورد بدون أشواك تجرحه وتدميه ، والحرام الذى يحرم الإنسان سلامة المتعة فى هذه الحياة . . ويحول الخير إلى شر والنفع إلى ضر . .

فالمال متعة وزينة ، بل هو أولُ المتع كما يقول الله : ﴿ المَالُ والبَنُون زِينَةُ الحياةِ الدُّنْيا ﴾ الى يحبها الناس ، ولا يعترض الله على حبهم لها ، ولكن من

---

١ ـ سورة الأعراف من الآية : ٣١ .

٢ ـ أوائل سورة الأعلى : ٢ الآيتان : ٢ ، ٣ .

طبائع النفوس شدة الحرص على توفير المال وهى فى هذا الحرص قد تندفع ولا تبالى من أى طريق تحصل عليه . .

ولهذا وضع الله القيود لكسبه وتوفيره ، فكان مما قال فى ذلك ﴿ يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُمْ بِالبَاطِلِ ﴾ فحرم الغش والخداع والسرقة والغصب والرشوة . . وما إلى ذلك من الوسائل غير الشريفة وغير السليمة للكسب .

ونهى عن البطالة والكسل واستجداء الناس ، كما نهى عن الإسراف والتبذير وعن عبادة المال والبخل به ﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يدك مَغْلُولَةً إلى عُنُقِكَ وَلاَ تَبْسُطْهَا كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُد مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ [١] وحث على العمل الشريف لتوفير المال لمطالب الحياة والتمتع بها ، وقال الرسول ﷺ : ﴿ مَنْ أَمْسَى كَالاًّ مِنْ عَمَلِ يدِهِ أَمْسَى مَغْفُوراً لهُ ﴾ .

وأقف هنا لأتساءل : هل هناك عقل سليم أو فطرة سليمة تجيز الغش والخداع ، والسرقة والغصب والرشوة ، أو تستسيغ البطالة والاستجداء أو الشح ؟ لا أظن . وهل يمكن لإنسان مجرب فى الحياة أن يقول إن الغش والكذب والخداع والغصب والسرقة والربا طريق سليم مأمون لجمع المال ، ونمو الثروة وازدهارها ؟ .

ثم ألم نر الصدق فى القول ، والإتقان فى العمل قد أصبحا الطريق الواسع الممهد لازدهار التجارة ، ورواج الصناعة ، وتوفير الأموال فى كل المجتمعات : شرقيها وغربيها ؟ .

فالعقل السليم والتجارب الصادقة كلاهما يلتقى إذن مع الإسلام فى تشريعه السليم لكسب المال . . ومن هنا يكون التقاءُ الدين مع الحياة ، أو بطريقة أوضح ، التقاء تشريع الله مع ازدهار الحياة . . .

هذا مثل . . .

ومثل آخر . . . خلق الله الرجل والمرأة ، وفى كل منهما حب وميل للآخر ،

---

١ ـ سورة الإسراء : ٢٩ .

فلم ينكر فى تشريعه هذا الميل ، لأنه فى الحقيقة أساس من أسس الحياة والعمران . . ولكنه علم أن هذا الحب قد ينحرف ، ويجرف الرجل والمرأة الى طريق معوج ، مملوء بالألغام . . . ولهذا وضع عليه إشارات وقيوداً ، تحول بين الإنسان وبين هذا الإنحراف ، الذى يولد المشكلات فى المجتمع ، ويحول الحياة فيه إلى فوضى ، تنعدم فيها الحواجز وتذبل فيها العواطف الأسرية ، وتطغى فيها النشوة البهيمية . . .

ومن هنا كانت أساليب الصيانة للأغراض ، وكانت تشريعات الزواج ، الذى يتحدث عنه القرآن وعن هدفه فى هذه الآية الحكيمة : ﴿ ومِنْ آيَاتِهِ أنْ خَلَقَ لَكُمْ مِّنْ أنْفُسِكُمْ أزْوَاجاً لِّتَسْكُنُوا إلَيْها وَجَعَل بَيْنَكُم مَوَدَّة وَرَحْمَة ﴾ (١) .

والخروج عن هذه الأساليب التى حددها الإسلام خروج بالإنسان عن فطرته السليمة ، مهما بدا فى المجتمعات الغربية من مظاهر قد تعجب جموح الإنسان ، وترضى شهوته ، ولكنها فى النهاية مدمرة له ولمجتمعه ، مهما يطل الزمن به . . . كما تعلمنا من تاريخ الأمم والحضارات ، وكما يسجل القرآن : ﴿ وَإذَا أرَدْنَا أن نُهْلِك قَرْية أمَرْنَا مُترفِيها ففسقُوا فيها فحَقَّ عَليْها القوْلُ فدمّرنَاهَا تَدْميراً ﴾ (١) .

ومن هنا نجد أن تشريعات الإسلام لم تلغ طبيعة الإنسان ولكنها عدلتها ، وأمسكت بزمامها ، لتقودها إلى تحقيق الخير والسلامة فى الحياة ، وتحول بينها وبين الجموح وتوليد الشرور .

فالدين للحياة ، ولتوفير السعادة والرفاهية والاستقرار للإنسان . فى الوقت الذى يقف فيه سداً منيعاً أمام الانحرافات المخربة والشهوات المدمرة ، ليحمى الإنسان من شرور نفسه .

﴿ يَا أيُّهَا النَّاس قدْ جاءتكُم موْعِظَة منْ رَّبكُمْ وَشِفاء لما فى الصُّدُورِ وهُدى ورَحْمَةٌ لِلْمُؤمِنِين ﴾ .

---

١ - الروم : ٢١ .

١ - الإسراء : ١٦ .

٩ وأين مكان الزهد

قال لي صديق زميل . . لقد إستمعنا إلى حديثك عن رأي الاسلام وترحيبه بتمتع المسلم بزينة الحياة الدنيا ، انطلاقاً من الآيات والأحاديث الكثيرة في هذه الناحية وفي مقدمها : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ والطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ ﴾ ، وقول الرسول ﷺ : « إِنَّ اللهَ يُحِبُّ أَنْ يَرَى أَثَرَ نِعْمَتِهِ عَلَى عَبْدِهِ » ولكن أين مكان الزهد في الإسلام ؟ ألا يتنافى هذا التمتع مع الزهد المطلوب ؟ ، وكيف يحب الإسلام التمتع بزينة الحياة الدنيا ، مع ذم القرآن والحديث للدنيا ، وتسميتها « متاع الغرور . . . . » ؟

وقد رأيت أن هذا الذي يتحدث به الصديق يعبر عن وجهة نظر كثير من المسلمين نتيجة رواسب كثيرة من الماضي ، مما سمعوه من ذم الدنيا ، والمتعلقين بها ، دون فهم صحيح لوجهة نظر الإسلام في هذا الذم ، حتى رأينا بعض الناس ينصرف عن العمل والكسب ، ويلبس المرقعات ، ويلازم المساجد ، أو يطوف بالناس ، مدعياً أنه متعبد زاهد مما أطلق عليه الناس إسم « الدروشة » حتى وجد كثير من هؤلاء حول المقابر والأضرحة .

ونحن نشعر الآن أكثر من أي وقت مضي بأننا في أشد الحاجة إلى تنقية المجتمع الإسلامي من مثل هذه الأفكار ، التي يلصقها الناس بالدين وهو منها براء .

إن الإسلام يحب من المسلم أن يتمتع بنعم الله عليه ، فهو سبحانه يحب أن يرى أثر نعمته على عبده .

والإسلام يجعل العمل والكسب من المقومات الأساسية لحياة المسلم وعزته في الحياة . .

والإسلام مع هذا يرى من الضروري للمسلم أن يكون زاهداً في الحياة ، لا بالمعنى الذي يفهمه بعض الناس ، من ترك العمل وترك التمتع الحلال بزينة الحياة ، ولكن بالمعنى الذي حدده القرآن وحددته السنة ، وهو أن لا يطغى حب المسلم للمال والبنين ، وللتمتع في الحياة ، على القيم والمثل والحدود التي رسمها الإسلام .

أو بمعنى مختصر أن لا يوقعه هذا الحب فيما يكرهه الله .

فيزهد المسلم في الحرام إكتفاءً بالحلال ، ويترسم طاعة الله في كسبه ، وفي إنفاقه وفي تمتعه ، وهذا هو ما أراده الله حين حدد الفرق بين الذين يعملون للآخرة ، ويعملون للدنيا . . وجعل مناط هذا الفرق في الإرادة والتوجيه : حين العمل ﴿ مَنْ كان يُريدُ حرْثَ الآخِرَةِ نَزِدْ لهُ في حَرْثِهِ ، وَمَنْ كانَ يُرِيدُ حَرْثَ الدُّنْيا نُؤْتِهِ مِنْها ومالهُ في الآخِرَةِ مِن نصيبٍ ﴾ (١) .

فالزهد المطلوب من المسلمين جميعاً يتمثل في إتجاههم في كسبهم وتمتعهم إلى طاعة الله ، وتجنبهم لما يبعدهم عن رضاه ؛ فإذا توفرت هذه الإرادة الخيرة ، أو هذا الإتجاه الطيب فإن للمسلم أن ينطلق في هذه الإدارة إلى العمل ، وتحصيل الثروة بكل ما

يستطيع ، وإلى التمتع بهذه الثروة كما يحب وليكن صاحب ملايين ، وليكن من المتمتعين في حياتهم ، ما دام ذلك كله في نطاق حب الله ورضاه . فإنه بهذا المعنى يكون زاهداً . .

وهذا هو منطق حديث الرسول ﷺ : ﴿ نِعْمَ المَالُ الصالِحُ لِلرَّجُلِ الصالِح ﴾ وهذا الزهد هو الذي عبر عنه الرسول ﷺ في حديث آخر « بغنى النفس » في تحديده لمعنى الغنى « لَيْسَ الغِنَى عَنْ كَثْرَةِ الْعَرَضِ ولَكنَّ الغِنَى غِنَى

---

(١) الشورى 20

النَّفْس » غناها عن شرهها وجشعها الذي يؤدي بها إلى الإنحراف ، وهو كذلك إستجابة لأمر الله ﴿ أمَّا بنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ ﴾ كما هو منطق الحديث .

أما الزهد في الحياة بمعنى العزوف عن الكسب ، بحجة أن العمل للدنيا مذموم ، فهو أمر لا يعرفه الإسلام .

وأما الزهد بمعنى حرمان النفس من طيبات الحياة ، فالإسلام لا يتخذه قاعدة عامة للمسلمين ، لأن الأساس هو حب الإسلام لأن يتمتع المسلم بطيبات الحياة . ولكن الإسلام لا يمنع كذلك من أن يلجأ بعض المسلمين إلى تأديب نفسه وزجرها بحرمانها أحياناً من الطيبات ، ولا يمنع من التقشف أحياناً لظروف تدعو إلى ذلك ، كأن تكون الأمة في حالة حرب ، أو يتقشف الحاكم ليكون قدوه للرعية ، كما فعل الخليفة العادل عمر بن الخطاب رضي الله عنه ، ليحد من إندفاع ولاته ونوابه وراء الثروة الجديدة ، في البلاد المفتوحة ، ومع ذلك لم يمنع معاوية في الشام من التمتع بالطيبات لأن البيئة تستدعي هذا المظهر . .

أما ما نسمعه من آيات أو أحاديث أو أقوال مأثورة للصالحين فى ذم الدنيا والعمل لها فهو محمول على الحد من الاندفاع وراء كسب المال أو المناصب بطرق غير شريفة لايرضى الله عنها .

فليعمل المسلمون بكل ما استطاعوا لدنياهم ، بالطرق المشروعة وليتمتعوا بدنياهم كذلك ، فى غير انحراف ، جاعلين شعارهم ودعاءهم : ﴿ رَبَّنَا آتِنَا فى الدُّنْيَا حَسَنَة وفِى الآخِرةِ حسنة وقِنا عَذاب النَّار ﴾

١٠ الاسلام والحياة

عبارة أخذنا نرددها كثيرا فى السنين الاخيرة ونكتب عنها لنقنع الناس بأن الذين لا يتعارض مع حياتهم الطيبة ولا يقف حجر عثرة فى طريق نهضتهم محاولين بذلك إرجاع ثقة الناس بدينهم ، بعدما ضمر فهمه فى نفوسهم ، وطال انعزاله عن حياتهم ، أو انعزالهم عن تعاليمه ، وإهمالهم لآدابه وتوجيهاته ، ولولا ذلك ما كانت هناك حاجة لبذل هذا الجهد . .

فالدين فى أساسه إنما جاء لتنظيم حياة البشر ، ووضع الأسس السليمة لحياة رخية سعيدة .

وحينما نزل القرآن كان الصحابة يحفظون الآية أو الاثنتين ولا ينتقلون لغيرهما ، حتى يعملوا بهما فى حياتهم ، حتى نزل القرآن كله ، وبيّنه الرسول ﷺ ، وشرح قواعده وأحكامه العامة ، فالتزم المؤمنون بكل توجيه فيه ، وأقاموا عليه حياتهم ، وأسسوا على هديه دولتهم ، وزحفوا شرقاً وغرباً وأسسوا حضارة ، وبنوا ملكاً ، وكونوا جيوشا ، وعقدوا معاهدات وأقاموا فيما بينهم وبين غيرهم صلات ، ونظموا فيما بينهم المعاملات .

وكان ذلك كله على أساس من دينهم ، لم يُخلوا بأمر من أوامره ، ولا بتعليم من تعاليمه ، ولم يشعروا يوماً ما بأنه حال بينهم وبين ما يبتغون من دنيا واسعة ، وأرزاق وافرة ، أو علوم متنوعة ، أو صناعات متباينة .

كان دينهم فى نظرهم تبياناً لكل شيء ، وهدى ورحمة للمؤمنين ، فسعدوا فى ظله ، واعتزوا بعزته ، وملكوا ناصية المال والقوة والعلم ، بسلطانه وتوجيهه .

ولولا هذه القوة الكامنة فى الدين ، وقيامه على أساس تنظيم الحياة ، لما عاش بعد عصر الرسول ، ولما اتسع للملك الواسع العريض الذى أسسه المسلمون من بعده شرقاً وغرباً .

ولكن التواء النفوس عن الاستقامة ، وبعدها عن الجادة ، ونزوعها للشهوة وانكبابها على المتعة ، وتهافتها على تقليد الأقوى خيل لها أن الدين لا يساير الحياة . نعم :

ومن يك ذا فم مرٍّ مريض
يجدْ مُرّاً به الماء الزلالا

وحقيقة لا يساير الدين هذه الحياة الملتوية ، ولا يرضى بها ، ولا يرضاها لأتباعه . . . ولو رضى بها لما كان ديناً من عند الله ، يلجم النفوس عن شهواتها ، ويكبح جماحها ويختار لها الطريق الذى يسعدها : ﴿ وَلَوِ اتَّبَعَ الحَقُّ أَهْوَاءَهُمْ لَفَسَدَتِ السَّمَوَاتُ والأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ ، بل أَتَيْنَاهُم بِذِكْرِهِمْ ﴾ (أى بالقرآن الذى شرع لهم مافيه ذكرهم وشرفهم) فَهُمْ عن ذِكْرِهِم مُعْرِضُونَ . أم تسألهم خَرْجا (أى لا تسألهم أجرا على الدعوة) فخراج رَبِّك خَيْرٌ وَهُوَ خير الرَّازِقِينَ . وإِنَّك لَتَدْعُوهُم إلى صِرَاط مُسْتَقِيم وإِنَّ الَّذين لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرةِ عن الصرَّاطِ لَنَاكِبُونَ ﴾[1] « أى لمنصرفون عنه تاركون له . .

وأمامنا أشياءُ كثيرة ، أوامر الذين فيها صريحة ، وفائدة هذه الأوامر فى ازدهار حياتنا واضحة ، ومع ذلك تقصر الهمم عن تنفيذها ، وتحول الشهوات والأغراض عن اتباعها . . ثم نرفع عقيرتنا ونعيب ، والعيب فينا لا فى ديننا ، والتقصير منا لا من تشريعنا .

نعيب زماننا والعيب فينا
وما لزماننا عيب سوانا

وعيبنا يتركز إما فى جهل الجاهلين من اتباعه بشمول تعالمه وإما فى فتور هممهم عن العمل بها ، وإما لمرض فى القلوب وغرض فى النفوس يصرفها عن

---

١ ـ سورة المؤمنون : (٧٠ ـ ٧٤) .

فهمها أو ذلك كله .

وإلى هؤلاء ، أوّلا أسوق هذا الحديث .. قبل أن نسوقه للمؤمنين المتحمسين .

١١ الاسلام والعمل

الإسلام هو الحياة الطيبة ليس فيه من تنظيم يناقضها أو يغض من شأنها لأنه جاء لإصلاح دنيانا وإصلاح آخرتنا فشمل بتوجيهاته كل ما يصلح أمرنا وينظم حياتنا التى نحياها على هذه الأرض لنسعد فى هذه الحياة ولكون سعادتنا فيها كجائزة عاجلة لنجاحنا فى سلوكنا ولنا بعد هذه الجائزة جائزة أخرى آجلة أجلها الله إلى يوم نلقاه ويستضيفنا عنده فى جنته ونعيمه . فغرض الإسلام وهدفه فى الحقيقة ينصب على إصلاح هذه الحياة التى نحياها وتوفير الأمن والاستقرار وحسن العلاقات فيما بيننا ومقدار نجاحنا فيها فى تحقيق هذا الهدف تكون جائزتنا . .

وأهم شيء تقوم عليه هذه الحياة هو العمل . . عمل كل إنسان فى مجال من مجالات الحياة ولا يمكن أن تقوم حياة بغير عمل . . كما لا يمكن أن تنتظم حياة بدون عمل طيب متقن ومن أجل ذلك خلق الله الإنسان وفى طبيعته حب العمل والسعى . . لكى يعيش ويعمر الأرض ويستغل خيراتها ويستخرج كنوزها ومكنوناتها ومع حب الإنسان للعمل والسعى بطبيعته إلا أن هناك أيضا فيه حب الخلود للراحة والبعد عن عناء العمل ، وإلقاء ثقله وتبعة عيشه على غيره كما أن فيه استنكافاً لبعض الأعمال واحتقاراً لشأنها ولو أطلق العنان للناس لوجدناهم يهملون كثيراً من الحرف والصناعات والأعمال استنكافاً لها . . لأن مجتمعهم ينظر إليها نظرة غير كريمة . .

ولقد جاء الإسلام من عند الحكيم الخبير بتشريعاته وتوجيهاته التى تسد كل ثغرة وتضع الحوافز لكل عمل يباشره الإنسان مهما يكن صغيراً محتقراً لدى

بعض الناس وتفضل العمل مهما يكن شأنه على البطالة والكسل والعيش عالة على حساب الآخرين . .

ولو نظرنا نظرة عميقة للإسلام ولنصوص القرآن الكريم التى تحكم سير الناس وتنظم حياتهم ، لوجدنا أن الإسلام لا يفرق بين عبادة خالصة كالصلاة وبين عمل للحياة وكسب العيش من حيث تقرير ثواب عليه فكل عمل طيب متقن يقوم به انسان سواء كان خاصاً بالعبادة الخالصة أم كان عبادة عن طريق كسب العيش وإثراء الحياة بالانتاج يضع الله النتائج الطبيعية له فى الدنيا ويضع أمامنا الجزاء عليه فى الآخرة كحافز يحمل الإنسان على إجادة عمله واتقانه مهما يكن نوع هذا العمل ومجاله ولهذا تجد آيات القرآن الكريم تقرن بين العقيدة السليمة فى الله وبين العمل الصالح وتضع الجزاءعليهما معا جزاءً واحداً . .

﴿ إنَّ الذين آمَنُوا وعمِلُوا الصَّالحِاتَ إنَّا لا نُضِيعُ أجْرَ مَنْ أحْسنَ عملاً ﴾ والعمل الصالح يشمل كل عمل صالح فى العبادة أو فى الزراعة أو الصناعة أو غيرها من الأعمال التى يباشرها الإنسان ومع الإيمان والعمل الصالح تعهد من الله بحسن النتائج فى الدنيا أما فى الآخرة فقد قال عقب ذلك مباشرة ﴿ جزاؤهم عند ربهم جنات عدن تجرى من تحتهم الأنهار . . ﴾ .

وقد تكرر وعد الله فى القرآن للذين آمنوا وعملوا الصالحات أى عملوا الأعمال الصالحة الطيبة التى لها نتائجها الحسنة فى الدنيا يعاهدهم الله على ذلك بالحياة الطيبة فى الدنيا ومجازاتهم على ذلك فى الآخرة بالجزاء الحسن .

﴿ منْ عمل صالحِاً منْ ذكر أو أنثى وهو مؤمِن فلَنُحْيينَّه حياة طيِّبَةَ ولنَجْزِيَنَّهمْ أجْرهُم بِأحْسن ما كَانُوا يَعْملون ﴾ .

وليست الأعمال الصالحة كما قد يفهم بعض الناس قاصرة على الصلاة والصيام وبقية العبادات بل تشمل كل عمل طيب وكل سعى حلال يؤديه الإنسان ويشارك به فى نهضة أمته وتقدمها وتوفير الحياة المنظمة السعيدة لها من بدء تنظيف الشارع إلى القمة . . هذا فى مصنع وهذا فى مزرعته أو تجارته. وهذا فى ديوانه أو فى ميدانه . . كل عمل له أثره فى الحياة وله منزلته عند الله المهم أن يكون عملاً صالحاً مثمراً . . هذا هو فهمنا السليم لآيات القرآن الكريم فى

العمل لا تفريق فيه بين عبادة أو معاملة . .

وإذا عرجنا إلى السنة النبوية الكريمة أو إلى آثار الصحابة وجدنا نصوصاً متعددة تمجد العمل الطيب وترفع درجته وتكرم صاحبه . .

يقول الرسول ﷺ : « **مَنْ أَمْسَى كَالاًّ مِنْ عَمَلِ يدهِ ، أَمْسَى مَغْفُوراً لَهُ** » .

ويقول : **إنَّ الله يُحِبُّ العبد. المُؤمِنَ المُحْتَرِفَ** .

ويقول : **مَا أَكَلَ أَحَدٌ طَعَاماً قَطْ خَيْرٌ مِنْ أَنْ يَأْكُلَ مِنْ عَمَلِ يَدِهِ** .

ويقول : **لَأنْ يَحْتَطِبَ أحدُكُم (أى يجمع الحطب ويبيعه) خَيْرٌ مِنْ أنْ يَسْأَلَ النَّاس أَعْطوْهُ أو مَنَعُوهُ** .

ونظر الرسول إلى يد انسان تورمت من العمل وقبلها وقال : : هذه يد يحبها الله ورسوله .

وسأل الرسول ﷺ عن أحد أصحابه وقد غاب عنه فقال له إخوته : هو يصوم النهار ويقوم الليل ـ فقال الرسول : « فمن يطعمه ويكسوه ؟ قالوا : كُلُّنا يارسول الله قال : كُلُّكُم أعبدُ منهُ وقال عليه الصلاة والسلام : إن من الذُّنوب ذنوبا لا يكفرها إلا السعى على الرزق ».

ونظر أصحاب الرسول وكانوا متحلقين حوله يستمعون إلى توجيهاته نظروا إلى شاب جلد يحمل عدة الفلاحة ويمضى فى طريقه إلى حقله فقالوا : لو كان شبابه وجلده فى سبيل الله وكأنهم يعيبون عليه انصرافه لحقله وضياع فرصة الثواب عليه فقال لهم الرسول ﷺ : لا تقولوا هذا فإنه إن كان يسعى على نفسه يعفها عن المسألة فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى على أولاد صغار يعفهم عن المسألة فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى على أبوين شيخين كبيرين فهو فى سبيل الله وإن كان يسعى إلى غير ذلك فهو فى سبيل الشيطان .

وبهذا يضع الرسول أمام أصحابه المفهوم الصحيح للعمل فى سبيل الله وأن الإنسان يستطيع بعمله فى حقله أن يكتسب من الله حسن الثواب لأنه يعول أفراد أسرته ويحفظ عليهم حياتهم وماء وجوههم ويكون خلية قوية فى مجتمع قوى سليم . .

وقد فهم أصحاب الرسول هذا الدرس وعملوا بهذا التوجيه فكانوا يعملون فى كل مجالات العمل فسعد بن أبى وقاص المبشر بالجنة كان صانع نبال وبلال كان خادما لرسول الله وسلمان الفارسى كان حلاقاً . وخباب بن الأرث كان حداداً وعبدالرحمن بن عوف كان تاجراً وأثرى من التجارة بل كان الرسول ﷺ فى صدر حياته راعياً للغنم بأجر وتاجرا ، يعمل بالمكافأة فى تجارة خديجة قبل زواجه منها .

ويقول عمر بن الخطاب إنى لأرى الرجل فيعجبنى فأسأل : أله حرفة فان قالوا لا . . سقط من عينى . .

وكان الإمام أبو حنيفة يعمل تاجرا فى الأقمشة . وكان أحمد بن حنبل حين تضيق به الحال يكتب الكتب بأجر رافضاً أن يأخذ من أحد عطاء . .

ولا يعرف الإسلام ما شاع بين الناس فى وقت من الأوقات من احتقار بعض الأعمال فكل عمل له قيمته فى نظر الإسلام ولا فضل لصاحب المال على الأجير لأن كلا أعطى الآخر هذا أعطى أجرا والآخر أعطى جهدا . . وقد أوصى الإسلام كلا منهما بأن يتقى الله فيما يبذله للآخر هذا بإعطاء المال دون إجحاف للعامل وذلك بإعطاء الجهد كاملا والعمل متقنا حتى يكون كسبه حلالاً طيباً ويصدق عليه قول الرسول ﷺ « رَحِم الله امرءاً اكْتَسَب طَيِّباً » .

ولا يفرق الإسلام فى ايجاب العمل ولا فى ثوابه وجزائه ونتائجه بين الرجل والمرأة وكتاب الله يقول : ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالحاً منْ ذَكَرٍ أوْ أنثى وهُو مُؤمِنٌ فلَنُحْيِينهُ حياة طيبة ﴾ .

ويقول : ﴿ لِلرِّجال نصيب مما اكْتسبُوا ولِلنساء نصيبٌ مِما اكْتسبْنَ ﴾ . .

فالمرأة فى نظر الإسلام لها مجالها الذى تعمل فيه وتحسن العمل فعملها فى بيتها لتربية أولادها وتهيئة البيت للإقامة وإعداد الطعام مثل عمل الرجل فى ميدانه خارج البيت كل له ميدان عمل . . بل إن الإسلام يحب المرأة التى تعمل كل ما تستطيع لمعاونة زوجها فى تأمين المعيشة لهم ولأولادهم صنعة تتقنها وتبيع ما تصنعه . .

فأم المؤمنين زينب بنت جحش ، زوج الرسول ﷺ ، كانت تعمل فى دبغ الجلود وتنفق ما تأخذه من أجر فى سبيل الله . .

وكانت امرأة عبدالله بن مسعود تعمل فى صنعة وهى فى بيتها وتبيع ما تصنعه وتنفقه على بيتها فسألت الرسول عما إذا كان لأنفاقها على البيت من أجر وهى لا تستطيع أن تتصدق فقال لها الرسول : « لك فى ذلك أجْرُ ما أنفقْت عَليْهم فأنْفقِى عَليْهم . . » .

فالعمل واجب على المرأة وعلى الرجل كل فى مجاله وفى حدود التنظيمات والتشريعات التى وضعها الإسلام ولكل منهما أجره وجزاؤه ﴿ فاسْتجاب لهُمْ ربُّهُمْ أنِّى لا أضيعُ عمل عامِلٍ مِّنْكُم من ذكر أوْ أُنْثى بعضكم من بعضٍ ﴾ . .

من أجل التعمير :

أمام المحاولات والجهود الجبارة التى بذلت من عشرات أو مئات السنين ، ولا تزال تبذل بأساليب وطرق متعددة لإضعاف صلة المسلمين بدينهم ، وتمييع ثقتهم بقدرته على صنع الحياة الفاضلة لهم ، أو فصم صلته بالحياة نحاول أن نعيد للمسلمين هذه الثقة لا على أساس عاطفى ، فإن العاطفة الدينية ولله الحمد موجودة ، ولكن على أساس واقعى مستمد من تعاليم الإسلام نفسها .

قيل للمسلمين أن دينهم تتجه عنايته إلى وضع الإنسان فى الآخرة فى الجنة أو فى النار ، بينما لا يعنى بوضع الإنسان فى الحياة الدنيا . . وتبعاً لهذا حاول هؤلاء القائلون أن يحصروا الإسلام فى المسجد ، أو فى العبادات المعروفة ، ويبعدوه عن مجال الحياة .

ومن الصحيح أن الإسلام والأديان السماوية وضعت أمام الإنسان فى الآخرة جنة يتمتع بها أو ناراً يتلظى بلهيبها . . ولكن هذا الوضع جعلته الأديان نتيجة لعمل الإنسان فى الدنيا ﴿ فمَنْ يَعْمَلْ مِثْقال ذَرَّةٍ خيْراً يرَهُ ، ومَنْ يَعْمَل مِثْقال ذرَّةٍ شراً يرَهُ ﴾ ، فالجنة حافز للمؤمن على تعمير دنياه أو حسن انتاجه فى الحياة .

وسأقدم الآن صورة من عناية الإسلام بالحياة ، مستمدة من حديث نبوى

كريم . ربما ظنه الناس لأول وهلة أن القصد فيه هو مجرد الاستكثار من الثواب وحسب .

ولكن حقيقة الحديث وهدفه الأول هو حفز الهمم ، والتحريض فى العمل لتعمير الحياة ، وإشاعة الطمأنينة والاستقرار فيها بالمال والعلم والأخلاق . . هذا الحديث هو قول الرسول ﷺ :

« إذا مَات ابن آدَمَ انقَطَعَ عَمَلُهُ إلاَّ مِنْ ثَلاَث : صَدقَةٍ جَارية ، أَوْ عِلْمٍ يُنْتَفَعُ بِهِ ، أَوْ وَلدٍ صَالِحٍ يَدْعُو لَهُ » هذه الأشياء التى أخبر الرسول ﷺ أنها تزيد من رصيد صاحبها من الثواب بعد موته ، ما صلتها بالحياة ؟ أو ما مدى فاعليتها فى صنع حياتنا التى نحياها ؟

هنا يمكن حقيقة أن نفهم صلة الدين بالحياة ، أو غايته واهتمامه بتوفير الاستقرار والطمأنينة والنهوض فيها .

إن الصدقة الجارية هى كل أثر مادى يتركه الإنسان بعد موته يمتد نفعه للناس : وقف ينتفع الفقراء بريعه ، مستشفى يعالجون فيه ، مدرسة يتعلمون بها ، مسجد يصلون فيه ، طريق يشقه ، جسر يقيمه ، الى غير ذلك من الأعمال التى لها أثرها وفائدتها فى حياة الناس .

وأما العلم الذى له هذه الأهمية فهو كل علم يعلمه الإنسان للناس لينتفعوا به فى صلتهم بالله ، أو فى رفع مستواهم الخلقى والعقلى والمادى فى الحياة . . وسواء كان ذلك فى درس يلقيه يكون به علمياً أو عملياً أجيالاً تنهض بنفسها وبأمتها ، كلمة يكتبها يودعها عصارة فكره وتجاربه فتنتفع بها الأجيال على مر القرون ، أو فى عمل يجرى فيه تجارب لاكتشاف دواء أو للقضاء على داء أو تصميم آلة تنتفع بها البشرية فى تقدمها .

أما الولد الصالح فهو الإنسان المهذب صاحب الخلق والدين ، الذى يحافظ على صلته بربه ، وصلته بالناس ، ويكون لبنة طيبة قوية فى مجتمعه الذى يعيش فيه . .

ألا ترى معى أن هذه الأشياء الثلاثة هى من صميم الحياة ومن دعائم

ازدهارها : المال الذى يسخره صاحبه لإقامة المنشآت التى تخدم المجتمع ، العلم النافع فى كل مجالات النفع للانسانية ، يبنى به العالم أنفسا وعقولا تنهض بمجتمعها وبالإنسانية كلها ، وتربية الأولاد تربية صالحة ليكونوا أعضاء صالحين يشعون الخير فى مجتمعهم .

هذه الثلاثة يأتى حديث الرسول فيحرض المسلم عليها لأن الحياة كما تعلم فى أشد الحاجة إليها : تسخير المال والعلم لخدمة المجتمع ، ولا ينقض أى مجتمع إلا على أساسهما .

بالعلم والمال يبنى الناس ملكهم
لم يبن ملك على جهل وإقلال

وليس هذا فقط بل تعهد الأولاد بالرعاية وحسن التربية والتوجيه ، لكسب رضا الخالق ، وحب الناس ، حتى إذا لم يجد المسلم مالا يقيم به منشآت ، ولا علماً يفيد به الناس وجد مجالا للعمل الذى يستفيد به بعد موته بحسن رعايته وتربيته لأولاده ليكونوا رجالاً صالحين يدعون له ، ويكونون ذكرى باقية ممتدة لحياته . .

فإذا تيسر له كل ذلك جمع الخير من أطرافه .

نعم أخى . .

المال المفيد ، والعلم النافع ، والرجال الصالحون ، هذه الأمور الثلاثة هى كل حصيلتنا من توجيه رسول الله ﷺ وما أعظمها من حصيلة يقوم عليها كل مجتمع قوى ورشيد . . ويحرضنا رسول الله ﷺ على توفير هذه الدعائم الثلاث لمجتمعنا ، بجائزة نحبها جميعاً ، وهى زيادة رصيدنا من رضا الله بعد موتنا ، لأنها فعلا امتداد لعملنا فى الدنيا ، ويزداد هذا الرصيد كلما بقيت هذه الأمور تؤدى عملها وتشع خيرها .

أرأيت ـ أخى ـ عناية دينك بحياتك ، وتوفير الخير والاطمئنان لك فيها وفيما بعدها ﴿ يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفسٍ ما عَملتْ مِنْ خيْرٍ مُحْضَراً ﴾ . .

ذلك هو دينك ، لحاضرك ، ومستقبلك ، لدنياك وآخرتك .

١٢ الاسلام والتقليد

إذا كان لكل فرد ولكل شعب اسم خاص يميزه عن غيره فمن الضرورى أن تكون له كذلك شخصية خاصة به تميزه عن غيره ، وتكون نابعة من صفاته وملامحه وطريقة سلوكه فى الحياة .

وإذا كان التقليد أمراً طبيعياً وضرورياً فى دور الطفولة ، فإنه يعتبر خطراً على شخصية الإنسان حين يتعدى هذا الدور ، ونحن الآباءُ نرحب بتقليد الطفل لمن حوله ونسر به ، ولكننا نقلق ويأخذنا الإشفاق على مستقبله إذا شب والتقليد مسيطر عليه ، نشفق عليه حين نراه يذوب فى شخصية أخوته الكبار ، ونبحث له عن أطباء نفسانيين يعالجونه ، لأننا نخشى أن يعوقه ذلك التقليد عن نجاحه فى الحياة ، ويجعله أضحوكة فى المجتمع الذى يعيش فيه .

والأمم قد تمر بدور من أدوار الضعف يشبه دور الطفولة فى الطفل ، وترى نفسها مندفعة فى تقليد غيرها من الأمم القوية تقليدا تلقائيا ، دون وعى واختيار ، فتكون حينئذ أمة فاقدة لشخصيتها وكيانها ، فإذا أرادت أن تنزع عن نفسها لباس الضعف فلابد أن تنزع عنها كذلك حب التقليد ، وتعمل على أن تكون لها شخصية مستمدة من عقليتها ، من واقع حياتها ، من عقيدتها وتقاليدها وآدابها الخاصة بها .

ومن أجل هذا وجدنا الإسلام يهاجم التقليد والمقلدين فى كثير من آيات القرآن الكريم ، ويسخر منهم ، ويجعلهم كالحيوانات التى لا إرادة لها ولا إدراك فيقول عنهم :

﴿ وإذا قِيل لَهُمُ اتبعُوا ما أنزل الله قَالِوا بلْ نتَبعْ ما ألْقيْنا عليْهِ آباءنا أو لوْ كان آباؤهُم لا يعقِلُون شَيئاً ولا يهْتدُون ، ومثلُ الذين كفَرُوا كمثل الذى ينْعِقُ بِما لا يسمع إلاَّ دُعاء ونداءً صُمّ بكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لا يَعْقِلُون ﴾ [1] .

وتكرر فى القرآن مثل هذا التصوير القبيح للمقلدين لينفر النفوس من التقليد ، ويحررها من إساره ، ويحرضها على التفكير الحر المستقل ، ويحذرها من السير وراء الغير دون وعى أو تفكير . .

ثم كان من حسن رعاية الإسلام للتفكير الحر المستقل وتشجيعه له أن جعل للمفكر المجتهد الذى يخطىء الصواب فى اجتهاده أجراً ، وللمصيب أجرين ، فى الوقت الذى لم يقم فيه كبير وزن للايمان ، الذى يأتى نتيجة التقليد دون تفكير أو بحث .

وإذا تتبعنا خطوات الرسول ـ ﷺ ـ وهو يكون أول مجتمع إسلامى فى المدينة نجده ـ وهو المربى الأعظم ـ يحرص كل الحرص على ابراز الشخصية المستقلة للمسلمين ولم يتركهم يذوبون فى المحيط المشرك أو اليهودى الذى يعيشون معه ، فكان يتتبع خطوات المسلمين وتصرفاتهم بالتعديل ، وينقلهم شيئا فشيئاً الى معالم الشخصية الجديدة للمجتمع الإسلامى الجديد ، ويخلصهم من آثار الجاهلية أو اليهودية ، سواء ، كان ذلك فى العبادة أو مظاهر الحياة الأخرى ، حتى كان يأمرهم أو ينهاهم عن شىء يصرح لهم أحيانا بالعلة الباعثة على ذلك ويقول لهم : « وخالِفُوا اليَهُود » حتى قال يهود المدينة : « مابال محمد لايريد أن يترك شأنا من شؤوننا إلا خالفنا فيه » .

كان أهل المدينة حين دخلها الإسلام يحتفلون بعيدين من أعياد الطبيعة ، فمنع الرسول المسلمين من الاستمرار فى الاحتفال بهذين العيدين ، وقال لهم :

« إنَّ الله ـ تبارك وتعالى ـ قَدْ أَبْدَلَكُم بهما خَيْراً مِنْهُما : يوم الفِطْر ويوْم النَّحْر » لأن أعياد كل أمة من أبرز معالم شخصيتها ، ثم وضع للمسلمين قاعدة اجتماعية كلية وتحذيراً عاماً لهم من التشبه بغيرهم والانمياع فيهم فقال : « منْ

---

١ ـ البقرة ١٧١ ، ١٧٢ .

تَشَبَّه بقَوْمٍ فَهُو مِنْهُم » .

ولم يكن ذلك منه ـ عليه الصلاة والسلام ـ تعنتاً أو أنانية ، ولكن لأنه يعلم ـ وهو المربى الحكيم ـ أن التشبه بالغير ولو فى بعض مظاهره ، قد يجر المسلم إلى محاكاته فى أفعاله وأفكاره ، فيصبح صورة مكررة له ، ويهمل حينئذ مظاهره وأدابه ، وأفكاره وتقاليده الخاصة به ، ويفقد بذلك معالم شخصيته المميزة له ـ كما نرى ذلك حولنا الآن فى بعض المجتمعات الإسلامية التى تعيش عيشة بعيدة عن الإسلام وتقاليده ولغته وآدابه ـ ويصبح المسلم حينئذ انسانا تافه الشخصية ، لا وزن له فى المجتمع المسلم ولا تقدير . . لا يحترمه حتى الذين يقلدهم ويفنى فيهم . .

والرسول ـ ﷺ ـ حريص على أن تكون المسلم شخصيته ووزنه وتقديره ، يقود الناس ولا يقودونه ، وقد كان الفرس أمة قوية ، يحب العرب أو يميلون إلى أن يقلدوها أحيانا فى زيها ، أو لغتها ، فنهاهم الرسول عن ذلك هو وخلفاؤه من بعده ، وكان مما قاله :

(مَنْ كَانَ يُحْسِنُ أنْ يتكَلَّم بِالعَرِبية فلا يتكلمُ بغَيرِهَا فإنه يُورث النِّفاق) .

ومع أن الرسول لم يكن يكره أن يتعلم السملم لغة أخرى غير عربية ، بل إنه أمر زيد بن ثابت ـ رضى الله عنه ـ فتعلم اللغة العبرية ـ لغة اليهود ـ فى المدينة ـ حتى يكون من أصحابه من يأمنه على قراءة ما يكتب بهذه اللغة ، إلا أن هذا شيء . . وترك لغة الإنسان والتحدث بغيرها ، دون حاجة إلى ذلك شيء آخر .

ونحن أمة إسلامية كان لها ماضيها فى القيادة والسيادة ، ثم أصابها ما يصيب الأمم من ضعف ومرض ، فمالت إلى تقليد غيرها من الأمم القوية ، وكاد الاستعمار يغمرها بمظاهره وتقاليده وأساليب تفكيره ،ولكنها لنها الآن بدأت تصحو وتستيقظ ، وتتلمس أسباب العلاج والقوة ، وتجاهد لاستكمال شخصيتها .

وهى تقف فى مفترق الطرق ، متأثرة بأمراضها السابقة ، كالمريض فى دور النقاهة ، تحاول أن تسترد ذاتها وكيانها ، ولا يمكن وهى فى محاولتها أن تمتد يدها

إلى أسباب ضعفها ومرضها فتعالج نفسها بها ، ولكنها لابد من أن تمد يدها إلى العلاج الذى يقوى شخصيتها ، ويمدها بقوة الذات فتتناوله .

ونحمد الله على أن هذا الدواء ليس ببعيد عن متناول أيدينا ، إنه فى تاريخنا المجيد ، فى ماضينا السعيد ، فى أرضنا الطيبة ، فى تقاليدنا العريقة ، فى كتابنا الكريم ، فى هدى رسولنا العظيم . . ومن العبث أن نبحث عنه بعد ذلك عند غيرنا ، أو نستورده من خارج نطاقنا « فإن الحلول الحقيقية لمشاكل أى شعب لا يمكن استيرادها ، من تجارب أى شعب آخر » .

ومع أن هذه حقائق مقررة فإن كثيراً منا لا تزال قلوبهم وأبصارهم مشدودة الى الخارج يقلدونه دون وعى ، وتفكير ، ويستحسنون ما عنده ، ولو كان ذلك مناقضاً لطبيعتهم وتقاليدهم ، لأنهم لضعف فى نفوسهم يظنون أن تقليد الغرب مظهر من مظاهر الرقى والتمدن . .

إننا لا نحب التعصب الأعمى الذى يدفعنا إلى أن نخالف غيرنا ونكره ما عنده مهما يكن ، كما أننا لا نحب الانمياع فى الغير ، وعدم الشعور بالقيمة الذاتية لنا ، فنحاكى غيرنا فى كل شىء . . إننا فى هذا الدور الذى نبنى أنفسنا فيه نصرخ فى كل إنسان ـ ولاسيما قادة الفكر والتوجيه ـ أن يعملوا على غرس بذور الشخصية المستقلة فى كل فرد فى الأمة دون تعصب أو جمود .

إن العلم حق مشاع للجميع ، ولا يملكه أحد ، ولا يستطيع أن يدعى جيل أو شعب احتكاره أو طبعه بطابعه ، لأنه فى أى جيل قائم على تراث الأجيال السابقة وجهودها ، فلا يمكن حينئذ أن نفكر فى صد الناس عنه ، بل بالعكس ندعوهم إلى أن يتعلموه ويستفيدوا منه فى حياتهم ، فإن العلم ـ كما يقال ـ « لا وطن له » أما الثقافة ، أما الأفكار أما التقاليد العامة فهذه لا يمكن أن يقول الإنسان إنها لا وطن لها ، لأنها مهما كانت مشتركة فى بعض نواحيها إلا أنها حتما تصطبغ بصبغة الأمة وتأخذ طابعها .

ومن هنا كان لكل أمة ثقافتها وتقاليدها وآدابها العامة التى تتمشى مع طبيعة حياتها ، ومع آداب دينها وعقيدتها ، ومع موروثاتها ، وكان لابد لكل أمة أن

تحافظ على طابعها ، وتعتز به ، لأنه مظهرها الخاص بها ، لأنه صورتها أمام غيرها من الأمم .

ومن هنا كانت دعوتنا الى الحفاظ على شخصيتنا واستمداد معالمها من المقومات الذاتية لهذه الشخصية . . . وكانت حملتنا على عبادة التقليد أو الانمياع فى شخصية الغرب . . لأنهم الخطر على كيان الأمة وعلى نهضتها .

لا ننظر إلى هذا الموضوع من وجهة النظر الدينية فحسب ولكن كذلك من وجهة النظر الاجتماعية التى تعتبر التقليد والاندفاع فيه من أخطر العوامل على كيان الأمة واستقلالها .

أليس من المخجل حقا أن يتحكم فى شكل ملابسنا وتفصيلاتها صيفاً وربيعاً وشتاء رجل أو امرأة من الغرب ينتظر نساؤنا هنا ما تخطه يداه أو يدها العابثة هناك من تفصيلات تروج لها صحافتنا ، وأدوات النشر عندنا ، دون أن يكون لنا رأى أو اعتراض على ما يخالف ذوقنا وآدابنا من هذه التفصيلات ؟!

وفى نظام الموائد وآداب السلوك « الاتيكيت » نقلد الغرب دون تفكير . . كانت إحدى الموجهات عندنا تعلم نساءنا نظام المائدة وآدابها وإعدادها فكان مما تعلمه لهن بمناسبة يوم عيد : كيف يضعن زجاجة الخمر والكؤوس على المائدة !! دون أية مراعاة لتقاليدنا أو آدابنا الإسلامية .

والسبب فى ذلك أنها نقلت « نقل مسطرة » كما يقولون من كتب الغرب دون أن تفكر أو تتصرف ، وهكذا نرى الجهل أو حب التقليد والاندفاع فيه يطغى على شخصيتنا !

إنه ليحزننى ويحزن كل غيور على هذه الأمة أن نرى إيمان الكثير بالغرب وآدابه والحرص على محاكاته ، أشد من إيمانهم وحرصهم على تقاليدنا وشخصيتنا ، فى الوقت الذى وثبنا فيه وثبتنا الظافرة لنحطم أسطورة الضعف والتبعية ، فلا يزال فينا من يهملون لغتهم ويؤثرون عليها اللغات الغربية ، دون حاجة إلى ذلك ، إلا حب الظهور ، ظنا منهم أن ذلك هو عنوان الرقى !! .

لا يزال فينا من يستهينون بآدابهم وتقاليدهم ، ويرمون كل من يتمسك بأنه

« فلاح وبلدى خالص » وهى كلمات يجب أن تنقطع إلى الأبد من قاموس السباب والتنقيص الذى أشاعه الترك والمستعمرون . ونرجع بها إلى أصلها الجميل .

وبعد . . فهل يظن هؤلاء المقلدون الذين يمتهنون آدابهم وتقاليدهم أنهم بذلك يكسبون احترام الغير لهم ؟

كلا . . إنهم لا يكسبون حتى احترام الذين يقلدونهم ، لأن الذى يلقى عقله وشخصيته أمام غيره يستحق الرثاء لا التقدير ، ولا ينتظر من أحد أن يكرمه بعدما أهان نفسه وألغى وجوده . .

إذا أنـت لم تـعـرف لـنـفـسـك حـقـهـا
هـوانـا بـهـا كـانـت عـلى الـنـاس أهـونـا

فى أهرام ٢٧ مارس سنة ١٩٦١ لفت نظرى فى باب « مع المرأة » الذى كانت تكتبه المرحومة السيدة فتحية بهيج هذا العنوان : « المرأة الغربية غير راضية عن تقاليد المرأة الشرقية لها » ، فقرأت تحت هذا العنوان :

« اهتمام المرأة العربية بالمودات الغربية وحرصها على تقليد المرأة الغربية فى تصرفاتها وفى طباعها لاتستسيغه السائحات الغربيات ، اللاتى يحضرن لزيارة القاهرة ، ولا يرفع من سمعتها فى الخارج كما نظن ، أفصحت عن ذلك الرأى صحافية انجليزية زارت القاهرة أخيرا وكتبت مقالاً فى مجلتها تقول فيه :

« لقد صدمت جدا بمجرد نزولى أرض المطار فقد كنت أتصور أننى سأقابل المرأة الشرقية بمعنى الكلمة ، ولا أقصد بهذا المرأة التى ترتدى الحجاب والحبرة ، وإنما المرأة الشرقية المتحضرة التى ترتدى الأزياء العملية التى تتسم بالطابع الشرقى ، وتتصرف بطريقة شرقية ، ولكننى لم أجد شيئا من هذا ، فالمرأة هناك هى نفسها المرأة التى تجدها عندما تنزل إلى أى مطار أوروبى ، فالأزياء هى نفسها بالحرف الواحد ، وتسريحات الشعر هى نفسها ، والماكياج هو نفسه ، حتى طريقة الكلام والمشية وفى بعض الأحيان اللغة أما الفرنسية أو الإنجليزية . . وقد صدمنى من المرأة الشرقية انها تصورت أن التمدن والتحضر

هو تقليد المرأة الغربية . ونسيت انها تستطيع أن تتطور وأن تتقدم كما شاءت مع الاحتفاظ بطابعها الشرقى الجميل » .

وفى جمهورية السبت ٩ يونيو ١٩٦٢ فى باب المرأة « لفت نظرى هذا العنوان : كاتبة أمريكية تقول : « امنعوا الاختلاط وقيدوا حرية المرأة » .

نقلت السيدة حورية تحت هذا العنوان كلاما ثمينا صريحاً ، لا أحب أن يمر فى جريدة يومية ، دون أن أقيده هنا ، وقد بدأت فقدمت الكاتبة الأمريكية للقراء فقالت :

« غادرت القاهرة الصحافية الأمريكية « هيلين ستانسبرى » بعد أن أمضت عدة أسابيع هنا ، زارت خلالها المدارس ، والجامعات ، ومعسكرات الشباب ، والمؤسسات الاجتماعية ، ومراكز الأحداث ، والمرأة والأطفال ، وبعض الأسر فى مختلف الأحياء ، وذلك فى رحلة دراسية لبحث مشاكل الشباب والأسرة فى المجتمع العربى . . وهيلين صحافية جوالة تراسل أكثر من ٢٥٠ صحيفة أمريكية ، ولها مقال يومى يقرأة الملايين ويتناول مشاكل الشباب تحت سن العشرين ، وعملت فى الإذاعة والتليفزيون وفى الصحافة أكثر من ٢٠ عاما وزارت جميع بلاد العالم . . وهى فى الخامسة والخمسين من عمرها ، تقول الصحافية الأمريكية بعدما أمضت شهرا فى الجمهورية العربية :

« إن المجتمع العربى مجتمع كامل وسليم ، ومن الخليق بهذا المجتمع أن يتمسك بتقاليده التى تقيد الفتاة والشاب ، فى حدود المعقول ، وهذا المجتمع يختلف عن المجتمع الأوروبى والأمريكى ، فعندكم تقاليد موروثة تحتم تقييد المرأة ، وتحتم احترام الأب والأم ، بل وتحتم أكثر من ذلك عدم الاباحية الغربية التى تهدد اليوم المجتمع والأسرة فى أوروبا وأمريكا ، ولذلك فإن القيود التى يفرضها المجتمع العربى على الفتاة الصغيرة ـ وأقصد ما تحت سن العشرين ـ هذه القيود صالحة ونافعة ، لهذا انصح بأن تتمسكوا بتقاليدكم وأخلاقكم ، وامنعوا الاختلاط وقيدوا حرية الفتاة . . بل ارجعوا إلى عصر الحجاب فهذا خير لكم من الإباحية وانطلاق ومجون أوروبا وأمريكا . .

امنعوا الاختلاط قبل سن العشرين ، فقد عانينا منه فى أمريكا الكثير ، الكثير ، لقد أصبح المجتمع الأمريكى مجتمعا معقداً . مليئاً بكل صور الإباحية والخلاعة ، وإن ضحايا الاختلاط والحرية قبل سن العشرين يملأون السجون والأرصفة والبارات والبيوت السرية ، إن الحرية التى أعطيناها لفتياتنا وأبنائنا الصغار قد جعلت منهم عصابات أحداث وعصابات « جيمس دين » وعصابات للمخدرات والرقيق . إن الاختلاط والإباحية والحرية فى المجتمع الأوروبى والأمريكى هدد الأسر وزلزل القيم والأخلاق فالفتاة الصغيرة تحت سن العشرين فى المجتمع الحديث تخالط الشبان وترقص « تشا تشا » وتشرب الخمر ، والسجاير ، بل وتتعاطى المخدرات باسم المدنية والحرية والاباحية .

والعجيب فى أوربا وأمريكا أن الفتاة الصغيرة تحت سن العشرين تلعب وتلهو وتعاشر من تشاء تحت سمع عائلتها وبصرها ، وتتحدى والدها ومدرسها والمشرفين عليها تتحداهم باسم الحرية والاختلاط .

تتحداهم باسم الاباحية والانطلاق ، تتزوج فى دقائق ، وتطلق بعد ساعات ، ولا يكفلها هذا أكثر من امضاء ، و٢٠ قرشا وعريس لليلة أو لبضع ليال وبعدها الطلاق وربما الزواج فالطلاق مرة أخرى » أ هـ .

كلام لا يقوله شيخ منا حتى يثوروا عليه ويرموه ـ كعادتهم ـ بالرجعية والجمود ، وما شاء لهم قلمهم . . ولكنه كلام جاء من أهل الغرب من كاتبة مجربة صحافية أمريكية أو إنجليزية . فهل يعرف كل هذا عباد التقليد والانطلاق وراء الغرب وإباحيته ويدركون ما وراء اندفاعهم من خطر على بلادهم ؟ أرجو . . .

١٣ الاسلام وتحرير العقل

قال الله تعالى :

﴿ أفلَمْ يَسِيرُوا فى الأرْض فتكون لهُم قلُوبٌ يَعْقلون بها أوْ آذانٌ يَسْمعُون بها فإنَّها لا تعمَى الأبصار ولكِن تَعْمى القُلُوب الَّتى فى الصُّدوُر ﴾ .[١] .

بهذه الدعوة القوية إلى التأمل والتفكير جاء الإسلام ليحرر العقول من أسر الأوهام والخرافات وعبودية التقليد والعادات .. تلك التى كانت مسيطرة على المجتمع البشرى حين جاء الإسلام سواء فى شبه الجزيرة أم فيما حولها ..

فقد كانوا بين أناس انحرفت عقولهم حتى نحتوا التماثيل بأيديهم ثم خروا أمامها ركعاً عابدين وأناس عبدوا النار وألهوا الحاكمين وأناس جعلوا الإله الواحد آلهة ثلاثة وحجروا على أتباعهم أن يفكروا بعقولهم وأوهموهم أنهم الواسطة بينهم وبين ربهم .

وماكان الله .. وهو الرحيم بعباده أن يتركهم يتخبطون فى ظلام الجهل ويسدون منافذ العقول وينزلون إلى درجة الحيوان وتتسلط عليهم الخرافات والأوهام والرؤساءُ والكهان .. فأرسل لهم محمدا ـ ﷺ ـ ليخرجهم من الظلمات إلى النور ويرد للعقل اعتباره ويحيى فى الإنسان انسانيته ويوفر له كرامته ..

وقد كان أول حجر وضعه الإسلام لتشييد كرامة العقل الإنسانى وتحريره أن هز المشركين بالله هزا عنيفاً ليحررهم من قيود الأرض والخوف من المخلوف

---

١ ـ الحج الآية : ٤٦ .

ويرفعهم إلى السماء الى عبادة الإله الواحد الذى بيده ملكوت كل شىء وله الحكم فى الأولى والآخرة والذى يحتاج إليه كل ما عداه . فهو النافع الضار والمعطى المانع . .

﴿ إنْ الذِين تَدْعُونَ مِن دُونِ الله لنْ يَخْلُقُوا ذُبَاباً وَلَو اجْتَمَعُوا لَهُ وإنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شيْئاً لا يَسْتَنقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالبُ والمطْلُوبُ ﴾ [١] .

وما دام الأمر كذلك فلترفعوا رأسكم وتتجهوا بقلوبكم إلى الله لا تخشوا صنماً أو منجماً أو ساحراً أو مشعوذاً أو كاهناً أو رئيساً مسيطراً أو إنساناً مدعياً فكل هؤلاء ضعاف محتاجون إلى الله وكل الذى فوق التراب تراب .

بهذا حرر الإسلام للإنسان عقله وحسه من العبودية لغير الله ومن الأعتقاد فى الخرافات والأوهام . .

ولقد كان من اعتداد القرآن بالعقل وتكريمه له أن جعله هو الطريق الى معرفة الله. فلم يقل له آمن بالله وكفى بل نزلت الآيات تحثه على النظر والتأمل فى مخلوقات الله حوله وفى نفسه ليصل عن طريق عقله الى خالقه . .

﴿ قُلْ انْظُرُوا مَاذا فى السَّمَوَات وَالأَرْضِ ﴾ .
﴿ أفَلَمْ يَنْظُروا إلى السَّماء فوْقهُمْ كيف بَنَيْنَاها وزيَّنَّاهَا [١] ﴾
﴿ وفى أنْفسِكُمْ أفَلاَ تُبْصِرُون ﴾ [٢] .

وكثيرا ما يعرض مظاهر الكون وعجائب القدرة ثم يختمها على النظر والتأمل فيها بقوله : ﴿ أفلا تَعْقلُون ﴾ ﴿ لَعَلَّهُمْ يَفْقهُونَ ﴾ . ﴿ إنَّ فى ذَلِك لآياتٍ لِقوْم يَعْقلُون ﴾ . . أو ﴿ يَتفكَّرون ﴾ أو ﴿ يَذَّكَّرُون ﴾ . فاعْتَبِرُوا يا أُولى الأبْصار ﴾ .

ويحكم على الذى يعطل عقله وحواسه بأنه ميت أو حيوان أو أعمى . .

---

١ ـ سورة الحجج من الآية : ٧٣ .

١ ـ سورة ق من الآية : ٦ .

٢ ـ سورة الذاريات . الآية : ٢١ .

﴿ وَمَا يَسْتَوى الأَعْمَى والبَصِيرُ ﴾ [٣] .
﴿ وَمَا يَسْتوى الأَحْيَاءُ ولا الأَمْوَاتُ ﴾ .

﴿ ولقد ذَرأنَا لجهَنَّم كثِيراً مِّنَ الجنِّ والإنْس لَهُم قلُوبٌ لا يفقهُون بها وَلهُمْ أعْينٌ لا يُبْصِرُون بها ولَهُمْ آذانٌ لا يَسْمَعُون بها أولئِكَ كالأنعام بلْ هم أضَلُّ ولئِك هُمُ الغَافِلون ﴾ [٤] .

ومن أجل ذلك هاجم التقليد والمقلدين الذين يلغون عقولهم وينظرون للأمور بعقول غيرهم وحكم عليه بأنهم ﴿ صُمٌّ بكْم عُمْىٌ فَهُمْ لا يعْقِلُون ﴾ .

وجريا على خطة الإسلام فى تحرير العقل وتحريكه للنظر وتكريمه والاعتداد به نجد القرآن والحديث يعللان لكثير من الأحكام حتى يكون للعقل مجال فى فهمها والاقتناع بها وعلى سبيل المثال قوله تعالى :

﴿ إنَّمَا يُريدُ الشَّيْطَانُ أن يُوقع بَيْنكُمُ العداوة والبغضاء فى الخَمْر والميْسرِ ويَصُدُّكُمْ عَن ذِكْر الله وعن الصَّلاة ﴾ .
﴿ ويَسْألُونك عن المحُيض قُل هُو أذَى فاعتزلُوا النِّساء فى المحِيض ﴾ .
﴿ إنَّ ذَلِكُمْ كَانَ يُؤذى النَّبى فيستحى مِنْكُم ﴾ . .
﴿ ذلِكُمْ أطْهَرُ لِقُلُوبكُمْ وقُلُوبهنّ ﴾ .
﴿ كَىْ لا يكُونَ دُولَة بينْ الأغنياءِ منكُم ﴾ .

إلى كثير من أمثال هذا التعليل :

ولكى يحمى الإسلام العقل وهو يفكر ويفتح له المجال واسعاً نجد الرسول يقرر أن للمجتهد أجرين إذا أصاب وأجرا إدا اخطأ وهو لا يحميه بهذا فقط بل يقدره حين الخطأ ويقرر له ثواباً مادامت نيته طيبة . . ولا أغالى إذا قلت إن هذا أعظم ما عرف أو يعرف فى تكريم العقل وتحريره . .

ومن أجل تكريم العقل وتحريره جعل الإسلام أمور المسلمين شورى بينهم وحظر على حكامهم أن يستبدوا برأيهم ويحجروا على عقول غيرهم وتفكيرهم .

---

٣ ـ سورة فاطر . من الآية : ١٩ .
٤ ـ سورة الأعراف . الآية : ١٧٩ .

ولقد كان من آثار نظرة الإسلام للعقل أن انطلق المسلمون يبنون ويعمرون وينتجون فى كل مجالات الإنتاج الفكرى والمادى ، فسادوا الدنيا وعمروها وقدموا للإنسانية أسمى وأثمن حضارة تستمد حيويتها من العقل والدين . . ونهضت أوروبا نهضتها الحديثة على ثمرات قرائحهم وتفكيرهم . وكانوا فى كل ما انتجوا من علم وفكر محروسين بعناية الإسلام وتشجيعه حتى رأينا شاهدا من فلاسفة أوروبا وهو جوستاف لوبون يقول :

إن العرب أول من علم العالم كيف تتفق حرية الفكر مع استقامة الدين . .

هذا دينكم وذلك ماضيكم فانطلقوا إلى رحاب المجد وصلوا حاضركم بماضيكم على نور عقولكم وهدى من دينكم تحفكم رعاية الله . .

١٤ الاسلام والادخار

فى واقع حياتنا نحن المسلمين مفاهيم نظنها من الإسلام ويدفعنا هذا النظن الى التمسك بها وتنظيم حياتنا والاستسلام لحوادثها على أساسها مع أن فى هذه المفاهيم بعداً عن الإسلام ونظريته الحديثة للحياة وقد سرت هذه المفاهيم الى المسلمين ربما عن حسن نية أو عن سوء فهم لنص من النصوص أو مبدأ من المبادىء وكان من الطبيعى أن تتأثر بها حياة المسلمين فنجد أثرها واضحاً فى بعض مظاهر الضعف الذى حل بهم ومن الواجب علينا أن نهب لتصحيح هذه المفاهيم وننقى أفكار المسلمين من اللبس والخطأ فى فهم الإسلام على وجهه الصحيح ونغذيهم بالإدراك السليم له ولنظرته للحياة حتى يمكن أن يشكلوا حياتهم على أساسه فلا نظلم الإسلام ولا نهضم أنفسنا ولا نفتح الباب للطعن عليه وتحميله وزر ضعفنا وخمولنا والحياة لا تستقيم فى طريقها القوى إلا إذا أقيمت على مفاهيم صحيحة نؤمن بها وتنبعث أعمالنا عنها . .

ومن هذه الأخطاء ـ على سبيل المثال ـ ان الإسلام يكره الحياة الدنيا والعاملين لها بحجة أن القرآن ذمها ، ووصفها بأنها متاع الغرور ووصفها ببعض الآثار بأنها جيفة وطلابها كلاب . . الخ . .

وتبع هذا الخطأ خطأ آخر وهو أن مقتضى الايمان والتوكل على الله يقضى بترك الأمور تجرى على عواهنها : وأن الاستعداد وأخذ الأهبة للغد والإدخار لمفاجآته ينافى التوكل على الله فكل ما قدر يكون وبناء عليه « أصرف مافى الجيب يأتيك مافى الغيب » .

والواقع الصحيح الذى تنطق به كثير من نصوص القرآن والأحاديث وتهدينا إليه روح الإسلام ينكر هذه الأفهام الخاطئة فالإسلام لا يكره الحياة الدنيا ولا يبغض العاملين فيها ، المستعدين لحوادثها المدخرين لمفاجآتها أما ما جاء فيها من ذم الدنيا والمتعلقين بها ووصفها بالأوصاف المنفرة منها فهو لجماعة لا ينظرون فيها إلى المعانى الروحية والقيم الأدبية ويحصرون هممهم فى تحصيل نواحيها المادية من أى طريق فيسيئون بذلك إلى أنفسهم والى المجتمع حولهم ويكونون مصدر شر دائم والغرض من هذه الجملة يكفكف هؤلاء المندفعين من غلوائهم ويجعلوا للقيم الروحية والصلاة الانسانية حظا وافراً فى أعمالهم ويقيموا أعمالهم وسعيهم على أساس من خوف الله ومراعاة المجتمع وواجبات الناس حولهم فيوازنوا بين جانب المادة وجانب الروح ولا يتركوا أحدهما يطغى على الآخر ويتجهوا إلى خالقهم ورازقهم يدعونه ويناجون .

﴿ رَبَّنَا آتِنا فى الدُّنيا حسنة وفى الآخرةِ حسَنة وقِنا عَذاب النَّار ﴾ [1] .

لم يكره الإسلام أبداً الإستعداد وأخذ الحذر من مفاجآت الأيام وحوادثها ولم يكن معنى التوكل فى ترك الأمور تجرى على عواهنها وصرف مافى الجيب ليأتيك مافى الغيب . . بل إن الإسلام أمر بالاقتصاد فى الأمور كلها بلا إفراط ولا تفريط وقرر القرآن بصريح عبارته أن التوسط بين الأمور هو الفضيلة فقال هو يمدح عبادا من عباد الله سماهم لفضلهم وشرفهم عباد الرحمن :

﴿ وَالذين إذَا أَنْفقُوا لَمْ يُسْرِفُوا وَلم يَقْتُرُوا وكان بَيْنَ ذلِك قَواماً ﴾ [٢] .

وقال فى آية أخرى بصيغة الأمر الجازم للإنسان :

﴿ وَلاَ تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَة الى عُنُقِك ولاَ تَبْسُطْها كُلَّ البَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُوماً مَحْسُوراً ﴾ [٢] .

وبذلك نفهم أن الإسلام يحب التوسط والقصد والاعتدال فى جمع المال وفى انفاقه كما يريد المسلم أن يكون متزناً فى حياته كلها موازناً بين جوانبها لأنه بذلك

---

١ ـ سورة البقرة الآية : ٢٠١ .

٢ ـ سورة الفرقان الآية ٦٧ .

٢ ـ سورة الإسراء الآية ٢٩ .

يستطيع الوصول إلى ما يريد وهذا هو المعنى فى وصية الرسول لنا وهو يقول : القَصْدَ القَصْدَ تَبْلُغُوا وقوله « خَيْرُ الأُمُورِ الوَسَطُ » .

فعلى المسلم الذى يفهم الإسلام ويسير على هداه أن يجمع المال للقصد والاعتدال وينفقه بالقصد والاعتدال ويعد للدنيا ومفاجآتها عدتها ويحسب فى يومه حساب غده ويفهم أنه مسؤول أمام الله عن تأمين حياته وحياة أسرته فى حياته وبعد مماته فهو راع وكل راع مسؤول عن رعيته فاليوم عمل وغدا بطالة واليوم صحة وقوة وغدا مرض وعجز اليوم يسر وغدا عسر واليوم حى يكسب وغدا رَاحل مودع ومن الواجب عليه ديناً أن يقدر كل هذه الاحتمالات ولا يغتر بحاضره فالزمان قلب وعليه أن يقتصد فى يومه ما يكون عدة له فى غده ويدخر فى يسره ما ينقذه من عسره ويوفر فى حياته ما يجابه به أولاده قسوة الحياة بعد مماته .

قد يفعل الكثير منا هذا استجابة لطبيعته وحب تأمين حياته وحياة أولاده ولكنه لا يفعله ديناً وربما وجد الكثيرين من مدعى العلم والإيمان يلومونه لأنه مشغول بالدنيا غير مؤمن بأن الارزاق على الله ويقولون له : يا شيخ توكل على الله الرب موجود والرزق مضمون وغير ذلك من الكلام الحق الذى يستعمل فى المراد الخطأ فكأنهم يتهمونه بأن عمله هذا يتنافى مع التوكل على الله والايمان به وكأن مقتضى الايمان والتوكل عندهم أن يترك الأمور تجرى على عواهنها « ويصرف مافى الجيب يأتيه ما فى الغيب » وهذا كله خطأ فى فهم الايمان والتوكل . . فإن الذى تندفع إليه بمقتضى طبيعتنا من العمل والادخار للغد والإستعداد للطوارىء والمفاجآت تأمينا لحياتنا وحياة أولادنا هو ما يدعو إليه الإسلام لأنه دين الفطرة وهو لا يحاربها أبداً ما لم تنحرف وتخرج عن سلامتها ولذلك نراه يحارب البخل والشح ويحارب الإسراف لأن كلا منهما خروج عن الفطرة السليمة ولما كان الإنسان مندفعا إلى الإسراف وجدنا عناية القرآن والسنة بمحاربة الإسراف أكثر وأبرز من عنايتهما بمحاربة البخل حتى نجد القرآن يصور المبذرين المسرفين هذا التصوير الشنيع فيقول : ﴿ ولا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً إنَّ المُبَذِّرِينَ كانُوا إخْوانَ الشَّيَاطِين وكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِهِ كَفُوراً ﴾ [1] .

١ ـ سورة الإسراء الآية . ٢٧ .

ويقول ﷺ :

« إنَّ الله يَرْضى لكُم ثلاثاً وَيكْرَهُ لكَم ثَلاَثاً ، يَرْضى لَكُم أنْ تَعْبُدُوهُ ولا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئاً ، وأَنْ تَعْتَصِمُوا بِحَبْل الله جَميعاً ولا تَفَرَّقُوا ، ويكْرَهُ لَكُم قِيل وقَالَ ، وكثْرة السُّؤال وإضاعة المَال [١] » .

ثم يضع لنا الميزان الصحيح للحياة ويبين أهميته فيقول : « الإقتصادُ نِصْفُ المَعِيشةِ » فإن المال لا يبقى مهما كان كثيراً ما لم يصاحبه اقتصاد فى الإنفاق وحسن التدبير .

ثم نجده ﷺ يبين لنا ثمرة الاقتصاد والادخار فى كلمات قليلة جامعة فيقول « ما عَال مَن اقْتَصَدَ » فلا يحتاج من جعل الاقتصاد وحسن التدبير وسيلة للتغلب على الحياة ثم نراه أكثر من هذا يجعل من حسن تصرف المرء فى أمواله واقتصاده فى معيشته ميزاناً توزن به قيم الرجال ومقدار فهمهم وتعلقهم للحياة فيقول :

« مِنْ فِقْه الرَّجُل قَصْدُهُ فى مَعِيشتِه » ويمدح المعتدلين فى أمورهم المقتصدين فى معيشتهم الذين يدبرون أمورهم بحكمة واتزان فيقول عليه الصلاة والسلام :

« ما أَحْسَنَ القَصْدَ فى الغَنى وما أَحْسَنَ القَصْدَ فى الفَقْر وما أَحْسَنَ القَصْدَ فى العِبَادةِ » .

فلو كان الاقتصاد والتدبير والادخار للغد ينافى الايمان بالله الرازق والتوكل عليه ما وجدنا القرآن والأحاديث تعطيه هذه المنزلة وتأمر به وتجعله ميزان الرجل فى حياته ولو كان الأدخار للأولاد وتدبير شؤونهم بعد الممات منافياً للتوكل والايمان بالله ما وجدنا الرسول ﷺ يوصى أحد أصحابه بمراعاة أطفاله بعد وفاته ويجعل من الخير له ولهم أن يترك شيئا لهم ينتفعون به بعد مماته ويتغلبون بسلاحه على متاعب الحياة . . .

فقد روى سعد بن أبى وقاص رضى الله عنه قال :

عَادنى رَسُولُ الله ﷺ فى حجَّةِ الوَاَع مِنْ وَجَعٍ أَشْفَيْت مِنْهُ على المَوْت فقُلْتُ

---

١ ـ الجامع الصغير للسيوطى مفتاح كنز السنة . وصحيح البخارى .

يارسُولَ الله ﷺ بَلغنى ما ترى من الوَجَع وأنا ذو مَال وَلاَ يَرِثُنى إلاَّ ابْنَةٌ لى وَاحدة أَفأتَصَدَّقُ بِشَطْرِه (أى نصفه) قال :لا الثُّلُثُ والثُّلُث كَثير إنَّك أن تَذَرَ وَرَثَتك أَغْنياء خَيْرٌ مِنْ أَنْ تَذَرهُمْ عَالَةً يتكَفَّفُونَ النّاسَ »[١] الحديث .

« فنرى من هذا الحديث أن سعدا رضى الله عنه جمع مالاً كثيرا لأن هذا ما يفيده قوله « وأنا ذو مال » ولم ينكر عليه الرسول جمعه للمال . ولما أراد أن يتقرب بهذا المال كله إلى الله رغبة فى الثواب منعه الرسول ووافق أخيرا على أن يتصدق بثلثه فقط وقال له « والثلث كثير » ثم علل هذا بما رآه قاعدة عامة يجب أن يحرص عليها المسلمون إزاء المسؤولين عنهم فى حياتهم فإن إدخار شىء لهم ينفقون منه خير عند الله من وقف المال كله ولو فى صدقة وقربى وتركهم فقراء يمدون أيديهم للناس .

فالإدخار إذن من أجل صيانة أولادنا من الحاجة والذل بعد مماتنا عمل يحبه الله ويقدمه على الصدقة ثواباً وحسن جزاء .

وبهذا نفهم أن التوسط أمر مطلوب والادخار للأولاد والأزمات لا ينافى الايمان والتوكل على الله بل أنه من ثمرات الايمان الصحيح البصير ومن ثمرات التوكل على الله على بصيرة وفهم سليم فإن التوكل يحمل فى طياته معنى العمل قبل الكسل والتدبير قبل الإهمال وهذا هو مايجب أن يعرفه كل عاقل قبل الكسل والتدبير قبل الإهمال وهذا هو مايجب أن يعرفه كل عاقل من قوله عليه الصلاة والسلام لصاحب الناقة الذى سأله هل يتركها ويتوكل أو يعقلها ويتوكل فأرشده الى العمل السليم والفهم المستقيم وقال له « أعقِلها وتَوَكَّلْ » .

فالتوكل غير التواكل ، التوكل جهد محمود والتواكل كسل مذموم فعلى الله فليتوكل المؤمنون والله يحب المتوكلين . . . فليعمل المسلم متوكلاً على الله وليدخر لغده ما يستطيع ادخاره فإن الأدخار قوة للفرد . . وقوة للجماعة . . ونعم المال الصالح للرجل الصالح .

---

١ ـ الجامع الصغير للسيوطى .

١٥ الاسلام هل بالقوة انتشر ؟

ما زلت مع الشباب فى أفكارهم ، وفى المناقشات التى تدور بينهم ، ولو أن هذا الموضوع قديم تناوله الكثيرون من اعداء الإسلام الذين يعملون على تشويه حقائقه ومبادئه الجميلة ، إلا أن البعض حلا لهم الآن أن يثيروا هذه النغمة أمام الشباب ، ويرددوا اتهام الإسلام بأنه انتشر بالقوة .

وأريد هنا أن أذكر للشباب وغيرهم بعض الحقائق عن هذا الموضوع راجياً منهم أن يتنبهوا لها تماما .

أولا : إن ايمان الإنسان بأية فكرة أو عقيدة ، ومنها الدين ، لا يأتى مطلقا إلا عن طريق الاقتناع الداخلى .

والدين له تكاليف لا يمكن للإنسان أن يقوم بها ، مالم يكن مقتنعاً ومؤمناً داخلياً به .

ونحن نعلم جميعا أن القوة ، مهما تكن ، لا يمكن أن تجبر الإنسان على اعتناق فكرة ، بل غالباً ما يكون للقوة رد فعل عكسى ، ضد هذه الفكرة ، فيكرهها ويمقتها ، ويتخلص منها بعد زوال القوة التى أجبرته أو فى غيابها عنه . .

ثانيا : الله سبحانه هو خالق الخلق ، وهو العليم بطبائعهم هذه ، ولا يمكن أن يكلف الأمور ضد طباعها ، ولا يعقل أن يجعل انتشار دينه عن طريق القوة . . ولهذا قال للرسول ﴿ أَفَأَنتَ تُكْرِهُ النَّاس حتَّى يكُونُوا مُؤْمِنِينَ ﴾ [١]

١ ـ سورة يونس من الآية : ٩٩ .

وقال : ﴿ لَا إِكْرَاه فِى الدِّين قد تَّبَيَّن الرُّشْدُ مِن الْغَىِّ ﴾ (٢) .

وما كان للرسول ﷺ ولا لصحابته أن يخالفوا توجيه الله ، أو يعملوا ضد طبيعة الإنسان ، فيجبروا الناس بالقوة على الإسلام . .

هذا من حيث القواعد القرآنية والطبائع البشرية .

ثم ننتقل بعد ذلك إلى خريطة الواقع : لنذكر الملاحظات الآتية :

هناك بلاد إسلامية فى شرقى آسيا وجنوبها لم يصل إليها جيش للإسلام ، ومع ذلك يصل عدد المسلمين فى هذه الأقطار إلى نحو ثلاثمائة مليون مسلم أو يزيد فمن الذى أكره هؤلاء على اعتناق الإسلام ؟ .

المغول والتتار الذين دوخوا العالم ، وعبثوا بالدول الإسلامية وحضارتها . . صاروا بعد مدة من اختلاطهم بالمسلمين ومعرفتهم بالإسلام مسلمين متحمسين للإسلام ، وأسسوا دولاً إسلامية قوية .

فمن الذى أجبر هؤلاء الأقوياء على الإسلام وكانوا هم المنتصرين على المسلمين ؟ .

يوجد فى أفريقيا الآن نحو مائة وخمسين مليونا من المسلمين . . منهم ما يقرب من مائة مليون مسلم لم يصل لبلادهم جيش اسلامى .

فمن الذى أكره هؤلاء على الدخول فى الإسلام ؟

يوجد فى أوربا والأمريكتين مسلمون كثيرون ، متحمسون للإسلام .

فهل وصل إلى هناك جيش للمسلمين أجبرهم على الإسلام ؟ .

البلاد التى فتحتها جيوش المسلمين لم يذكر التاريخ أنهم أجبروا أحداً من أهلها على الدخول فى الإسلام ، بل كانوا يقيمون العدل بينهم ، ويخلصونهم من الظلم الذى كان واقعاً عليهم حتى من أبناء دينهم ، ويخلصونهم من الظلم الذى كان واقعاً عليهم حتى من أبناء دينهم ، ويحترمون دينهم ومعابدهم ويتركونهم وما يعتقدون وبسبب هذه المعاملة الكريمة والسياسة الحكيمة أقبل

٢ - سورة البقرة من الآية . ٢٥٦ .

الأهالى على الإسلام واعتنقوه ، كما حصل فى مصر وشمالى افريقيا ، والشام والعراق ، وفارس

ولو أن الحكام حاولوا إكراه الأهالى على الإسلام لكرهوه وتخلصوا منه فى أول فرصة تسنح لهم .

ومن هذا كله يتبين لنا فى جلاء أن الإسلام لا يقبل إكراه الناس على الدخول فيه ولم يقم حاكم مسلم فتح بلداً من البلاد بإكراه الناس على الإسلام .

وصدق الله العظيم إذ يقول : ﴿ لا إكْراه فى الدِّينِ ﴾ .

بل كانت القوة الذاتية للإسلام ، وبساطة عقيدته ، وهى التوحيد ، وعدالة أحكامه ، وتلاقى ذلك كله مع الطبيعة البشرية السليمة ، كان هذا كله ، وسيظل العامل القوى لانتصار الإسلام .

وكيف نذهب بعيداً ، ونحن نرى العشرات كل يوم يدخلون الآن فى الإسلام عن إيمان ودراسة دون إكراه ؟ هكذا نرى وهكذا كان وهكذا سيكون .

بقيت نقطة أقولها فى اختصار عن الجزية التى يلغط بها بعض الناس ، ويعتبرونها تعسفا من الاسلام .

إن الجزية ليست إلا ضريبة يؤديها غير المسلم ، كما يؤدى المسلم الزكاة للدولة التى ترعاهم جميعاً ، وتحميهم وتوفر لهم الأمن والاستقرار .

وليس من العدالة أن يدفع المسلم ضريبة الأمن والحماية والرعاية ولا يدفع غيره .

والكل رعايا للدولة يستظلون بحمايتها .

ولأجل أن يتضح هذا المعنى تماما أسوق لكم هذه الحادثة .

فقد جاء فى كتاب الخراج لأبى يوسف : « أن أبا عبيدة بعدما صالح أهل الشام وجنى منهم الجزية والخراج بلغه أن الروم قد جمعوا له ، واشتد الأمر عليه ، وعلى المسلمين ، فكتب رضى الله عنه الى أمراء المدن التى تم صلحها أن يردوا عليهم ما جبى منهم من الجزية والخراج ، وأن يقولوا لهم : إنما رددنا

عليكم أموالكم لأنه قد بلغنا ما جمع لنا من الجموع ، وأنكم قد اشترطتم علينا أن نمنعكم ، وأنا لا نقدر على ذلك ، وقد رددنا عليكم ما أخذنا منكم ، ونحن لكم على الشرط ، وما كتبنا بيننا إن نصرنا الله عليهم » .

فهذا واضح تماماً فى أن القائد المسلم الصحابى أبا عبيد بن الجراح قد أخذ من غير المسلمين فى الشام الجزية والخراج أو ما يمكن أن يسمى الآن ضريبة للدولة لأنه يقوم بحمايتهم من المغيرين ، ويوفر لهم الأمن والطمأنينة ، فلما غلب على ظنه ـ من جموع الروم الكثيرة التى حشدت لمهاجمته ـ أنه لن يقوى على حماية من أخذ منهم ضريبة الحماية ردها اليهم ، وتعهد لهم أنه على الشرط الذى كتب بينهم إن نصره الله على اعدائه وأعدائهم .

ومع ما تحمل هذه الحادثة من توضيح الهدف من الجزية ، فإنها تحمل معنى آخر فى غاية السمو والعدل الإسلامى ، نراه اليوم بعيداً عن « ذقون » المتحضرين المتفيقهين !! تتقطع أعناقهم ولا يصلون إليه ، ومن أجل هذا السمو والعدل الإسلامى انتشر الإسلام . وهكذا ترون يا شباب عظمة دينكم فى عقيدته ، وفى سياسته ، وفى قوة انتشاره .

رعاكم الله ذخرا وحرسا لهذا الدين العظيم .

١٦ الاسلام والمرأة

فى احدى البلاد العربية دعيت أستاذة ودكتورة فاضلة لإلقاء محاضرتين عن المرأة استمعت الى الثانية منهما ، ولم يلفت نظرى فيها شىء مثل ما لفت نظرى اعتراض وجهته احدى المستمعات تلوم فيه الأستاذة المحاضرة ، لأنها اقرت ما جاء فى صريح القرآن من ضرب المرأة التى تسىء عشرة زوجها وتتمرد على الحياة الزوجية .

نعم . تعجبت وتألمت أن تكون هناك سيدة أو فتاة مسلمة تتمرد على ما جاء به القرآن ، علاجا لحالة من حالات تمرد المرأة ، حين لا ينفع معها نصح أو توجيه أو هجر ومقاطعة . . ربما كان هناك مثلها قد يثرن حين يسمعن هذا . . وهن غافلات عن حكمة الله العلى الخبير . . وغافلات عن أن الآية تبين أن النساء طبائع ومعادن مختلفة ـ والناس ذكوراً كانوا أم أناثاً كذلك ـ وكل واحدة لابد من أن تعامل بما يناسب طبيعتها وأخلاقها يقول الله تعالى :

﴿ فالصَّالِحاتُ قانِتَاتٌ حافِظاتٌ لِّلْغَيْب بما حَفِظ الله . والَّاتى تخافُون نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ واهْجُرُوهُنَّ فى المَضَاجِعِ وَاضرِبُوهُنَّ ﴾ . ثم قال بعد ذلك : ﴿ فإنْ أَطَعْنَكُمْ فَلاَ تَبْغُوا عَلَيْهِنَّ سَبِيلا إنَّ الله كان عليًا كبيراً ﴾ [1] .

فذكر أولاً المرأة الصالحة ومدحها ، ثم وضع علاجاً للزوجة المتمردة المشاكسة ، وبدأ هذا العلاج بالنصح والتوجيه والوعظ المؤثر ، لعل هذا النصح ينفع معها ، وتكون زوجة لها حساسية ، وعندها روح طيبة ، تقدر مسؤوليتها

---

١ ـ سورة النساء .

عن زوجها وأولادها ، فتكف عن تمردها ومشاكستها ، وتؤثر الحياة الزوجية الهادئة . . وينتهى بذلك كل أثر للخلاف بينهما ، ويعود الصفاء والهناء الى البيت .

ولكن الحكيم الخبير يعلم أن هناك صنفاً من الناس لا تنفع معه الموعظة الحسنة ، ولا يتأثر بها . بل ربما أغراه اللين والرفق بالتمادى فى غيه وتمرده . . وقد تكون الزوجة من هذا الصنف ، فشخص الله العلاج الثانى المناسب لهذه الحالة ، وقال : ﴿ **وأهجروهن فى المضاجع** ﴾ .

والله يعلم أن هجر المرأة فى المضاجع وابتعاد زوجها عنها فى هذه الحالة شيء يؤلمها ويهز احساسها ، لو كانت من ذوات الإحساس ويكسر كبرياءها وهو أسلوب عملى فى التأديب ، لكنه رقيق . . يشعر المرأة بغضب زوجها عليها وعدم رضاه من عملها ، ويحرمها من عطف وحنان تنتظرهما . . لعلها تفكر هى وتراجع نفسها فى هذه الحالة ، وتحاول أن تزيل ما فى نفس زوجها ، بالكلمة الهادئة المؤثرة ، وهى تملك الأسلحة المتنوعة لذلك الصفاء . . وكفى الله المؤمنين القتال . . ويعود الود والوئام بينهما إلى ما كان . وينصرف كل منهما لعمله راضياً ومستريحاً . .

ولكن . . ليس كل النساء سواء فى طبيعتهن وإحساسهن وعقلهن . فقد يكون منهن بليدات لا يؤلمها هذا الهجر ، ولا تردعها هذه المقاطعة . بل تعاند وتصر على سوء عشرتها وعلى تمردها بل هناك من تجد لذة فى ضربها لمرض نفسانى فيها . فماذا يكون العلاج ـ إذن ـ لمثل هذه الزوجة . ماذا يكون العلاج لمن لا تنفع فيها الموعظة الحسنة ولا الهجر والمقاطعة الصامتة . . أليس العلاج الباقى المناسب هو الشدة وهو الضرب . .

والناس أصناف : والأمراض أشكال . ولكل داء دواءُ .

فالعبد يقرع بالعصا
والحر تكفيه المقالة

إذا أنت أكرمت الكريم ملكته
وإن أنت أكرمت اللئيم تمردا

والضرب لمثل هذا الصنف المتبلد المعاند هو المناسب قطعاً . ولو كانت فى بيت أبيها ولم ينفع معها الذوق لعمد الى ضربها . . ومثل هذا يفعله مع الإبن وهذا هو الواقع الذى تفتضيه الحكمة وتقره كل أساليب التربية الحديثة منها والقديمة . .

ووضع الندى فى موضع السيف بالعلا
مضر كوضع السيف فى موضع الندى

والغاية من الضرب هو تأديبها وردعها ، ومحاولة اصلاحها لتظل فى بيتها ، وهذا بلا شك أفضل وأحسن من أن يسارع إلى تطليقها ، وهدم بيت الزوجية على رأسه ورأسها . . وتشريد أولادهما . وتعريض مستقبلهم إلى الخطر من بعدها . . ومع ذلك فإن القرآن لم يهمل ناحية الرجل ، لأن الآية فى آخرها تقول للأزواج :

﴿ **فإنْ أطعْنكُمْ فلا تَبْغُوا علَيْهِنَّ سَبِيلا** ﴾ ، فالغاية هى أن ترجع الزوجة عن عصيانها ، وتقلع عن تمردها ومشاكستها ، وتعيد للبيت هدوءه وراحته . والله سبحانه يأمر الأزواج فى هذه الحالة بعدم التعنت مع الزوجة أو التمادى فى الغضب والتسلط فيقول لهم : ﴿ **فلا تَبْغُوا عَلَيهِنَّ سَبيلاَ** ﴾ .

ثم يذكرهم بقدرة الله عليهم حتى لا يغتروا بقوتهم ، وينذرهم عاقبة تعنتهم مع زوجاتهم حين يقول لهم : ﴿ **إنَّ الله كان عَلِيًّا كبيرا** ﴾ ، وقد أوصى الرسول ﷺ الرجال إذا اضطروا لآخر الدواء أن يستعملوا غاية الرفق فى الضرب ، وألا ينتهزوا فرصة الإذن فيتهوروا ويجازوا حدود الرفق .

هذا هو العلاج العادل وهذا هو التشريع الحكيم المناسب . وهل بعد تشريع الله تشريع ، أو بعد علاجه علاج ، وهو الذى يقول : ﴿ **قُلْ أنْزَلَهُ الذِى يَعْلَمُ السِرَّ فى السَّمَوَاتِ والأرْض** ﴾ ولهذا نجده أنصف الصالحات القانتات . ومدحهن ، ووصف العلاج المناسب للمتمردات . وأخيراً أوصى الأزواج باعتدال ، وعدم التعنت ، وأنذرهم إذا هم خرجوا على هذا التوجيه واستسلموا للغضب ، واستمروا على ظلم الزوجة والشدة معها بعد أن تثوب إلى رشدها . .

فماذا تريد المعترضات إذن ؟ . . أم أنه التمرد على تشريع الله وكتابه ، والجرى وراء الهوى والتعصب ، والتمدن الكاذب دون فهم ودراسة وروية .

إن نظرة الإسلام للمرأة والرجل سواء أمام الله ، فالرجل من المرأة والمرأة من الرجل . فلا يمكن إذن فصل أحداهما من الآخر ، أو النظر اليه نظرة تكريم أو إهانة ، لمجرد أنه رجل أو أنه أنثى .

فالرجال أبناء ونساء ، بعضهم من بعض « وهن أمهاتهم أو أخواتهم أو بناتهم ، أو قريباتهم وكرامتهن من كرامة الرجال ومنزلتهن من منزلتهم . . بل نرى الطبيعة السليمة تحمل الرجال على الحفاظ على المرأة ، وتوفير كل نواحى الأمن لها ، ولو ضحوا فى سبيل ذلك ما ضحوا من جهد ومال . . وقد يحمل الرجل سلاحة ، ويخوض المعركة لأن أمرأة من قريباته تعرضت ، لنوع من الأعتداء ولو كان كلمة ، وربما تسامح الرجل وسكت لو كان هو أو أحد من أقربائه هو الذى تعرض لهذا الاعتداء . .

وماذلك إلا لإحساس الرجل بالواجب الخاص عليه نحو تكريم المرأة وإعزازها . . وصايتنها من كل ما يسىء اليها . .

ولقد جاء الإسلام فغذى هذا الإحساس الطيب نحوها . وقضى على ما كان يخالفه من نظرات أو إحساسات سيئة بالنسبة لها عند بعض الناس . . سواء أكانوا فى شبه الجزيرة العربية ، أم فيما حولها من الشرق أو الغرب ، فلا يصح النظر لأحدهما نظرة قائمة على نوع الخلقة ـ فلا يكون مقياس التفاضل أو التكريم أن هذا ذكر ، وهذه أنثى . . بل مقياس التفاضل هو العمل والخلق . .

﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً مَنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُ حَيَاة طَيِّبَةً وَلَنَجْزَيَنَّهُم أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُون ﴾ [١] .

﴿ وَمَنْ يَعْمَلْ مِنَ الصَّالِحَات مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُو مُؤمِنٌ فَأُولَئِكَ يَدْخُلونَ الجَنَّةَ ولاَ يُظْلَمُونَ نَقِيرا ﴾ [٢] .

---

١ ـ النحل . ٩٧ .

٢ ـ النساء : ١٢٤ .

ويتكرر هذا كثيراً فى القرآن ليطرد من الأذهان فكرة تفضيل الرجل على المرأة لأنه رجل ، فربما اغتر الرجل بما اعطاه الله إياه من قوة أو قوامة على المرأة ، فيظن أنه أقرب منها إلى الله أو تسيء المرأة الظن بنفسها فتتوهم أن الرجل بقوامته أقرب إلى الله منها . . فحرص القرآن لذلك على بيان أن باب القرب إلى الله منها . . فحرص القرآن لذلك على بيان أن باب القرب الى الله مفتوح للإثنين ـ الرجل والمرأة ـ يتسابقان فيه ، والفضل للسابق منهما رجلا أم امرأة ﴿ لا أُضيعُ عَمَلَ عَامِلٍ منْكُمْ مِنْ ذكرٍ أَوْ أُنثى ﴾ .

إن تعمير الكون كما أراده الله قائم على وجود الذكر والأنثى من كل نوع فى الإنسان والحيوان والنبات وغير ذلك مما وصل إليه العلم وما لم يصل إليه بل إن ذلك من مظاهر القدرة والحكمة ﴿ وَمِنْ كُلِّ شيْء خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُون ﴾ [٣] .

﴿ سبْحان الذى خَلَقَ الأزْوَاجَ كلَّهَا مما تُنْبِتُ الأرْضُ وَمِنْ أنفُسهم وَمما لا يعْلمون ﴾ [٤] وكل من الذكر والأنثى له فضله ودوره الذى أناطه الله به فى حفظ النوع وقيام الأسرة وتعمير الأرض ، فلا فضل لأحدهما على الآخر راجعاً إلى أصل الخلقة ، وإنما فضل الإنسان فى عمله وعقيدته . .

ومن أجل هذا حمل الإسلام حملة عنيفة على الذين يفرقون بين الذكر والأنثى فى الحب والمعاملة ، وينظرون إلى البنت نظرة سيئة تحملهم على إهانتها وسوء معاملتها ، واعتبر ذلك خروجاً على سنة العدل .

يقول تعالى عن هؤلاء يحكى حالهم السيئة :

﴿ وَإذَا بُشِّرَ أحَدُهُم بِالأنْثَى ظل وَجْهُهُ مُسْوداً وهُو كَظِيمٌ يتوارى من القَوْم مِنْ سُوء ما بُشر بِهِ أيُمْسِكُهُ على هوْنٍ أمْ يَدُسُّهُ فى التُرابِ ألاَ سَاءَ ما يحْكُمُونَ ﴾ [١] .

---

٣ ـ سورة يس ٢٦ .

٤ ـ الذاريات . ٤٩ .

١ ـ النحل .

ويهجم الإسلام هجوماً مضاداً على العقلية التى تكره البنت وتنظر اليها نظرة إهانة أو إهمال ... فيولى تربية البنات والعناية بهن رعاية خاصة - مع رعايته العامة لتربية الأولاد عموماً . فيقول رسول الله ﷺ : « **من كان له ابنة فأدبها فأحسن تأديبها ، ورباها فأحسن تربيتها ، وغذاها فأحسن غذاءها كانت له وقاية من النار** »

وهذه عناية خاصة من الرسول بالبنت ليقضى على ما تعوده الجهلاء من الناس - من إهمال تربيتها والعناية بها . .

ومن هذا القبيل أيضاً ما قرره الرسول ﷺ من فضل خاص للأمهات على الآباء حين يقول : « **الجنة تحت أقدام الأمهات** » وحين جاء رجل يسأله عن أحق الناس بحسن صحابته فيقول له : « **أمك** » ويعاود الرجل سؤاله ثم من ؟ فيقول له « **أمك** » ويكرر التوصية بها ثلاث مرات ، ثم يقول له فى المرة الرابعة « **ثم : أبوك** » وفى هذا تكريم للأمومة وهو دور البنت إذا كبرت ، وبذلك يشمل الإسلام الأنثى بعناية خاصة فى صغرها وفى كبرها . .

وأصرح من هذا وأعم قول الرسول ﷺ الذى ساقه فى شكل قاعدة عامة لأمته حين قال :

« **ما أكرم النساء إلا كريم وما أهانهن إلا لئيم** » .

« وفى هذه إثارة لنخوة الرجال ومروءتهم إلى مايحبون : فمنْ من الرجال لا يحب أن يكون كريما عند الناس وعند الله ، ومن منهم يقبل أن يكون لئيما . .؟ إن ميزان الكرم أو اللوم هو طريقة معاملته للنساءِ

ثم يقرر الرسول ﷺ هذا المعنى فى ثوب آخر فيقول :

« **أكمل المؤمنين إيماناً أحسنهم خلقاً** [1] ، **وخياركم خياركم لنسائهم** » .

ولم ينس الرسول وهو فى حجة الوداع حين قام يحدث صحابته حديثه المركز الجامع لم ينس المرأة بل خصها بعنايته وأوصاهم بحسن معاملتها . فقال لهم : « **ألا فاستوصوا بالنساء خيراً** » .

---

١ - ابن حجر العسقلانى فى المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية .

تلك هى الخطوط أو المبادىء العامة لعناية الإسلام بالمرأة ، وحسن رعايته وتكريمه لها ، وعلى هذه المبادىء قامت التشريعات التفصيلية الخاصة بها ، ولقد كانت هذه المبادىء والتشريعات وستظل خير ما كفلته الشرائع والقوانين من إنصاف ورعاية وتكريم . . وليت المرأة المسلمة التى يبدو من بعضهن التمرد تعرف نفسية المرأة الغربية وما أصابها من تمزق ، بل ما أصاب الأسرة نفسها من هذا التمزق نتيجة الحياة المادية التى تطغى روابطها على كل الروابط ، ولقد قرأت لغربيات يبدين فيها كتبن غيرتهم من المرأة الشرقية المسلمة التى يحيطها الرجل بكل عنايته وغيرته ، ويتمنين أن يعشن فى كنف مثل هذه العناية والغيرة . وإذا كانت هناك أشياء تشكو منها المرأة فلتحتكم للإسلام فانه لاشك منصفها .

١٧ وليس المرأة هى التضحية وحدها

فى موجة التقليد للغرب بلا وعى ولا تنسيق بل ولا إعداد لمواجهة الاحتمالات التى تترتب على هذا التقليد فتح الباب للمرأة كى تتعلم وتعلم فى كل مجال . والإسلام يرحب بل يدعو إلى تعليم المرأة ، كما يتعلم الرجل ، ويرحب كذلك بأن تشارك الرجل فى حمل الأعباء ، ومساعدته على النهوض بمسئوليته تجاه بيته ، وتجاه وطنه ، ولكنه رسم لذلك كله الطريق الذى يهيىء للمرأة أن تتعلم فى جو كريم ، لا تجرح فيه ولا تحرج ، حتى تجنى ويجنى المجتمع معها ثمار علمها دون أشواك تدمى وتجرح . . كما رسم لها الطريق الذى تمشى فيه لتعمل ، وتعطى المجتمع كما أعطاها ، وتجزيه الخير كما جزاها ، ولكنه لم ينس مهمتها الكريمة ، ووظيفتها الطبيعية ، وهى الأمومة فجعلها أقدس وظيفة لها ، وأشرف مجال لعملها . . لا يمكن أن يطغى عمل آخر عليها ، وجعل الأمومة مسئولية وشرفاً ، مسؤولية تتحمل المرأة عبئها ، وشرفاً من أجله جعل الجنة تحت أقدامها ، وجعل حقها أضعاف حق الوالد على أولادهما . .

ولكنى ألاحظ ـ مع الاشفاق الشديد على المرأة ـ أن موجة التقليد فى العمل جعل المرأة تنظر اليه ، على أنه هدفها الأكبر من تعليمها ، وساعدها على ذلك مجتمعها الذى ينطلق معها تحت آثار التقليد . . دون أن يهيىء لها الظروف النفسية والمادية التى تساعدها على أداء وظيفتها فى بيتها وعلى القيام خارجه بعملها . فكان كل همنا وهمها أن تقلد فى العمل ، دون أن تقلد الغرب فى الظروف التى هيأها للمرأة العاملة . .

فالغربيون بتكوينهم النفسى لا يأنفون غالباً من معاونة المرأة فى البيت ، كما

أن وسائل المعيشة أصبحت لديهم ميسرة ، بفضل الآلات الحديثة الميسرة ، وبفضل المتاجر التى تهيىء كل شيء للبيت ، وتحمل عن المرأة عبئا كبيرا فى تجهيز الطعام ، حتى لم يعد الغسل أو الطبخ بمثابة مشكلة كبيرة عندهم .

وبجوار ذلك هيأ للأمهات دور الحضانة التى تمكنهن من تسليم الأطفال لها وهن مطمئنات ، فيتمكن من الإنصراف لعملهن وأدائه على الوجه المطلوب منهن . .

ولكن مع كل ماوفره العلم الحديث ، ومع الاهتمام بالأطفال وإنشاء دور الحضانة التى تستوعبهم هناك ، فإن هؤلاء الأطفال قد فقدوا جانباً كبيراً مما كانوا يستحقونه من دفء الأمومة وحنانها ، ولم تعد الأم عندهم كل شيء فى تنشئتهم وتربيتهم ، وإحاطتهم بالعطف ودفء الحنان ، لأن الحاضنات أو الشغالات قد قامت بدور كبير فى تربية هؤلاء الأطفال فلم يشعروا نحو الأمهات بما يشعر به الأطفال الذين تربوا فى دفء الأمومة ورعايتها المستمرة ، وكان من ذلك تفكك الأسرة ، والإنحراف الذى يصيب الأولاد منذ صغرهم ، ، مما أثار الإشفاق على الأجيال الناشئة [1] .

ونحن هنا قد رضينا بأن تعمل المرأة وتتحمل من مشاق العمل ما يتحمله الرجال ، وتشارك الرجل فى حمل مسئولية الإنفاق على البيت ولكن :

هل تهيأت نفوس الرجال لمعاونة المرأة فى البيت حين يعود الجميع من العمل حتى لا تتحمل المرأة وحدها عبء بيتها ؟ .

هل هيأنا للأطفال دور الحضانة التى تستوعبهم حتى تطمئن الأم ويطمئن الأب على أطفاله ولو بعض الأطمئنان ؟ مع مافى ذلك من خطورة على الأبناء شعر بها المفكرون الغربيون أخيرا . .

---

١ ـ يقول الدكتور كارل : الطفل الذى لم يجد عناية كافية من أمه أيام الحداث ينشا شاذا غير مستقيم السلوك ويقول العالم الانجليزى سامويل سمايلس : ان النظام الذى يقتضى بتشغيل المرأة فى العمل مهما ينشا عنه من الثروة للبلاد فإن نتيجته هادمة لبناء الحياة المنزلية ، لانه يهاجم هيكل المنزل ويقوض اركان الاسرة ، ويمزق الروابط الاجتماعية ، ص ٩٤ ، ٩٥ من كتاب (نظرية العلاقة الجنسية فى القرآن) للأستاذ محمد مهدى الأصفى ـ العراق .

هل قامت المتاجر والجمعيات عندنا بتخفيف العبء عن المرأة فى البيت فاختصرت لها المجهودات التى تقوم بها لإعداد الطعام وغسل الملابس ؟ وهل وهل ؟

الواقع أن شيئا من ذلك لم يكن . . والواقع أننا اندفعنا لتعمل المرأة ، ولكن لم نهيىء لها الظروف التى تخفف عنها العبء . أو ترعى الأطفال ، أو حتى الذهاب لعملها والعودة منه فى كرامة !!.

فرحت المرأة بأنها تخرج وتعمل وهى تقاسى مع ذلك فى القيام بواجباتها المنزلية ما تقاسى .

وفرح الرجل بما تضيفه زوجته العاملة إلى دخله ولم يقابل ذلك معاونتها ولا بتهيئة الظروف المخففة عنها . . فكانت المرأة هى الضحية . . وكان الأولاد هم الضحية الكبرى ولاسيما فى الأوساط الغالبة التى لا تسطيع توفير المربية المناسبة فى البيت ونحن جميعا مسوقون إلى الرضا بهذه الضحايا . . مع الأسف الشديد .

وكان ذلك كله نتيجة التقليد بلا وعى ولا إدراك . .

﴿ وإذا قِيل لَهُمْ اتبِعُوا ما أنزَل الله قالوُا بلْ نتَّبع ما وجدنا عليه آباءنا أو لو كان الشَّيْطانُ يَدعُوهُمْ إلى عذاب السَّعير . . ﴾ (١)

وهؤلاء الذين يقلدونهم ليسوا آباءهم ولا أناساً من بيئتهم ولا صلة حتى بماضيهم إنما هو تقليد على كل حال بدون نظر ووعى . . ودون بصر ومعرفة بأحوال الذين تقلدهم ونفسياتهم ونتائج أعمالهم . وهل سعدوا بما هم فيه أو شقوا . إن الذين يتابعون أوضاع المجتمع الغربى فى ظل دخول المرأة للعمل فى كل ميدان وتركها لامور البيت والأولاد يبدون قلقاً شديداً على مصير مجتمعهم ، وعلى مصير الأجيال المقبلة التى تتربى الأن بعيدة عن عناية البيت وحنان الأم والأسرة . . وهذه أخطار لم نفطن لها ولم ندرسها ولم نأخذها بعين الاعتبار حين اندفعنا للتقليد . . بل واعتبرنا ذلك نوعاً من أنواع التقدم ، وشارة عليه .

---

١ ـ سورة لقمان : ٢١ .

لست من دعاة حجب المرأة لا عن التعليم طبعا ولا عن مشاركتها بالعمل فى تقدم وطنها . . ولكنى أستطيع القول بأنى من دعاة التمهل والدراسة لكل خطوة نخطوها لاسيما اذا كان لها آثار اجتماعية تتصل بكياننا الاجتماعى وصلاحيته وصلابته الخلقية والاجتماعية . .

إننا فى مجال الصناعة حين ننوى إقامة صناعة عندنا ندرس أحسن مايوجد لدى الغرب والشرق من آلات ومن نظام التشغيل . . . ألخ . ونختار ما يناسب جونا وظروفنا ومقدرتنا .

وليس هذا بأولى من الأنظمة الاجتماعية التى تتصل بكيان البيت والأسرة والعمل .

إن العقلاء فى الغرب يشكون مر الشكوى ، ويرفعون علامات الخطر وينفخون فى أجهزة الإنذار لما يرونه من أخطار تهدد مجتمعهم بسبب اندفاع المرأة للعمل خارج البيت وفى كل مجال سواء كان هذا الخطر لاحقا بالنساء أنفسهم أو بالبيت .

ففى احصائية أعدها الاتحاد العام للتعاون فى ألمانية الفيدرالية عن حياة الأمهات اللواتى يشتغلن خارج نطاق البيت جاء فيه :

« إن المرأة فى القرن العشرين أخذت تدفع ثمن اشتراكها فى الحياة العملية ومساواتها بالرجال فى العمل غالبا من سعادتها وراحتها . ففى ألمانيا تعمل أكثر من مليون أم خارج البيت وكانت نتيجة الاستفتاء العام الذى وجه اليهن أن ٧٢٪ منهن مصابات بالعصاب وحالات الضعف العام واختلال الدورة الدموية والأمراض القلبية ، ٦٩٪ منهن عندما يرجعن للبيت ليلا لا يستطعن أن يقمن بأى عمل من شدة الإرهاق الذى يصيبهن فى ساعات العمل ، ٤٣٪ كن قد راجعن الأطباء للعلاج فى ذلك العام » أ هـ .

وربما كانت نتيجة هذا أن رأينا فى بعض البلاد الغربية تهافت المرأة على الزواج وترك العمل ففى اسكوتلاندا شمال الجزر البريطانية « انزعجت السلطات التعليمية فيها بسبب موجة الزواج التى تعصف بالمدرسات فقد تبين

أنه فى خلال سنة ١٩٦٠ عينت ١٩٦٣مدرسة وفى نهاية العام الدراسى تركت ١٠٠٠ منهن الوظيفة للزواج » .

ثم كانت نتيجة الاستفتاء العام الذى قام به معهد « غالوب » فى أمريكا بين النساء العاملات :

« إن المرأة متعبة الآن ، ويفضل ٦٥٪ من نساء أمريكا العودة إلى منازلهن ، كانت المرأة تتوهم أنها بلغت أمنيتها أما اليوم وقد أدمت عثرات الطريق قدمها ، واستنزفت الجهود قواها فإنها تود الرجوع إلى عشها والتفرغ لاحتضان فراخها » .

ولعل ذلك أيضا هو الذى دفع بعض أعضاء مجلس العموم البريطانى إلى التقدم باقتراح بعدم قبول طلب المرأة المتزوجة للعمل إلا بعد الاكتفاء بالرجال .

كما دفع أعضاء الكونجرس الأمريكى للاجتماع لمناقشة موضوع منع الأم التى لديها أطفال من العمل مهما كلفها ذلك ، لأن اشتغال الأمهات يسبب مشكلات اجتماعية واقتصادية لا حصر لها .

وارتفعت أصوات تقول . . إن الله عندما منح المرأة ميزة إنجاب الأولاد لم يطلب منها أن تتركهم لتعمل خارج البيت بل جعل مهمتها البقاء فى المنزل لرعاية الأطفال .

كما ارتفعت تعليقات أخرى « إن المرأة تستطيع أن تخدم الدولة حقا إذا بقيت فى البيت الذى هو كيان الأسرة [1] .

واعتقد أن هذه التقديرات عما تعانيه المرأة ويعانيه المجتمع فى الغرب ليس بغريب علينا ولا ببعيد إدراكه الآن لاسيما لدى أولئك الذين جربوا ويجربون مشكلة العمل والأولاد والزوج . فى مجتمع لما يوفر للآن ما وفرته المجتمعات الغربية للمرأة العاملة من أدوات التخفيف عنها ، ومع كل ما وفره الغرب فهذه

---

١ ـ المصدر السابق ص ٩٧ . ٩٨ .

هى أصوات النذير يرفعها الدارسون والمصلحون هناك من اندفاع المرأة للعمل . وخطر ذلك على أوضاعهم الاجتماعية فهل نستفيد من أخطاء غيرنا ؟ .

١٨ صلة الرحم

روى الإمام أحمد عن عبدالرحمن بن عوف رضى الله عنهما قال : ان رسول الله ﷺ قال :

قال الله عز وجل : ﴿ أنا الرحمن خلقت الرحم وشققت لها اسما من اسمى فمن يصلها أصله . ومن يقطعها أقطعه فأبته ﴾ .

الرحم التى توصل وتقطع ، والتى أنزلها الله هذه المنزلة وجعل لها هذه المكانة ، إنما هى معنى من المعانى الكريمة التى تقوم بين الناس ، وهى القرابة التى تربط الأفراد ، وتشد الأسر بعضها ببعض ، وصلة الرحم تكون بحسن الأقوال والأفعال ، وبذل الأموال لمن تربطك به صلة نسب وقرابة . .

فتتأكد بذلك الروابط بين الأقارب ، وتقوى المودة بينهم ، فيتعاونون فى سراء الحياة وضرائها ، ويعيشون جميعا فى ظل هذا الترابط وهذه المودة ، وذلك التعاون ، أسرة واحدة متحابة ، يأخذ القوى منها بيد الضعيف ، والصحيح بيد المريض ، والغنى بيد الفقير ، يعيشون بأحساس واحد مشترك ، يألم الواحد منهم لألم أخيه وقريبه ، ويفرح لفرحه .

والحياة فى ظروفها ومتاعبها ومفاجآتها تحتاج لمثل هذا الترابط ، فالإنسان لا يقوى على مجابهتها ، ولا يصمد أمام تياراتها ، فلابد من إنسان يقف بجانبه ، يعينه عليها ، ويساعده على تحمل مشقاتها ، وتخفيف حدتها ، حتى فيما تأتى به من أفراح يشعر الإنسان بالحاجة إلى من يقف معه فيها ، يشاركه أفراحه ، ويساهم معه فى اغتباطه ومسؤولياته ، ليزداد بذلك شعوره بالفرحة ، ويتضاعف احساسه بالغبطة .

وأولى الناس بالوقوف مع الإنسان فى أيام الحزن والفرح ، والشدة والرخاء ، هم أقاربه الذين تجمعهم وأياه صلة نسب وقرابة .

فإذا تجاوب الأقارب مع هذا المعنى ، وحققوه فى صلاتهم بعضهم ببعض ، كانوا واصلين لأرحامهم ، بارين بقرابتهم ، وأصبحوا تبعا لذلك قوة متماسكة ، وجماعة مترابطة متعاونة ، ولبنة قوية فى بناء مجتمع قوى سليم .

ومن أجل هذا ، من أجل تجميل الحياة بالأحباب حول الإنسان ، عنى الإسلام بصلة الرحم هذه العناية الخاصة ، وجاءت الأيات والأحاديث تبين فضل هذه الصلة ، وتبرز محاسنها وتعدها صفة بارزة من صفات المؤمنين ، أولى الألباب ، الذين يحرصون على رضا خالقهم ، ويخشون سوء الحساب فى آخرتهم ، فكانوا بذلك من سعداء الدنيا والآخرة .

يقول الله سبحانه :

﴿ إنما يتذكر اولو الألباب الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب ﴾ (١)

والأقارب وذوو الأرحام هم فى مقدمة من أمر الله بوصلهم ، والبر بهم ، والعطف عليهم ، على درجات متفاوتة ، حسب صلتهم بالإنسان ، وحسب استحقاقهم لهذه الصلة ، وقد وعد الله هؤلاء المؤمنين بحسن المآب فى الآخرة فقال :

﴿ أولئِك لَهُمْ عُقْبَى الدَّار جنَّاتُ عذن يَدْخُلونها ومن صلح من آبائِهِمْ وأزْوَاجِهِمْ وذُرِّيَّاتِهِم والملائكة يدخُلون عليْهِمْ منْ كُلِّ بابٍ سَلامٌ عليْكُم بِمَا صَبرْتُمْ فنِعْم عُقْبى الدَّار ﴾ (١)

وذلك فى الوقت الذى جعل الله فيه قطيعة الرحم والإساءة الى الأقارب صفة من صفات المنافقين الذين يستحقون لعنة الله وغضبه فيقول :

﴿ والذين يَنْقُضُون عَهْد الله من بعْدِ مِيثاقِهِ ، ويقطعُون ما أمر الله بِهِ أنْ يُوصَل ويُفْسِدُون فى الأرْض أولئِك لَهُمْ اللَّعْنةُ ولهُمْ سُوء الدَّار ﴾ (٢) .

---

١ - ١ - ٢ - الرعد : ١٩ - ٢١ . ٢٢ ، ٢٤ . ٢٥ .

وفى أية أخرى يجعل الله قطيعة الرحم صفة تجلب لصاحبها سوء العاقبة واللعنة للجبناء قاطعى الأرحام :

﴿ فهَلْ عسيتُم إنْ تَوَلّيْتُم أنْ تُفْسِدُوا فى الأرْض وتُقطّعُوا ارحامكم ، **أولَئِكَ الذِين لعنهُمُ الله فأصَمَّهُم وأعْمَى**أبصارهم ﴾ [٣] .

وقد صور لنا الرسول ﷺ قيمة صلة الرحم وقطيعتها عند الله فى قوله :

« إن الله خلق الخلق ، حتى اذا فرغ منهم ، قامت الرحم فقالت : هذا مقام العائذ بك من القطيعة ، قال : نعم . أما ترضين أن أصل من وصلك وأقطع من قطعك . قالت : بلى . قال فذلك لك » [١] .

ثم قال رسول الله ﷺ اقرأوا إن شئتم : **﴿ فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم ، أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها »** [٢] .

ويقول الرسول ﷺ يبين أثر قطيعة الرحم فى الدنيا والآخرة :

« ما من ذنب أحرى أن يعجل الله تعالى عقوبته فى الدنيا ، مع ما يدخر لصاحبه فى الآخرة ، من البغى وقطيعة الرحم » [٣] .

وفى كلمات وجيزة يخبر الرسول عليه الصلاة والسلام بما لقاطع الرحم فى الآخرة فيقول : **« لا يدخل الجنة قاطع الرحم »** .

وبجوار ذلك يرغب ﷺ فى صلة الرحم ويغرى كل مسلم بالحرص عليها فيقول :

« من أحب أن يبسط له فى رزقه ، ويُنْسأ له فى أجله فليصل رحمه » [٤] .

---

٣ ـ محمد : ٢٢ ـ ٢٣ .

١ ـ اخرجه ابن ماجه فى سننه .

٢ ـ محمد : ٢٢ ـ ٢٣ .

٣ ـ انظر الجامع الصغير ورمز له بالحسن .

٤ ـ البخارى ومسلم فى صحيحهما .

ومن منا لا يحب أن يوسع له الله فى رزقه ، ويمد له فى أجله ، بطول العمر أو بالذكرى الحسنة بعد وفاته ؟ ـ والذكرى : للانسان عمر ثان ـ .

كلنا يحب ذلك ويحرص عليه ، وقد رسم لنا الصادق عليه الصلاة والسلام الطريق إلى ذلك ، وهو صلة الرحم ، والبر بالأهل والأقارب ، على اختلاف درجاتهم فى القرابة كل يؤدى له ما يستحقه من البر وحسن الصلة . .

ولقد بلغ من عناية الله بهذه الصلة ، واهتمامه بها ، أن جعل أسبابها نعمة من الله ومنة له على خلقه . اقرأ معى قوله تعالى :

﴿ وَهُوَ الذِى خلق مِن المَاءِ بشراً فجعلهُ نَسَباً وصِهْراً وكان رَبُّك قديراً ﴾ [1] . فيجوار ما يبرز فى هذا من قدرة الله جعل منه رابطة تربط الناس بصلات القرابة والمودة .

ولكن هناك من الأقارب من يسيئون إلى الإنسان ، فهل يكون هو فى حل حينئذ من عدم البر بهم والإحسان إليهم ، وهل يجوز له ، فى هذه الحالة أن يقابلهم بالمثل ؟ .

لا . . إن ذلك لو جاز لكان معنى ذلك التمادى فى الإثم ، والعمل على اتساع الخرق ، وازدياد القطيعة بين الأقارب . . ولذلك يوصينا رسول الله ﷺ بأن نحرص على البر بالأقارب والإحسان اليهم ، وإدامة الصلة بهم ، حتى ولو أساءوا الينا ، فإن الصلة بمعناها الحقيقى الكريم الذى يقصد به وجه الله وحده ، إنما تكون فى مثل هذه الحالة . ولذلك يقول ﷺ : « ليس الواصل بالمكافىء » أى الذى يرد على حسن صلة قريبه له بمثلها ، لأن الصلة حينئذ تكون مكافأة ومقابلة بالمثل ، قد يدفع اليها مجرد المجاملة ، وخوف الإحراج والقيل والقال .

ويكمل الرسول ﷺ حديثه وارشاده لنا فيقول : « ولكن الواصل الذى إذا قطعت رحمه وصلها » نعم . . إن الصلة حينئذ تكون خالصة لله وامتثالا صرفاً لأمره ، ورغبة قوية فى رضاه . . وفى هذه الحالة يعينه الله ويجزل له الثواب .

---

١ ـ الفرقان ٥٤ .

وقد تكون هذه المعاملة الحسنة دافعة لهم على تغيير معاملتهم له فيقلعون عن الإساءة اليه ، ويقدرون خلقه وكرمه ، فيندفعون الى حبه ، ويكونون من أحسن الناس صلة به تحقيقا لما يقوله الله سبحانه .

﴿ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فإذا الذى بَيْنَك وَبَيْنَهُ عَداوةٌ كأنهُ ولِيٌّ حميم ﴾ [1] .

وقد جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال : يارسول الله أن لى ذوى أرحام أصلهم ويقطعون ، وأعفو ويظلمون ، وأحسن ويسيئون ، أفأكافئهم ؟- أى أرد عليهم بالمثل ؟. فقال ﷺ : **« لا ، إذن تتركون جميعا (أى من رحمة الله) ، ولكن جد بالفضل ، وصلهم ، فإنه لن يزال معك ظهير من الله ماكنت على ذلك** [1] .

حياة من الدفء العاطفى ، والصلة الرحيمة ، والحنان الدافق ، يصنعها الإسلام للإنسان ، وهو يوجهه إلى أن يكون دائما باراً بذوى رحمه .

حياة من التماسك والتعاون النابعين من القلب ، فى الأسرة الواحدة ، يصنعها الإسلام للإنسان ، وهو يشدد عليه بأن يكون باراً بذوى رحمه .

حياة يصنعها الإسلام لأبنائه ، ويوصيهم كثيرا بأن يحرصوا عليها لأنها سر سعادتهم أو أساس بنيانهم .

ومن منا لا يسعد ، حين يرى أقاربه كلهم حوله بقلوبهم ؟

لايزال هذا الدفء العاطفى ميزة من ميزات الأسرة الشرقية المسلمة فى نظر الغربيين الذين مزقت المادة حياتهم .

---

١ ـ فصلت ٣٤ .

١ ـ أخرجه مسلم فى صحيحه باب البر وصلة الرحم فانظره .

١٩ بناء الاسرة

قال الله تعالى :

﴿ وَمِنْ آيَاته أنْ خَلَقَ لَكُم من أنفُسكُم أزْواجاً لِّتَسكُنُوا إلَيْهَا وجَعَلَ بَيْنكُم مَوَدَّةً ورحمَة إنَّ فى ذَلِكَ لِقَوْم يَتَفَكَّرُون ﴾ [١] .

الأسرة هى الخلية الأولى فى جسم المجتمع ، وهى لبنة من لبنات بنائه ، فإذا لم تكن الخلية سليمة صحيحة ، واللبنة قوية متماسكة ، فإنه لا ينتظر من الجسم أن يقوى ، ولا من البنيان أن يتماسك ويستقيم .

لذلك عنى الإسلام عناية خاصة بتكوين هذه الخلية . وهى الأسرة وأحاطها بضمانات قوية منذ بدء نشأتها ، وفى أدوار تكوينها ونمائها ، حتى يضمن بذلك ايجاد الأسرة الإسلامية القوية المتحابة ، المتضامنة السعيدة ، ويضمن بالتالى وجود المجتمع الإسلامى القوى السعيد .

والأسرة تبدأ من شخصين زوج وزوجة . . وهما الحجر الأساسى فى بنائها ، أو هما التربة التى تنشأ فيها شجرة الأسرة ، وتنمو وتثمر ، وعلى قدر صلاحيتها وسلامتها ، يكون النبات الذى ينبت فيها وتكون الثمرة .

﴿ والبَلَدُ الطَّيِّبُ يَخْرُجُ نباتُه بإذن ربِّهِ والَّذى خَبُثَ لا يَخْرُجُ إلَّا نَكِداً ﴾ [٢] .

ومن أجل هذا يوجه الإسلام عناية خاصة لإيجاد هذا الأساس وتوفير هذه

---

١ ـ الروم : ٢١ .

٢ ـ سورة الأعراف : ٥٨ .

التربة فيقول الرسول ﷺ : « **تخيروا لنطفكم فانكحوا الأكفاء وانكحوا اليهم** » .

ويرشدنا إلى ما نختاره ، ويؤثر لنا أن نختار الزوجة ذات الخلق والدين ، فيقول :

« **فاظفر بذات الدين** »[١] ثم يوجه والد الفتاة أو ولى أمرها أن يختار لها رجلا صاحب دين وخلق ، وينذر كل جماعة تهدر ناحية الدين والخلق حال اختيار الزوج وتؤثر عليها ناحية المال أو النسب فيقول :

« **إذا جاءكم من ترضون دينه وخلقه فزوجوه إلا تفعلوا تكن فتنة فى الأرض وفساد كبير** »[٣] .

وضرب لنا رسول الله ﷺ وهو وصحابته والتابعون رضوان الله عليهم أمثلة حية في هذه الناحية ، حين كانوا يفضلون المولى صاحب الدين والخلق والسبق فى الإسلام ، على القرشى الغنى ، وقد علمنا من التاريخ أن سعيد بن المسيب رضى الله عنه أثر لابنته تلميذاً له فقيراً على خليفة من خلفاء المسلمين ، لأنه رأى أن تلميذه أسلم ديناً وأقوى خلقاً .

ولم يقف الإسلام عند هذا الحد فى تكوين الأسرة ، بل واصل رعايته لها ، فأوصى كلا من الزوج والزوجة بحسن المعاشرة ، أوصى الزوج بأن يرفق بزوجته ، ويلين لها جانبه فإن المرأة : « **خلقت من ضلع أعوج فإذا ذهبت تقيمه كسرته ، فاستوصوا بالنساء خيرا** » ، كما أوصى الزوجة أن تكون سنداً لزوجها وراعية أمينة على بيته ، حافظة لشرفه وكرامته . .

وفى ظل هذه الزيجة الصالحة والبيت الهانىء السعيد ينشأ الأولاد ويشبون ، ومن الطبيعى أن يمد الإسلام رعايته لهذا النبت الجديد ، فينظم له أمر رضاعته ونفقته وحضانته ، وتعليمه وتربيته ، ويضع لذلك كله التشريعات الملزمة التى تكفل للأولاد حسن النشأة ، حتى يكونوا أعضاء صالحين فى مجتمعهم . فيقول

---

١ ـ اخرجه ابن ماجه فى السنن والحاكم فى المستدرك والبيهقى فى السنن وقال عنه صحيح الأسناد .

٢ ـ جزء من حديث أخرجه البخارى ومسلم فى صحيحها ، وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن أبى هريرة ورمز له السيوطى بالصحة .

الرسول ﷺ : « **الزموا أولادكم وأحسنوا أ.بهم** »[١] .

وحرم على الآباء أن يفرقوا فى المعاملة بين الأبناء ، أو يفضلوا بعضهم على بعض . . لأن التفضيل يثير الحزازات فى النفوس ، ويفكك روابط الأسرة ، وحين جاءه أحد صحابته يريد أن يؤثر بعض أولاده بشيء من ماله ويشهد الرسول على ذلك رفض الرسول الشهادة وقال : « **لا أشهد على جور** »[٢] .

وقال للرجل : « **أتحب أن يكونوا لك فى البر سواء ؟ قال : نعم . . فقال له** الرسول ﷺ :

« **اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم** »[١] .

ثم لم يهمل الإسلام علاج المشاكل التى قد تنشأ بين الأسرة ، بل وضع لكل مشكلة علاجها ، وهدفه من ذلك توفير الجو الصالح ، لتسير الأسرة فى حياتها هانئة وادعة ، وينشأ الأولاد نشأة كريمة صالحة . .

وحين يميز الأولاد ويشبون يوجههم الإسلام الى طاعة الوالدين ، والاستماع لتوجيهاتهما لما فيها من خير لهم ، وإحسان معاملتهما ، والبر بهما ، تقديراً لجهودهما ، ولما تحملاه من متاعب ، ومصاعب وآلام ، فى سبيل تربيتهم ، وجعل الإساءة اليهما من أكبر الذنوب التى يجنى الابن عقوبتها فى الدنيا قبل الآخرة ، وأوصي الرسول كذلك أن يحسن الأخ معاملة أخيه وأخته ، وكل الذين يعيشون حوله فى محيط الأسرة ، مراعاة لحقوق القرابة ، وتدعيماً للروابط بين الأسرة . . فقد روى أبو داود أنه قيل : يارسول الله من أبر ؟ قال : « **أمك وأباك وأختك وأخاك ومولاك الذى يلى ذلك ، وهو واجب ورحم موصولة** »[٢] .

ولم يعمل الإسلام على توسيع دائرة الميراث فى الأسرة عما كان عليه العمل فى الجاهلية ومازال مثله فى أوربا حتى الآن إلا كوسيلة من وسائل تدعيم الروابط

---

١ ـ مفتاح كنوز السنة .

٢ ـ أصحاب السنن .

١ ـ متفق عليه .

٢ ـ البخارى ومسلم فى صحيحيهما .

بين أفراد الأسرة ، وشد أفرادها بعضهم إلى بعض ، فنزل القرآن ينظم الميراث ويعين المستحقين له ، وأنصبتهم فى التركة ، فى آيات متعددة منه . ثم لم يهمل مع ذلك بقية أفراد الأسرة ، الذين لم يجعل لهم نصيباً فى الميراث ، بل أوصى ببرهم وإعطائهم شيئا من التركة ، استرضاء لنفوسهم ، واستدامة للروابط العائلية ، وتقويتها بينهم ، فقال تعالى :

﴿ وَإذا حَضرَ القِسْمَة أُوْلُوا القُربى واليَتامى والمساكِينَ فارْزُقُوهُمْ مِّنْهُ وَقُولُوا لَهُم قَوْلاً مَعْرُوفاً ﴾[1] وبجوار ما قرره من المشاركة فى الميراث ، أوجب أن يتضامن أفراد الأسرة ، ويحمل الغنى منهم الفقير ، ويعينه على أعباء معيشته ، كما أوجب على الوارثين أن يتحملوا مشتركين الديات ، التى تجب على واحد منهم لخطأ ارتكبه فى قتل نفس ، حتى يكون مظهر التضامن تاماً فى الأسرة فى حالتى الغنم والغرم .

وإذا لاحظنا أن الإسلام حين يقرر ذلك ويوصى به ، لا يجعله مجرد علاقة مادية دنيوية بين القريب وقريبه ، بل يجعله من طاعة الإنسان لخالقه ورازقه يثيبه عليه حتى اللقمة يضعها الإنسان فى فم امرأته صدقة ، حتى حسن تربية الأولاد وكفالتهم ، وهو أمر غريزى طبيعى ، يثيبه الله عليه ، إذا لاحظنا ذلك كله عرفنا مدى عناية الإسلام بالأسرة ، وحرصه على سلامة كيانها وتوفير السعادة لها .

ولا تزال الأسرة الإسلامية بخير وهناءة بصلاتها ، ما حرصت على التوجيه الإسلامى لها ، وأخذت به فى حياتها ، فإننا نرى من مظاهر الحياة الأسرية فى الغرب ، وتفكك الروابط فيها ، وسيطرة الروح المادية على علاقة أفرادها بعضهم ببعض ، وهجوم هذه الروح المادية وزحفها على أسرنا فى الشرق ، ما يجعلنا نوصى المسلمين بالحرص على تنظيم الإسلام لشؤون الأسرة ، والمحافظة على العلاقات الروحية ، التى أوجدها الإسلام بينها ، حتى نسعد بذلك فى دنيانا وآخرتنا .

---

١ ـ النساء : ٨ .

لقد بلغ من حرص الإسلام على البناء السعيد للأسرة أننا وجدنا الرسول ﷺ يصدر كثيراً من الوصايا والتوجيهات للراغبين فى الزواج تضمن لهم بناء البيت السعيد فمنها قوله : « **ما استفاد مؤمن بعد تقوى الله عز وجل خير له من زوجة صالحة ، إن أمرها اطاعته ، وإن نظر اليها سرته وإن أقسم عليها أبرته ، إن غاب عنها حفظته فى نفسها وماله** »(١) .

وقوله عليه الصلاة والسلام :

« **تزوجوا الولود الودود** » وذلك حين جاء رجل وقال له : إنى احببت امرأة ذات حسب ونسب ومال ، إلا أنها لا تلد أفأتزوجها . . فنهاه ﷺ لما يعلمه من أن الولد هو غايته غاية كل زوجين . . وبدونه يتخلخل بناء الأسرة ويكون الفراق غالباً . . ولذلك وجدنا الرسول ﷺ يقول فى حديث آخر : « **سوداءُ ولود خير من حسناء عقيم** » ، وهذا لأن الرغبة فى الولد أمر طبيعى فى الإنسان محافظة على ذكره ، وبقاء أسرته ، وتتوخاه الأمة مجتمعة حفظاً لكيانها بين الأمم . وهذا ليس معناه الإعراض العام عن العقيم فإن لها من يطلبها ويرضى بها . .

ولم يكتف الرسول ﷺ بالنظر إلى النسل ، أو بالنظر إليه من ناحية الكم دون الكيف ، بل نجده يحرص على حسن الإنسان خلقاً وجسماً . . فمن ناحية الخلق والتنشئة الطيبة أوصى بالزواج بالمرأة الصالحة ذات الدين ، التى تحرص على تربية أولادها وتنشئتهم نشأة صالحة ، كما أوصى بالعناية بتربيتهم وحسن تأديبهم .

أما من ناحية الجسم فقد وجدنا له عليه الصلاة والسلام وصية يمكن أن نعتبرها قاعدة عامة فى الحرص على سلامة الابناء من كل ضعف أو مرض وراثى ، يمكن أن يرثه الأبناء من الآباء وذلك حين أشار باختيار الزوجة من غير الأقارب وقال معللا ذلك : « **اغتربوا لا تضووا** » والمعنى الظاهر لهذا الحديث أن على الإنسان أن يتزوج من غير قريباته ، حتى لا يضعف نسله ، وليس هذا أمراً على سبيل الإلزام ، من ناحية الحل والحرمة لأن الله سبحانه حدد القريبات

---

١ ـ الجامع الصغير للسيوطى .

اللاتى لا يصح الزواج بهن أصلاً ، أما غيرهن من القريبات فهن اللاتى يتجه اليهن التوجيه النبوى السديد .

وقد مر على هذا التوجيه زمن طويل ، دون أن يكتشفوا السر العلمى فى هذا الضعف الذى حذر الرسول ﷺ منه ، حتى جاء علماء الوراثة أخيراً ، وبينوا بطريقتهم العلمية القائمة على التحليل والتجربة . . أن خصائص الآباء تنتقل للأبناء ، ويتفرع الأسرة تتوزع هذه الخصائص أو هذه الصفات فى أفرادها على تفاوت بينهم . . وقد تظهر هذه الصفات أحياناً ، وقد تبقى خفية ، لا تقوى على الظهور لعوامل أخرى تغلب عليها ، وحين يتم زواج بين فردين من الأسرة ويحصل منهما نسل ، يمكن حينئذ أن تتجمع فيه صفة الضعف من أبيه وأمه ، فتقوى نسبتها فيه وتجد فرصة لظهورها وتجد هذا المرض أو هذا الضعف ظاهرة عامة فى الأسرة ، ولأجل هذا كان توجيه الرسول ﷺ للزواج من غير الأقارب . وذلك مما علمه ربه ، إذ لم يكن عنده معامل يجرى فيها التجارب .

على أن هناك أشياء أخرى يتحدث عنها علماء النفس فيما يختص بالزواج من الأقارب وينصحون بمراعاتها حين اختيار الزوجة ، وذلك عندما تكلموا عن العلاقة الباردة والعلاقة الحارة بين الزوجين ، وما قد يحدث عادة بين الأقارب من علاقة باردة يكون لها اثارها فى الاتصال بينهما وفى نسلهما [1] . . . الخ .

ولكن مع ذلك يمكن أن يقال قياسا على ما قرره علم الوراثة أن صفات القوة أيضا تورث ويمكن أن تتجمع فى النسل ، فيكون فى ذلك مصلحة له . .

وهذا أمر مسلم به لو ضمنا أنه لا توجد هناك صفات ضعف ، وضمنا عدم وجود النواحى التى تحدث عنها علماء النفس وخشوا عاقبتها ، لكن عادة المشرع أن يحافظ لدفع الضرر ، وينبه اليه ، حتى أصبح من القواعد الأصولية الشرعية : درء المفاسد مقدم على جلب المصالح .

---

١ ـ قرأت فى اهرام يوم ١٠ ـ ٨ ـ ١٩٧٣ بحثا زراعيا تحدث فيه كاتبه عن أشجار المانجو من صنف « التيمور » وذكر ما لاحظه المختصون من أن صنف « التيمور » الذى يزرع وحده بكثرة تجىء ثماره أضعف مما لو زرعت معه أشجار مانجو من نوع آخر يحصل بينها وبين « التيمور » التلقيح .

ومن أجل هذا لم يأت الأمر عن سبيل الإلزام بل جاء على سبيل التوجيه والإرشاد . على أن المشاهد التى تمر بنا كثيراً فوق تجارب العلماء تؤكد سلامة هذا التوجيه وسداده وتبرهن على صحته وعلى العاقل أن يبحث ويحتاط على أية حال ، حين تتجه نفسه للزواج من إحدى قريباته حتى لا يسىء إلى أولاده من حيث لا يشعر .

ومن الممكن للقارىء أن يستزيد من المعلومات حول هذا الحديث لو أطلع على بعض كتب علم الوراثة أو حدثه أحد العلماء المتخصصين به بتفصيل ، ليبين له أثر الوراثة وامتدادها فى عدة أجيال من الأسرة . . وهنا نضع أمامه أيضاً قول رسول الله ﷺ عن وراثة الصفات : « **لعله نزعة عرق** » ونقول إن هذا النطق النبوى الكريم يمكن لعلماء الوراثة أن يتخذوه عنواناً لأبحاثهم التى يقضون فيها السنوات بمعامل البحث ، ويظفرون أخيراً بالنتائج العلمية التى تتلاقى معه . . مما يجعلنا نقول بصدق إن العلم الحقيقى الصادق يتحد دائماً مع الدين ويكون فى خدمته .

﴿ وقل ربِّ زدنى علماً ﴾ . .

٢٠ واجبنا نحو أولادنا

قال رسول الله ﷺ : « إنَّ الله سائل كل راع عما استرعاه حفظ ذلك أم ضيعه حتى يسأل الرجل عن أهل بيته » .

أولادنا هم أفلاذ أكبادنا تمشى على الأرض ، وهم رجال المستقبل وعدة الأمة فى بناء نهضتها ، وحراسة أمجادها ، وبقدر ما نحيطهم به من رعاية وتوجيه رشيد ، يكون دورهم فى خدمة أمتهم وتكون سعادة الأمة بهم .

وإننى ألاحظ ـ ولعلكم تلاحظون مثلى أحياناً ـ أن بعض أولادنا لا يعنون كثيراً بواجباتهم الدينية ، ولا يحرصون على حسن معاملتهم لمن حولهم ، وربما نجدهم يتظرفون ، بإعلان العصيان والمعارضة ضد هذه الواجبات ، وهذه الأخلاق . وكثيراً ما يسارع الناس إلى الحكم على أمثال هؤلاء الأبناء بأن آباءهم لم يعنوا بحسن تربيتهم فى بيوتهم .

ومع أن فى هذا الحكم كثيراً من الحق والصواب ، لأن البيوت هى الجو الأول الذى يشب فيه الأولاد ، ويتلقون أول ارشاداتهم فى الحياة ، وينطبعون بطابعه ، إلا أن البيت لم يعد له كل هذا الدور فى توجيه الأبناء وتربيتهم ، بعدما كثرت أدوات التوجيه والتأثير على الجيل الجديد .

فالأطفال يذهبون إلى المدرسة فى صغرهم ، وهم لايزالون فى دور التأثر والقابلية الشديدة بما يسمعون أو يشاهدون ، وتصبح المدرسة بذلك شريكة للبيت فى توجيه الأولاد وتربيتهم .

ثم أدوات التوجيه الأخرى من الأفلام والتمثيليات التى يشاهدها الأولاد ،

أو يسمعونها أصبحت من أقوى عوامل التأثير عليهم والتوجيه لهم .

فإذا ما تعلموا القراءة بدأت الصحف والكتب تدخل حياتهم ، وتعمل عملها فى توجيههم والتأثير على سلوكهم . وبهذا لم يعد البيت وحده صاحب السلطان المطلق فى توجيه الأولاد ، ومن ثم لم يعد وحده متحملاً لهذه المسؤولية الكبرى ، بل إن العوامل الأخرى التى ذكرناها أصبحت شريكة قوية فى التربية والتوجيه ، وبالتالى أصبحت تتحمل مسؤولية هذه الأمانة مع الآباء أمام الله وأمام المجتمع ، وأصبح الآباء فى حاجة ماسة إلى أن تتضافر معهم كل هذه العوامل الموجهة ، لإحاطة أبنائهم بسياج من حسن التربية والتوجيه ، حتى تتلاقى كل الجهود فى تربية الجيل الناشىء على تقوى من الله ، وعلى حسن الأخلاق فى معاملة الناس .

بل إن من واجب العوامل الموجهة الأخرى أن تعوض بعض الأولاد مالا يجدونه أحيانا فى بيوتهم من حسن التوجيه والتربية .

إننا نمر الآن بمرحلة انتقال وتطور هامة شملت كثيراً من جوانب حياتنا ومن هنا أصبح واجباً علينا نحن الذين نشارك فى صنع هذه المرحلة أن نعمل ماوسعنا الجهد ، على أن تمر دون أن يهتز فى نفوس أولادنا رجال المستقبل شىء من هذه القيم الخلقية أو الدينية ، فانه لا توجد أمة ، ولا تقوم ، أو تعيش لها نهضة ، دون أن يكون لها مثل وقيم تستمدها من دينها وتقاليدها ، ودون أن يكون لمستقبلها جذور طيبة متينة تمتد اليها من ماضيها المجيد .

والمسؤولية التى ألقاها الإسلام على عاتق الآباء نحو أولادهم يوم كان البيت وحده صاحب التأثير والسلطان على الأولاد أصبح من العدل ، ومن واجب الشعور بالمسؤولية ومن المصلحة العامة لمستقبلنا ، أن يتحملها مع الآباء كل أدوات التوجيه والتأثير التى ذكرناها فإذا وجدنا الرسول ﷺ يقول للآباء : « الزموا أولادكم واحسنوا أدبهم » ، وجب على كل ناحية لها تأثير وتوجيه أن تتقدم فى اخلاص وشعور بالواجب لتشارك الآباء فى مسؤولية توجيه الأبناء إلى حسن الخلق .

وإذ قال الله تعالى :
﴿ يأيها الذين آمنوا قوا أنفسكم وأهليكم نارا وقودها الناس والحجارة ﴾ [١] .

وقال المفسرون : إن الله يريد بذلك أن يعمل الآباء على توجيه أولادهم * لطاعة خالقهم والقيام بواجبهم نحو الله والناس ، كان من الواجب فى جونا الذى نعيش فيه ، أن نجعل كل ناحية لها تأثير وتوجيه للأولاد ، مخاطبة كذلك بهذا الأمر من الله ، ومتحملة مع الآباء للمسؤولية أمامه سبحانه ، ومحاسبة على ما تقدمه من توجيه وتربية .

وإذ قال الرسول عليه الصلاة والسلام للآباء « **مروا أولادكم بالصلاة ، وهم أبناء سبع سنين ، وأضربوهم عليها لعشر سنين** » وجب على المدرسة وكل عوامل التأثير على الأولاد أن تتحمل نصيبها بإخلاص فى تحمل مسؤولية تنفيذ هذا الأمر النبوى مع الآباء ، وتعويد الأولاد على طاعة ربهم ، منذ نعومة أظفارهم ، حتى يقوى ضميرهم الدينى فى كبرهم ، فإن من شب على شيء شاب عليه .

ولا أريد بهذا أن أخلى البيت من المسؤولية ، أو أقلل من خطر الدور الذى يمكن أن يقوم به فى تربية الأولاد على تقوى الله ، وأداء الواجب فى اخلاص لدينه ووطنه ، ولكنى أريد أن يشعر كل من له تأثير وتوجيه بمسؤوليته تجاه الجيل الجديد .

أريد ألا تهدم ناحية ما تبنيه الناحية الأخرى .

فلن يبلغ البنيان يوما تمامه
إذا كنت تبنيه وغيرك يهدم

انه من مصلحة أمتنا الإسلامية أن تربط بين أولادنا وبين التنشئة الدينية ، وتعمل على ايقاظ الضمير الدينى فى نفوسهم ، بعد ما تخلصنا من الاستعمار ، الذى كان يعمل جاهدا للمباعدة بيننا وبين مثلنا الدينية ، وقيمنا الخلقية ،

---

١ ـ سورة التحريم آية : ٦ .

ونحن أمة أراد الله لها ، أن تكون خير أمة أخرجت للناس ، وتتبوأ مكان القيادة فى العالم .

ومن الإخلاص لها والبر بها أن يحرص ابناؤها على هذه المكانة ، وعلى أن يربوا تربية دينية خلقية ، تؤهلهم لحفظها ، وصيانتها وتدعيمها على مر السنين .

وذلك هو ما أحب أن يتنبه إليه أولادنا ، ويعرفوا الدور العظيم الذى ينتظرهم فى غدهم ، ليصلوا ماضيهم المجيد ، بمستقبلهم الرشيد ، والله الهادى والموفق والمعين . . .

٢١ العدل بين الأولاد

يتميز التشريع الإسلامى - الذى شرعه الحكيم الخبير بالطبائع البشرية - أنه يغطى جميع حاجات البشر على مدى العصور واختلاف الأماكن ، ويضع التوجيهات التى تحفظ للمجتمع كيانه ، وتوفر له صفاءه ، وتقيه عوامل التفكك والتدهور المادى والمعنوى .

وقد حدثت فى أيام الرسول ﷺ حادثة فى أسرة من الأسر كان من الممكن أن تمر مثل كثير غيرها من الحوادث اليومية ،ولكن رواة الحديث - جزاهم الله خيراً - نقلوا لنا مادار فى هذه الحادثة ، ومن تعليق الرسول عليها وحكمه فيها . . ولو أنها كانت أمراً عارضاً موقوتاً ما كان لنا من تعليق عليها ، ولكنها كانت ولاتزال تمثل ظاهرة لمرض اجتماعى خطير يهدد الأسر بالتفكك ويسلط عليها عوامل الهدم والتفتت .

هذه الواقعةژ يرويها بطلها : النعمان بن بشير رضى الله عنه فيقول :

أعطانى أبى عطية ولم ترض أمى حتى يشهد عليها رسول الله ﷺ فانطلق بى أبى الى رسول الله وقال له : أنى نحلت ابنى هذا غلاما (أى اعطيته عبدا) فقال له رسول الله « ألك ولد سواه ؟ قال نعم . قال رسول الله : **أكلهم وهبت له مثل هذا ؟** قال : لا . فقال رسول الله : **فلا تشهدنى إذن ، فإنى لا أشهد على جور** . يابشير . اتحب أن يكونوا لك فى البر سواء ؟ قال : نعم . قال : إذن فاذهب فارجعه ان لبنيك عليك من الحق انت تعدل بينهم كما أن لك من الحق

عليهم أن يبروك » . ثم قال : « اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم » [١] .

وهذه القصة التى رواها النعمان عما فعل أبوه لاتزال تتكرر بيننا بصور مختلفة لأنها تتصل بطبائع النفوس وخضوعها للأهواء والأطماع . فبعض الآباء قد يقع تحت تأثير زوجة جديدة محببة لديه ، فيخص أولادها ببعض أمواله ويحرم الآخرين من أولاده ، وبعض الآباء تأخذهم عصبية الجاهلية فيظلمون البنات حقهن ، ويخصون البنين بأكثر من حقهم ، وقد يحرمون ولدا من أولادهم بحجة أنه غير بار بهم . . إلى غير ذلك من صور التفرقة بين الأولاد .

وقد يوسوس الشيطان الآباء بأنهم أحرار فى مالهم وأن من حقهم أن يميزوا هذا عن ذاك من الأولاد .

وما دروا أن الله وضع لهذه الحرية حدودا ، « ومن يتعد حدود الله فقد ظلم نفسه » . .

ان التفرقة بين الأولاد هى مبدأ الفرقة والشقاق والعداوة بينهم وتمتد حتى إلى ذرياتهم ، ومن الملاحظ أن التفرقة حتى بالكلمة تزرع الحقد بين الأخوة ، فماذا يكون الحال حين تكون التفرقة بالمال كثيرا أم قليلاً إن كثيراً من الأسر تتهدم ، ويتحول الإخوة الأحباء ، إلى أعداء الداء يتربص كل منهم بالآخر ، ويحقد عليه نتيجة لسوء تصرف الآباء وما فعلوه من التفرقة بين أولادهم . . ولو فكر الآباء قليلا فى مستقبل هؤلاء الأولاد لعرفوا أن دوام الحب والتآلف والتعاون بينهم ، خير لهم من كنوز الأرض . .

ولو فكر الآباء فيما ينتظرهم من عذاب الله نتيجة لجورهم وظلمهم لبعض أولادهم لما اشتروا عذاب الله ببعض مال يتمتع به ولد من أولادهم فى دنياه ، بينما هو يتلظى بنار جهنم فى أخراه ، وقد يكون هذا المال الذى أثر به أحد أبنائه ، سبباً فى فساده ، لأنه مال حرام ، والمال الحرام ، لا يدوم ، وإن دام جلب معه المنغصات [١] .

---

١ ـ أخرجه البخارى فى صحيحه .

١ ـ اذكر للآباء هنا قولا لعمر بن عبدالعزيز رضى الله عنه فى حالة قد تشبه هذه الحالة من بعض وجوهها ،

وكم يكون جميلاً من الأبناء بل واجباً عليهم ، أن يصلحوا ما فعل الآباء ، ويوزعوا ما خصهم به والدهم على مستحقيه من إخوتهم إنهم بذلك يجبرون ما انكسر ، ويصلحون ما فسد ، ويزرعون الود بدل الحقد ، وينزعون من قلوب أخوتهم البغض ، ويعيشون سعداء بزاد الحب والود ، وهو خير لهم من كنوز الأرض .

أيها الآباء لقد حكم رسول الله على التفرقة بأنها جور وظلم ، والله لا يحب الظالمين فلا تكن واحداً منهم ، ولا تلجأ للتحايل على القانون ، فما الله بغافل عما تعملون .

أيها الآباء :

اتركوا أولادكم من بعدكم أحبابا ، فإنه لا يضرهم مال قليل ، ولكن يضرهم ماتزرعونه بينهم من حقد دفين .

لا تخربوا أسركم ، ولا تهدموا بيوتكم بأيديكم ، ولا تنغصوا الحياة على أولادكم من بعدكم وتنغصوا عليكم آخرتكم .

أيها الآباء :

اتقوا الله وأعدلوا بين أولادكم .

وذلك حين اشار عليه احد جلسائه وهو فى مرض موته أن يجعل لهم شيئا يعيشون منه بعده بعد احرمهم وفطم افواهم فى حياته فرفض عمر رضى الله عنه هذه المشورة . ونظر إلى أولاده وهم جالسون حوله واغرورقت عيناه بالدموع وقال : « انى لم أمنعهم حقا كان لهم ولم أكن اعطيهم حقا هو لغيرهم » . ثم قال لهم : « يابنى أنى ادرت رأيى بين أن تستغنوا ويدخل ابوكم النار وبين أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة . فكان أن تفتقروا ويدخل أبوكم الجنة أحب الى من أن تستغنوا ويدخل ابوكم النار ، قوموا يابنى عصمكم الله ورعاكم ورزقكم » .

٢٢ بروا اباءكم

ايها الأبناءُ أيتها البنات :

باسمكم أقبل يد الأباء والأمهات ، واسألهم لكم ولى معكم خير الدعوات . .

وباسم الذين حرموا حنان الوالدين ودعواتها الطيبة مثلى ، أرفع الى الله أكف الضراعة وأدعوه : **« رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا »** .

ابنائى وبناتى :

هل حقيقة لا نعرف تماماً فضل الوالدين وما قساه كل منهما فى سبيل تربيتنا الا بعد أن يكون لنا أولاد ، ونمر بالتجربة التى مرا بها ؟

نعم . . فإن الأولاد وان كانوا مفطورين على حب الأباء ، إلا أن هناك من يجرفه طيشه الى التمرد عليهم ، والاستهانة بعاطفتهم وبحقهم عليه ، وقد يظل كذلك حتى يصير أبا وتتفتح فى نفسه عواطف الأبوة ، ويصبح مرأة مكبرة لما يمر بأولاده فى الحياة ، فيحس أن قلبه يمتلىء بالسعادة اذا ضحكوا ، وتعبس الدنيا أمامه إذا عبسوا أو تألموا . . ويردد قول الأب الشاعر يخاطب ابنه . . .

اذ ليلة نابتك بالسقم لم أبت
لشكواك الا ساهرا اتململ
كأنى أنا المطروق دونك بالذى
طرقت به دونى وعينى تهمل

فى هذه الحالة قد يفيق الطائشون ، ويعرفون فضل آبائهم عليهم ، من

التجربة التى يمرون بها ، ويحسون تماماً سر وصايا الله ورسوله لنا ببر الوالدين ، والإحسان اليهما قولاً وعملاً . فيقبلون عليهما ، ويعملون على إرضائهما ، فيكونون بهذا من السعداء .

ولكن قد يوجد بجوار هؤلاء الذين وفقهم الله للانتفاع من التجربة أولاد غير موفقين ينكرون الجميل ، ويتنكرون للوالدين ، ويغضبونهما فى سبيل ارضاء الزوجة مثلا ، ولا يذكرون من الذى رباهم فى صغرهم ، وسهر الليالى الطوال على راحتهم ، وشقى من أجل سعادتهم ، وحرم نفسه وأعطاهم ، لا يذكرون شيئاً من ذلك ، بل يعيشون ليومهم ، لا ينظرون لأمسهم حين كانوا صغاراً فى رعاية والديهم ، ولا يعملون حساباً لغدهم يوم يكبر أولادهم فيسقونهم من الكأس التى سقوا منها آباءهم ، ويجعل الله على يدهم القصاص منهم . . فإن الحياة قصاص ، وكما تدين تدان ، وكما عاملت والديك يعاملك أولادك .

بل إن هؤلاء لا يعملون حساباً لليوم الذى يلقون الله فيه ، ويسألهم كيف عاملوا آباءهم ، بعدما شدد الله وكرر فى الإيصاء بهم ، وجعل الرسول رضا الله متوقفاً على رضاهم حين قال : « **رضا الله فى رضا الوالدين ، وسخط الله فى سخط الوالدين** » .

إن الله كرم علاقة الأبوة حتى فى الوالدين المشركين ، اللذين يحاربان الله ورسوله ، ويعملان على إرجاع ابنهما الى الشرك ، بعدما أكرمه الله بالإسلام ، فأوصى بحسن صلتهما حين قال :

﴿ وإنْ جَاهَدَاكَ عَلَىَ أنْ تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ به عَلْمٌ فَلاَ تُطْعْهُما وَصَاحِبْهُمَا فى الدُّنْيَا مَعْرُوفا ﴾ (١) .

يابنى يا أخى :

انك تحرص على رد الجميل لصاحبه ، وليس هناك جميل أعظم من جميل والديك عليك ، ولا تجد إنساناً فى الحياة قدم لك ما قدمه والداك ، ولا تجد قلباً

١ ـ لقمان ١٥ .

٢ ـ الإسراء ٢٣ ، ٢٤ .

رحيماً عطوفاً كقلب الوالدين ، ومن أجل هذا كرر الله الإيصاء بهما ، بعد الأمر بعبادته مباشرة وقال : ﴿ وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وبالوَالِدَيْنِ إِحْسَاناً إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِنْدكَ الكِبر أَحَدُهُما أَوْ كِلَاهُما فلا تَقُلْ لَهُما أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُما ، وَقُلْ لَهُما قَوْلا كريما واخْفِضْ لهما جناح الذُّل مِن الرَّحْمَةِ ﴾ (٢) فنهاك حتى عن أبسط كلمة تؤلمهما ولاسيما اذا كانوا عندك وفى حمايتك وظلك ، وذلك وفاءً بحقهما عليك .

وجعل عقوقهما والأساءة إليهما من أكبر الكبائر فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . ألا أنبئكم بأكبر الكبائر . ألا انبئكم بأكبر الكبائر قلنا : بلى يارسول الله فقال : الإشراك بالله وعقوق الوالدين » متفق عليه

إن بعض الناس ولاسيما الشبان لا يحلو هم المزاح أو العراك إلا بسب الوالدين وما دروا أنهم يرتكبون بذلك كبائر الذنوب ، فقد قال الرسول عليه الصلاة والسلام : « **من الكبائر شتم الرجل والديه . قالوا : يارسول الله هل يشتم الرجل والديه ؟ قال : نعم يسب الرحل أبا الرجل فيسب أباه ، ويسب أمه فيسب أمه** » متفق عليه .

إن بعض الشبان يركبهم الغرور حين يكبرون حتى ليخيل لهم وهمهم وطيشهم أن طاعتهم لوالديهم تتنافى مع ما ينشدونه من كيان ورجولة ، فيعاملونهما معاملة خشنة ، ويتكبرون على نصحهم وتوجيههم ، ويدعون أنهم يفهمون مالا يفهمه الوالدان ، ويحيلون البيت الهادىء إلى شقاء ونكد ، وما دروا أنهم يسيرون فى طريق معوج ، يؤثر على حياتهم ومستقبلهم ، ويعرضهم لنقمة الله . .

إن بعض الأبناء يتنكرون لآبائهم حين يعملون ، ويصبح لهم دخل خاص من عملهم وينسون والديهم ، بعد ما تقدما فى السن وأصبحا فى حاجة إلى برهم وعطفهم جاحدين ما قاساه كل منهما فى سبيل تربيتهم ، إن رسول الله ﷺ ينذر هؤلاء بالعقوبة فى الدنيا قبل الآخرة ، فقد قال عليه الصلاة والسلام : « **كل الذنوب يؤخر الله ما يشاءُ منها إلا عقوق الوالدين ، فإن الله يعجل لصاحبه فى الحياة الدنيا قبل الممات** » .

وهذا شيء نشاهده بالتجربة أمامنا فى حياة العاقين لأبائهم . ويقول : « رغم

أنف ، رغم أنف ، ثم رغم أنف . قيل من يارسول الله ؟ قال : « **من أدرك أبويه عند الكبر - أحدهما أو كليهما - فلم يدخل الجنة** » . لأن فرصة دخولها مهيأة له بالإكثار من طاعة الوالدين والحرص على برهما وهما فى هذه الحالة من الشيخوخة فلم ينتهزها ؛ وإلى هؤلاء العاقين المتمردين المنكرين لفضل الآباء عليهم أسوق هذا الحديث . فقد روى أن ولدا اشتكى الى رسول الله ﷺ أباه ، وأنه يأخذ ماله ، فدعا به فإذا هو شيخ يتوكأ على عصا فسأله فقال : إنه كان ضعيفاً وأنا قوى ، فقيرا وأنا غنى فكنت لا أمنعه شيئا من مالى ، واليوم أنا ضعيف وهو قوى ، فقير وهو غنى ، ويبخل على بماله ، فبكى رسول الله وقال : « **ما من حجر ولا مدر يسمع هذا الا بكى ، ثم قال للولد : أنت ومالك لأبيك . أنت ومالك لأبيك** » .

قديم وجديد :

إن شبابنا هم قوة الدفع للأمام أو هم اتجاه الأمة فى سيرها الحتمى للمستقبل . . ومن هنا كان من الواجب أن يهيأ طريق الصعود لهم وللأمة على أيديهم . . وأن نحذر جميعاً طرق الانحدار ، يشترك فى هذا الواجب الآباء الذين يعيشون ، من أجل أبنائهم وسعادتهم ، والأبناءُ أصحاب هذا المستقبل والحريصون عليه بطبيعتهم . . يشترك الآباءُ أصحاب هذا المستقبل والحريصون عليه بطبيعتهم . . يشترك الآباءُ بتجربتهم وبقدرتهم ، وإن رأوا فى ذلك صعوبة عليهم ، وحدا من الانطلاقاتهم . . فالوصول للأهداف الكريمة ، لابد من أن يصحبه شيء من الضيق والصعوبات وهذا دائما هو الثمن الذى يدفعه طلاب الجد والأهداف العالية . . فالصعود دائما فيه مشقات ومتاعب ، ولا بد من أن يتقبلها طلاب الصعود ، على عكس الهبوط والانحدار ، فإنه سهل لا يكلف مشقة ، ولكن عيبه أنه انحدار ، لا يحبه عشاق الصعود والنجاح ، ولابد للشهد من إبر النحل .

أقول هذا للبنات والأبناء الذين يضيقون ذرعاً بتوجيهات آبائهم ويحسون شيئا من الضيق حين يرون الآباء يحدون من تصرفاتهم . أو يتدخلون فى أمر من أمورهم لتحويله إلى ماهو أنسب لمستقبلهم .

أريد من الأبناء أن يضعوا فى أذهانهم دائما هذه الحقيقة الواضحة : وهى حب الأباء وحرصهم على سعادة الأبناء . ومن هذا الكنز الغالى الذى لا يوجد الا فى الآباء يصدر كل نصح وكل توجيه : فإذا ضاق الأبناء بنصيحة أو توجيه فليعلموا فى الحال أنهم ضد أنفسهم ، وحتى إن كان لهم الحق فى الضيق كما يفهمون فليراعوا أن مصدر هذا هو الحب ، ولابد من أن يرفقوا بمن يحبهم ، وأن يقدروا عواطفهم ولا يصدموهم فيها .

كما ضقنا ونحن صغار بنصائح الآباء وأوامرهم ، وأكرهنا على قبولها ، ثم ظهر لنا بعد ذلك أنه لولا إكراهنا عليها لضاع مستقبلنا . ونتذكر هذا الآن وندعو لهم الله أن يجزيهم عنا خير الجزاء . ونقول : « رب ارحمهما كما ربيانى صغيرا » ، وكم تساهل آباء مع أبنائهم ، ودللوهم حتى فاتت عليهم الفرص . وكبر الأبناء واحسوا تعاسة حياتهم ، فرجعوا باللائمة على من دللوهم ، وتمنوا لو أنهم أكرهوهم وقسوا عليهم ، ولكن بعد فوات الأوان ، وحقا يقول حكيمنا الشاعر :

فقسا ليزدجرا ومن يك حازما
فليقس أحيانا على من يرحم

هذه هى التى أحب من أبنائنا أن يعرفوها ويقدروها فى آبائهم . . ويلزموا دائما نبع الحنان ليغترفوا منه ، ويفخر أبناء الكادحين بآبائهم الذين لم يتعلموا ، ولكنهم مع ذلك يشقون ويكدون فى الحقل أو المصنع أو غيرهما ليوفروا المستقبل الطيب لأبنائهم .

إن الآباء يحملون دائما تراث الماضى العريق من دين وخلق ، ويحبون أن ينشئوا أبنائهم عليها ، فليحرص الأبناء على أن يكونوا امتداداً لآبائهم ، وحملة لتراث أمتهم ولا يستمتعوا لأولئك الذين يزينون لهم الانفصال عن آبائهم ، بحجة أنهم جيل قديم لا تصلح آراؤه وتوجيهاته للجيل الجديد !!

ومن عجب أن هؤلاء الذين يضللون الشباب بهذه الدعوة الانفصالية عن الآباء ، قد يكونون هم من جيل الآباء ، ولكنهم يحملون فى قلوبهم مرضاً وغرضاً ، يريدون أن يفصلوا الشباب عن آبائهم وتراثهم ليقعوا فريسة سهلة

لتضليلهم وآرائهم التى لا يمثلون فيها أمتهم .

إن لكل نُبت جذوراً وتربة تمده بالنماء ، وتثبته أمام العواصف ولكل فرد أو أمة أصولاً وجذوراً وتربة لا يمكن أن يعيش وينجح وهو منفصل عنها .

فاحرصوا يا شباب .. على أصولكم وجذور أمتكم العريقة .. وكونوا امتداداً طيباً لمن حملوا الإسلام وحضارته على مر القرون ..

٢٣ عزة المسلم

(ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين)

صدق الله العظيم

عزة المسلم الحقيقية شعور ينبع من ايمانه بربه وثقته به لا من كثرة ماله ، ولا علو منصبه ، ولا اتساع جاه ، ولا كثرة علمه ، ويتمثل فى نفوره من الظلم والجور وترفعه عن الدنايا والإسفاف ، وعدم خضوعه للذل والعبودية ، ورفضه للقيد والمهانة ، وحرصه على اتباع الحق ، والتضحية فى سبيله ، واضعاً نصب عينيه دائما رضا الخالق ، لا رضا المخلوق ، وأنه ينتسب إلى أمة محمد خير أمة أخرجت للناس .

والإسلام دين العزة والكرامة لا يجدر بالانتساب اليه إلا رجل يعرف معنى العزة ويقدرها ويحرص عليها .

ومن أجل هذا عمل على تربية اتباعه عليها ، وغرس روحها فى نفوسهم ، ليكونوا جديرين بالانتساب له وحمل رسالته للناس .

حجر الأساس :

ولقد كان حجر الأساس فى اقامة صرح العزة فى نفوس المسلمين ، هو ايمانهم الراسخ بالله مالك الملك يؤتى الملك من يشاء وينزع الملك ممن يشاء ويعز من يشاء ويذل من يشاءُ . : ولو اجتمع أهل الأرض على أن يضروه بشىء لم يضروه ، إلا بشىء قد كتبه الله عليه . ولو اجتمعوا على أن ينفعوه بشىء لم ينفعوه إلا بشىء قد كتبه الله له .

﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُرٍّ فلا كَاشِفَ لَهُ إلاَّ هُو ، وإنْ يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فلا رادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ (١) .

﴿ ما يَفْتَحِ الله لِلنَّاسِ مِنْ رَحْمَةٍ فَلاَ مُمْسِكَ لها وما يُمْسِكْ فلا مُرْسِلَ لَهُ مِنْ بَعْدِهِ ﴾ (٢) .

فإيمانه بربه يعلمه أن الأمور كلها بيديه ، وأن الخلق جميعا محتاجون إليه ، ضمن لهم أرزاقهم ، وحدد آجالهم ، وهو وحده الذى يحاسبهم على أعمالهم ، فإذا رسخ هذا فى نفس المؤمن ، وأيقن أن الأمر كله لله ، رفع رأسه ، واتجه بقلبه اليه ، ورفض أن يذل نفسه لما سواه . وحرص دائما على توثيق الصلة بينه وبين مولاه . . وعاش والدنيا كلها فى يديه ، أو تحت قدميه .

ثم كانت تعاليم الإسلام كلها بعد ذلك تغذى فى المسلم روح العزة ، فالناس كلهم سواسية أمام الله ، لا يتميزون عنده بمال ، أو نسب ، أو مركز ، أو جاه وإنما بالعمل والتقوى . أقربهم إليه أحسنهم خلقاً وديناً . ورب أشعث أغبر لو أقسم على الله لأبرهُ .

وهم خير أمة أخرجت للناس . أتباع خير الأنبياء والمرسلين . أصحاب الرسالة الخاتمة للرسالات . وحد الإسلام بينهم ، وجمع على هديه قلوبهم ، يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم ، يرعى قويهم ضعيفهم ، ويعين غنيهم فقيرهم ، وحاكمهم واحد منهم ، مسؤول عنهم ، يتقبل نصحهم يسوى بالشورى مورهم ، ويحكم بالعدل بينهم . . قويهم ضعيف حتى يؤخذ الحق منه ، وضعيفهم قوى حتى يؤخذ الحق له .

فإذا تربى المسلم على هذا ، وتشربه قلبه وعقله ، عاش ربانياً يعلو بنفسه على كل ما فى الدنيا ، ومن فيها ، لا علو تكبر ، ولكن علو اعتزاز بربه ، ثقة فى رعايته ونصره . فلا يمكن عدوا من أمره ، ولا يجعل لأحد غيره السبق أو التغلب عليه فى ميدان من ميادين الحياة .

---

١ - سورة يونس آية : ١٠٧ .
٢ - سورة فاطر آية : ٢ .

ولقد ربى الرسول ﷺ صحابته على هذه الروح ، وضرب لهم بنفسه أروع المثل ، فى الاعتزاز بالله ، فحين ظن أن مابقى له من عون فى الأرض يسنده ، يلوح له أنه سيتخلى عنه ، ويسلمه لأعدائه ، وأنه سيقف وحده أمام قوى الشر المتحالفة عله تحاول أن تفتك به ، أو تثنيه عن رسالة ربه ، وفى لحظات الحزن والألم ، الذى يصهر النفوس ، ويبدد قواها : كانت صلته بربه تملأ قلبه وتبد خوفه وضعفه ، فقال قولته الخالدة : « **والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن اترك هذا الأمر ما تركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه** » .

ثم كان مع صحابته ، كواحد منهم ، يكره أن يتميز عليهم ، يجلس حيث انتهى به المجلس ، ويحرص على أن ينزع من نفسهم الخوف منه ، دخل عليه رجل وهو يرتعد خوفاً منه جريا على العادة ، عند الدخول على الملوك والرؤساء فعز عليه أن يرتعد هذا الرجل أو يخاف منه ، وذهب فى تطمين نفسه ، ورفع روحه المعونية إلى أن قال له : « **هون عليك يارجل ، فلست بملك ، إنما أنا ابن واحدة كانت تأكل القديد بمكة** » يكره أن يعظمه اصحابه ، كما تعظم الأعاجم ملوكها ، تعظيماً شكليا ، قائما على الرسومات والأشكال ، ويكتفى منهم بالحب ، الذى يملأ قلوبهم ، ويلين جانبه لضعيفهم وفقيرهم ، ويستشيرهم ، وينزل على رأيهم ، ويعطيهم الحق فى الاقتصاص منه .

الحرية :

ويعرف عليه الصلاة والسلام أن العزة لا تتمكن فى نفس المسلم إلا إذا تربى فى جو الحرية والأمن ، فيغرس فيهم روح الحرية ، ويأتى القرآن فيعلن أنه : ﴿ لَا إِكْراهَ فِى الدِّينِ قَدْ تَبين الرُّشدُ مِنَ الغَىِّ ﴾ ويقول للرسول : ﴿ أَفَأَنْت تُكْرِهُ الناس حَتّىٰ يكُونُوٓ مُؤْمِنِين ﴾ فيمنع أن يكون الإكراه وسيلة حتى لأقدس العقائد وأسماها ، وهى الإيمان بالله ، وبذلك يربط بين عزة المسلم وحريته ، إذ ليس مما يتفق مع كرامة الدين ، ولا عزة المسلم ، أن تسلب حريته ، ويجبر على ما يقول أو يعتقد ، حتى ولو كان الايمان بالله .

ثم أعطى أصحابه الحرية فى مراجعته ، ومعارضته ، فيما ليس بوحى من عند

ربه ، وكان يتقبل منهم رأيهم ، وينزل عن رأيه ..

وعلى هذا ربّى اصحابه حتى كان كل واحد منهم أمة وحده ، فحملوا أمانة الدعوة من بعده ، وساروا سيرته فى أمته ، حتى وجدنا خليفته أبا بكر وعمر رضى الله عنهما يدعوان الأمة فى بدء توليتهما الخلافة ، الى نصحهما ، وتوجيههما ، وتقويمهما ، عندما يرون فيهما أعوجاجاً .

ويقوم رجل من الرعية يقول لعمر رضى الله عنه : بعدما سمع مقالته : « والله لو رأينا فيك أعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » فلا يغضب عمر ولا تأخذه العزة بالإثم ، ولا يرى فى ذلك غضا من هيبة الحاكم ، بل يفرح لأن التربية الإسلامية قد أثمرت ثمرتها فى غرس روح العزة والحرية فى النفوس فيحمد الله من أجل ذلك ويقول : « أحمد الله أن وجد فى أمة محمد من يقوم اعوجاج عمر بحد سيفه » مع أن عمر كان : له هيبة فى النفوس ، حتى أن بعض الصحابة ذهبوا إلى أبى بكر حين أوصى بخلافته من بعده وأبدوا تخوفهم على الأمة من شدة بطشه .. وكان من عنايته بتربية العزة فى المسلمين أن أصدر الى ولاته وحكامه منشورا يقول لهم فيه : « ألا لا تضربوا المسلمين فتذلوهم » .

من أجل العزة :

ومن أجل عزة المسلم وكرامته ، وعزة الدعوة التى يحملها ، أمر الله المسلمين أن يحملوا السيف دفاعا عنها ، وأن يعدوا مايستطيعون من قوة لحمايتها ، واعتبر الذين يقتلون دفاعا عنها شهداء عند ربهم يرزقون ، واعتبر الذين يرضون بالذل والمهانة ، ويستسلمون لأعدائهم ، ولا يقاومونهم ، اعتبرهم ظالمين لأنفسهم ، ومأواهم جهنم وساءت مصيرا . وذلك لأنهم فرطوا فى عزتهم وكرامتهم ، وعزة الدين الذى يؤمنون به ..

ثم أهاب بالمسلمين فى كل مكان ، أن يهبوا لنجدة الضعاف من إخوانهم ، حيثما وجدوا ، وإنقاذهم من الذل الذى يعانونه ، والاستعباد الذى يقاسونه ، ولا يستطيعون له دفعا . يقول الله سبحانه كأنه يصرخ فى المسلمين ليوقظهم ، ويوقد جذوة الحماسة والعزة فى نفوسهم : ﴿ وَمَا لَكُم لا تُقاتِلُون فى سبيل الله والمُستَضعفين من الرجال والنساء والولدان الَّذِين يَقُولُون رَبَّنا اخْرجْنا من هذِهِ

القَرْيَة الظَّالِم أهْلُهَا وَاجْعَلْ لنَا مِن لَدُنْكَ وَلِيًا ، واجْعَلْ لَنَا مِنْ لَدُنْكَ نَصيرا ﴾ [١] . .

وأمرهم أن يقفوا صفاً واحداً أمام أعدائهم : ﴿ لا تجدُ قوْما يُؤْمِنُونَ بالله واليوم الآخر يُوَادُّون مَنْ حَادَّ الله ورَسُولَهُ ﴾ [٢] .

﴿ لَا تَتَّخذُوا عَدُوِّى وَعَـدُوَّكُم [٣] أوْلِيَاءَ ﴾ ﴿ لا تَتَّخِـذُوا بِطَانَـةً مِنْ دُونِكُمْ . . ﴾ [٤] .

والقرآن بهذا يجعل كرامة المسلمين جميعاً وعزتهم كلًا لا يتجزأ اذ لا يمكن أن تكون للمسلم عزة وكرامة فى مكان أى مكان ، وشعار من شعارات المسلمين يهمل أو يهان ، أو مسلم من المسلمين يستضعف أو يستذل فى أى مكان .

فالمسلمون جميعا أمة واحدة يسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم . . ولقد سير الخليفة المعتصم العباسى جيوش الدولة الى حدود الروم ، حين بلغه أنهم أهانوا امرأة من المسلمين ، فاستغاثت به وهولا يسمعها ، وقالت : وامعتصماه ، فلبت الدولة كلها نداءها ، حين علم الخليفة أستغاثتها ، وانتصرت لها ، ومكنت العزة للمسلمين فى نفوس الأعداء .

لقد أراد الله للمسلم أن يكون عزيزاً لا يهون ، قويا لا يستضعف ، حـــرا لا يستذل ولا يستعبد ، وهيأ لذلك كله أسبابه .

فإذا وجد المسلم نفسه مهيناً ، أو ضعيفا ، أو ذليلًا مستعبداً ، فليعلم أن ذلك من جبنه ومن جنايته على نفسه ، وبعده عن تعاليم دينه وعصيانه لأوامر ربه ، وخروجه عن سنته .

﴿ وَمَا ظَلَمَهُمُ الله ولَكِنْ كانُوا أنفُسَهُم يَظْلِمُون ﴾ .

---

١ ـ النساء : ٧٥ .

٢ ـ آخر سورة المجادلة .

٣ ـ أول الممتحنة .

٤ ـ آل عمران ١١٨ .

٢٤ الهجرة رفض للواقع المر

أرسل لى شاب يسال : هل الهجرة حدثت فى المحرم حتى نحتفل بها فيه ؟ ، وماهى العبرة التى تلامس حياتنا الآن ويمكن أن نستمدها من الهجرة ؟.

وأنا أقول للشاب السائل وزملائه إن الهجرة حدثت فى شهر ربيع الأول ، وفى النصف الأول منه وحين رأى عمر رضى الله عنه أن يضع تاريخاً خاصاً للمسلمين ، لم يجد أفضل من اتخاذ الهجرة مبدأ لهذا التاريخ ، لأنها تمثل ذروة الكفاح من أجل العقيدة والحرية فوق انها كانت نقطة تحول فى تاريخ الدعوة ، وكانت الشهور العربية تبدأ كما نعرف بشهر المحرم ، فاعتبر السنة التى حدثت فيها الهجرة هى السنة الأولى ، وحينما أردنا فى هذا القرن العشرين استغلال ذكرى الهجرة لبث العبر والدروس فى النفوس اتخذنا رأس السنه الهجرية وهو أول المحرم مناسبة للتحدث عن الهجرة وعبرها ودروسها فنحن نحتفل برأس السنة الهجرية لا بموعد الهجرة نفسه ، لأن موعد الهجرة يتفق مع موعد ميلاد الرسول ﷺ فى شهر ربيع الأول الذى نحتفل به كذلك .

وبعض المسلمين لايزالون يرون أن فى هذه الاحتفالات بدعة ويكرهونها ، ولكنا نقول لهم إنها بدعة أو عادة جديدة حسنة ، وليست من العبادات بل هى من العادات المستحسنة ، التى يجب علينا أن نستغلها لتعريف المسلمين بأحداث تاريخهم ، وبما تحمله الرسول ﷺ وصحابته فى سبيل دينهم وعقيدتهم ، وذلك للتأسى والاقتداء به ﷺ فى تحمل الشدائد من أجل العقيدة .

والأمر فى ذلك كما يقول الله سبحانه : ﴿ وَذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرى تنفعُ

المُؤْمِنِين ﴾ [١] فكل مايقال فى هذه المناسبة وفى مناسبة الإسراء والمعراج وبدر والفتح إنما هو تذكير وتحريض للمسلمين على التأسى برسولهم وإحياء المعانى والقيم الدينية العليا فى النفوس مما يحتاج إليه المسلمون الآن أشد الحاجة .

أما عبر الهجرة ودروسها فكثيرة ، لاشك أنكم تعرفون الكثير منها . وإن كان من المهم الآن أن ألفت النظر الى ما أراه أهم عبرة وأقوى درس لنا الآن فى حياتنا . وهو فى ذاته أساس لكل الدروس المستفادة من الهجرة . .

لقد كان التفكير فى الهجرة وترك الوطن وهو مكة . ثم تنفيذ هذا التفكير بالذهاب للمدينة والاستقرار فيها تعبيرا عمليا قويا على رفض الرسول والمؤمنين به للواقع المر الذى يعيشون فيه بمكة بعدما حاول تغييره بمختلف الوسائل مدة ثلاثة عشر عاما .

لقد كانت الهجرة بما فيها من شدة وقسوة على النفوس تساميا بالعقيدة والفكرة واختيارهما على كل ما سواهما من غال ونفيس .

نعم كانت الهجرة طلبا للحرية ، حرية الفكر والعقيدة ، وحرية العمل بهما فى جو ملائم ، وكانت رفضاً للسيطرة الباغية الطاغية من المشركين . . كانت الهجرة تضحية بارزة وعملية من أجل الحرية ، والتماساً لجو صالح يتنفس فيه الرسول والمؤمنون به حريتهم فى مباشرة عقيدتهم وواجباتهم ، بعدما عجزوا عن مقاومة الطغيان .

لقد حاول الرسول بكل الوسائل أن يجد متنفساً حرا لدعوته فى بلده ، وأن يحد من طغيان المخالفين له فلم يتحقق له ما أراد ، ومع أنه بذل كل ما أمكنه فانه لم يستسلم . . بل بذل هو وصحابته من أجل الحرية أغلى وأثمن شىء عندهم ، وترك مكة وهو ينظر اليها من بُعد ويقول : « **والله أنك لأحب البلاد إلى ولولا أن قومك أخرجونى منك ما خرجت** » ، ولقد حملوه على الخروج بطغيانهم ، وبذل أغلى التضحيات من أجل الحرية وطلبا لها ، خرج وهو آسف على موقف مكة وزعمائها ، ولكنه ﷺ لم يلبث أن عاد اليها بعد سنين ليحررها

---

١ ـ الذاريات .

من سطوة الطغاة المستبدين ، ويعيد اليها اعتبارها ، ويجعل فيها حرية الكلمة وحرية العمل بالعقيدة الإسلامية متاحة للجميع كالهواء الذى يتنفسونه .

لقد مرت الهجرة بأهلها وخلد القرآن ذكرهم ، ورضى الله عنهم وأرضاهم بما بذلوا وضحوا من أجل عقيدتهم وحريتهم ، وبقى لنا درسُها نتأسى به فى سبيل الدفاع عن عقيدتنا وعن حريتنا وحرية أوطاننا التى تعيش وتنمو فيها عقيدتنا ورفض كل واقع مر ومحاولة تغييره والله لا يضيع أجر العاملين .

ولكن هل يعنى هذا اننا نترك أوطاننا مهيضة الجناح ، ونهاجر الى مكان آخر نجد فيه حريتنا ؟

ولقد أجاب الرسول ﷺ عن هذا حينما جاءه رجل بعد فتح مكة يطلب منه ان يبايعه على الهجرة فقال له : لقد مضت الهجرة بأهلها « يعنى مضى وقتها وفاز فيها من فاز ثم قال له « لا هجرة بعد الفتح ولكن جهاد ونية واذا استنفرتم فانفروا » يعنى ان متقضيات الهجرة إلى المدينة قد زالت بعدما تحققت حرية العبادة والعقيدة وحرية الكلمة لأهل مكة وغيرها ، وأصبحت جميع البلاد سواء فى ذلك ، تتمتع بحرية العقيدة وحرية العمل ، لا فرق بين مكة وبين المدينة وبين غيرها من المدن التى أظلها علم الإسلام . ولكن يقى لب الهجرة ، بقى مغزاها ، وهو الجهاد والنية المخلصة لله .

وهذا معناه أن كل أهل مدينة أو وطن أو المسلمين جميعا ، مطالبون فى مجتمعهم الإسلامى بعدما تحققت لهم حريتهم وحرية مباشرة واجباتهم الدينية والحياتية ، أن يحافظوا على هذه الحرية ، وأن يدافعوا عنها ، ويبذلوا كل ما يبذله المجاهدون من مال وروح فى سبيل بقاء هذه الحرية لهم ولعقيدتهم .

لقد كانت الهجرة للمدينة رمزا وتعبيرا للكفاح ، والتضحية من أجل العقيدة وحريتها ، وحرية اتباعها ، فى ظل ظروف استدعت هذه الهجرة ، وهذا التعبير العملى ، فلما زالت الظروف وأصبحت مكة مثل المدينة بلداً اسلاميا حراً ، لم يعد للهجرة مكان ، وبقى معنى الهجرة من الجهاد والتضحية دفاعا عن الإسلام وأرضه ، وشعائره ومقدساته . وواجباته وتعاليمه .

وإذا كانت هجرة الرسول وصحابته الكرام رفضا للذل والمهانة ، وطلبا لحرية الإسلام ، وحرية إقامة تعاليمه وتنفيذها عمليا ، فإن الجهاد لرفض الذل ولتحقيق هذه القيم باق لم يتغير . ويجب أن يكون باستمرار شعارا للمسلمين فى حياتهم .

يجب عليهم أن يجاهدوا ضد الذل والاستبداد ، وسيطرة الغير عليهم ، بالفرار من الواقع المر ولا بترك البلد ، بل بالعمل على تغيير هذا الواقع ، وتحرير البلد ، بكل وسائلهم الممكنة ، ولو بالتضحية بكل ما يملكون ، ويجب عليهم أن يجاهدوا ضد الانحراف بكل صوره ، ويهجروه ، أو يهاجروا منه إلى عالم الاستقامة ويغيروا كل خلق ضار ، وسلوك منحرف ، سواء كان فى أنفسهم أم فى مجتمعهم .

يجب عليهم أن يرفضوا الخمول والتخلف ، ويهجروه ، الى مجال النشاط والعمل المثمر ، فى كل مجال . يجب عليهم أن يرفضوا الفساد ، واللذائذ العاجلة الضارة المخربة ، ويهجروها الى طلب اللذائذ النافعة الدائمة والمصالح العامة الباقية ، ويدفعوا الثمن لذلك من جهدهم وعرقهم بل ودمائهم .

وذلك كله هو ما يفصح عنه قوله ﷺ « **ولكن جهاد ونيه** » [١] وقوله يعرفه المعنى الجديد للمهاجر « **والمهاجر من هجر مانهى الله عنه** » [٢] .

فالمسلم الأن يستطيع الحصول على ثواب المهاجر ومنزلته بتحقيق هذه المعانى وهذه القيم فى نفسه ، وفى مجتمعه ، دون أن ينتقل من مكان لمكان ، بل إن تشبثه بأرضه ودفاعه عنها وعدم تركها لأعدائه وللمستبدين بها ، هو الهجرة نفسها ، وفى تشبثه بأرضه ودفاعه عنها كل ثواب الهجرة ، وفى فراره منها وتركها لأعدائه ، وعدم دفاعه عنها ، خيانة لله ولرسوله ولوطنه .

وإذا كانت الهجرة فى مبدأ الإسلام شرطا لقبول إسلام المسلم ، فقد جعل الرسول بديلاً لها بعد الفتح وهو الجهاد والنية ، وأصبح من الواجب على

---

١ - البخارى فى صحيحه .

٢ - جزء من حديث صحيح وتمامه بلفظه :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده ، والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » .

المسلمين أن يعيدوا النظر فى موقفهم باستمرار من دينهم على هذا الأساس وهو الجهاد والنية الخالصة لله رب العالمين من أجل القيم والمثل التى جاء بها الإسلام حتى يستحقوا أن يحملوا لقب « مسلمين » .

٢٥ لا ترفضوا سنن الله

الذين يطلبون المجد والقوة ، وينشدون النهضة والعزة عن طريق الابتعاد عن الإسلام والتحلل من تعاليمه واعتناق مبادىء وتعاليم غريبة عنه بدلا منه إنما يطلبون الماء من السراب وهم فى هذا كمن يمشون على رؤوسهم وقد جعل الله لهم أرجلا يمشون عليها . .

إن الله سبحانه قد وضع فى قرآنه الحكيم كل السنن الطبيعية الإلهية التى تحيى الأمم وتبعث فيها القوة والغيرة . فمن تركها واعرض عنها فقد أعرض عن سنة الحياة وعن سنة الله . وكان لابد له أن يضل وأن يزل فيذل ولا يعز فالله منزل الكتاب وخالق السنن ومن بيده الأمر والحكم يقول ﴿ ومن أعْرض عن ذِكْرِى (وهو القرآن وتعاليمه) فإن له معيشة ضنكا ﴾ لأنه سيعيش ذليلاً ضعيفا حتى ولو كان فى يده مال قارون ، فليس المال هو كل شىء فى حياة الإنسان .

هناك حريته ، عزته ، كرامته ، عقيدته ، عزة وطنه ومهده وأرضه ، كل ذلك لا يتوفر له إلا إذا اتبع سنن الله فى الحياة ، وهى تعاليمه فى القرآن ، ومتى توفرت عاش فى سعة من عيشه سعيداً فى حياته سيداً ولو كان فقيراً فإن عزته وكرامته ثروة بل أكبر وأثمن ثروة يسعد بها الإنسان حتى ولو كان فى كوخ صغير ، والذليل تضيق عليه دنياه مهما اتسعت ، وتحتبس أنفاسه فى صدره فلا يشعر بسعة الحياة أمامه لأن قيود الذل وكمامته تخنق أنفاسه ، وتثقل خطوه . .

والذين يرفضون السير على هدى الله وسنن الحياة إنما يرفضون عزتهم

باختيارهم ، ويؤثرون الضلال على الهدى والهوان على العزة ، ويمهدون لغيرهم أن يتحكموا فيهم وفى معايشهم وفى حرية ضمائرهم ، لأن الله علم رسوله أن يقول لنا ويبين وينذر من التمس الهدى فى غيره (أى غير القرآن) أضله الله ، وليس هذا كلام إنسان عادى بل هو كلام الرسول النبى عن ربه ، ومحال أن يتخلف ، أو يكذب ، فأية أمة تتنكب طريق القرآن وتعرض عن سنته وتعاليمه لابد أن تضل فى حياتها ، ولن تصل فى يوم من الأيام إلى هدفها وستظل تعيش فى تيه ، تتخبط فى سيرها وتتعثر فى خطوها ، لأنها ابتعدت عن سنن الله وعن طريقه والله يقول : ﴿ **وأن هذا صراطى مستقيما فاتبعوه ولا تتبعوا السبل فتفرق بكم عن سبيله** ﴾ وسنن الله التى هى طريق القرآن وسبيل الإسلام هى السنن الطبيعية لإحياء الأمم ، وبقدر تمسك أية أمة بها ، بقدر ما تنهض وتقوى وتسعد .

أخذت أمم غير مسلمة ببعض هذه السنن فى حياتها وحافظت عليها فى أعمالها فقويت وتقدمت فى انتاجها وفى اختراعاتها ، وتراخينا نحن أمة القرآن عن هذه السنن وانحرفنا عنها فأصابنا ما نرى من تخلف وضعف واختلاف وتمزق .

ومن العجب العجاب أن نسمع الكثيرين منا يتحدثون عن هذا حديث العارف للداء والدواء ولكن ما رأينا حتى الآن الأيدى القوية والهمم الفتية تتضافر لكى تتناول الأمة دواءها وتمشى فى طريقها الذى مهده لها ربها .

نعم كلنا نتكلم وكلنا نعرف ويؤمن ولكن لما نبلغ درجة العمل . . فهل نحن ننتظر غريبا عنا يأخذ بيدنا ويدلنا على فضل ديننا . . ويساعدنا على السير فى طريق نهضتنا ، إن الغرباء عن الإسلام والمسلمين لا يسرهم أن ننهض ونقوى . فإلى متى نظل نندب حظنا ونشكو ظمأنا وجوعنا ، وفى أيدينا حظنا . وأمامنا طريقنا ونبعنا ورينا وغذاؤنا ، القرآن الكريم هدى وشفاء لما فى الصدور ورحمة للمؤمنين العاملين .

٢٦

لا تمت علينا ديننا

كان لسيدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه موقف رائع بلغ منتهى الحساسية والإخلاص لهذه الأمة الإسلامية ، وهو موقف له دلالات متشعبة وعميقة . . فقد رأى رضى الله عنه رجلا يمشى متمسكنا فى شوارع المدينة يخفض رأسه علامة على تواضعه وتعبده . فلم يرض الخليفة العظيم عن هذه الهيئة لرجل فى أمته لأنها تشبه هيئة الأذلاء ، ولأن هذا الرجل أراد أن يظهر التدين فى مظهر خفض الرأس والمسكنة ، والدين فى القلوب يعمرها ويوجه الإنسان الى الصواب فى أعماله ، ولذلك اتجه عمر الى هذا الرجل لا ليشكره على هذا المظهر ولكن ليضربه بدرته ، لظهوره بهذا المظهر المتماوت ويقول له لا تمت علينا ديننا أماتك الله . .

وهل كان الرجل بمظهره هذا يعمل على إماتة الدين ؟
نعم . . فالدين دين العزة لا يحب من المسلمين الذلة ولا أن يظهروا بمظهر الأذلاء والدين يقين بالقلب وصلته بالظاهر سلامة العمل والسلوك لا خفض الرؤوس ولا لبس المرقعات ، ولا مجرد إطلاق الشعارات . .

ولهذا ضرب الخليفة عمر هذا الرجل لمجرد أنه ظهر بمظهر لا يليق بالمسلم فى مشيته . فماذا يكون الأمر لو أن عمر رضى الله عنه ظهر فى زماننا ورأى مظاهرنا وما نحن عليه ؟ وإذا كان مجرد هذا المظهر يعتبر إماتة للدين فى نظر عمر فيماذا يمكن أن تسمى إذن هذه الانحرافات التى ازدهرت مع الأسف بيننا . .

لم يؤذ هذا الرجل أحدا بمشيته تلك ، ولكنه أساء إلى المظهر العام للمسلمين حيث يمشى مشية الأذلاء ﴿ ولله العِزةُ ولرسُولهِ ولِلمُؤمِنين ﴾ فاستحق الضرب

والتأديب . .

وهل مثل هذا المظهر إماتة للدين ؟ نعم فليس الدين مجرد عبادة ومظهر ولكنه كل ما يتصل بحياة الناس عملا كان أم مظهرا . . وكل تقصير فى هذا العمل أو ذاك المظهر يعتبر إماتة للدين وقضاءً على حياة العزة للمسلمين . . نعم كل عمل تنتظم به الحياة ، وتستقر به النفوس وتطمئن هو من الدين ومهما اعتبرت هذا العمل تافها وبسيطاً ، فإنه لن يبلغ فى بساطته مثل هذا المظهر الذى استحق عليه هذا الرجل أن يطارده عمر ويضربه .

نقول هذا للذين يستهترون بمصالح الأمة ولا يهمهم إلا مصالحهم الشخصية ، نقوله للذين يستهينون بالأخلاق والواجبات والأمانات التى فى أيديهم ، للذين تمتد نفوسهم للكسب الحرام ، ولتعطيل أعمال الناس . وإثارة عوامل السخط فيهم . . للذين تسيرهم أهواؤهم وأغراضهم الخاصة لتعطيل أعمال الدولة وصرف نفوس الجماهير الى المعارك الشخصية ، والدسائس الملتوية ، والأحقاد الكاوية المحرقة بدلاً من أن يداووا جراحاتهم ويوجهوا الأمة الى التكتل للنصر على عدوها . وتحقيق العزة لها .

ونذكر هذه الواقعة العمرية أيضاً للذين يتحملون المسؤولية ووضع الله فى يدهم مصير هذه الأمة ، ووضع فى يدهم قوة الردع والتأديب ليقسوا على اولئك الذين يميتون علينا ديننا ودنيانا لا بمجرد مظهر المتعبدين ولكن بأفعال الخائنين لأمتهم المستهترين بمصالحها وبمصيرها ، وفى أحرج مواقفها . . .

نعم فما أحوجنا الآن الى مثل هذه الوقفة العمرية لنحيى بها ديننا ، ودنيانا .

٢٧ دعوة الاسلام للتضحية فى سبيل الحق

يقول الله تعالى :

﴿ انفرُوا خُفافاً وثِقالا وجَاهِدُوا بأمْوالِكُم وأنْفُسِكُم فى سَبيلِ الله ذلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إنْ كُنتُم تَعْلمُون ﴾ (١) .

إن دفاع كل كائن عن وجوده ، وحق حياته ، أمر طبيعى مركوز فيه . . نراه فى الإنسان والحيوان والنبات ، وقد يكون ذلك باختياره ، وإرادة منه ، وقد يكون بما ركزه الله فيه من وسائل الدفاع الطبيعى ، التى تقوم بعملها ، دون إرادة منه ، محافظة على كيانه ووجوده ، ونحن نسمى ذلك حيناً دفاعاً عن النفس ، ونسميه تنازع البقاء حينا آخر . .

والإنسان الذى كرمه الله بالعقل ، وربما أودعه فيه من نزوع الى السمو ، لم يقتصر أمر الدفاع فيه عن النفس ، على مجرد المحافظة على جسمه وغذائه ونسله ، بل يسمو ويمتد ، حتى يشمل الدفاع عن مثله وعقائده التى يؤمن بها ، ووطنه الذى يظله ، ويحمى مثله وعقائده . . لأن الإنسان ، لا يعيش عيشة الحيوان ، كل همه غذاؤه ، بل يعيش كذلك لمثله وعقائده التى تحتل من نفسه مكاناً ، فوق ما تحتله حاجته للغذاء . .

ولهذا نجد الإسلام ـ وهو دين الفطرة السليمة ـ يقرر حق الدفاع عن العقيدة والمثل ، كما يقرر حق الدفاع عن المال والوطن والكيان الفردى والجماعى فيقول :

أُذِنَ للَّذِين يُقَاتلُون بأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وأنَّ الله علي نَصرِهِم لقدِير . الَّذِينَ أخْرِجُوا

١ ـ سورة التوبة : ٤١ .

مِنْ دِيَارِهِمْ بِغَيْرِ حَقٍ إِلاَّ أَنْ يَقُولُوا رَبُّنَا اللهُ ﴾ (١) .

ويقول الرسول ﷺ : « **من قتل دون ماله فهو شهيد ، ومن قتل دون دمه فهو شهيد ، ومن قتل دون أهله فهو شهيد** » .

والإسلام حين يقرر ذلك ويدعو اليه إنما يرمى بذلك إلى رفع لواء الحق والعدل بين الناس وحمايتها من العابثين الأشرار ، الذين لا يعبأون بخير ، ولا يقيمون وزناً لحق أو عدل ، والذين لو ترك الأمر لأهوائهم لاختفت معالم الخير من المجتمع ، وجرفته الشرور وطغت عليه .

ولذلك كانت مقاومة هؤلاء وردعهم وكسر شوكتهم ، جهاد فى نظر الإسلام ، وضرورة ينتظم بها أمر الحياة .

وهذا هو مايقرره القرآن الكريم فى قوله تعالى : ﴿ **وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُمْ بِبَعْضٍ لفسَدت الأَرْضُ ولكِن الله ذُو فضْلٍ على العالِمين** ﴾ (٢) وقوله فى آية أخرى مشابهة لهذه الآية وموضحة لها :

﴿ **وَلَوْلاَ دَفْعُ اللهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَهُدِّمَتْ صَوامِعُ وبِيَعٌ وَصَلواتٌ وَمَسَاجِد يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ الله كثيراً** ﴾ (٣) وهذا المعنى هو الذى حاول شاعرنا شوقى عليه رحمة الله أن يعبر عنه حين قال يناجى الرسول ﷺ :

الحرب فى حق لديك شريعة
ومن السموم الناقعات دواءُ

وفى هذا الإطار إطار الدفاع عن الحق ، وتمكين المثل العليا التى يدعو إليها الدين ، جاءت آيات القرآن وأحاديث الرسول عليه الصلاة والسلام تستحث المسلم على أن يحمل سلاحه كلما وجد اعتداء أو محاولة اعتداء على دينه أو وطنه ، الذى يعيش فى ظله آمنا على عقيدته فيقول الله سبحانه :

﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب

---

١ ـ سورة الحج : ٣٩ ومابعدها .

٢ ـ سورة البقرة : ٢٥١ .

٣ ـ سورة الحج : ٤٠ .

المعتدين ﴾ [١] ويقول : ﴿ وقاتلوهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين لله فإن انتهوا فلا عدوان على الظالمين ﴾ [٢] أى قاتلوا المعتدين الذين يعملون على طمس معالم الحق ، حتى لا يكون لهم مجال لظلم الناس أو صدهم عن الخير والحق ، وحتى يعيش الناس أحراراً فى تفكيرهم ، واتجاههم للخير ، ولا يقع عليهم تسلط من ظالم متجبر ، يجبرهم على السير فى طريقه ، ويسلبهم أمنهم وحريتهم . .

وسبيل الله التى يدعونا القرآن للقتال من أجلها هى الحق والعدل والخير والسلام ، هى العقائد والأنظمة التى يدعو اليها الإسلام من أجل سعادة البشر ، وهى كلمة الله التى عناها الرسول ﷺ حين قال : « **من قاتل لتكون كلمة الله هى العليا فهو فى سبيل الله** » .

فالمسلم الذى يقاتل من أجل الحق والعدل ، من أجل حماية عقيدته وحريته من أجل حماية عرضه وأرضه ، مجاهد فى سبيل الله ، له عند الله ما بينه الرسول ﷺ حين قال : « **تكفل الله لمن جاهد فى سبيله لا يخرجه من بيته الاجهاد فى سبيله وتصديق لكلمته بأن يدخله الجنة أو يرجعه الى مسكنه الذى خرج منه مع ما نال من أجر أو غنيمة** » .

ولنبل الهدف الذى يقاتل المسلمون تحت رايته ، كرمهم الله هذا التكريم ، وخص المستشهدين منهم بمزيد من فضله وتكريمه ، فقال سبحانه ﴿ **لا تحسبن الذين قتلوا فى سبيل الله أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم إلا خوف عليهم ولا هم يحزنون** » [١] .

وقد عبر الرسول عن الكرامة التى يلقاها الشهيد عند الله حين قال : « **ما من أحد يدخل الجنة يحب أن يرجع الى الدنيا ، وأن له الدنيا ومافيها ، غير الشهيد ، فإنه يتمنى أن يرجع فيقتل فى الدنيا عشر مرات ، لما يرى من فضل**

١ ـ البقرة : ١٩٠ .
٢ ـ البقرة : ١٩٣ .
١ ـ آل عمران ١٦٩ ـ ١٧٠ .

الشهادة » وإنما يحب أن يرجع إلى الدنيا ليستزيد من فضل الله بالاستشهاد حتى الرسول وهو صاحب الشفاعة فينا يقسم ويقول : « **والذى نفس محمد بيده لوددت أن أغزو فى سبيل الله فأقتل ثم أحيا فأقتل ، ثم أحيا فأقتل »** .

فأية منزلة رفيعة تلك التى يودها الرسول وهو حبيب الله ومصطفاه ؟ .

فهنيئاً للشهداء الذين يستشهدون فى سبيل الله لا فى سبيل فرض السيطرة والنفوذ ، ولا فى سبيل حماية أطماع المستعمرين أو تمكين الظلم من رقاب المسلمين . .

إن الإسلام يعتبر أرض المسلمين جميعاً وطناً واحداً ، غير مقيم وزناً للحدود ، والفواصل المصطنعة بين أجزاء العالم الإسلامى ، فالمسلمون إخوة ، وأمة واحدة ، يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم ، ومن العقوق للإسلام وللإخوة الإسلامية أن يهضم مسلم حق أخيه ، أو يسعى لقتاله ، أو يعمل على إضعافه وإذلاله ، والرسول ﷺ ينذر ويحذر من ذلك ويقول : « إذا التقى المسلمان بسيفيهما فالقاتل والمقتول فى النار ، قيل يارسول الله هذا جزاء القاتل ، فما بال المقتول ؟ قال كان حريصا على قتل صاحبه » .

إن الأولى بالمسلمين أن يستمعوا لصوت القرآن ، فيتجمعوا ، ويتحدوا ، ويتكتلوا لمجابهة عدوهم ، الذى يتربص بهم جميعا ، فإن القرآن يستنفرهم لحماية أوطانهم والدفاع عنها ، صوناً لعقيدتهم وحريتهم ، وخيرات بلادهم ، وليعيشوا أعزاء أو يموتوا شهداء ﴿ انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون » .

٢٨ نماذج من التضحيات

إن الدعوات الاصلاحية لا تسير ولا يمتد زحفها ، إلا اذا استمدت وقودها من تضحيات المؤمنين بها ، المخلصين لها ، ونحن إذا استعرضنا نشأة الإسلام فى مكة ، نجد صوراً رائعة من التضحيات التى يعجز التاريخ أن يجد لها مثيلاً فى صحائفه ، فلقد قضى الرسول ﷺ نحو ثلاثة عشر عاماً يدعو إلى مبادىء الإسلام قوماً ، جمدوا على تقاليدهم ، وتحجرت عقولهم ، حين رأوا الدين الجديد ثورة على القديم ، وقلباً للنظام السائد بينهم ، فكانت غضبتهم على الداعى الجديد والقلة المؤمنة به ، غضبة عاتية مجنونة ، بعد ما حاولوا بكل وسيلة أن يثنوه عن عزمه ، وسخوا فى الوعود له ، ليسكتوه عن دعوته ، ولكنه قطع عليهم حيلهم وخيب آمالهم حين قال قولته الحاسمة الفاصلة « **والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه** » .

وبمقدار ما كان فى هذا القول من خيبة أمل للمشركين أفقدتهم صوابهم ، وألهبت غضبهم ، فصبوا كل أنواع العذاب على الرسول والمؤمنين كان لهذا القول أيضا ملهباً لعزائم المؤمنين ، مثيراً لكل قوى الاحتمال والصبر والثبات فى نفوسهم .

لقد كانت الحماسة التى أقبل بها المشركون على تعذيب الرسول والمؤمنين معه كفيلة بأن تزلزل الجبال الرواسى ، وتذيب النفوس القوية ، لولا حماسة القلة المؤمنة التى استمدوها من ايمانهم بربهم وإخلاصهم لعقيدتهم ، فجعلهم ينسون أنفسهم ، وأولادهم ، وكل عزيز لديهم ، حتى لكأنهم كانوا يجدون لذة

وراحة ، فيما يبذلونه من تضحيات .

وفى الأوقات التى تجدب فيها النفوس من الإخلاص ، وتظمأ فيها القلوب وتهفو إلى غذاء روحى يمدها بزاد من المثل العليا ، تجد هذا كله متوافراً بين السطور التى سجلها التاريخ لهؤلاء المؤمنين الأبطال ، الذين كانوا قبل إيمانهم مهملين ، لا يشعر بهم أحد .

ولكن الايمان بالله والتضحيات التى بذلوها فى سبيله ، رفعهم الى مقام القديسين الأبطال ، وجعلهم عمالقة فى التاريخ ننظر اليهم ونسترجع مواقفهم وتضحياتهم ، كلما اشتقنا الى زاد تتغذى به أرواحنا ، وأرواح أبنائنا وتلاميذنا ، لنغرس فيهم روح التضحية والفداء ، والحب والاخلاص ، والإيمان العميق بالله ، ونريهم ما تفعله العقيدة المخلصة فى احياء النفوس وتكوين الأبطال .

لقد كان فى صحابة رسول الله فى مكة رجال ضعاف فقراء ، ورجال اغنياء ، لهم نسبهم وحسبهم ، ومع ذلك كانت موجة الاضطهاد والتعذيب تجرف أمامها الجميع ، لم ينج واحد منهم من عذاب ، حتى أبو بكر اضطر يوماً من الأيام أن يحتمى برجل كافر ، ليستريح ولو قليلا من عناء الاضطهاد ، ولكنه لم يلبث أن رد على الكافر حمايته ، حين وجد فيها تقييداً لحريته فى عبادة ربه ، مع أنفته أن يكون مستريحا وغيره يعذب فى الله .

وقد كان أبو بكر رجلاً له مكانته وماله الذى أنفق أكثره فى خدمة دينه ، وسخره لإنقاذ الضعفاء من إخوانه . مر على أمية بن خلف المشرك فوجده يتفنن فى تعذيب عبده بلال الحبشى حيث طرحه على الرمال الملتهبة وقت الظهيرة ، ووضع على صدره صخرة ضخمة ليكفر بمحمد ، ويعود لعبادة الأصنام وبلال ثابت لا يتأوه بل يهتف من قلبه : أحد . . أحد . فقال أبو بكر لأمية أما تتقى الله فى هذا المسكين ؟ حتى تعذبه ؟ فقال له أنت أفسدته ، فأنقذه ، فاشتراه منه أبو بكر واعتقه ، وتكرر منه مثل هذا مع عبيد آخرين مؤمنين ، يشتريهم لينقذهم ، ثم يعتقهم ، فلامه أبوه ، وقال له أما كان أولى لك أن تفعل مثل هذا مع عبيد أقوياء ، ليكونوا سندا لك ؟ فقال لأبيه : إنما أريد وجه الله ، فأنزل الله فى شأنه وشأن هؤلاء المشركين وعلى رأسهم أمية بن خلف :

﴿ فأنْذَرْتكُمْ نَاراً تَلظَّى لَا يَصْلَاها إلَّا الأشْقى الَّذى كذَّبَ وَتَولى . وَسَيُجَنَّبُهَا الأتْقى الَّذى يُؤتى مَالهُ يَتزَكَّى وما لأحدٍ عِنْدهُ مِنْ نِعْمَة تُجْزَى إلَّا ابْتِغَاء وَجْهِ رَبِّهِ الأعْلى وَلَسَوْفَ يَرْضى ﴾ [1] وما حصل لبلال من تعذيب وما كان منه من صبر وثبات حصل لكثيرين مثل خباب وعمار وأبيه ياسر وأمه ، حتى كان الرسول يمر بهم ، وهم يعذبون ، وهو لا يملك دفاعاً عنهم فيقول : « صبرا آل ياسر ، فإن موعدكم الجنة » .

جاء خباب مرة الى الرسول من كثرة ما نزل به ، يقول له : ألا تدعو الله لنا . فوجد الرسول فى هذا القول نغمة ضعف ، لا تليق بالمؤمن ، فقال له وقد احمر وجهه « **إنه كان من قبلكم ليمشط أحدهم بأمشاط الحديد ما دون عظمه من لحم وعصب ، ويوضع المنشار على فرق رأسه ، ما يصرفه ذلك عن دينه ، وليظهرن الله هذا الأمر ، حتى يسير الركب من صنعاء إلى حضرموت لايخاف إلا الله والذئب على غنمه** » .

ومع ذلك فقد كان الرسول كثير الإشفاق على أصحابه كثير التفكير فى أمرهم فأشار عليهم بالبعد عن هذا الجو الخانق ، والهجرة إلى الحبشة ، فهاجر اليها نحو ثمانين رجلا وامرأة ، كانت من بينهم رقية بنت الرسول وزوجها عثمان بن عفان رضى الله عنهما ، هاجر هؤلاء إلى أرض لا يعرفونها ، وأناس لم يعرفوهم ، وركبوا البحار والأخطار ، وأقبلوا على مستقبل غامض ، لكنه الإيمان الذى تهون أمامه كل تضحية .

وإذا كان العذاب الذى ينزل بالواحد منهم كان يضطره أحياناً الى الاحتماء بمشرك ليستريح ، وينجو من الاضطهاد فقد كان يؤرقه ويشقى نفسه مايرى من إخوان له يعذبون ، فيرد على المشرك جواره وحمايته ، ليجمعه هو وإخوانه مصير واحد مشترك ، يعذب كما يعذبون ، أو يستريح كما يستريحون .

لما رجع عثمان بن مظعون من الحبشة لم يستطع دخول مكة والعيش فيها ، إلا فى جوار الوليد بن المغيرة ، ولكنه عز عليه أن يستريح فى جوار كافر مشرك ،

---

١ ـ آخر سورة الليل .

وحوله إخوانه يعذبون ، فرد عليه حمايته وقال له : إنما أرضى بجوار الله ، ولا أريد أن يستجير بغيره ، وبدأ العذاب بعد ذلك ينصب عليه ، حتى أصيبت عينه فلقيه الوليد ، وقال له : لقد كانت عينك مما أصابها لغنية ، وكنت مسريحاً بجوارى ، فقال له عثمان : بل والله عينى الصحيحة لفقيرة الى مثل ما أصاب أختها فى الله ، وإننى لفى جوار من هو أعز منك وأقدر .

ويستمر صحابة رسول الله يبذلون التضحيات تلو التضحيات ، والرسول يضرب أمامهم المثل العالية فى التضحية ، حتى كان الموقف الفاصل والتضحية الكبرى ، حين كانت الهجرة الى المدينة ، وترك الاهل والوطن والمال والأحباب . وما أشقها تضحية إلا على المؤمنين المخلصين ، ولم تكن الهجرة نهاية التضحيات بل كانت بدءا لتضحيات أخرى جديدة . . .

إن الدرس الذى نتعلمه جميعا من هذه الفترة التى مرت بالرسول وأصحابه هو أن العقيدة متى تغلغلت فى النفوس ، هانت بجانبها كل التضحيات ، وأن النصر لابد من ثمن غال يبذل فى سبيله ، وأن الدين الذى ورثناه ، ونعيش فى ظله ، قد بذل السابقون من أجله أموالهم وأرواحهم ، وكل عزيز لديهم ، فرفع الله شأنهم ، وأعلى ذكرهم ، ومكن لهم فى الأرض ، وجعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين .

ويبقى على كل واحد منا بعد أن يعى هذه الدروس : أن يسأل نفسه : ما الذى فعله لصيانة هذا الميراث المجيد الذى خلقه لنا الأبطال السابقون ؟ والذكرى تنفع المؤمنين .

٢٩ الاسلام وحسن الخلق

قال رسول الله ﷺ :

« المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده والمهاجر من هجر مانهى الله عنه » .

بعض الناس يخيل اليه فهمه الضعيف للدين أنه مادام يصلى ويصوم فقد أدى ما عليه وأرضى ربه وربما لا يهمه بعد ذلك أن يغش الناس أو يخدعهم أو يكذب عليهم وينكث بعهوده معهم . .

وبعض الناس يكثرون من التحدث عن الخلق وعن الإسلام ومبادئه القويمة فى السلوك الإنسانى ثم نرى عملهم بعد ذلك بعيدا عما يقولون فهم يحقدون ويحسدون الناس على ما آتاهم الله ويسعون فى الكيد لهم والحاق الأذى بهم ويحسبون مع ذلك أنهم على شىء الا إنهم لكاذبون . .

وترى صنفاً من الناس يطالب إخوانه أن يعاملوه معاملة حسنة ولكنه يحلل لنفسه ما يحرمه على غيره ولا يعامل الناس بما يجب أن يعاملوه . .

وترى أن تسمع شكوى عامة من سوء أخلاق الناس ومعاملتهم بعضهم البعض وربما يثورون لاتفه الأسباب ويتبادلون الشتائم بينهم . .

ومما لاشك فيه أن مرجع ذلك كله هو ضعف الدين فى نفوسنا أو سوء فهمنا للدين إن الإسلام لا يرضى عن هذه الأصناف من الناس لأن الإسلام عقيدة وعمل . والعمل كل لا يتجزأ سواء أكان عبادة أم معاملة .

والمسلم الصادق هو الذى يحسن عقيدته فى الله ويؤدى ما عليه من عبادات

مفروضة ويلتزم الآداب المشروعة ويعامل الناس بخلق حسن بمثل ما يجب أن يعاملوه به . .

إن الله سبحانه حين أمر عباده ونهاهم لم يردْ بذلك نفعا له فمن شكر فإنما يشكر لنفسه ومن كفر فإن الله غنى حميد . . ﴿ إِنْ أَحْسَنْتُم أَحْسَنْتُم لأَنْفُسِكُم وإِنْ أَسَأْتم فلهَا ﴾ ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحًا فلِنفْسِهِ وَمَنْ أساء فعَلَيها ﴾ . وإنما أراد الله من وراء الايمان به وعبادته أن تحسن صلة الإنسان بربه فيخشاه حين يعامل عباده فيكون عمله حسنا وقوله صدقاً وبذلك تتوفر للناس السعادة والأمن والإطمئنان فى حياتهم . .

ذلك هو هدف الدين وغايته وذلك هو ما يجب أن يفهمه كل انسان فالدين وتشريعاته لمصلحة الإنسان وتحسين حياته عن طريق تحسين سلوكه وخلقه .

وهذا هو السر فى أن الرسول ﷺ عرف الدين بحسن الخلق وذلك حينما جاء رجل مرة وسأله ما الدين يا رسول الله فقال له الرسول الدين حسن الخلق كما قال له : الدين هو ألا تغضب . . .

وقد وضح له الرسول بذلك أن الغضب كثيرا ما يخرج الإنسان عن الخلق الكريم ولذلك فإن من واجب المؤمن أن يمسك نفسه عند الغضب وأن يكظم غيظه حتى لا يكون شريراً فاسد الأخلاق . .

ولعلنا بهذا نعلم أن الذين يغشون الناس فى البيع والشراء ويحلو لهم أن يكسبوا مالاً عن طريق هذا الغش ، هم بعيدون عن الإسلام ، وإن صلوا وصاموا . . فقد مر الرسول على كومة من قمح فضرب يده فى باطنها فوجدها مبتلة فوبخ أصحابها وعنفهم وقال لهم : « **من غشنا فليس منا** » . .

وليس المراد من ذلك غش المسلمين وحدهم بل من سلك طريق الغش مع أى إنسان مسلماً أم غير مسلم فهو غير جدير بالانتساب الى جماعة المسلمين اتباع الإسلام .

وإذا كان هؤلاء الغشاشون يخيل لهم وهمهم وسوء فهمهم أنهم بذلك يزيدون من ثرواتهم فإن ربك لهم بالمرصاد ومهما ازدهرت تجارتهم أو زادت . . ثروتهم

فمصيرها الى خراب والله سبحانه لا يبارك فى مال اختلط بحرام ولا ثروة قامت على غش وخداع ولا أولاد ربوا بمال من حرام وفى الآخرة ينتظرهم تحقيق وعيد الرسول كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به . .

وهؤلاء الذين يظنون الدين مجرد صلاة وصيام ويسيئون معاملة الناس ويسلطون عليهم ألسنتهم وأيديهم بالسوء بعيدون من الله ومن الناس وأشد بعداً عنهم من لا يؤدى حق الله وحق الناس .

فقد مدح جماعة امرأة أمام الرسول ﷺ بأنها تصوم نهارها وتقوم ليلها ثم قالوا ولكنها تؤذى جيرانها فقال لهم الرسول ﷺ لا خير فيها هى من أهل النار وذلك لأن صلاتها وصيامها لم يمنعاها من إيذاء جيرانها ولم يحملاها على التخلق بالأخلاق الحسنة فاستحقت بذلك عذاب النار .

وكما يقول الرسول ﷺ فى حديث آخر من لم يدع قول الزور والعمل به فليس لله حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه .

والذين يأتمنهم الله على مصالح الناس ويضع فى أيديهم مصائرهم وأرزاقهم ثم يتلاعبون بهذه الأمانة ويسيئون الى الناس ويفرقون بينهم تبعاً لأهوائهم وأحقادهم أو الذين يأمنهم الناس على أموالهم وأسرارهم فيخونون أماناتهم كل هؤلاء بعيدون عن الإسلام وأن صلوا وصاموا وزعموا أنهم مسلمون فان الرسول ﷺ يقول « **ألا انه لا دين لمن لا أمانة له وإن صلى وصام** » . .

وهكذا يهتم الإسلام بسلوك المسلم ويجعله عنواناً صحيحا على حسن إسلامه ومقياساً ترتفع به درجته أو تنخفض عند الله حتى وجدنا الرسول ﷺ يعرف المسلم ويذكر مميزاته التى تجعله مسلما حقا فيقول : « **المسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده** » وكذلك يسلم غير المسلمين من ايذاء لسانه ويده لأن الأجدر بالمسلم غيرهم فأنظر ياأخى أين انت من الأسلام واحرص دائما على ان تكون فى أقوالك وصلتك بالله وبالناس مثلا كريما للسمملم الصادق فإن الاسلام حسن الخلق والدين المعاملة .

٣٠ خير الجيران

يقول عليه الصلاة والسلام : « خير الجيران عند الله تعالى خيرهم لجاره » .

جار الإنسان فى السكن أو فى الحقل والعمل فى الإقامة أو السفر هو الصق الناس به وأكثرهم اطلاعاً على أحواله وأسرعهم إلى مساعدته ونجدته وبه تتكيف حياة الإنسان من راحة أو تعب ولذا قيل فى الحكمة المأثورة : « الجار قبل الدار والرفيق قبل الطريق » أى أبحث عن الجار وتغيره قبل أن تغير الدار التى تقيم فيها . . فإن الجار إذا كان حسن الأخلاق حريصا على حسن معاملته لجيرانه سعد به جاره واطمأنت نفسه اليه وتوطدت بينهما علاقات الود والحب والتعاون الطيب المثمر وعاشا أخوين فى سلام واطمئنان ومنهما وأمثالهما يتكون بنيان الأمة القوية السعيدة .

ومن أجل هذا عنى الإسلام أشد العناية ببيان حقوق الجار والايصاء بحسن معاملة المسلمين لجيرانهم ولو لم يكونوا على دينهم فان المسلم يجب أن يكون صورة مثالية طيبة مع كل من يحيطون به ويعاملونه . . والاسلام يحرص أشد الحرص فى كل توجيهاته على أن تتكون الأمة من خلايا قوية ولبنات متماسكة .

ويبدأ بالأسرة فيضع لها من التشريعات والتوجيهات ما يوطد علاقة الحب والتعاون بين أفرادها ثم يخطو خطوة أوسع من الأسرة ، لأن الإنسان فى خضم الحياة ومجابهة حاجاتها يضطر لأن يعايش أناساً غير أسرته ، وهنا يتدخل الإسلام لينظم هذا التعايش ، ويقيمه كذلك على أساس من الحب والتعاطف ، فنجد القرآن الكريم يأمر بالاحسان الى الجار .

والإحسان هنا ليس مقصوراً على المساعدة المالية ، بل إنه يتسع فيشملها ، ويشمل الإحسان فى المعاملة ، وفى كل صلة لك مع جيرانك . . فيقول الله تعالى : ﴿ واعْبُدُوا الله ولا تُشْرِكُوا بِهِ شيْئا وبالوالدين إحْسانا ، وَبِذِى القُرْبَى وَاليَتَامَى ، والمَسَاكين ، والجَارِذِى القُرْبى ، والجَارِ الجُنُب ، والصَّاحب بِالجَنْب ﴾ .

ويأتى رسول الله ﷺ فيبين ما أجمله القرآن فيقول : « **الجيران ثلاثة جار له حق واحد ، وهو أدنى الجيران . وجار له حقان وجار له ثلاثة حقوق وهو أفضل الجيران حقا ، فأما الجار الذى له حق واحد فجار مشرك لا رحم له ، له حق الجوار ، وأما الجار الذى له حقان فجار مسلم له حق الإسلام وحق الجوار ، وأما الجار الذى له ثلاثة حقوق فجار مسلم ذو رحم له حق الجوار وحق الإسلام وحق الرحم** » .

وحق الجار على جاره أن يحفظ حرمته فلا يؤذيه بكلمة تجرحه أو نظرة تخدشه أو تصرف سيىء يسىء إلى كرامته .

وإذا اطلع على سر من أسراره ، بحكم الجوار والقرب ، فلا يستغله فى الإساءة اليه ، بل يحفظه ويصونه ، وإذا كان يسكن فى بيت واحد مع آخرين ، تعاون معهم على إيجاد جو من الود والتعاون والهدوء ، فلا يقلق راحتهم ، ولا نترك أولاده يحدثون عن الجلبة والضوضاء ما يقض مضاجعهم . . ولا يرفع صوت المذياع أو التليفزيون حتى يقلقهم ويصرف الطلاب عن مذاكرتهم ولا يضع فضلات بيته أمام أبوابهم ، أو فى طريقهم ، ولا يترك أولاده يعتدون على أولادهم . . وإذا حصل منه خطأ بادر بتصحيحه ، مع الاعتذار اليهم . . ثم عليه أن يتفقد أحوالهم ، فيعينهم إذا احتاجوا ، ويعودهم اذا مرضوا ، ويجاملهم فى أفراحهم وأحزانهم ، ويهدى اليهم أحيانا ما عنده ، ولا يبخل عليهم بنعمة أنعم الله بها عليه ، بل يجعل لهم كذلك حظا منها . .

يقول أبو ذر الغفارى رضى الله عنه .

« أوصانى خليلى ﷺ فقال يا أبا ذر إذا طبخت مرقة فأكثر ماءها ثم انظر الى أهل بيت من جيرانك فأصبهم منها بمعروف » .

ثم نجد الرسول ﷺ يقسم ويكرر القسم بنزع شرف الايمان من كل مسلم لا يحس حاجة جاره ولا يعنيه فيقول « والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن فقيل من يا رسول الله ؟ فقال : « **من بات شبعان وجاره جائع الى جانبه وهو يعلم** » .

ثم يقول مثل هذا عن الجار الذى يكون مصدر شر ومتاعب لجيرانه حتى يخافوا جيرته فيقول : « **والله لا يؤمن والله لا يؤمن والله لا يؤمن . فقيل من يارسول الله ؟ فقال الذى لا يأمن جاره بوائقه ، أى شروره وأذاه** » ثم يقول فى حديث آخر « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخرة فلا يؤذ جاره** » .

ولعل أجمع ما جاء عن الرسول فى الايصاء بالجار قوله ﷺ « **ما زال جبريل يوصينى بالجار حتى ظننت أنه سيورثه** » فإن هذا يوضح لنا عناية الله سبحانه بالجار وحسن معاملته ، فإن جبريل وهو يكرر توصية الرسول به إنما يبلغ عن ربه وقد بلغ من شدة عنايته بالجار وتكرار التوصية به أن ظن الرسول ﷺ أن الجار كاد يصل إلى درجة القريب ، وأن جبريل يكاد يجعل صلة الجوار كصلة القرابة ، ويرث الجار جاره ، كما يرث القريب قريبه ، وهذا وإن لم يكن قد تحقق إلا أنه يعطينا صورة واضحة قوية عما لصلة الجوار من منزلة عند الله ، يجب علينا أن نشعر بها ونؤدى لها حقوقها .

إن صلة الجوار فى الحقل كصلة الجوار فى السكن فيجب على الجار أن يحافظ على حدود جاره ولا يجوز عليها ، كما يجب عليه الحرص على سلامة زراعته من ماء يتسرب اليها ويضعفها أو مواش تعبث فيها وتتلفها أو صبيان يعبثون بها وإذا كان جاره فى حاجة إلى معونة فى سقى أرضه أو حرثها فلا يبخل عليه بل يمده بها ويساعده فى رحابة صدر .

وكذلك صلة الجوار فى المدرسة أو المصنع أو المكتب لها الحقوق نفسها ويجب على الطالب والعامل والموظف أن يراعيها فلا يدس على جاره عند أستاذه أو رئيسه ، ولا يتركه يقع فى أخطاء ، دون أن ينبهه لها ، يعاونه على تصحيحها دون من أو إيذاء .

إننا بهذه المعاملة الطيبة بين الجيران نبنى مجتمعاً سعيدا تتولد فيه العلاقات الطيبة بين الأفراد ، ويشيع فيهم روح الحب والتعاون والتعاطف ، ويجابهون الحياة صفاً واحداً كأنهم بنيان مرصوص ، ويكونون نواة طيبة لمجتمع فاضل سعيد .

٣١ ادب الطريق

كل واحد منا فى نفسه آمال لمجتمعه يرجو ان تتحقق ، وكثيرا ما تمر مامنا أشياء نلاحظها ونتأسف لها ، ونتمنى من صميم قلوبنا أن لو طهر المجتمع منها ، وتعاونا جميعا على القضاء عليها .

من ذلك ظاهرة اعتقد أن كثيرا منكم لاحظوها مثلا واستنكروها ، وهى توقف بعض الشبان أحياناً على نواصى الطرق أو على الأرصفة أو قريبا من مدارس البنات ، يتابعون الغاديات والرائحات منهن ، بنظراتهم النافذة ، وربما لا يكتفون بهذا ، بل يتعدونه الى التعليقات الخارجة ، والنكت الجارحة ، يجرحون بها شعور الفتيات والسيدات العفيفات ، السائرات الى مقاصدهن ، أو أعمالهن وقد يغالى بعض الشبان فيسيرون وراءهن ويضايقونهن ، يعتبرون ذلك شطارة ومهارة ويعدونها مغامرة وتظرفا ، كأن بهجته لا تتم إلا عن طريق الإساءة الى غيره وكأنه لا ضمير له يحاسبه وخلقا يعصمه ويمنعه وكأنه قد غاب عنه أن لغيره كرامة يجب أن يحافظ عليها محافظته على كرامته وأن له أعراضا يغضبه أن تصاب بما يصيب به أعراض الناس فهل يقبل هؤلاء الشبان أن يتعرض لأخواتهم أحد بمثل ما يتعرض هو لبنات الناس . . أنهم طبعا لا يقبلون بل يغضبون ويثورون فلماذا لا يعاملون غيرهم بما يجب أن يعاملوهم به ولماذا لا يحبون لغيرهم ما يحبونه لأنفسهم ويكرهون لهم ما يكرهونه لأنفسهم وهل نسوا أن الحياة قصاص . . إذا نسوا أن الله مطلع عليهم ومجازيهم على سوء ما يفعلون ؟ . .

ولماذا يضيع هؤلاء أوقاتهم فى مثل هذا العهد ومجتمعنا بحمد الله قد تحول الى

مجتمع جاد عامل لا مكان فيه لعابث أو مهمل وهو محتاج إلى مجهود كل فرد فيه للمساهمة فى حركة البناء والتعمير والنهضة الشاملة التى تعم كل مجال من مجالاته والمستقبل فيه للعاملين الجادين لا للعابثين المستهترين أن هؤلاء يقتلون حقا أوقاتهم ويهددونها ويجنون على أنفسهم ومستقبلهم وكان الأولى لهم أن يشغلوا أوقاتهم فى مذاكرة منتجة أو عمل جاد أو نزهة بريئة لو شاءوا ، ويجنون على مجتمعهم أنهم بإساءتهم للغير يزرعون الحقد والضيق فى النفوس ، ويكونون عنوانا سيئاً على بيوتهم التى نشأوا فيها وعلى مجتمعهم الذى يعيشون فيه . .

فإن المجتمع الجاد الفاضل لا توجد فيه مثل هذه الظاهرة ولا يوجد فيه شباب ينصرفون الى مثل هذا النوع من العبث لأنهم شباب فاهمون لرسالتهم يتحصنون بأخلاقهم وحسن تربيتهم فى بيوتهم مقدرون لشعور إخوانهم أو على الأقل شاعرون أنهم سيجدون من يردعهم عن هذا العبث لو سولت لأحد منهم أن يعبث أو يستهتر . .

والواقع الذى يجب أن يفهمه الجيل الجديد من شبابنا أن الاستهتار الذى يندفع اليه بعضهم لا يليق بشباب يعد نفسه لتحمل تبعات المستقبل وتعمل الدولة جاهدة لإعداده وتهيئة كل الوسائل له لتجعل منه رجلاً جديراً بنهضة أمته وتبعاته والخدمات التى ينتظرها الوطن منه .

ولقد وجدنا الإسلام يعالج هذه الظاهرة التى نشكو منها ويعمل للقضاء عليها . فقد لاحظ رسول الله ﷺ أن بعض أصحابه يجلسون أحيانا فى الطرقات فتوجه اليهم وحذرهم وقال لهم إياكم والجلوس فى الطرقات ولكن الذى سمعوا منه هذا التحذير بينوا له أن الحاجة هى التى تضطرهم احيانا للجلوس حين يقابل الواحد منهم الأخر فيسأله فى أن يقص له ما سمعه عن الرسول أو ما حفظه من القرآن أو غير ذلك من المصالح ولذلك قالوا له مالنا بد من الجلوس فيها نتذاكر ونتحدث يارسول الله فقدر الرسول عذرهم ولكنه مع ذلك لم يتركهم حتى نبههم إلى آداب يجب عليهم أن يراعوها فى هذه الحالة فقال لهم : فإذا أبيتم إلا الجلوس فأعطوا الطريق حقه فقالوا : وما حق الطريق يارسول الله فقال لهم : غض البصر وكف الأذى ورد السلام وإرشاد السبيل والأمر بالمعروف

والنهى عن المنكر وإغاثة الملهوف .

هذه ياأخى هى الآداب الكريمة التى يجب على من تضطرهم الظروف الجلوس فى الطرقات أو الوقوف فيها أن يراعوها ويلتزموها .

إنها غض البصر ، وعدم تتبع المارين بالنظرات النافذة ، وإيذائهم بالكلمات الجارحة ، والنكت الخارجة ، أو تضييق الطريق على المارة ، وإحراجهم ، ثم تحرص على أن ترد السلام على من القى عليك السلام ، لأن رد التحية واجب ، وفى عدم ردها جفوة وغلظة تورث العداوة فى النفوس .

وأن تحرص كذلك على أن ترشد الضال الى الطريق الذى يوصله الى غايته وتعاونه للخروج من حيرته ثم تعمل ما تسطيع وفى رفق ولين على تقويم ما تراه من أعوجاج أمامك ثم عليك مع هذا كله أن تهب لنجدة المستغيث بك والمحتاج إلى عونك ولا تقف جامدا أمام ما تحسه من حاجة المحتاجين واستغاثة المستغيثين كأن الأمر لا يعنيك .

وهكذا يا أخى ترى أن الرسول ﷺ تولى علاج هذه الظاهرة السيئة فحذر من الجلوس فى الطرقات وما يشبه من الوقوف فيها ثم بين لنا الآداب التى يجب أن نراعيها اذا ألجأتنا الظروف الى جلسة أو وقفة فيها .

وهو عليه الصلاة والسلام بهذا يوجه المسلم الى أن يستفيد من كل أوقاته ، ويكون دائما وحيث وجد عاملاً منتجاً ومصدر إشعاع للخير والنفع العام . . فالمسلم من سلم المسلمون من لسانه ويده وخير الناس أنفعهم للناس .

٣٢ اختيار الاصدقاء

قال رسول الله ﷺ :

« المرءُ على دين خليله فلينظر أحدكم من يخالل » .

خلق الله هذه الحياة وخلق الإنسان فيها ليرى حلوها ومرها أو يسرها وعسرها ورخاءها وشدتها وهو فى كلتا الحالتين يحتاج الى خلان وأصدقاء يأنس اليهم ويأنسون إليه ويحبهم ويحبونه ويعاونهم ويعاونونه ويفضى اليهم بأسراره ومشاكله ويفضون اليه كذلك بأسرارهم ومشاكلهم ويقف بجانبهم كما يقفون بجانبه فى شدائد الحياة وعسرها وفى رخائها ويسرها .

ومن طبيعة الأصدقاء أن تكثر بينهم المعاشرة والمخالطة ويؤثر أحدهما فى الآخر وتنتقل إليه أخلاقه وسلوكه فى الحياة حتى ليصبح الصديق عنواناً على صديقه وصورة قريبة منه حتى وجدنا الشاعر العربى يصور هذا حين يقول :

عن المرء لا تسأل وسل عن قرينه
فكل قرين بالمقارن يقتدى

وحتى قيل فى الحكم : خبرنى من تصاحب أخبرك من أنت . .

ولهذا كان من الضرورى للإنسان العاقل أن يدقق فى اختيار اصدقائه وخلصائه ويفكر كثيراً قبل انتقاء جلسائه ورفقائه فى حياته لأن الأصدقاء هم ثروة الإنسان الحقيقية وذخيرته التى يجابه بها هذه الحياة . . ولابد للانسان أن ينتقى ثروته ويطرد عنها الزائف ويفحص ذخيرته قبل أن ينزل بها لمعترك الحياة .

ومن أجل هذا وجدنا الإسلام تكفل بإرشادنا إلى كل خير نافع لنا فى هذه

الناحية الهامة فى حياتنا ويزودنا بنصائحه وتوجيهاته ويرسم لنا الطريق الى اختيار الأصدقاء الذين ينتظر أن تدوم مودتهم وتصدق عشرتهم ويرشدنا إلى أن نؤثر أولئك الذين لهم صلة طيبة بالله الذين يخشونه فى سرهم وجهرهم ويرعونه فى صلتهم بالناس فى غيبتهم وحضورهم والذين يحرصون على أداء ما فرضه الله عليهم وعلى الجهد وحسن الإنتاج فى أعمالهم وعلى قدر صلة هؤلاء بالله وطاعتهم له وخشيتهم منه تكون صلتنا بهم وحبنا لهم . . غير ناظرين الى ماالهم أو مركزهم أو جاههم . . وهذا هو ما عبرت عنه أحاديث رسول الله ﷺ بالحب فى الله أى حب الإنسان ومعاشرته لمجرد أن له صلة حسنة بالله لا صلة حسنة برئيس ولأنه صاحب خلق لا صاحب مال كثير ومركز كبير أو جاه عريض يتقى شره أو يرجى نفعه لأن صلة الحب والمعاشرة فى الله هى الصلة الدائمة المثمرة التى يباركها الله وينميها فى الدنيا ويظل أصحابها بظله فى الآخرة يقول رسول الله ﷺ : « **إن الله تعالى يقول يوم القيامة : أين المتحابون بجلالى اليوم أظلهم فى ظلى يوم لا ظل إلا ظلى** » .

وفى حديث آخر يقول : « **وجبت محبتى للمتحابين فى والمتجالسين والمتزاورين فى** » .

ولقد أخبرنا الرسول ﷺ أن الحب والصداقة فى الله تزيد الايمان فى النفوس وتجعل الانسان يشعر بحلاوة الإيمان وثمرته فى دعم الصداقة بين الناس وذلك حين قال : « **أربع من كن فيه وجد حلاوة الايمان** » . ومن هذه الأربع : « **أن تحب المرء لا تحبه إلا لله** » .

أما إذا تهاون الإنسان فى اختيار أصدقائه ومعاشريه فخالط السفهاء وأصحاب الريب والمفرطين فى حق الله الذين لا يؤدون ما فرضه الله عليهم من صلاة وصيام وغيرهما والذين لا يهمهم الخوض فى أعراض الناس أو أكل أموالهم بالباطل والذين يتآمرون على دينهم أو مصالح وطنهم فإنه بلا شك سينحدر معهم فى طريقهم ويكتسب منهم صفاتهم ويكون جرثومة مثلهم فى المجتمع ولهذا يحذرنا الله سبحانه من الركون إلى امثال هؤلاء فيقول :

﴿ **ولا تركنوا الى الذين ظلموا فتمسكم النار وما لكم من دون الله من أولياء ثم**

لا تنصرون ﴾ .

ويصور لنا رسول الله ﷺ نتائج الصداقة والمعاشرة فى صورة حية ملموسة حين يقول : « **إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير فحامل المسك إما أن يحذيك أى يعطيك وإما أن تبتاع منه وإما أن تجد منه ريحاً طيبة ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحاً منتنة** » .

فأنت تستفيد من الصالحين على أية حال إن لم تحملك معاشرتهم على الاقتداء بهم ومسايرتهم فى أعمالهم فأنت على الأقل تكتسب سمعة حسنة بمعاشرتهم وذلك على عكس معاشر المفسدين والمنحلين فإنك ستخسر على أية حال إن لم تحملك معاشرتهم على مجاراتهم فى فسادهم وانحلالهم وسوء خلقهم فإن سمعتك على الأقل تتلوث بما يعرفه الناس عنهم من سوء . . ويحكمون عليك بما يحكمون به عليهم .

على أنه مما ينبغى ملاحظته أن الصداقة ليست سلعة يحصل عليها الإنسان بسهولة ولكنها كنز ثمين يحتاج العثور عليه والمحافظة عليه الى حسن خلق وبذل ولطف معاشرة ومن واجب الصديق على صديقه أن يحفظ غيبته ويهب لنجدته ويرعى مصالحه ويقدم له النصيحة فى لطف وكياسة كما أن من واجب الصداقة أن يكون الإنسان سهلاً فى محاسبته لأصدقائه ويتجاوز عما قد يقع منهم احيانا من خطأ غير مقصود ويقبل عذرهم عن خطأ مقصود حتى يحافظ بذلك على بقاء صحبتهم ولا يفرقهم من حوله فليس هناك من لا يخطىء وكلنا خطاءون وخير الخطائين التوابون . .

ولست بمستبق أخا لا تلمه
على شعث أى الرجال المهذب

فلابد للانسان من أن يتسامح فى أحيان كثيرة ويلتمس العذر لأصدقائه حتى تدوم له صحبتهم ومودتهم :

إذا أنت لم تشرب مرارا على القذى
ظمئت وأى الناس تصفو مشاربه

٣٣ وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب

قضية شغلت الناس من قديم ، ولا تزال تشغلهم ، كضرورة من ضرورات الحياة المثمرة الجادة ، يتطلع اليها كل شعب ، بدأ خطوة على طريق الإصلاح ، بينما أصبحت قاعدة مسلماً بها ، وخطة عمل ملتزمة فى الشعوب التى نهضت واستقرت ، بعد أن لمسوا أثرها الطيب فى استقرار الحياة ، واطمئنان الناس .

والواقع أن هذه القاعدة التى يمكن أن نسميها : « وضع الشىء المناسب فى المكان المناسب » قاعدة أساسية فى نظام الحياة ، ليست خاصة بأعمال الناس وحدهم ، بل أن الكون كله : السموات والأرض ومافيهن ، لم يسر بهذا النظام الدقيق البديع الذى نراه إلا لأن كل شىء فيه قد وضعه الحكيم العليم فى مكانه المناسب ليؤدى وظيفته التى خلقه الله من أجلها ، كما يقول الله سبحانه : ﴿ الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى ، والَّذِي قَدَّر فَهدى ﴾ [1] ويقول : ﴿ رَبُّنا الذى أعْطَى كُلَّ شَيْء خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ [2] .

وقد سار كل شىء فى هذا الكون حسب النظام الذى وضعه الله فيه وخلقه من أجله يؤدى وظيفته التى خلقه الله من أجلها بدقة وإحكام .

ولهذالم نر أى اختلال أو فساد : ﴿ الذى خَلقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ طِبَاقا ماتَرَى فى خَلَقِ الرَّحْمن من تَفَاوُت فارْجع البصر هلْ ترى مِنْ فُطُور . ثُمَّ ارْجع البصر كرَّتَيْنِ . ينْقلِب إلَيْك البصر خَاسِئاً وهو حسِير ﴾ [1] .

١ ـ سورة الأعلى آية ٢ ، ٣ .

٢ ـ سورة طه آة : ٥٠ .

١ ـ سورة الملك آية : ٣ ، ٥ . .

لم يشذ عن هذه القاعدة إلا الإنسان الذى يخلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً ، وتتدخل فى حياته وشهواته وأغراضه ، فيضع الشىء فى غير موضعه ، ويستخدم نعم الله عليه فى غير ما خلقت له ، ويضع الرجل فى غير المكان المناسب له ، برغم إدراكه ما فى ذلك من خطر وفوضى ، ولكنها الشهوة والغرض يطغيان على الحقائق والمصالح العامة . فيجلبان المرض .

والإسلام الذى جاء ليصحح خط سير الإنسان فى هذه الحياة ليجعلها حياة مثمرة ، آمنة مستقرة ، يقف بالمرصاد لانحراف الناس عن هذه القاعدة ، واندفاعهم وراء شهواتهم وأغراضهم وعدم تقديرهم نتيجة تهاونهم فى وضع الرجل المناسب فى المكان المناسب وما يجره ذلك على الفرد والمجتمع من اختلال الأعمال ، ونقص الإنتاج ، وضياع المصالح والأوقات .

جلس الرسول ﷺ يوما بين أصحابه يعلمهم ويرشدهم فقال لهم : « **إذا ضُيعت الأمانة فانتظر الساعة** » فقالوا للرسول : وكيف إضاعتها يارسول الله ؟ قال : « **إذا وُسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة** » أى إذا اسند العمل لغير المتخصص فيه الذى يجيده ويحسنه ، فانتظر ساعة هذا المجتمع .

فعلى الذين يفعلون ذلك ويسود فى مجتمعهم هذا الاختلال أن ينتظروا ساعة انحلالهم ، وتأخرهم وفساد أمورهم ، وشيوع الفوضى بينهم ، ساعتهم هم ، لا ساعة المجتمعات كلها ، حتى الذين لا يضيعون الأمانة . فان المجتمعات أو الشعوب التى لا توسد الأمر إلا لأهله الذين يحسنونه لا ينالهم هذا العقاب . . بل تنتظم أعمالهم وتزدهر حياتهم .

فالعقاب قاصر على المجتمع الذى يتهاون فى تطبيق هذه القاعدة ويسند الأعمال لغير المتخصصين فيها ، ولكل أمة أجل ، والتاريخ والحياة كلها عبر . . رأيناها تنطبع فى المثل العربى الذى يقول : « أعط القوس باريها » وفى مثلها الشعبى المعروف : « أعط العيش لخبازينه ولو يأكلوا نصه » وكل هذا يتجمع ليكون صوتاً قوياً ينطلق من الأعماق لوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ، وإسناد الأعمال للمتخصصين فيها الذين يحسنون القيام بها ، وإلا

فهذا تحذير الرسول « إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة » صلى الله عليك وسلم يارسول الله ياخير قائد وهاد ومعلم .

٣٤ مفهوم الامانة

سألنى احد المستمعين وقال : نحن نفهم الامانة على أنها الوديعة التى نضعها عند أخ لنا نأتمنه عليها ، حتى نستردها منه متى نشاء . ولكن حديث الرسول ﷺ الذى ذكرتموه فى حديث سابق قد صور لنا الأمانة بمعنى آخر غير ما نفهمه حين قال : « **إذا ضيُعت الأمانة فانتظر الساعة** » ، وسأله الصحابة عن كيفية إضاعتها فقال : « **إذا وسد الأمر لغير أهله فانتظر الساعة** » .

وهذا يعنى أن إسناد الوظائف أو المهمات لأهلها أمانة ، فهل الفهم الذى يفهمه عامة الناس عن معنى الأمانة صحيح ، وماذا يريد الإسلام إذن من معنى الأمانة ؟

وأنا أقول للأخ السائل أن له بعض العذر فيما يسأل عنه بعد أن اشتهر بين الناس أن الأمانة معناها قاصر على الوديعة التى يضعها الإنسان عند صديق له . . والحقيقة أن الأمانة لها معناها الواسع ، الذى يشمل كل مسؤولية يتحملها الإنسان ، ويطلب منه أداؤها على الوجه الأكمل . .

فالمال تضعه وديعة عند صاحب لك أمانة ، يجب أن يحافظ عليها ويؤديها كما أخذها .

والكلمة نقولها فى مجلس من المجالس أمانة وعلى الذين استمعوا اليها ألا ينقلوها إن كانت سراً من الأسرار ، تؤدى اذاعتها الى فتنة أو ضرر عام أو خاص ، أو ينقلوها كما هى دون تحريف إذا لم تكن سراً من الأسرار ، وفى هذا يقول الرسول ﷺ « **إذا حدث الرجل بالحديث ثم التفت فهى أمانة** » .

والعمل الذى أسند اليك عمله أمانة ، عليك أن تؤديه على وجهه المطلوب أيا كان نوع هذا العمل : فى مصنع كنت ، أم فى شارع أم فى مزرعة أم جالساً على مكتب تنجز أعمال الجمهور ، أم ممسكا بقلم تكتب للناس ترشدهم وتوجههم ، أم بائعاً فى محل تجارى . . كل ذلك أمانة يجب عليك أن تراعى الله فى أدائها .

ومصالح الناس فى يد القاضى أو الحكام على المستوى الصغير والكبير أمانة تسند الى الأكفاء القادرين على حملها ، وينتظر منهم القيام بها على الوجه الذى يرضى الله ويحقق مصالح العباد .

وهنا يحسن أن أذكر واقعة نحن فى أشد الحاجة الى فهمها ووعيها لأنها ترينا إلى أى حد بلغت حكمة الرسول ونظرته للحياة وللناس ومصالحهم وتضع لنا قاعدة اختيار الرجل المناسب للمكان المناسب .

ويحكى هذه الواقعة أبو ذر رضى الله عنه وهو بطلها فيقول : « قلت يارسول الله ألا تستعملنى ؟ أى لا تجعلنى والياً على عمل من الأعمال . فضرب بيده على منكبى ثم قال : « **ياأبا ذر إنك ضعيف ، وإنها أمانة ، وإنها يوم القيامة خزى وندامة إلا من أخذها بحقها وأدى الذى عليه فيها** » .

وفى رواية أخرى قال له الرسول ﷺ : « **يا أبا ذر إنى أراك ضعيفا ، وإنى أحب لك ما أحب لنفسى لا تُؤَمَّرن على اثنين ، ولا تُولَّيَنَّ مال يتيم** » .

وأبو ذر يحبه رسول الله ﷺ ويقربه اليه ، ومع ذلك لم يستجب لرغبته لأنه لم ير صفات الوالى متوفرة فيه ، وقال له إن الولاية والحكم أمانة ، وإنى أراك ضعيفا عن حملها وباعد بينه وبين تحمل وزر هذه الأمانة ، ونصحه ألا يكون أميراً على اثنين ، ولا يتولى إدارة أموال يتيم لأنه لا يحسن التصرف فيها .

والرسول ﷺ لم يتأثر بحبه لأبى ذر ، ولكنه وقف موقفاً حمى فيه صاحبه من المسؤولية ، وحمى الشعب كذلك من آثار ضعفه ، لا فى دينه ، ولكن فى إدارته وضبطه للأعمال .

هكذا يعلمنا الرسول ﷺ ، أن مسؤولية الحكم وإدارة الأعمال كما تحتاج

للدين أو الضمير الحى فى النفوس ، تحتاج كذلك لليقظة والمهارة وقوة الحزم والإدارة .

وهل تصلح الحياة أو تستقيم الأمور إلا بهذا وذاك ؟

وهذا هو ديننا يعلمنا كيف تكون الحياة . . .

٣٥ سيادة القانون

جاءتنى رسالة من الخارج يقول صاحبها فيها :

« إننى استمعت الى حديثك عن عناية الإسلام بوضع الرجل المناسب فى المكان المناسب ونحن فى أشد الحاجة الآن إلى الأخذ بتوجيه الإسلام فى هذه الناحية ، حتى يخطو مجتمعنا سريعا الى استكمال عناصر القوة فيه . . فإن الوساطات والشفاعات والأهواء تحول بيننا وبين تحقيق هذا التوجيه فى حياتنا ، وتحرم أمتنا من الاستفادة بخبرة أكثر أبنائها المجدين المخلصين ، وكثيراً ما يزرع ذلك اليأس فى قلوبهم ، ويصرفهم عن العمل لخير أمتهم ، ويدفعهم للبحث عن مجالات للعمل خارجها ، فيستفيد الغير من خبرة أبنائنا بينما نحن فى أشد الحاجة إليها » .

وأنا أقول لصديقى المستمع نعم . فإن هذه الظاهرة السيئة لا تزال من الظواهر التى نشكو منها ، ويجب علينا جميعا أن نتضافر فى إخلاص للقضاء عليها . .

وليس الأمر فى ذلك قاصرفا على الذين يقومون بالوساطة أو الشفاعة أو الذين يقبلونها ، ولا على الذين يسعون الى هؤلاء ويطرقون أبوابهم ، ويلحون عليهم أن يبذلوا وساطتهم أو شفاعتهم لقضاء مآربهم ، مستعينين عليهم بكل ما يجدونه فى أيديهم من وسائل . .

بل هو فى الحقيقة يرجع ـ أولا ـ إلى ما يغشى المجتمع من عدم الإنصاف ، والى اللوائح الغامضة المعقدة ، بل والمتعسفة لأن هذا يؤدى الى ضياع مصالح

وحقوق بعض الناس ، بينما يطمع الآخرون فى الاعتماد على الوساطة للحصول على أكثر من حقهم . .

فالعلة الأولى فى شيوع هذه الظاهرة السيئة هى عدم سيادة العدل والقانون فى قضاء مصالح الناس ورعايتها .

ومن ثم تتطلع النفوس وتنطلق الجهود للوساطات أو الشفاعات ، بل وبذل الرشاوى كذلك إما للوصول الى حقهم ، أو للحصول على أكثر مما يستحقون .

ولو أن القائمين على رعاية مصالح الناس كباراً أو صغاراً حرصوا على سيادة القانون ، وعلى تحقيق مجتمع العدل والكفاءة فى كل ما يقررون أو يعملون ، لاطمأن الناس على حقوقهم ، وانصرفوا الى أعمالهم ، وتنافسوا فى حسن إدارتها ، واسترحنا من كثرة الشفاعات والوساطات ، ومن كثرة التظلمات ، واستراحت ضمائرنا ، ومشى ركبنا فى طريقه الطبيعى نحو الخير والكمال .

والإسلام الذى يعمل على تحقيق الخير والاستقرار والازدهار فى مجتمعه ، يحرص الحرص كله على سيادة القانون على جميع الناس ، ويوصى بإيصال الحق لأربابه ، وتحقيق العدل حتى مع الأعداء : ﴿ **ولا يَجْرِ منكُمْ شَنَآنُ قوم (أى بغضهم) على ألا تعدلوا ، أعدلوا هو أقرب للتقوى** ﴾[1] .

وتتمثل أمامنا سيادة العدل والقانون عملياً ، وبصراحة وقوة وحزم ، فى حادثة وقعت أيام الرسول ﷺ : وتركت لنا إنذاراً وتوجيهاً وقدوة ، نحن فى أشد الحاجة إلى أن نعيها جميعا .

فقد سرقت امرأة تنتسب إلى إحدى القبائل العريقة وتجمع كبار رجالها ، وفكروا فى مصير هذه المرأة ، حين يطبق الرسول ﷺ ، أمر الله عليها وما يلحقهم نتيجة ذلك من عار .

وهداهم تفكيرهم ـ وهم يبحثون عن وسيط يشفع لها عند رسول الله ، كى يعفيها من قانون الله ـ الى شاب قريب الى الرسول ، وهو أسامة بن زيد بن حارثة . . وذهب أسامة بحسن نية يشفع عند رسول الله . . فغضب الرسول

---

١ ـ المائدة : ٨ .

غضبا شديدا وقال : « أتشفع فى حد من حدود الله يا أسامة » ؟ **إنما أهلك الذين من قبلكم إنهم كانوا إذا سرق الشريف فيهم تركوه وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد »** .

ثم يأتى بعد هذا الإنذار القول الحاسم القاطع فى سيادة القانون فيقول الرسول : **« والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها »** .

قول لا يترك مجالاً لأحد أن يفتح فمه بشفاعة . . أو يفكر فيها ، وأهم من هذا أيضا أنه يلقى فى روعهم جميعاً الاطمئنان التام الى سيادة قانون الله على كل إنسان ، صغيراً كان أم كبيرا .

﴿ ومن أحسن من الله حكما لقوم يوقنون ﴾ ؟ .

ذلك لأن سيادة العدل والقانون فى أمة يريح ضميرها . ويملؤها حبا لبلادها وغيرة على مصالحها ، وإقبالا على أعمالها وتقديرا لحكامها ، واطمئنانا على مصيرها ، كما أنه يريح الحكام ، ويملأ قلوبهم سعادة وغبطة بحكمهم ، وعملهم لأمتهم ، وحبها بالتالى لهم .

وعلى العكس من ذلك لو تسرب الى سيادة العدل والقانون خدش أو وهن أو ضعف ومن أجل ذلك كان حرص الإسلام شديدا على تدعيم سيادة العدل والقانون فى نفوس المسلمين ، بعضهم مع بعض ، ومع غير المسلمين ، وحتى مع الأعداء . . فحذر من أن تكون المصلحة الشخصية ، أو القرابة أو العداوة سبباً فى الانحراف عن العدالة .

وبلغ من اهتمام الإسلام بها ، أن يأمر الله بذلك مرتين يستهلهما بنداء المؤمنين ، لإثارة معانى الإيمان ودواعيه فى نفوسهم ، فقال تعالى فى سورة النساء : **﴿ يا أيها الذين أمنوا كونوا قوامين بالقسط شهداء لله ولو على أنفسكم أو الوالدين والأقربين أن يكن غنيا أو فقيرا فالله أولى بهما فلا تتبعوا الهوى أن تعدلوا ، وإن تلووا أو تعرضوا فإن الله كان بما تعملون خبيرا ﴾** [1] وسيحاسبكم

---

١ ـ النساء : ١٣٥ .

الحساب العسير إن التويتهم وانحرفتهم عن الحق واتبعتم أهواءكم .

وفى آية أخرى مشابهة لهذه الآية فى الألفاظ تقريبا ولكنها تزيد عليها التنبيه الى ناحية حساسة وهى العداوة التى تحمل عادة على الجور والظلم والتحذير من الخضوع لتيارها ، يقول الله فى سورة المائدة : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجر منكم شنان قوم على ألا تعدلوا أعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله أن الله خبير بما تعملون** ﴾ [٢] .

فالأمر هو الأمر والتحذير هو التحذير .

وفى إختياره تعالى للفظ قوامين فى قوله ﴿ **قوّامين بالقِسْطِ** ﴾ أو ﴿ **قوّامِين لله شُهداء بِالقِسْطِ** ﴾ معنى قوى يوحى بأن يجعل المؤمنون سيادة العدل همهم وديدنهم ، بل وبأن يكونوا مسئولين عن سيادة العدل حولهم ، فلا يتركوا الظلم والفساد يستشريان وهم ساكتون .

وقبل هذه الآية بعدة آيات فى السورة نفسها يقول الله تعالى فى هذا الصدد أيضاً : ﴿ **ولاَيجر منكم شنانُ قوم أن صدّوكُم عن المسجد الحرام أن تَعتَدَوا** ﴾ فيحذر المسلمين من أن تحملهم عداوة المشركين وما فعلوه من صدهم عن المسجد الحرام على أن يعتدوا ، ويتجاوزوا حدود العدل فى معاملتهم لهؤلاء الباغين . وذلك حرصاً من الإسلام على سيادة العدل فى كل حال ، ومع الناس جميعا .

وهناك ظاهرة أخرى غير ظاهرة الوساطات تحول دون سيادة العدل والقانون ، تحدث عنها رئيس الوزراء الدكتور محمود فوزى فى بيانه الذى ألقاه أمام مجلس الأمة فى ٢٥ نوفمبر سنة ١٩٧١ م ، وهو يلفت الأنظار الى النواحى التى تحتاج الى علاج ، فقال : « وأخيرا وعلى سبيل المثال ليس من تكافؤ الفرص لدى بعض الجهات الملتوية الخلق ، المتصل عملها بالجماهير ، ألا تسير عندها أمور من لا يعرفون ، أو لا يستطيعون ، أو لا يختارون أن يدفعوا ، بينما تسير أمور من يختارون أن يدفعوا ويستطيعون » .

---

٢ ـ المائدة : ٨ .

هذه الظاهرة هى ظاهرة الرشوة التى اضطر رئيس الوزراء لشيوعها أن يلفت الأنظار اليها ، وينبه الى ضررها ، وأثرها الخطير على سير الأعمال . . وعلى بث السخط فى نفوس الذين لا يجدون لهم مصلحة تقضى إلا إذا دفعوا . . بينما تضيع أو تتأخر مصالح الذين لا يستطيعون أن يدفعوا ، أو يترفعون عن أن يقدموا رشوة لموظف مسؤول ، يتقاضى راتبه من الدولة أى من جيب الشعب ، من أجل قضاء مصالحه وخدمته .

إن هذه الظاهرة الخطيرة فى حاجة إلى الاهتمام ببحث أسبابها وطرق القضاء عليها ، لأنها مصدر شر خطير على مصالح الأمة والأفراد . . وعلى الذين يشاركون فى وجودها أن يضعوا أمام أعينهم قول رسول الله ﷺ : **الراشى والمرتشى فى النار** » وقوله : « **كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به** » .

وقد تقدم الرشوة أحياناً فى ثوب ملفوف باسم الهدية ، لمن فى يده قضاءُ المصلحة . وقد غضب الرسول غضباً شديداً على عامل له عرف منه أنه أخذ هدية ممن وُلى عليهم ، ومع أن ذلك كان بحسن نية فإن الرسول وقف بين صحابته الكرام ، وذكر قصة هذا الرجل دون أن يذكر اسمه ، أدباً منه ﷺ ، ثم قال : « **هَلاّ قعد فى بيت أبيه وأمه حتى تأتيه هديته إن كان صادقا** »؟ .

يشير بذلك إلى ما نسميه الآن استغلالاً للسلطة فى الحصول على مال من الشعب . . وقد بين الرسول فى حديثه أن الله يفضح المستغل لسلطته يوم القيامة ، حيث يظهر أمام الناس حاملاً ما أخذه من هدايا ، ثم يكبه الله على وجهه فى النار . .

إن ظاهرة الرشوة ظاهرة خطيرة فى أية أمة ، وتحتاج إلى علاج حاسم ، حتى لا تستشرى وتقضى على مصالح الأمة والأفراد وتثير السخط والاستهتار بالقوانين فى النفوس .

إن الذين يشاركون فى وجودها يحاولون أن يبرروا عملهم هذا مع الأسف بشتى الأعذار ، ولكن عليهم أن يضعوا أمام اعينهم قول رسول الله ﷺ « الراشى والمرتشى فى النار » وقوله ﷺ : كل لحم نبت من حرام فالنار أولى به »

ويختاروا لأنفسهم ما يحلو لهم . .

وقانا الله وإياكم سوء المصير ، وجنب أمتنا شر المقادير . .

٣٦ المساواة

﴿ إنَّ أكرمكُم عِند الله أتقاكُم ﴾

عن سهل بن سعد فيما أخرجه الديلمى أن رسول الله ﷺ قال :

« الناس كأسنان المشط ، وإنما يتفاضلون بالعافية ، فلا تصحَبنَّ أحداً لا يرى لك من الفضل مثل ما ترى له » .

وفيما أخرجه الديلمى عن أنس .

« الناس مستوون كأسنان المشط ليس لأحد على أحد فضل إلا بتقوى الله » .

وفيما أخرجه الإمام أحمد فى مسنده واللفظ له ، عن أبى ذر رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : **« أنظر فإنك لست بخير من أحمر ولا أسود إلا أن تفضله بتقوى الله »** .

وفيما أخرجه البزار فى مسنده عن حذيفة رضى الله عنه قال ؛ قال رسول الله ﷺ : **« كلكم بنو آدم وآدم خلق من تراب ، ولينتهن قوم يفخرون بآبائهم أو ليكونن أهون على الله تعالى من الجعلان »** .

يحلو لنا الحديث عن المساواة ، كمبدأ من المبادىء الإسلامية ، التى أقام الرسول عليها مجتمعه الإسلامى ، كلما سمعنا أو قرأنا ما تفعله الأمم الغربية المتحضرة ، من تفرقة صارخة بين أبنائها ، وغير أبنائها ، لأن هذا أسود وذاك أبيض . . .

نعم يحلو الحديث عن المساواة ، وكيف أن الإسلام قد قرر هذا المبدأ ، قبل أن تعرفه الثورة الفرنسية بألف سنة ، وكيف أن المسلمين اعتنقوا هذا المبدأ ، وفرغوا من تطبيقه فى مجتمعهم ، منذ حوالى ألف وأربعمائة سنة ، وهذه الأمم التى تتيه بحضارتها ورقيها ، ولاتزال للآن تنكر على نفر من بنيها الملونين ، أن يتمتعوا بالحقوق التى يتمتع بها مواطنوهم البيض . .
أليس من حق المسلم لهذا أن يعتز بدينه ، وأسلافه الأمجاد ، ويفخر ويتيه ويعلو صوته فى كل محفل وناد ، أن الذى يأباه المتحضرون الغربيون الآن ، على نفر من إخوانهم قد فرغ منه المسلمون ، ونجحوا فى تطبيقه ، وسعدوا به ، وأسعدوا فى ظلهم كل من عاش معهم ، منذ نحو ألف وأربعمائة سنة .

ولقد جاء الإسلام ، وقرر هذا ، وطبقه ، فى وقت كان العالم فيه تحكمه تقاليد وقوانين تقوم على التفرقة الصارخة بين الناس ، باعتبار حسبهم ، وغناهم وفقرهم ، وسوادهم وبياضهم فحمل الإسلام على هذا النوع من التفرقة ، ولفت أنظار الناس فى قوة ، إلى الحقيقة التى يجب أن يدركوها ، ويسيروا فى ظلها ، وهى ، تساويهم فى أصل نشأتهم فناداهم وقال لهم : ﴿ يا أَيُّهَا النَّاسُ إن كُنتُم فى رَيْب من البَعثِ فَإِنَّا خَلَقْنَاكُم من تُرَابٍ ثُم مِن نُطْفة ﴾ [١] وقال :

﴿ يا أَيُّها النَّاسُ اتقُوا رَبَكُمُ الَّذِي خَلقكُمْ مِن نَفْس واحدة وخلق مِنْها زَوْجها وَبثَّ مِنْهُما رِجالاً كثيرا ونِساءً ﴾ [٢] وكثر فى القرآن التنبيه على هذا ، ولفت الأنظار اليه ، حتى يشعر القارىء والسامع ، أن الناس جميعا متساوون فى أصل وجودهم ، فلا يصح بعد ذلك أن يفخر بعضهم على بعض بحسب ولا بلون . . وكما يعبر عن ذلك شاعرنا المرحوم محمد الأسمر :

إنَّما الناس من تراب وماء
ليس فينا مَنْ أصله مِنْ ضياء

وكما أشعرهم الإسلام بهذه المساواة فى أصل النشأة ، قرر أن يكونوا متساوين كذلك أمام شريعة الله وقانونه ، حيث يخضع الجميع له ، لا فرق بين حاكم

١ ـ الحج : ٥ ٢ ـ أول النساء .

ومحكوم ، وغنى وفقير وأبيض وأسود ، وشريف ووضيع ، وأنه على قدر جهد الإنسان وعمله ، وخضوعه لشريعة الله ، واستقامته فى سلوكه ، يكون التفاضل فى الحياة وفيما بعدها عند الله ﴿ مَنْ عَمِلَ صَالِحاً فَلِنَفْسِهِ وَمَنْ أَسَاءَ فَعَلَيْهَا ﴾ فلا عبرة عنده باللون ولا بالأصل ولا بالمنصب ولا بالمال ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ .

هذا هو الميزان الذى وضعه الإسلام للإنسان ، ودعا الى اتخاذه مقياساً لأقدارهم فى الحياة ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللهِ أَتْقَاكُمْ ﴾ (١) .

ولاشك أن الإسلام بهذا ينصف الناس ، ويرفع من أقدارهم ، ينصفهم حين حرص على تكوين شخصيتهم ، ولم يجعل قيمهم تابعة لقيم آبائهم وأصلهم ، الذى انحدروا منه ، ويرفع من أقدارهم حين لم يجعلهم سلعة ، تقوم بالمال الذى ورثوه أو جمعوه أو بالمنصب الذى شغلوه ، وإنما أتاح لهم الفرصة ليكونوا أنفسهم ويبنوا مجدهم ، وفتح أمامهم الطريق ، ليصلوا بجهدهم وعملهم إلى مايريدون .

ومن هنا كان التفاضل بينهم . . لأن الإسلام حين قرر المساواة ، لم يجعلها مساواة مطلقة فى كل شىء ، وفى كل مجال ، وإلا لكانت فوضى ، وخرابا وتدميراً للمجهود ، ولكنه قرر منها القدر الذى يحفظ للانسان كرامته ، ويؤمن روعته ، ثم جعل مبدأ التفاوت بالكسب والعمل ، شحذا للهمم وتجويداً للعمل ، حتى لا يتساوى الخامل بالعامل ، والغبى بالذكى ، والمعوج بالمستقيم ، والجاهل بالعالم ، وتشيع فى الحياة روح الخمول والغباء ، والجهل والفساد . .

أخى . . ألا يتعب نفسك ، ويقتل جهدك ، أن ترى غيرك يتقدم عليك ، ويأخذ حقك ، لأن له جاها ، أو مالا ، أو شفيعا الست تتضايق ، وأنت واقف فى الصف تنتظر دورك ، فيأتى غيرك متأخراً ، ويتقدم عليك ، ويقضى عمله ، وينصرف قبلك ؟ .

---

١ ـ الحجرات ١٣ .

ألست تتبرم بالمجتمع ، حين تجد الغبى فيه يسبق الذكى ، والخامل يسبق العامل ، والجاهل يتقدم على العالم ؟.

ألست تتميز غيظاً إذا وجدت الجانى يفل من العقاب لجاهه ؟

وهل تحس احتراماً للمجتمع إذا وجدت الناس فيه يزنون المقادير باللون الموروث عن الآباءِ ؟

وأخيراً هل تحس من نفسك تفتحاً وإخلاصاً للعمل ، فى مجتمع تسوده الفروق المصطنعة وتسير فيه الأمور على هذا النحو ، الذى تتبرم منه وتضيق له ؟.

من أجل هذا ، ومن أجل تكوين مجتمع قوى ، سعيد مطمئن ، حرص الإسلام على غرس مبدأ المساواة فى النفوس على هذا النحو الذى عرفته ، وعمل رسول الإسلام - صلوات الله وسلامه عليه ، على تربية صحابته ، وطبعهم بروح هذا المبدأ ، فلتنظر - رعاك الله - ماذا فى نفسك ومجتمعك من آثار هذه التربية الإسلامية ؟.

لقد فزع الرسول حين علم أن بعض أصحابه ، ممن كانوا لا يزالون متأثرين بأوضاع المجتمع الجاهلى ، يودون أن تفلت امرأة من عقاب جنايتها ، لأنها شريفة فى قومها فقال لهم : وكأنه يصرخ فيهم ، ويحذرهم : « **إنما أهلك الذين قبلكم أنهم كانوا اذا سرق فيهم الشريف تركوه ، وإذا سرق الضعيف أقاموا عليه الحد** » ثم قطع عليهم كل محاولة ، وقالها مدوية حاسمة ، ليعوها وتعيها الدهور والقرون ، وكل من تحدثه نفسه بالترفع عن سلطان القانون .. « **والذى نفس محمد بيده لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطعت يدها** » .

نعم . إنه شرع الله ، يخضع له الجميع ، وإنه المجتمع الإسلامى الذى يقوم على الدعائم السليمة القوية ، التى لابد منها لقيامه ، وصلاحه ، وبقائه ، ولابد منها لكل مجتمع يريد أن ينهض ، ويسعد ، ويطمئن ..

إنها المساواة التى تبعث الأمن والطمأنينة فى النفوس ، وتوفر لها التفرغ للعمل وإجادته واتقانه ..

فهل تعمل يا أخى على أن نتخذ هذا المبدأ دائما سلاحنا فى الحياة ، ونسلح أولادنا ، وتلاميذنا ، وكل من حولنا به ، قولاً وعملاً . . حتى نسعد ويسعد بنا الوطن والمواطنون ، ونقول للمتخبطين فى ظلام التفرقة ، ونار الطبقة . . انظروا نحن أمة الإسلام .

٣٧ حقوق الانسان بين الاسلام والغرب

(أ) يكثر الحديث عن حقوق الإنسان فى العدل والحرية والإخاء والمساواة وغير ذلك مما يوفر للانسان حياة إنسانية كريمة مهما يكن لونه أو جنسه أو دينه وذلك بمناسبة ذكرى يوم حقوق الإنسان وإصدار الوثيقة الخاصة بذلك فى العاشر من ديسمبر سنة ١٩٤٨ .

ومن قبل الأمم المتحدة سعى طلاب الإنصاف فى الغرب لتقرير هذه الحقوق ففى سنة ١٢١٥ م صدر فى انجلترا قانون لتسجيل حقوق النبلاء فى وجه ملك انجلترا ومع انها كانت بسيطة إلا أنها احتاجت لجهود وتضحيات ، وتجرعها ملك انجلترا وهو يقول : « لقد جعلتم منى عبداً خاضعا لأحقر سوقى فى البلاد » .

وفى سنة ١٧٧٦ بعد أكثر من خمسمائة سنة صدرت وثيقة بذلك فى أمريكا بعد استقلال أمريكا بحقوق الإنسان فى المساواة . .

وبعد ذلك أصدرت الثورة الفرنسية حقوق الإنسان ، واعتبروا ذلك نصرا للإنسانية وأشادوا به وأحاطوه بهالة من المدح والثناء والتمجيد . . ونحن لا ننكر أن ذلك كان نصراً لأوروبا المظلمة التى لم يكن للإنسان فيها حظ من الكرامة أو الحقوق التى نتحدث عنها وكانت الثورة الفرنسية بمثابة الشرارة الأولى لإخراج أوروبا من ظلماتها وإعلان حقوق الإنسان فيها . . ولكنها كانت خطوة مرحلية أو خطوة على الطريق ، نحو هذه الحقوق . . بذل فى سبيلها من الدماء والأرواح ما بذل . . ودفع الإنسان الثمن الباهظ فى سبيل هذه الخطوة وإن لم يصل منها إلى ما يريد واقعياً . .

وهذه الحقوق هى فى الواقع ألزم للإنسان من الماء والهواء حتى يكون كما أراده الله إنسانا تحترم إنسانيته ويعرف له حقه وكرامته ويُؤدى دوره الذى خلقه الله من أجله ولكن الأقوياء من بنى الإنسان يحاولون دائما سلب هذه الحقوق من الضعفاء وإرغامهم على أن يعيشوا عيشة مهينة لا عدل فيها ولا حرية ولا مساواة . .

وإذا كان العالم الحديث قد جاهد حتى نجح فى إعلان هذه الحقوق واعتبر ذلك نصراً عظيماً للإنسانية يشاد به وبالذين جاهدوا فى سبيله وخصصوا لذلك يوماً ـ هو هذا اليوم الذى سميناه يوم حقوق الإنسان ـ وتهب الإذاعات والصحف وكل أجهزة الإعلام للتحدث عنه والإشادة به . . ونتحدث الآن من أجله . . فإننا ـ مع ترحيبنا بكل نصر يكسبه الإنسان وتقر به عين الإنسانية ـ لا نندفع وراء الخيال ولا نقتنع بالكلام الحلو المسطر أو نقف عنده وننسى الواقع حولنا ونغض العيون عن الدموع والدماء التى يغرق فيها الملايين من بنى الانسان والمآسى التى يعيشون فيها . . وعلى يد من ؟ على يد الذين اصطنعوا هذه الحقوق وخدعوا العالم بإعلانها . . وهل يستحق الكلام المكتوب المجرد عن التنفيذ كل هذه الضجة وهذه الهالة ؟ (١)

إننا نرى ـ مع الأسف الشديد ـ أن هذه الحقوق لم تتعد دور الورق الذى كتبت عليه ولم تأخذ حظها من الإحترام حتى فى نفوس الذين يمنون على العالم بإصدارها ـ بل كان هؤلاء هم أسرع الناس الى هدمها والإعتداء عليها ـ وليس ذلك فى حاجة إلى ايضاح فالعالم كله يعرفه ويعانى آثاره . . نراه ماثلا فى معاملاتهم للشعوب العربية وسلبها حريتها وثروتها وفى الوقت الذى عملت الدول الكبرى على إصدار هذه الحقوق ولما يجف مداد الحبر الذى كتبت به كانت تباشر بصورة عملية وأدها على أرض فلسطين العربية . فعملت على استيطان شراذم من كل دولة فى العالم على أرض فلسطين وطرد أهلها العرب منها ونهب ثرواتهم وأراضيهم ودورهم . . ولم تزدها الأيام والسنون إلا تبجحا فى الاعتداء على حقوق الإنسان . . نراه فى أفريقية وسلوك الغربيين نحو أهلها وتعاليهم

---

١ ـ أذيعت من إذاعة الكويت .

عليهم وما أزمة روديسيا التى يواجهها العالم الآن إلا صورة بشعة للتفرقة القائمة على اختلاف الجنس واللون والتى تهدر حقوق أهل البلاد لا لشيء إلا للون بشرتهم وانتمائهم الى جنس آخر غير الجنس الأبيض وعلى مرأى ومسمع من هذه الدول الكبرى بل وبمساعدتها وخداعها للعالم الذى لم ينطل عليه هذا الخداع . .

وقد يظن أن ما يصدر عن هذه الدول من هضم حقوق الإنسان والتفرقة بين أفراده لألوانهم وأجناسهم إنما هو نابع من روحهم الاستعمارية ورغبتهم فى السيطرة على الشعوب وثرواتها وإن ذلك قد ينتهى بالقضاء على الاستعمار . .

ولكننا نقول لا . . ليست هذه الروح الهادمة لحقوق الإنسان نابعة من روحهم الاستعمارية ورغبتهم فى التسلط على شعوب أخرى لأننا نراهم فى بلادهم يعاملون مواطنيهم الملونين معاملة مهينة . .

ويحرمونهم من الحقوق التى يتمتعون بها ويخصصون لهم مطاعم وسينمات ومدارس بحيث لا يستطيع الملون أن يدخل مدرسة البيض ولا السينما أو المطاعم المخصصة لهم . . ونحن نعرف مما تنقله البرقيات المآسى التى يعيش فيها السود فى أمريكا وهم مواطنون أمريكيون كالبيض فيهم علماء ونبغاء فى كل مجال من مجالات الحياة ولكن يعيبهم فى نظر البيض أنهم سود البشرة . .

وأذكر أنه فى سنة ١٩٥٧ وفى العاشر من أكتوبر بالذات نشرت الصحف نبأ عن طرد وزير مالية غانا من أحد المطاعم الأمريكية لأن لون بشرته أسود . . وهو وزير فى بلاده لكن عيبه فى نظر البيض هناك أنه غير أبيض . .

هذه كلها مآسى الحضارة الغربية . . ترى ما قيمة هذه الحضارة التى تقوم على مثل هذه الروح ؟ . . ان كانت قيمة هذه الحضارة فيما أبرزته من مخترعات وتقدم فى وسائل النقل والتدمير وغيرها . . فإن هذه الإشياء قد استعملت ـ مع الأسف الشديد ـ واستغلت فى قهر الإنسان وسلبه حقوقه وإهدار دمه وازهاق روحه . . . حتى أصبح مئات الملايين ممن يملكون هذه الوسائل يضغطون على آلاف الملايين ويحرمونهم حريتهم وكافة حقوقهم . . وينفقون على ذلك من لأموال ما لو أنفق على الجنس البشرى لأسعد حياته . .

(ب) وإنه ليطيب لنا ويسعدنا نحن أتباع القرآن أن نذكر فى هذا المقام أن هذه الحقوق التى يفخر العالم بتقريرها ويحتفل بذكرى يوم اصدارها برغم قصوره وعجزه عن تنفيذها قد أعلنها الإسلام وفى وثيقة إلهية خالدة هى القرآن الكريم فى مبادىء سامية وضعها رسولنا العظيم محمد ﷺ منذ نحو أربعة عشر قرنا .

والمهم فى هذا أيضا أن الإسلام قررها دون أن تطالب مجموعة من البشر بها أو تراق قطرة دمع أو دم واحدة فى سبيل تقريرها . . بل أهداها الإسلام دين الفطرة السليمة دين الرقى المادى والروحى أهداها للإنسان الذى كرمه برغم أنف الروح المعارضة من صفوف بعض العرب فى مكة وغيرها ، ولم يقتصر الأمر على مجرد إعلانها بل إنها دخلت فى طور التنفيذ منذ أعلنت . . نفذها الرسول ﷺ وصحابته وخلفاؤه واتباعه وبنوا على أساسها دولتهم وأقاموا على دعائمها حكمهم للشعوب التى فتحوها دون تمييز لشخص على آخر أو هضم لحقوقه لاختلاف فى الدين أو اللون أو الجنس . . فلم يعلنها الإسلام - إذن - كلمات جوفاء تلاقى حتفها على يد معلنيها كما حصل لحقوق الإنسان التى أعلنتها الأمم المتحدة وأعلن احتضانها الدول الكبيرة . ولكنه أعلنها وطبقها وعاش الناس جميعا فى ظلها سعداء لا يشعرون بخوف أو ظلم أو فقر لاختلاف بينهم فى الجنس أو اللون أو الدين كلهم سواسية كأسنان المشط لا يتفاضلون إلا بالعمل ومن أبطأ به عمله لم يسرع به نسبه . .

ولو حاولت أن استقصى الشواهد الحية على تقرير الإسلام وتدعيمه لهذه الحقوق لكان على أن أسرد لكم تاريخ لا تتسع له المجلدات الكثيرة لأنه - أيها الأخوة - تاريخ الإسلام المزدهر المشرف . .

بل ولماذا نقتصر على الرجوع الى التاريخ وحده . . وحاضرنا وحياتنا ومعاملاتنا الآن ونظرتنا للناس جميعا على اختلاف لونهم يشهد بذلك . . لا يشعر المسلم مهما يكن مركزه وحسبه بهذه التفرقة ولا يمكن ان توجد عنده هذه النظرة . .

ذهب أمير شرقى إلى أمريكا ومعه تابعه أسود البشرة وكان يعامله المعاملة المعتادة فيها بيننا فكان موضع دهشة واستغراب من الأميركان البيض . . لم

تهضم عقليتهم ولا نفوسهم هذه المعاملة الطيبة . .

وليس حاضرنا فى هذا إلا امتداداً لماضينا وليست روحنا الآن إلا من صنع القرآن ومحمد ﷺ . . كان بلال رضى الله عنه أسود البشرة وكان مع ذلك مؤذن رسول الله ومن أقرب صحابته اليه . . اختاره رسول الله ليؤذن من فوق الكعبة يوم فتح الله عليه مكة ويطلق من فوقها كلمة التوحيد وشعار الإسلام . .

وزيد بن حارثة مولى رسول الله ﷺ وعتيقه كان حبيب رسول الله زوجه القرآن بزينب بنت عمة رسول الله . . وكان يرسله الرسول على رأس الجيوش . . حتى استشهد فى غزوة مؤته وتقول عنه السيدة عائشة رضى الله عنها : ما بعثه الرسول فى سرية إلا أمره عليها ولو عاش بعده لاستخلفه . والأخيرة وإن كانت رأيا للسيدة عائشة أم المؤمنين إلا أنه يعكس لنا صورة طيبة من نظرة الإسلام للناس . وقيادة الجيوش ومنصب الخلافة من أسمى المناصب فى الدولة الإسلامية . .

مثل آخر . . كثير منا يعرفه : المصرى القبطى الذى ذهب من مصر الى عمر بن الخطاب فى المدينة ليشكو اليه ولد عمرو بن العاص واهتمام الخليفة بشكواه واستقدامه لعمرو وابنه وتمكين المصرى من الاقتصاص لنفسه . . ثم ما قاله عمر حينذاك لعمرو : متى استعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً . مما يمكن أن يكون عنوانا قويا وخالدا على احترام الإسلام لحقوق الإنسان . .

لا أريد أن نقف عند ذكر الواقعة لأن هناك وراءها ما هو أعظم منها وأكثر دلالة على احترام المسلمين العملى لحقوق الإنسان فهذا القبطى المصرى . . ما الذى شجعه على خوض هذه المغامرة من مصر إلى المدينة قد يقعد الواحد عن الشكوى لرئيسه وهو بجانبه لما يعلمه من عدم جداوها . . وعدم حصوله على حقه عنده . . ولكن هذا المصرى القبطى أصر على رفع شكواه وقام بمغامرته وهو يعلم يقيناً ما يعلمه كافة الناس من عدالة الإسلام وعدالة خليفة المسلمين واحترامه لحقوق كل فرد من رعيته مهما يكن دينه واقتصاصه من المعتدى مهما يكن مركزه . .

هذا أيها الأخوة دينكم الذى أسعدكم الله بالانتساب اليه . . وإن أمام العالم أشواطاً بعيدة وجهاداً طويلاً ومريراً لكى يصل الى ما وصل اليه المجتمع الإسلامى الأول من عدل وحرية وإخاء ومساواة فى ظل القرآن وتعاليم الرسول عليه الصلاة والسلام . .

فلنفخر نحن المسلمين ـ بمبادئنا ولنعتز بماضينا ولننهض بحاضرنا لتسود هذه المبادىء العادلة ونريح العالم من الشرور التى يغرق فى لجتها ويحترق بنارها . .

إننا جد أغنياء بتراثنا ومبادئنا ولسنا فى حاجة إلى أن نستلهم المبادىء أو نستوردها من غيرنا وإن نظرية الأكتفاء الذاتى الذى نهدف له فى عالم الاقتصاد يجب أن يكون رائدنا فى عالم المبادىء والمثل وعندنا بحمد الله أسماها وأغلاها وكفاها أنها من صنع الله . .

إننا حملة رسالة إلهية سامية كفيلة بإسعادنا وإسعاد العالم كله لو أحسنا الإيمان بها وعرفنا قدرها وطبقناها أولا « فى حياتنا وبشرنا بها بين العالمين » .

﴿ صِبْغَةَ الله ومَنْ أَحْسَنُ من الله صِبْغَة وَنَحْنُ لهُ عَابِدُون . . ﴾
﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ الله حُكْماً لِقَوْمٍ يُوقِنُون . . ﴾ .

٣٨ قضية داخلية

فى ندوة لى مع بعض شباب الجامعات قال لى أحدهم ما معنى عبارة : « دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله » هذه العبارة التى نسمعها كثيراً ؟

وهذه العبارة يرددها فعلا كثير من الناس ، بل ويتخذها بعض المسلمين شعاراً له فى حياته . فأحببت أن أحدد معالم هذه العبارة وموضعها من الإسلام عن طريق الإذاعة .

مما لاشك فيه أن هذا المبدأ غريب عن الإسلام وعن المجتمع الإسلامى ، وبعيد عنها كل البعد ، فقد نبت فى جو غير جونا الإسلامى ولا يمكن مطلقا أن يتلاقى مع الإسلام . .

فهذا المبدأ يعنى عند المقتنعين به الذين يتخذونه شعاراً لهم فى حياتهم ، أن الإسلام ليس له أن يتدخل فى معاملات الناس ، ولا فيما تصدره الدولة من قوانين وتشريعات ، لتنظيم حياة الأمة ، بحجة أن ذلك من اختصاص قيصر أى الحاكم ، وليس لله أن يتدخل فى اختصاصاته ، بتشريع من التشريعات ، ينزل بها القرآن أو يتحدث بها الرسول ﷺ ، فالدين فى رأى هؤلاء قاصر على الصلة الفردية التى يعبد الفرد بها ربه كالصلاة والصيام وعلى التوجيهات الخلقية .

وهذا لا يتفق قطعاً مع الإسلام ، لأن الإسلام جمع بين العقيدة ـ السليمة ، وبين العبادات المحض لله كالصلاة ، وبين التشريعات المتنوعة المنظمة لحياة الأمم فى كل أمور الحياة ، للفرد ، وللأسرة ، وللدولة فى سياستها ، وتنظيم

شؤونها فى السلم ، وفى الحرب ، بحيث لم يترك أمرا من أمور الحياة إلا وضع له التشريع المناسب ، وأمر باتباعه ، واتخاذه أساساً لتنظيم حياتنا ، وربط الالتزام به واتباعه بإيماننا ، ولا خيار لنا فى هذا أمام قول الله لرسوله والمؤمنين :

﴿ فلا وَربّك لا يُؤْمِنُون حتىٰ يُحكِّمُوك فيما شجر بَيْنَهُم ثُم لا يجدوُا فى أنْفُسِهِمْ حرجاً مِّما قضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيما ﴾ [١] .

وقوله تعالى : ﴿ وما أَتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وما نهاكُمْ عَنْهُ فانْتَهُوا ﴾ [٢] .

وقد تكرر فى القرآن كثيراً الأمر باتباع تعاليم القرآن ، وتعاليم الرسول ، فى قوله وفعله ، كما وضح العقوبات المترتبة على الخروج عن هذه التعاليم . . وجعل الحاكم مسؤولاً عن تنفيذها ومعاقبة الخارجين عليها ، كما أمر بالرجوع الى القرآن وإلى حديث الرسول فى كل أمر يعرض للمسلمين ﴿ فَإِنْ تَنَازَعْتُم فى شيء فرُدُّوهُ إلى الله والرَّسُو ل إنْ كُنتُمْ تُؤمِنُون بالله واليَوْم الآخِر ذَلِكَ خَيْرٌ وأحْسَنُ تأويلا ﴾ [٣] أى عاقبة ومالا .

وبذلك رفض الإسلام أن يكون هناك رأى فى تنظيم حياة المسلمين غير رأى الله ورسوله ، أعنى أن الأمر كله لله ولرسوله وليس لقيصر شيء إلا أن يكون حارسا على هذا الأمر ومنفذاً له وشأنه أمام هذه القوانين الإلهية شأن كل فرد من رعيته .

ومنطق الإيمان بالقرآن وما جاء فيه من الأمر باتباع أحكامه واتباع الرسول والاقتداء به يرفض كل خروج أو تمرد على هذه التعاليم ، ولا يعد المتمردين عليها الرافضين لها من المسلمين .

وليس موقف الإسلام من الرافضين لأحكامه أو للخارجين عليها بدعاً أو شاذاً . . فإننا نرى الأحزاب والتنظيمات فى كل الأمم ، تحرص على إلزام كل عضو فيها منتسب لها بمبادئها ، وتقيل فى صفوفها أى إنسان يخرج على مبادىء الحزب وتعليماته ، بل تفصل الخارجين غير الملتزمين بخطة الحزب ، ونصفهم

---

١ ـ النساء : ٦٥ .

٢ ـ سورة الحشر : ٧ .

٣ ـ النساء : ٥٩ .

بالردة ، وتحرمهم من الحقوق التى كانت لهم وتلاحقهم بالعقوبات جزاء لتمردهم .

فليس عجبا إذن ان يشدد الاسلام على اتباعه بالتزام تعاليمه وعدم الخروج عليها يستوى فى ذلك ما يخص العقيدة والعبادة والتنظيمات التى شرعتها الحياة .

ليس عجباً أن يرفض الإسلام أن يكون هناك رأى فى تنظيم المجتمع الإسلامى إلا لله وللرسول ، فالمسلمون اتباع القرآن اتباع الرسول ، وليس للأتباع أن يتمردوا أو يخرجوا على ما آمنوا به والتزموه .

فالذين يرفعون شعار : دعوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله بعيدون عن فهم الإسلام ، إن لم يكونوا بعيدين عنه ، خارجين عليه ، وهذا هو القول الإلهى الفاصل ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُون حتّى يُحَكِّمُوك فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يجدوا فى أنفُسِهِمْ حَرَجا مما قضَيْت وَيُسلِّمُوا تَسْلِيما ﴾ .

نعم ويسلموا تسليما . رب إن الهدى هداك فارزقنا اتباعه .

٣٩ جراح الاستعمار

لو نظرنا الى التاريخ وإلى خريطة العالم لوجدنا أن البلاد الإسلامية العربية منها وغير العربية تعرضت كلها لحملة ضارية من الحقد والاستعمار الغربى . . بدأت بالحروب الصليبية التى تخلصنا منها بعد قرنين من الزمان ثم استؤنفت هذه الحرب الصليبية مرة أخرى على يد الاسبان والبرتغال وفرنسا وروسيا وانجلترا وهولندا فى أزمان متعاقبة كان نتيجتها الأخيرة وقوع البلاد الإسلامية تحت سيطرة الغرب واستغلاله حيث سلط المستعمرون كل أسلحتهم المادية والفكرية والاقتصادية لقهرنا وإذلالنا ونهب خيراتنا . وركز المستعمرون هجومهم على ديننا ليستلوه من نفوسنا وينزعوا منها الحصن القوى الذى يحفظ عليها تماسكها أمام ضرباتهم ليسهل عليهم إذا هدموا هذا الحصن أن تستسلم البلاد لهم نهائيا ، وتدوم سيطرتهم عليها وقد استمروا زمناً طويلاً يزاولون نشاطهم هذا بكل الطرق ولكن شاء ربك الذى يرعى دينه ، وتعهد بحمايته بقوله ﴿ إنا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْر وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُون ﴾ شاء الله سبحانه أن يتصدر أناس منا جبهة الدفاع عن الدين فى أشد الأوقات حرجاً حتى انحسرت جيوش الاستعمار ونحن لانزال والحمد لله على صلة بديننا وفينا كتاب الله ينطق بالحق ، وتدوى نداءاته فى آذان المسلمين أن يهبوا لاستعادة أمجادهم ، وتحقيق العزة التى كتبها الله لهم . .

ولكن الاستعمار مع ذلك وإن كان قد رحل عنا بجيوشه ، وجبروته إلا أنه قد خلف وراءه بعض الجراح والآثار السيئة فى النفوس . نعم لقد عزل الاستعمار الدين والتشريع عن الحياة وساس البلاد على أساس من تشريعه وتقاليده وثقافته

ونجح فى أن يغرس فى بعض النفوس ، ان الدين تأخر ، والمنادين بالرجوع عليه رجعيون متخلفون كما نجح فى أن يصور لنا الاباحية والتحلل على أنها تمدن وتقدم وفتن منا بعض مثقفينا بهذه الدعوة الخبيثة ، ورضوا لأنفسهم أن يكونوا بأقلامهم وألسنتهم وتصرفاتهم ممثلين بيننا لأهداف المستعمر بعد أن رحل بجيوشه ومطية لأعدائنا بعد أن أزحناهم عن أكتافنا فوجدنا أقلاما لأسماء إسلامية تتولى حملة التشكيك فى الأسلام ، ووجدنا تصرفات لأسماء إسلامية وكأنها معاول لهدم الاسلام ووجدنا أبواقا يحملها مسلمون ذون شبابنا بالتمرد على دينهم وتقاليدهم ويزينون له الولوغ فى الاثم والانحراف عن الخلق باسم التمدن والتقدم ، وشبابنا بحكم سنه وقلة خبرته ، وعدم تحصينه ضد هذه الاخطار والامراض يقع الكثير منهم فريسة سهلة فى مخالب هؤلاء ويبتعد عن دينه وعن أصالته وما درى انه بذلك يحقق املا حلوا لاعدائه ظلو يعملون له منذ قرون .

إن القرآن الكريم عربى وسنة رسولنا ﷺ عربية ، وتراثنا العريق عربى وهذا كله يحمل كل مسلم غيور مسؤولية الدفاع عن دينه والمحافظة عليه ونحن إنما صرنا أمة لها مكانتها بفضل الإسلام ؟.

ذلك لأن العرب المسلمين كانوا هم حملة هذا الدين الى العالم ، وهم الآن يمثلون خط الدفاع الأول فى الدفاع عن الإسلام وحراسته وليست هذه مهمة العلماء وحدهم بل هى مهمة كل مسلم عربى فى الموقع الذى يعمل فيه ويعيش فالإسلام لا ينهض إلا بالعرب وإذا ذل العرب ذل الإسلام وليست لنا عزة ولا كيان إلا بالإسلام فنحن بالإسلام كنا ونحن للإسلام جنوداً وحراساً لنكون . لنكون كما كنا خير أمة أخرجت للناس .

٤٠ الحرية كما يراها الاسلام

الحرية روح هذه الحياة وريحانتها ، والنعمة الكبرى التى أكرم الله بها الإنسان دون غيره من المخلوقات ، ولقد خلق الله آدم فى الجنة ، وميزه بحرية الإرادة والتفكير ، فكانت هذه الحرية هى الأساس لتعمير الكون ، وكل ومايقوم فيه من حضارات .

لذلك عنى الإسلام بحرية الإنسان عنايته بتكريمه ، وأقام تكاليفه وتوجيهاته على أساس أن الإنسان حر الإرادة والتفكير والاختيار . . حتى وجدناه يرفع المؤاخذة والحساب عن كل إنسان سلب حريته ، لأنه فى نظره يكون قد سلب انسانيته ومسؤوليته .

والحرية فى نظر الإسلام لايحدها حد إلا قانون السماء ، ويتمتع بها الحاكم والمحكوم فى ظل هذا القانون على سواء ، وقد جعل الإسلام أهم ميزة للمسلمين ، مباشرتهم لهذه الحرية ، فى الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، ، للتوجيه والتقويم ، وهدد كل جماعة منهم لا تباشر هذه الحرية ، بالشقاء والبعد عن رحمة الله فيقول رسول الله ﷺ **« لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليسلطن الله عليكم شراركم فيدعو خياركم فلا يستجاب لهم »** هذه هى منزلة الحرية واستعمالها فى نظر الإسلام . . ومن أجل هذا عنى عناية شديدة يغرسها فى النفوس حتى تؤتى أكلها الطيبة فى الحياة ويعيش المسلمون كراماً أعزاء . . .

ولقد كان المنبت الأول لهذه الحرية عقيدة التوحيد التى تربط الانسان فى خوفه ورجائه بالله ، الذى يملك وحده الضر والنفع ، فلا يذل الإنسان نفسه لمخلوق مثله ، ولا يملك له ضراً ولا نفعاً :

﴿ وإنْ يَمْسَسْكَ الله بِضُر فَلَا كاشِفَ لَهُ إلاَّ هُو وإن يُرِدْكَ بخيْرٍ فلا رَادَّ لِفَضْلِهِ ﴾ .(١)

فالموحد المؤمن الصادق يعيش حر النفس مهما تعترضه النكبات والأهوال . .

حتى عقيدة التوحيد نفسها جعل الإسلام حرية التفكير أساس اعتناقها وقبولها ، حين دعا العقول الى تدبر ماحولها من بدائع صنع الله ، لتصل فى حرية واقتناع الى وحدة خالقها ، بل نجد القرآن يقرر هذه الحرية فى صراحة تامة حين قال :

﴿ لا إكْراه فى الدِّين ﴾ (٢) .
﴿ أفَأنْت تُكْرِهُ النَّاس حَتَّى يكُونُوا مُؤمِنِين ﴾ .

وبذلك وضع الإسلام أساس حرية الانسان فيما يعتقد ، وهذا هو الشيء الطبيعى الذى يتمشى مع تكريم الله له ، إذ ليس من تكريمه فى شيء أن يجبر على أن يقول أو يفعل ما لا يعتقد ولا يقتنع به .

ومن أجل هذه الحرية وفى سبيلها شرع الله القتال واعتبر الذين يموتون فى سبيل الدفاع عنها شهداء ، ولو كان دفاعهم متمثلاً فى كلمة الحق يقولونها لسلطان جائر .

« واعتبر كل إنسان متهاون فى حريته ، راض بذله واستكانته انته ، ظالماً لنفسه ، مستحقاً للعذاب فى جهنم . وبئس المصير » .

﴿ إنَّ الذِين تَوفَّاهُمُ المَلَائِكةُ ظَالِمِى أنفُسِهِمْ قالُوا فِيم كُنتُم قالوا كُنَّا مُسْتضْعفِين فِى الأرْض قالُوا ألَمْ تكُنْ أرْضُ الله واسِعَةً فتُهاجِرُوا فِيهَا فأُولئِك مَأوَاهُمْ جَهنَّم وَسَاءت مَصِيرا ﴾ (٣) .

ويهيب بالمسلمين أن يناصروا الضعفاء المغلوبين على حريتهم ، ويقاتلوا من أجلهم فيقول :

---

١ ـ يونس : ١٠٧ .
٢ ـ البقرة : ٢٥٦ .
٢ ـ النساء : ٩٧ .

﴿ وَمَا لَكُم الا تُقَاتِلُون فِي سَبِيلِ الله والْمُسْتضْعفِين مِن الرِّجَال والنِّسَاءِ والْولْدَان الَّذين يَقُولون رَبَّنا أَخْرِجْنَا مِنْ هذِهِ القَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا ﴾ (١) .

وكان الرسول ﷺ المثال الأعلى للحاكم المسلم الذى يعتز بهذه الحرية ، ويقدرها ، ويعلمها أصحابه فى دروس عملية واقعية ، وعرف صحابته رضوان الله عليهم منه هذا ، فكانوا يعلنون آراءهم المعارضة لرأيه أحياناً دون خوف ، وكان لا يجد غضاضة فى أن ينزل عن رأيه فى بعض الأمور ويأخذ بآرائهم تقديراً منه لوجهات نظرهم كما حدث فى مواطن متعددة معروفة .

قابل عمر بن الخطاب مرة أبا هريرة منصرفاً من مجلس الرسول ﷺ ليبلغ الناس حديثاً عنه ﷺ يقول فيه :

« من قال لا إله الله مستيقنا بها قلبه دخل الجنة » (٢) .

فخشى عمر أن يتكل الناس على ظاهر الحديث ، ولا يعملون ، فصد أبا هريرة وزجره ، ورجع أبو هريرة يبكى ويشكو لرسول الله ما فعل عمر . فقال الرسول : « ما حملك ياعمر على مافعلت ؟ فقال بأبى أنت وأمى يارسول الله ، لقد خشيت أن يتكل الناس عليها ، فخلهم يعملون » .

نرى ماذا كان موقف الرسول من هذه المعارضة هل غضب ؟. لا . . بل قدر وجهة نظر عمر ، وأخذ بها ، وتنازل عن رأيه فى التبليغ وقال : « فخلهم يعملون ياعمر » صلى الله عليك وسلم يا رسول الحرية ومعلم البشرية .

وعلى يد رسول الله وفى مدرسته القرآنية الكبرى تعلم الصحابة معنى الحرية وتقديرها ، فعاشوا أحراراً ، وحرصوا على الحرية حكاماً ومحكومين ، حتى وجدنا الخليفة منهم يطلب من الناس أن يقومه ويرشدوه إذا أخطأ ، فيقف رجل من عامة المسلمين يوجه كلامه لعمر الخليفة الحازم ويقول له : والله لو وجدنا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا . فلا يغضب عمر بل يفرح ويقول : « أحمد الله أن وجد فى أمة محمد من يقوم عمر بحد سيفه » .

---

١ ـ النساء : ٧٥ .

٢ ـ رواه بنحوه فى حديث صحيح أبو سعيد فيما أخرجه البزار .

ويرى فى هذه الظاهرة مظهراً كريماً للأمة الرشيدة يفرح له .

وفى ملأ من الناس تنتقده امرأة فيقبل انتقادها ، ويعلن أمامها وأمامهم فى صراحة المؤمن الواثق من نفسه : « أصابت امرأة واخطأ عمر » .

وهناك أمثلة كثيرة وضاءة سجلها التاريخ ، صوراً كريمة رائعة ، تؤكد حرص المسلمين الصادقين على تقرير حق الإنسان فى الحرية ، وعلى تقديرهم لها ، حتى مع الأمم التى فتحوها ، وحتى مع الذين يخالفونهم فى عقيدتهم .

لقد كانوا واضحين حريصين دائماً على العدل وعلى مصلحة شعوبهم .

ولعلنا نعرف بعد هذا أن الإسلام لا يرضى عن أى إجراء يتخذه المسلم ، يعتدى به على حرية الفرد أو الجماعة ، ونعرف أن كل محاولة يتخذها الحاكم المسلم لخنق حرية المسلمين يبرأ منها الإسلام ، وأن الذين يدعون الحكم بالإسلام ، ثم يسلبون شعوبهم حرياتهم ، وينكلوا بالأحرار المؤمنين ، لا يمثلون رأى الإسلام فى شىء ، وإن أعلنوا أنهم يحكمون بقوانينه .

إن الحرية فى نظر الإسلام ، تعادل حياة الإنسان وكرامته ومن لا حرية له فلا حياة ولا كرامة له .

وإن طلاب الحرية وعاشقيها لا يجدون فى قاموس الحرية أروع ولا أعظم مما سجله الرسول وخلفاؤه الراشدون من تقديرهم للحرية واعتزازهم بها .

والى الذين يحاولون الاعتداء على حريات المسلمين ، أسوق حكمة عمر بل صرخته الخالدة فى عمرو بن العاص والى مصر من أجل الحرية ، « متى أستعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحراراً » .

- لهذا الحديث الذى أذاعته فى سنة ١٩٦٤ على ما أذكر تعليق أحب أن اذكره هنا للتاريخ فقد التقى بى الدكتور عبدالحليم محمود بعد اذاعته بأيام وكان على الجانب الآخر من الشارع فشق الشارع وأقبل على يعانقنى ، ورآنى فى دهشة من هذا اللقاء . فقال لقد فرحت بلقائك الآن تمشى فى شوارع القاهرة حرا بعد الحديث الذى أذعته عن الحرية وكانت تحية وتقديرا من رجل مخلص .

٤١ الحرية والشورى

فى رحاب الحرية وفى نسماتها الطيبة التى هلت علينا ، ومساهمة فى تدعيم المعانى والقيم الكريمة التى أعلنها السيد الرئيس محمد أنور السادات ، وارسائها على قواعد من تراثنا وتقاليدنا العريقة يطيب لنا أن نتحدث عن سيادة الشعب وعن الحرية والحكم وعن الشورى فى نظر الإسلام .

إن الحقيقة التى يحق لكل مسلم أن يفخر بها بين أمم العالم ، أن الإسلام قد عنى منذ أربعة عشر قرنا بتوفير كل ضمانات الحرية والشورى للمجتمع الإسلامى . مما لم يصل اليها حتى الآن أرقى الأنظمة والدساتير .

وليس هذا وحده هو موضع الفخر والاعتزاز ، بل هناك أمر آخر أهم ، وهو أن الإسلام حين قرر هذا ، لم يقره تحت ضغط الجماهير وثورتها ، ومطالبتها بحقها فى حريتها ، والمشاركة برأيها فى حكمها كما حصل فى الأمم الأخرى . . بل قرره الإسلام من أول الأمر ، وحين بدأ المجتمع الإسلامى يتكون ، ليقوم المجتمع الجديد على أسس قوية من الحب والرضى والمشورة ، والتجاوب التام بين الحاكم والمحكوم ، حتى يشعر كل فرد فيه بأن له كيانه ، ويحس مسؤوليته نحوه ، لأنه مجتمعه الذى توفرت له فيه كل ضمانات الحياة الكريمة ، ومن مصلحته الخاصة والعامة أن يكون متفتح الذهن ، موفور النشاط للحفاظ على مكاسبه فى هذا المجتمع . .

والحرية والشورى مبدآن مترابطان لا يمكن أن يوجد واحد منهما فى غياب الآخر . فلا تتحقق الحرية إلا إذا كانت هناك شورى . كما لا يمكن أن تكون هناك شورى بمعناها الصحيح الا فى ظل الحرية وإلا أنقلب الوضع الى استبداد

مقنع ، وحرية مزيفة .

ولعناية الله بالشورى ذكرها فيه موضعين من القرآن الكريم . .

الموضع الأول : ذكرها فه وهو يحدد الصفات الأساسية التى يتميز بها المؤمنون فى سورة ، سميت بسورة الشورى ، إعلاناً عن أهميتها فى حياة المسلمين فقال تعالى : ﴿ وَمَا عِنْدَ الله خَيْرٌ وَأَبْقَى لِلَّذين آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ يتوكَّلُون وَالَّذِين يَجْتَنِبُون كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالفوَاحِش وإذا ما غضِبُوا هُمْ يَغْفِرُون ، والَّذِين اسْتَجَابُوا لربهم ، وأَقَامُوا الصَّلاة وأَمْرُهُم شُورى بَيْنَهم ، ومِمَّا رزَقْنَهُم يُنْفِقُون ، والَّذِين إذا أَصَابَهُم البَغْىُ هُمْ يَنْتَصِرُون ﴾ (١) .

فهذه صفات أصيلة للمؤمنين تؤهلهم لرضا الله والفوز بجناته ومن بينها الشورى ، ولكن يجب أن نتنبه الى نقطتين : الأولى أن الله وضعها بين ركنين من أركان الإسلام هما : الصلاة والزكاة ﴿ وأَقَامُوا الصَّلاَةَ وَأَمْرُهُم شُورى بَيْنَهُم وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُون ﴾ مما يدل على ضرورتها فى حياة المسلم كضرورة الصلاة والزكاة فى حياته . الثانية : أنه ذكرها فى صيغة تدل على أن المؤمن لا يمدح بها إلا إذا كانت مبدأ مقرراً فى حياته فقال : ﴿ وأمرهم شورى بينهم ﴾ أى أن الشورى صارت طبيعة لهم وأمراً مستقراً دائماً بينهم لا أمراً عارضاً تابعاً لأهوائهم .

الموضع الثانى : الذى ذكر الله فيه الشورى وهو فى سورة ال عمران ، كان بعد أن مرت الشورى بتجربة أصابتها بشىء من الضعف والاهتزاز ، وقد ذكرها بصيغة الأمر . ولمن ؟ للرسول ﷺ . وكان ذلك عقب هزيمة المسلمين فى أحد ، وكان من رأى الرسول ﷺ : أن يتحصن بالمدينة ، ولكن أغلبية أصحابه رأوا الخروج ، لمنازلة جيش الأعداء فى أحضان جبل أحد ، فنزل على رأيهم . فلما حدثت الهزيمة بسبب خطأ وقع فيه بعض الصحابة بحسن نية ، ندم الذين أشاروا على النبى بالخروج ، وقالوا لن نشير على الرسول بأمر بعد هذا وحدث مايمكن أن نسميه بأزمة الشورى . . وانتظر المخطئون من جيش الرسول أن يتزل بهم العقاب .

١ ـ الشورى : ٣٦ ، ٣٨ .

ولكن غيرة الله على كرامة الإنسان ، وعلى تدعيم مبدأ الشورى فى حياته ، جعلته ينزل قرآنا يسجل فيه هذه الأمور لرسول الله . ﴿ فبما رَحْمَة مِنَ الله لِنتَ لهُم ، ولَوْ كُنت فَظًّا غَلِيظ القَلْب لا نْفَضُّوا مِنْ حَوْلِك ﴾ فالأساس هو الرحمة وتقدير الظروف ، ثم يقول له بعد هذه المقدمة المهدية للنفس : ﴿ فاعْفُ عَنْهُم ﴾ عن المخالفين لأنهم حسنو النية . . . ﴿ واستغفر لهم ﴾ لأنهم اجتهدوا فأخطأوا ، وفى حاجة الى رعايتك ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ أى استمر على مشاورتهم أى مشاورة أصحابك وأخذ رأيهم فيما تعودت أن تأخذ رأيهم فيه برغم ما حدث من هزيمة . .

تلك هى عناية الله بالشورى وبالحرية فى المجتمع الإسلامى . فهى فى وصف واحد مع الصلاة والزكاة ، ولابد أن يتمسك بها الرسول ، ويستمر عليها برغم التجربة التى مرت بها . وقد نفذ الرسول أمر ربه ، واستمر فى مشاورة أصحابه ، فالشورى إذن أمر واجب ، على الحاكم المسلم أن يلتزم به ، وعلى المسلمين جميعا أن يقوموا به ، ويحرص عليه الجميع ـ الحاكم والمحكوم ـ حرصهم على أداة الصلاة والزكاة ﴿ ولا خاب من استشار . . ﴾

ولقد كانت الشورى سنة رسول الله ﷺ قبل ذلك . . . . والتزم بها ولم يتركها صلوات الله وسلامه عليه حتى فى الحروب ، بل استشار واستمع لكل من له رأى وخبرة ، ففى أوائل الأمر وحين علم برجوع قافلة تجارية لقريش من الشام إلى مكة مارة قريبا من المدينة أعلن لأصحابه أنه خارج اليها مع من يريد الخروج ليعوضوا ما سلبته قريش منهم عند هجرتهم ، فخرج ومعه جمع منهم فى الرابع من رمضان ، ولكنه حين ابتعد عن المدنية بنحو ثلاثين ميلا ، جاءه خبر إفلات القافلة ، وخروج قريش بجيشها ، وإصرارها ـ حتى بعد نجاة قافلتهم ـ على تأديب المسلمين بل وإبادتهم ، فرأى أن الحرب واقعة ، ولم يكن قد استنفر أصحابه لحرب ، فلم يخرجوا جميعا معه ، والانسحاب الى المدنية فى هذه الحالة أمام زحف قريش يزيدهم طمعا فيه .

وهنا استشار أصحابه حتى لا يدفعهم لحرب لا رأى لهم فيها وكان فى إمكانه أن يصدر أمره بالحرب ، فيجد منهم الطاعة والاستبسال ، ولكنه استشار ، فقام

المقداد بن الأسود يعبر عن رأيهم فقال : يا رسول الله أمض لما أمرك الله فوالله لا نقول لك كما قال بنو إسرائيل لموسى : اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون . بل اذهب أنت وربك فقاتلا إنا معكما مقاتلون »

ولكن الرسول الخبير لم يكتف بهذا ، بل التفت الى الأنصار وقال : أشيروا على أيها الناس لأنهم كانوا قد تعاهدوا معه على الدفاع عنه وحمايته فى المدينة ، فقال سعد بن معاذ سيد الأوس : كأنك تريدنا يارسول الله . فقال : أجل . فقال سعد : يارسول الله قد آمنا بك وصدقناك ، فامض لما أمرك الله ، فهو الذى بعثك بالحق لو استعرضت بنا هذا البحر (يريد البحر الأحمر) فخضته لخضناه معك ، ما تخلف منا رجل واحد » .

وكانت هذه هى الاستشارة الثانية ، أما المشورة الثالثة فقد تطوع بها المنذر بن الحباب فى أرض العركة ، حين نزل الرسول بالجيش منزلا رأى المنذر أن غيره أصلح منه حربيا ، فأشار على الرسول بالمكان المناسب ، ونزل الرسول عند رأيه ، ودارت المعركة ، وانتصر الرسول والمؤمنون ، وعادوا بالأسرى إلى المدينة .

وهنا كانت المشورة الرابعة ، فقد استشار الرسول أصحابه فيما يتخذه مع هؤلاء الأسرى ، وكانوا أول أسرى فى الإسلام ، ولم ينزل قرآن بتنظيم معاملتهم وكان لأبى بكر رأى له أنصاره ، ولعمر رأى له أنصاره ، ومال الرسول عليه الصلاة والسلام إلى الأخذ برأى أبى بكر . .

ونخرج من هذا كله بدرس يهمنا فى حياتنا وواقعنا . فقد رفض الرسول أن يسوق أصحابه الى حرب لا رأى لهم فيها ، لأنه خير من يعلم أن الحرب إذا كانت عن إيمان واقتناع بذل المحاربون فيها من مالهم وأنفسهم كل ما يملكون ، وقاتلوا بإيمان ، وكانت الحرب حربهم والنصر لهم . .

٤٢ فهم خطأ للحرية

يقول الله تعالى :

﴿ وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَنْ رَحِمَ رَبُّكَ ﴾ (١) .

تذكرت هذه الآية عندما جاءتنى رسالة من أحد الشباب بعد أن سمع لى حديثاً عن تحديد الإسلام لزى المرأة يقول فيها : أليس تدخل الإسلام فى تحديد الزى تحديداً لحرية الناس أو إعتداء عليها . وقلت سبحان الله ـ هكذا تختلف الآراء ، وهذا الشاب الذى يبدو أنه مدافع عن الحرية لا أضيق به ، فكلنا يعشق الحرية ، وليتنا جميعاً نحرص عليها ، ونضحى من أجلها ، لنكون أمة من الأحرار الذين يضيقون بالعبودية والاستذلال .

ولكن يجب علينا قبل ذلك أن نفهم معنى الحرية فهما مستقيماً . . فالحرية ليست انطلاقاً من كل القيود ، لأنها حينئذ تكون فوضى مدمرة ، ولا يستقيم معها حال الناس . بل الحرية فى كل أمر لا تكون جميلة إلا إذا كانت محاطة بقيود تحرسها ، كالشوك الذى يحيط بالورد ، ومن أجل هذا كانت القوانين المتعددة التى تحرس الحرية فى تنظيم حياة الناس وراحتهم .

فالناس أحرار فى أن يسيروا فى الشارع بسياراتهم ، ولكن وضعت للسير قيود وإشارات من أجل المحافظة على حياتهم .

والناس أحرار فى أن يضيئوا منازلهم كما يشاؤون ، ولكن وضعت القيود على

---

١ ـ هود آة : ١١٨ ، ١١٩ .

الإضاءة وقت اخطار الحرب ، للمحافظة على حياة الناس ومرافقهم .

وهكذا لابد أن تحاط الحرية ببعض القيود من أجل مصلحة الناس أنفسهم وتمتعهم بالحرية .

والإسلام حين تدخل في تحديد الميراث وفى تحديد علاقة الأبناء بالآباء ، وفى تحديد ما يستر من جسم المرأة والرجل وما يكشف ، إنما قصد من ذلك وأمثاله مصلحة المجتمع ، وإقامة علاقات هادئة ومستقرة بين أفراده ، وعدم الاضرار بأحد منهم . .

والله سبحانه حين شرع للمرأة زياً خاصاً ورسم لها مايمكن أن نسميه « الموديل الإسلامى » الذى يجب أن تحرص عليه فى ملابسها حين قال :
﴿ يَا أَيُّهَا النَّبِى قُلْ لأَزْوَاجِكَ وَبَنَاتِك وَنِسَاء الْمُؤمِنِين يدْنِينَ عَلَيْهِنَّ مِنْ جَلاَبِيبِهِنَّ ﴾ (١) .

وقال : ﴿ وَلاَ يُبْدِين زِينَتَهُنَّ إلاَّ ما ظهر مِنْها وَلْيَضْرِبَن بِخُمُرِهِنَّ عَلَى جُيُوبِهِنَّ ﴾ (٢) أى على صودرهن حتى لا تكون مكشوفة ، إنما حدده على أساس أنه سبحانه يعلم طبيعة الغريزة الجنسية فى الرجل ، ولا سيما الشباب . وما تؤدى إليه إثارتها من أضرار بالشباب فى جسمه وتفكيره ، وفى تصرفاته ، ، مما هو معروف .

فكان لابد من أن يتدخل الإسلام ويمنع المرأة من أن تكون سلعة معروضة وعامل إثارة ضارة بالرجل باظهار مفاتن جسمها أمامه ولا حاجة مطلقاً تدعو لإظهار المفاتن .

فهذا القيد الذى وضعه الإسلام لزى المرأة إنما أراد به منع الإضرار بالآخرين وبها أيضاً ، وهذا أمر مفهوم .

ولكن النزوات لها أحكامها ومنطقها . . وليتنا نفهم الحرية فهماً صحيحاً ونستعملها استعمالاً سليماً ومستقيماً .

---

١ - الأحزاب : ٥٩ .
٢ - النور : ٣١ .

على أننا كمسلمين ملتزمين بتعاليم القرآن وسنة الرسول ﷺ . ليس لواحد منا أن يقترح تعديلاً لحكمها أو يعتبر أمراً من أوامرهما اعتداء على حريات الناس ومصالحهم ، فالله أعلم بمصالحهم وبما ينفعهم وهو الرحيم بنا :

﴿ يُرِيدُ الله بِكُمُ الْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾[1] .

﴿ ما يُرِيدُ الله لِيَجْعَلَ عَلَيْكُم مِنْ حَرَجٍ ولكِن يُرِيدُ لِيُطَهِّرَكُمْ ﴾[2] .

وليس لمسلم أن يكون له رأى يخالف أمر الله ، أو يستحسن أمراً يكرهه الله ويحرمه ، وإلا كان واضعاً نفسه فى العلم والحكمة والتشريع فوق علم الله وحكمته ، ومدعياً أنه يعلم ما لايعلمه الله . وأنزه المسلم أن يقع فى هذا المنحدر .

والله سبحانه يقول :

﴿ يَاأَيُّها الَّذِين آمَنُوا لا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَى الله وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا الله إنَّ الله سَمِيعٌ عليم ﴾[1] .

ويقول ﴿ فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ﴾[3]

وأيهما أولى أن تخضع المسلمة لموديلات الغرب أو تخضع لحكم الله ؟

أعتقد أن الأمر واضح .

وفقنى الله وإياكم لما يحبه ويرضاه . . .

---

١ - البقرة : ١٨٥ .

٢ - المائدة من الآية ٦ .

٣ - أول سورة الحجرات .

٤ - النور : ٦٣ .

٤٣ الصوم والحرية

قد يعجب القارىء من هذا العنوان لما يظنه لأول نظرة من بعد شاسع بين الصوم والحرية . لأن الحرية إنطلاق ، الصوم قيد أو قيود تحد من هذا الانطلاق .

ولكن إذا علمنا أن المطلوب ديناً وعقلاً أن يتحرر الإنسان من سيطرة شهواته ، وغرائزه وعاداته عليه وتحكمها فى تصرفاته إذ علمنا بأن المطلوب من الإنسان ألا يعيش عبداً لهذه الشهوات وأن عليه أن يحاول بكل الطرق الممكنة أن يتحرر من هذه العبودية ، أمكننا أن ندرك السر فى ارتباط الحرية بالصوم ، وأن الصوم احدى الوسائل التى تحرر الإنسان من سيطرة شهواته عليه .

لقد تحدثت الأديان والفلسفات والصوفية عن الإنسان الكامل أو الإنسان المثالى ، الذى يقوم بواجباته تجاه نفسه وأسرته وبلاده وربه والذى يرتفع بخلقه فوق الحفارات والرذائل فيفعل الواجب ، لأنه واجب ، أو يفعله تقربا لله الذى يعبده ، ورسمت الأديان والصوفية والفلسفات الإنسانية الطريق الذى يسلكه الإنسان للوصول الى هذه الغاية السامية التى يمكن أن تصل إلى درجة الاحسان الذى بين الرسول ﷺ معناه بأن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك . .

ولكن هذه غاية أو هذا مقام يحتاج إلى مجاهدة للنفس والشهوات .

والنفس كالطفل إن تهمله شب على
حب الرضاع وإن تفطمه ينفطم

فلابد إذن من فطام النفس عن شهواتها ، لابد من تعليتها ـ كما يقول علماء

النفس ـ أو من تحريرها والتغلب على نزعاتها الضارة بحياة الإنسان فى حاضره ومستقبله . .

ولذلك نجد هذه الفلسفات أو الصوفية تأخذ الإنسان بنظام تدريبى أن اختلف فى صورته فان الغرض منه قهر النفس أو قهر النزعات الضارة فيها ، واعطاء ارادته أو روحه قوة تجعله يتحكم فى مطالب جسده ويقف أمام نزوات نفسه فرأينا على سبيل المثال رياضة اليوجا يشغف بها أناس فى الشرق والغرب ، وهى تقوم على تمرينات رياضية بأوضاع متعددة ومتنوعة فيها قسوة على الجسم ، وتحتاج الى إرادة قوية ، وكلما استطاع الإنسان التحكم فى مطالب جسمه قويت إرادته ، وصفت نفسه وحصل على قدر من الحرية يتناسب مع ما حصل من قدرة على التحكم فى جسمه ونزعاته حتى إذا ارتقى فى هذه المجاهدة أمكن أن نقول عنه أنه أصبح حراً غير خاضع ولا مستعبد لنزعاته .

هذا ما رسمه واضعو « رياضة اليوجا » على قدر علمهم وعقلهم مع مافيها من قسوة فى حركاتها ، ورأينا مثلا رجال الصاعقة يأخذون تمرينات قاسية تعودهم على احتمال المشقات وعلى الإقدام على ما تنفر منه النفس ولا يطيقه الجسم فى الأحوال العادية استعداداً لساعات الخطر .

ولكن الله العليم بالإنسان وبما يصلحه رسم له كثيراً من الطرق التى تصل به إلى التحرر من سيطرة نفسه ومطالب جسمه عليه ، ولعل الصوم أقوى هذه الطرق للوصول الى هذه الغاية .الصوم الذى أراده الله وجعل غايته التقوى لا الصوم الذى يباشره الناس اليوم ، ولا يعرفونه منه الا ناحيته الشكلية التى لا يمكن معها أن يحقق الإنسان أهداف الصوم فى التحرر ، ولا يحس نتائجه ، وليس لله حينئذ حاجة فى أن يدع طعامه وشرابه .

إن الصوم قد يحد من انطلاق الإنسان وراء نزعاته وشهواته فى الطعام والشراب والجنس والغضب والكسب الحرام ، والسباب والشتائم وإيذاء الناس باليد أو اللسان .

وعلى قدر التزام الإنسان بهذا القيد يكون قربه من هذا الهدف ، ويكون قد

وصل الى نقطة معلومة من تحرره من شهواته فاذا وصل إلى درجة يستطيع فيها التحكم تماماً فى شهواته الضارة جسمياً أو خلقياً به أو بمجتمعه فان معنى هذا أنه أصبح سيداً على نفسه لا مسوداً ، أصبح حراً يتصرف تصرف أصحاب النفوس الحرة الطيبة ، لا سلطان لشهوة أو نزعة ضارة على تصرفاته فان سابه أحد أو شاتمه فانه يقول : إنى صائم ، إنى صائم . ولا يبادله السباب وهذا هو الذى سماه الرسول ﷺ الجهاد الأكبر وهو جهاد النفس . وهنا يتخلص من عبوديته لنفسه ، ويصير حراً ، لا بمعنى أنه يقول مايريد أو يفعل ما يشاء دون سيطرة أحد عليه بل بمعنى أنه يتصرف دون سيطرة نفسه السيئة الأمارة بالسوء عليه وحينئذ تجد فيه الإنسان الطيب الخير فى كل ما يقوله أو يفعله ، تجده الإنسان الذى تحبه وتحب أن يكون الناس كلهم على غراره ، ليتحقق بهم المجتمع القوى فى كل مجالات القوى المادية والروحية وهؤلاء يحظون من الله بالرضا الكامل ويستحقون حسن مثوبته ، وهذا هو الفرق بين طريق يصنعه البشر وطريق يشرعه الله الذى يضع الجزاء الأخروى فوق النتائج المادية الملموسة فى الحياة . .

ولعلنا بعد هذا ندرك تماماً أننا كأفراد واننا كأمة فى حاجة شديدة الى هذا الانسان الحر الذى يصنعه الصوم ونعرف أيضا أن الطريق الذى سلكه الله مع عباده بالصوم إنما هو الطريق الأسلم الذى وضعه اللطيف الخبير بعباده .

إن أمة ـ أية أمة ـ لا يمكن أن تنهض وتقوى وترتقى إلا بهذا الانسان الحر ، ولا يمكن أن تنتصر إلا بهذا الإنسان الحر . .

وفتش معى بعد ذلك فى كل ما أصابنا فى تاريخنا أو فى حاضرنا ، من تأخر وفشل أو ضعف وهزيمة تجد علته فى خضوع الأفراد والمسؤولين لشهوات نفوسهم ونزعاتها الضارة أو بمعنى آخر فى عبودية هؤلاء لشهواتهم وغرائزهم ، واقلب الصفحة الأخرى من تاريخنا المجيد تجد سمو النفوس وتعاليها على شهواتها ، وتحررها من نزعاتها الضارة هو الذى صنع لنا هذا المجد وهو الذى يمكن أن يصنعه الآن وفى كل آن .

إن لحظة سمو عاشها خالد بن الوليد حين جاءه خبر عزله من القيادة هى التى ضمنت لجيش المسلمين النصر .

وكثير من لحظات السمو النفسى أو الروحى عاشها المسلمون الأول وانتصروا بها على نفوسهم وحبهم للحياة والراحة هى التى حققت لهم على قلة عددهم وضعف عددهم ـ الانتصار على أعدائهم .

وما أحوج المسلمين اليوم الى دروس الصوم التى تربى فيهم السمو والانتصار على نفوسهم والتغلب على أهوائهم وأحقادهم لينتصروا على أعدائهم . .

٤٤ بين الحاكم والمحكوم

أرسل لى أحد الاخوة المستمعين يسألنى :

الكثير منا يرى أو يعرف مظالم ومفاسد ترتكب فى حق الدولة أو الأفراد ، ويخشى إذا هو أبدى رأيه فيها ، أو تدخل لحماية المجتمع منها ، أن يصيبه الضرر والمتاعب ـ فما رأيك فى مثل هذه الحالة ؟.

وأنا أقول للأخ السائل ـ إن سؤالك هذا يطرح أمامنا موضعين : الأول منهما خاص بواجب الحاكم الراعى للأمة ، والثانى خاص بواجب الشعب أو الرعية .

أما واجب الراعى الذى تحمله أمانة الحكم فهو أن يعمل على توفير الجو الصالح الذى تنتعش فيه الحرية .

ويزيل كل أجهزة الضغط والإرهاب والخوف ، حتى يأمن الناس على أنفسهم إذا هم أبدوا رأيهم .

ويتخذ من حوله بطانة مخلصة تغار عليه وعلى مصالح المواطنين وتعينه على فعل الخير ، وتفتح أمامه النوافذ ليرى الأمور على حقيقتها ، ويعالجها العلاج المناسب لها .

ونذكر فى هذا توجيها كريماً للرسول ﷺ حيث يقول : « إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل الله له وزير صدق ، إن نسى ذكره ، وإذا ذكر أعانه ، وإذا أراد به غير ذلك جعل الله له وزير سوء إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه . .

والوزير لا يقصد به معناه المعروف الآن بل كان معين ومستشار موثوق به عند

صاحب السلطة على كل المستويات لأن هؤلاء إذا كانوا مخلصين للحاكم وللوطن ، كانوا خيراً ونعمة للحاكم وللوطن معاً ، وإن كانوا غير ذلك كانوا شر بطانه تجر على الحاكم الذى وثق بهم ، وعلى الوطن المتاعب ، ويصبح من الواجب عليه أن يتخلص منهم ، ويبعدهم عن مواقعهم ، حتى لا يستمروا فى الإساءة اليه وإلى المواطنين . . وبذلك يوفر المناخ الصالح لأمته لتشاركه بقلبها ورأيها وعملها فى النهوض بشؤونها وتحقيق مصالحها .

أما واجب الرعية فهو أن تكون دائما يقظة لكل مايجرى حولها ، حريصة على قطع دابر الفساد أيا كان مصدره .

كل واحد من الأمة فى موقع عمله أو حيث يكون ، يجب أن يحس أنه مسؤول لا عن نفسه فحسب ، ولكن عن إصلاح مايراه من عيوب ، ومقاومة كل ما يشعر به من ظلم يقع عليه أو على غيره ، بالصورة المناسبة . . الزارع فى حقله ، والصانع فى مصنعه ، والموظف فى ديوان عمله . . وهكذا لا يتهرب أحد من مسؤولية تقويم المعوج ، وإزالة الضرر حسب قدرته . . بالكلمة يقولها أو العمل يقوم به ، أو بمقاطعة المفسد وإظهار الاحتقار له . . لأنه بذلك يبعد الخطر عن نفسه فإنه إذا ترك الظلم والفساد يستشرى فسيناله ضرره بطريق مباشر أو غير مباشر .

وهذه هى المسؤولية الجماعية ، وهى المعنى العميق والدقيق لقوله تعالى : ﴿ واتقوا فِتْنَة لا تُصِيبنَّ الَّذِين ظَلَمُوا مِنكُم خاصة ﴾ [١] بل يعم ضررها الظالم وغيره ، لأن هذا الغير قد سكت ، فشجع الظالم بسكوته على أن يتمادى فى ظلمه ، كما شجع غيره على مباشرة الظلم والفساد . . فيصبح الفساد والظلم موجة تجرف الجميع فى طريقها . . ويعاقبون عليها فى الدنيا والآخرة .

وفى هذا يقول الرسول ﷺ موضحاً ومبيناً : « إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك الله أن يعمهم بعذاب منه » .

وهنا تجيء مهمة الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر ، هذه المهمة التى جعلها

---

١ - سورة الأنفال : ٢٥ .

الله من أولى خصائص هذه الأمة ، التى يجب أن تحرص عليها حين قال :

﴿ كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخرِجَتْ لِلنَّاس تأمُرُون بالْمَعْرُوفِ وتَنْهَوْنَ عنِ المُنْكَرِ وتُؤْمِنُون بِالله ﴾ (١) .

ولقد وجه الرسول ﷺ تحذيرات كثيرة وشديدة من إهمال هذا الواجب ، نذكر منها قوله عليه الصلاة والسلام : « **والذى نفسى بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهون عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ، وليسلطن الله عليكم شراركم فيدعوا خياركم فلا يستجاب لهم** » وهذه نتيجة طبيعية لكل مجتمع يقف موقفاً سلبياً من الفساد ويتركه يستشرى كالسرطان فلا يقتصر ضرره على عنصر واحد فى الجسد ، بل يعمه كله . .

وبهذا يضع الله ورسوله كل فرد فى الأمة أمام واجب مقاومة الظلم والفساد لا يعفيه من مسؤوليته ، حين يتهاون فى مقاومة الشرر المتطاير منه .

والرسول ﷺ لم يترك وسيلة لمعتذر يحاول التنصل من واجبه حين بين وسائل مقاومة الظلم ومقاومة الفساد . . بالكلمة يقولها ، أو باليد للقادر عليها . . أو بالمقاطعة والمقاومة السلبية . . وهى الانكار بالقلب . . وهى آخر وسيلة يلجأ اليها المخلصون ، لكنها لها قوتها ومفعولها فى كسر شوكة الطاغين .

وبهذا يرسم الإسلام الوسيلة للحياة السليمة . . مسؤولون يتيحون الحرية للأفراد ، ويشجعونهم على كشف العيوب ، ومقاومة الفساد ، وأمة تقوم بواجبها فى تأديب المفسدين الظالمين ، وإلا تعرض البنيان كله للانهيار ، وأعيد قومى من هذا المصير . .

---

١ ـ سورة آل عمران : ١١٠ .

٤٥ بطانة الحاكم

جلس أحد الخلفاء العباسيين الى عالم صالح وطلب منه أن يقدم له نصيحة تنفعه فى حياته فرأى العالم أن يقدم له النصيحة المناسبة فقال له : يا أمير المؤمنين لأن تصحب من يخوفك حتى تبلغ الأمن خير لك من أن تصحب من يؤمنك حتى تبلغ الخوف » والعالم يريد بذلك توجيه الأمير الى اختيار بطانته ومستشاريه من الرجال المخلصين له ولأمتهم ، الصرحاء فى الحق ، الجرآة فى توجيه الأمير إلى الصواب وإبعاده عن الخطأ . . البرآء من النفاق والملق والرغبة فى مجازاته فى آرائه ، ومسايرته فى شهواته أو نزواته ، وتحسين كل رأى يصدر عنه ولو كان خطأ مدمراً . .

فهذا النوع من المستشارين المخلصين يحفظون الأمير من الأخطاء ، ويصونون الأمة من عبث الأمراء . .

ولكن لما كانت النفوس تطرب عادة للثناء ، وتنشرح للأطراء ، وتضيق بمن يحد من سلطانها ، أو يقف فى سبيل رغباتها ، ولا سيما أصحاب النفوذ والجاه والسلطان ، لم يجد العالم المخلص خيراً من أن ينصح أمير المؤمنين ، بالحرص على بطانة من هذا النوع المخلص الممتاز ، حتى لو وجد منهم أحيانا ما يضيق به .

لأنهم فى نهاية الأمر سيحمونه ويحمون الأمة من اخطائه ، ويصلون به إلى بر الأمان . . لو استمع اليهم ، وأخذ بنصيحتهم ، فتلتف رعيته حوله ويحبونه ، ويسجل له التاريخ ذكرى طيبة .

وحين يلقى الله ، يلقاه بصالح الأعمال ، فيجد عنده النعيم والأمان ، وكل ذلك بفضل البطانة الصالحة الجريئة المخلصة .

والأمر على العكس من ذلك لو اتخذ الأمير بطانة سوء من المنافقين المتملقين الذين يستولون على قلب الأمير ، بمجاراته فى آرائه ، وتحسين رغباته ، وتزيين شهواته ، فيجعلون لديه الخطأ صواباً ، والصواب خطأ ، ويصورون له المنافقين ، بأنهم خير المخلصين ، ويبعدون عنه الأكفاء المخلصين ، ويسدون عليه كل منافذ النور ، ويحاولون بينه وبين معرفة الحقائق عن رعيته فيوردونه موارد التهلكة ، ويكونون سببا فى سخط رعيته عليه ، فتسوء ذكراه ، كما تسوء عاقبته عند الله حين يلقاه .

ومن أجل هذا كانت نصيحة العالم للأمير ، بأن يبعد عنه هذا النوع من البطانة والمستشارين ، لصالحه وصالح أمته .

والعالم المخلص إنما اقتبس نصيحته هذه من قول رسول الله ﷺ (١) :

إذا أراد الله بالأمير خيرا جعل له وزير صدق إن نسى ذكره ، وإن ذكر اعانه ، وإذا أراد به غير ذلك ، جعل له وزير سوء إن نسى لم يذكره ، وإن ذكر لم يعنه » .

وقد وضع الرسول بذلك ميزان اختيار الأعوان والمستشارين لكل إنسان ولى أمرا مهما من أمور المسلمين فى أى عمل من الأعمال .

---

١ ـ حديث صحيح أخرجه أبو داود فى سننه ، والبيهقى فى شعب الايمان من عائشة رضى الله تعالى عنها .

ولقد كان هذا العالم نفسه نموذجا طيباً لأعوان الصدق حين قدم للخليفة النصيحة الجريئة المخلصة التى تنفعه فى دنياه وأخراه . . وهكذا يكون الأمراء ويكون العلماء .

٤٦ الرفق بالامة

حديث من احاديث الرسول الرحيم ، معلمنا وهادينا لخير دنيانا وآخرتنا ﷺ وقفت عنده طويلاً وارتجفت وراجعت نفسي وعملي ورجوت من الله سبحانه السلامة .

وصدق الله العظيم حين يقول عن رسوله (ﷺ)
﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِين رَؤُوفٌ رحيمٌ ﴾ (١) .

ولقد كان من مظاهر رأفة الرسول ورحمته بأمته هذا الحديث الذى يوجه فيه رعاة أمته وولاة أمرها إلى أن يرأفوا بها ويسهلوا لها أمور دنياها ودينها ، ولايشقوا عليها ، ولا يكلفوها من الأمر مالا تستطيع ويسهروا على تحقيق مصلحتها ، وقضاء حاجاتها ، حتى بلغ من عناية الرسول الرحيم بأمته أن يدعو الله ـ ودعوته مجابة .

فتقول السيدة عائشة رضى الله عنها سمعت رسول الله ﷺ يقول فى بيتى هذا (٢) :

«اللهم من ولى من أمر أمتى شيئاً فشق عليهم فاشقق عليه ، ومن ولى من أمر أمتى شيئاً فرفق بهم فأرفق به » ولاحظ يا أخى قول رسولك » من ولى من أمور أمتى شيئا » لأن هذا يعني كل انسان فى يده أمر من أمور المسلمين ، صغيراً كان

---

١ ـ التوبة : ١٢٨ .
٢ ـ اخرجه مسلم .

أم كبيراً ، فيشمل كل من أسند اليه عمل يتصل بحاجات الأمة ومصالحها على جميع المستويات ، والرفق بالأمة يعنى تحقيق مصلحتها وتوفير حاجاتها ، وحسن سياستها ، بحيث يطمئن كل فرد فيها على ماله وعرضه وحقه وحريته ويحس الراحة النفسية من معاملة القائمين على أموره وحرصهم عليه وعلى مصالحه ، فيحبهم ويتعاون معهم ويحب بلده ويدافع عنها ويحميها بماله وروحه لأنها وفرت له حقوقه وعززت فيه كرامته . هذا الانسان الذى وضع الله فى يده أمراً ولو صغيراً من أمور المسلمين فرفق بهم وأحسن معاملتهم دعا الرسول (ﷺ) له أن يشمله الله برفقه ورحمته ، ولا أظن إنساناً مهما عظم شأنه فى الدنيا يستغنى عن رفق الله به ورحمته فى أية لحظة من لحظات حياته . . أما الإنسان الذى يهمل فيما أسند إليه من عمل وينهر الناس ويتعالى عليهم ويسلبهم حقوقهم ويتعنت معهم ويقسو عليهم ويبدد مصالحهم بما وضع الله فى يده من سلطة ، صغيرة كانت أم كبيرة فويل لهذا الانسان من دعوة الرسول عليه . مهما اخضرت أمامه دنياه ، لأن دعوة الرسول بأن يشق الله عليه ـ ستطارده فى دنياه وتلاحقه فى أخراه .

ومن شدة رحمة الرسول (ﷺ) بأمته هذا التحذير الذى وجهه لرعاتها حين قال :

« ما من عبد يسترعيه الله رعية يموت يوم يموت وهو غاش لرعيته الا حرم الله عليه الجنة »[1] .

وفى رواية « لم يجد رائحة الجنة » حتى إذا ـ استطاع أن يموه على من تحت يده من الرعية ويوهمهم أنه يعمل لمصلحتهم ، وهو يغشهم فإنه لن يفلت من عذاب الله ولن يجد رائحة الجنة ومن هنا كان احساس الخلفاء المتقين الصالحين بعظم مسؤولياتهم وخوفهم من حساب الله لهم فوجدنا عمر بن الخطاب رضى الله عنه وأرضاه يقول ، « والله لو عثرت دابة فى العراق لسئل عنها عمر يوم القيامة ـ لِمَ ـ لَمْ يعبد لها الطريق ؟ وحين رشح أحد الصحابة ابنه عبدالله فى المرشحين للخلافة بعده رفض عمر وقال كفى آل الخطاب واحد منهم يسأل عن أمة محمد يوم القيامة .

---

١ ـ حديث صحيح متفق عليه ، رواه معقل بن يسار رضى الله عنه .

فهل يتنبه كل واحد فى يده أمر من أمور الأمة الى هذا الحديث ويضعه نصب عينيه ويرجو من الله الرفق - والسلامة بالرفق بهذه الأمة ورعاية مصلحتها ؟ .

٤٧ استيراد وتصدير

أحب أن يكون حديثى معكم عن الاستيراد والتصدير ، ولعلكم تعجبون أن يتكلم مثلى عن الاستيراد ولست من رجال الاقتصاد ، ولهذا أبادر فأقول لكم : إن الاستيراد ليس قاصراً فى الحقيقة على السلع المادية ، التى هى من اختصاص رجال المال والاقتصاد ، بل إنه يشمل كذلك الأفكار والآراء . . وهذا هو الذى يمكن لى أن أتحدث معكم فيه ، ولكنى أريد أن أستعين بقاعدة يسير عليها رجال الاقتصاد المحبون لأوطانهم ، الغيارى على مصلحتها وهى قاعدة مسلمة عندهم وعند الجميع . .

هذه القاعدة تقول إنه مادامت توجد عندنا السلعة التى نحتاج إليها ، فلا يصح استيراد مثلها من الخارج ، أما إذا لم تكن موجودة والحاجة ماسة اليها ، فمن المحتم علينا أن نستوردها لسد حاجة الشعب اليها .

وأظن أن هذه القاعدة التى يطبقها على السلع المادية رجال المال والاقتصاد الوطنيون المخلصون ، من الضرورى تطبيقها كذلك على الأفكار والمبادىء التى يعنينا منها الآن ما يتصل بطريق الإصلاح الاجتماعى أو العدالة الاجتماعية .

ولاشك أن العدالة الاجتماعية هى أمل كل فرد وكل شعب ، ومن الضرورى السعى لتحقيقها فى مجتمعنا ، والذين يحبونها أو يسعون لتحقيقها ، لابد أن تحكمهم قاعدة الاستيراد ، فلا يستوردون فكراً أو مبدأ أو طريقة لتحقيق العدالة الإجتماعية ، أو لأى إصلاح ، إلا إذا لم يكن عندنا فى ديننا وأفكارنا وتراثنا ما يمكن أن يحقق هذه العدالة أو هذا الإصلاح .

أما إذا كان لدينا ما يمدنا بالإصلاح الذى نبتغيه ، فمن الطبيعى الا نستورد ، وألا كنا مضيعين لأنفسنا وتراثنا وشخصيتنا .

والحكم الذى نحكم به على رجل الاقتصاد الذى يستورد سلعاً ، وعندنا مثلها ، أو أحسن منها ، هو الحكم الذى نحكم به على الذين يستوردون مذاهب وطرقاً للعدالة الاجتماعية ، أو لأى إصلاح ، وعندنا لذلك ما هو أحسن من هذه المذاهب وهذه الطرق .

وإذا كنا نحب الاكتفاء الذاتى فى زراعتنا وصناعتنا ونسعى اليه ، ونفخر بما نحققه منه ، لأنه مظهر من مظاهر استقلالنا المادى وقوتنا الزراعية والصناعية ، فإن من الألزم لنا ، والضرورى لقوة شخصيتنا ، أن نعمل كذلك على الاكتفاء الذاتى فى مبادئنا ، وتراثنا الفكرى ، ونسعى ما وسعنا الجهد على أن نستمد من هذه المبادىء وهذا التراث قوتنا المعنوية ، وقوانيننا فى النهوض بمجتمعنا ، مادام تراثنا التشريعى والفكرى وماضينا الحضارى قادراً على أن يمدنا فى سعة بما نحتاج إليه فى هذه الناحية . . وإلا كنا كالرجل الذى يكنز الثروة الضخمة فى بيته ويخرج للشارع يستجدى الناس ، ويهدر شخصيته وكرامته . .

لا أستطيع أن أنكر أن بعض الناس عندنا لا تزال عندهم عقدة « الخواجة » ، عقدة استيراد الشىء الأجنبى والنظرة الحسنة دائما اليه . . ولكن يجب علينا أن نتخلص من هذه العقدة ، لا كراهة فى الأجنبى ، ولكن حباً لأنفسنا ، وحرصاً على شخصيتنا وكياننا ، وسط عالم تحرص كل أمة فيه ، أن تصنع لها شخصية وكياناً ، وتزيل الغبار عن ماضيها وتراثها ولو كان هزيلاً ، أو تصطنع لها ماضياً وتراثاً ، لتقول إننى أمة لها جذورها فى التاريخ . . ونحن أمة بحمد الله ـ غنية بماضيها العريق العميق ، بدينها السمح الخالد ، بمبادئها التى صنعت وتصنع المجتمعات الناهضة الفاضلة المتعاونة المتحابة ، فلماذا نتجاهل هذا الماضى ، أو هذه المبادىء ، ونمد أيدينا للسؤال والاستيراد ؟ . . هذا هو الذى لايزال فى بعضنا موضع العجب .

وتقول لى : هذا كلام عام ، ونريد التفصيل ، وأقول لكم : نعم ، أردت قبل التفصيل أن أسوق اليكم هذه القواعد المسلمة لنحتكم اليها ، ثم أسوق

لكم من التفاصيل ما يبين لكم أننا أغنياء بمبادئنا التى تفوق كل مبدأ أو مذهب وفكر قرأتم أو سمعتم عنه ، فى مجال تحقيق العدالة الاجتماعية والنهضة التشريعية لكل إصلاح .

٤٨ على مفترق الطرق

التبدل الاجتماعى الذى يقوم على اساس توفير الحرية والكرامة للإنسان أصبح السمة البارزة للنصف الثانى من هذا القرن . .

فسيطرة رأس المال على مصالح الطبقات الفقيرة فى القرون السابقة على هذا القرن ، لم تعد تجد من النفوس الآن إلا الهجوم العكسى عليها . . . والشعوب التى عانت طويلاً تحت ضغط المال وسيطرته ، أخذت تتخلص من هذا العناء ، وتعمل على تحطيم القيود والسلاسل ، التى رزحت تحتها طويلاً .

ولن تجد إصلاحاً ينادى به فرد أو تطلبه جماعة الآن إلا سار فى هذا الإتجاه ، ونادى بإنصاف الطبقات المحرومة ، وإعطائها مالها من حقوق فردية أو جماعية ، ليجد تجاوباً معه من الشعب .

تلك هى صيحة النصف الثانى من القرن العشرين أو ظاهرته القوية ، التى تساعد على قوتها سهولة اتصال أمم العالم بعضها ببعض وانتقال الأفكار من هنا إلى هناك برغم كل الحواجز والمسافات .

ومن هنا لم يعد مقبولا من الناحية الصحية الاجتماعية أن تسود فى علاقات الأفراد بعضهم ببعض ، أو علاقة الأمة بجهاز الحكم فيها عقلية ما قبل هذا القرن : عقلية سيطرة رأس المال ، واستبداده بمصالح الأفراد ، وهيمنته على جهاز الحكم ، وتوجيهه لتحقيقه مصالحه . .

ولقد كان من الممكن قديما أن ينفرد أصحاب الأموال بالعاملين عندهم ، أو ينفرد الحاكمون بالأمة ، ويفرضوا ما يشاؤون من نظم ، أو ما يرضى نفوسهم

من معاملات ـ ولا يجدون صدى لذلك إلا الرضوخ للأمر الواقع . . فليس فى الإمكان أبدع مما كان ، فالعاملون من الطبقات الفقيرة المظلومة لا صلة لهم بالعالم حولهم ، وليس هناك ما يثيرهم ، أو يدفعهم للتمرد خارج نفوسهم كما هو الحال الآن .

أما الآن فقد كثر الداعون لإنصاف هذه الطبقات ، وقامت حكومات ، وتألفت أحزاب أعلنت أن مبادئها تقوم على القضاء على التفاوت الطبقى الفادح ، وعبأت الإذاعات وغيرها ، ولهذا الهدف ، فلم يعد بعد ذلك من يستطيع أن يمنع الناس فى كل شبر من الأرض من الاستماع لهذه الاذاعات ـ حتى وإن كانوا لا يقرؤون ـ فتغلى نفوسهم مما هم فيه ، وتتعاطف مع الدعوات الجديدة ، وتعيش دائما فى مقارنة بين واقعها الذى تعيشه وبين ما تصوره هذه الدعوات الجديدة من حياة يسود فيها الأنصاف ! . . وتكون السيطرة لهذه الطبقة التى طال حرمانها وشقاؤها ! !

وتحدث الفجوة بين هذه الطبقة ، وبين الذين لا ينصفونها من الأغنياء والحكام .

وربما يؤدى ذلك إلى الإنفصال التام عن مجتمعهم ، والارتماء فى أحضان الدعوة الجديدة ، التى تذكر من مغريات الثورة على مجتمعهم ، ما يسيل له لعابهم ويدفعهم الى المخاطرة فى سبيل ما يأملون . .

والإسلام وإن كان قد عالج من قرون مثل هذه الأمراض الاجتماعية ، ووضع الحلول العملية لها ، ونفذها فى مجتمعاته . . إلا أن المسلمين منذ زمن لم يعد لهم ارتباط عملى بهذه الحلول . .

وبذلك فتحوا المجال للدعوات الحديثة لتتقدم بما تسميه حلولاً عملية لتوفير الحرية والكرامة الإنسانية للفرد والمجتمع عن طريق انصاف الطبقات الفقيرة من تحكم أصحاب رؤوس الأموال فيها واضطهادهم لها . الخ ! ! !

ولذلك أصبحنا فى العالم الإسلامى أمام مشكلة لابد من المسارعة إلى علاجها . .

ومن الحقائق التى لا مناص من الاعتراف بها أن نهضة أية أمة لا يمكن أين تتحقق إلا بتوفير الحرية والكرامة الإنسانية لأفرادها جميعاً ، دون تمييز يقوم على أساس التفاوت الطبقى أو المالى بينهم ، وبذلك أصبح من الضرورى على كل إنسان يعنى بنهضة أمته وتوفير الحياة المستقرة لها ، أن يهتم بهذه الأصول التى لابد منها . . الحرية والمساواة وتقريب الطبقات .

ومن حسن حظ المسلمين أو الشعوب الإسلامية أنهم يجدون فى دينهم وتعاليمه النداء القوى لاتباع هذه الأصول ، ويجدون كذلك فى تاريخهم الأول الذى حظى بالصفوة الممتازة من المسلمين ، تحقيقاً عملياً لهذه الأصول .

وبذلك لم يعد من الصعب عليهم ، ولا على ولاة أمورهم ، أن يستجيبوا لهذه الأسس ، ويبنوا حياتهم الجديدة عليها ، بل إنهم فى هذه الاستجابة نزولاً على حكم الله ، وقضاء لحق مفروض عليهم ، لو صحت نظرتهم ، وصدق انسابهم ، لدينهم ، بل كانوا حريصين على استبقاء بعض ما فى أيديهم .

وأظن أن الأمر قد وضح الآن إلى :

١ ـ أن هذا العصر الذى نعيشه لم يعد يقبل ماكان يقبله السابقون عليه من تحكم أصحاب الأموال فى مصالح الطبقات الفقيرة وإهدار حقوقهم .

٢ ـ ان الأذهان الآن قد تفتحت تماماً لكل دعوة تنادى بإنصاف هؤلاء وتخليصهم من التحكم فيهم واضطهادهم وهم الطبقة الغالبة فى كل أمة .

٣ ـ أن نهضة أية أمة لا يمكن أن تتم إلا بإنصاف هؤلاء وتحويلهم من سلبيين ناقمين ، إلى ايجابيين ، يشاركون مشاركة قلبية فى التقدم بمجتمعهم ، والمحافظة على كيانه .

٤ ـ ان البلاد الإسلامية وهى من البلاد التى تجاهد فى سبيل النهضة فى جميع مجالاتها ، يفرض عليها وضعها ، أن تكون أسرع البلاد ، استجابة لدواعى النهضة وتوفيرها ، باعتبار أن دينها يدعو لذلك ، ومجتمعها السابق قد حققه ، ومن الخير أن تسير فى هذا الطريق المأمون دينا ودنيا . أما الذين ينفرون من المبادىء الإسلامية الإجتماعية ، ويرفضون النزول على حكمها فى تنظيم الحياة

الاجتماعية والعسكرية والاقتصادية ، فهم مخطئون كذلك إن فرضنا حسن نواياهم نحو الاسلام ، مخطئون فى حق دينهم ، وحق أنفسهم .

٥ ـ ولأن الإسلام كل لا يتجزأ ، والأوامر والنواهى التى تنظم تعاليمه كلها صادرة عن مصدر واحد ، لا يقبل الايمان ببعض الكتاب والكفر أو الرفض للبعض الآخر . . ومن منطق هؤلاء لدينهم . فما داموا مسلمين وحريصين على الإسلام ، وغيارى عليه ، فلا يقبل منهم العمل بما يحبون منه ، ورفض العمل بما لا يحبون .

٦ ـ ولأنهم برفضهم الخضوع لتنظيم الإسلام الاجتماعى والاقتصادى مع إعلانهم أنهم حريصون عليه ، يسلمون أعداءهم سلاحاً يطعنونهم به ، ويكونون صورة سيئة للمسلمين والإسلام ، ويعرضون أنفسهم وأمثالهم لمهانة الناس قبل عقاب الله .

٧ ـ ولأنهم بعملهم هذا يفتحون المجال واسعاً للمذاهب المعادية للأديان وبخاصة الإسلام والتى تتبنى شعارات الإصلاح الاجتماعى والإقتصادى وإنصاف الطبقات العاملة والفقيرة والمظلومة .

نعم يفتحون المجال أمام دعاة هذه المذاهب يستغلون اضطراب المجتمع لنشرها . . وفيها من الخطر على الدين وعلى حق الملكية الفردية ، ما يجب أن يعمل كل مسلم حساباً له . .

٨ ـ ومادام التغيير الاجتماعى أمراً لا مفر منه لنهضة الأمة واستقرار أمورها فإن التفكير السليم والنضج العقلى ، يحتمان على المسلم أن يختار طريق الإسلام منهجا لهذا التغيير ، بدلا من أن يفرض عليه من الخارج ، ويجرفه ولا يترك بقايا فى طريقه .

أليس كذلك ؟

٤٩ هل نحن بحاجة

فى لقاءاتى فى مصر وفى خارج مصر كنت اجد سؤالا واحدا من الشباب هنا وهناك يقولون فيه : هل يصلح ديننا أساساً لقيام حضارة ونهضة فى الأمم الاسلامية ، أو أننا فى حاجة لاستيراد أساس فكرى ، لنصنع على أساسه حضارة ، ونقيم نهضة ونلحق بالأمم الناهضة ؟

وأقول للشباب إن هذا السؤال المشترك هنا وهناك ، مرجعه فى الحقيقة إلى عدم دراستكم لما يدعو إليه الإسلام أتباعه من نشاط ونهضة فى جميع المجالات : « ومن جهل شيئا عاداه » .

كما يرجع الى عدم ألمامهم بحضارة المسلمين الأول ونهضتهم وتركيز أذهانهم على الرقاد والتأخر الذى ساد الأمة الإسلامية زمنا طويلا ، بينما تقدم غيرها ونهض ، فأتاح هذا وذاك لبعض المغرضين أن يطرح هذا السؤال أمام الشباب المحب للنهوض تشكيكاً لهم فى دينهم ، وإغراء لهم بإهماله واستيراد أسباب النهوض من دعوات ومذاهب أخرى غيره .

ولا أشك فى إخلاص شبابنا المسلم لدينه ، ورغبته فى النهوض بوطنه على أساسه ، وأنه سيكون فى غاية الاطمئنان والفرحة متى عرف أن دينه يكفل له النهوض كما يريد .

ولذلك أبادر فأقول لهؤلاء الشباب المخصلين اطمئنوا فإن دينكم وهو دين العزة ، دين الحياة المتفتحة الراقية ، الذى أكمله الله ورضيه لعباده : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ . .

الدين الذى جعل الله اتباعه خير أمة أخرجت للناس ، لا يمكن أن يكون فيه ما يحول بين أتباعه ، وبين النهوض والقوة فى كل مجالات الحياة المادية والخلقية ، حتى تتحقق فيهم كلمة الله وحكمه ، وحتى لا يكون على ظهر الأرض من هو أقوى وأقوم منهم حضارة وإنتاجاً وسلاحاً وخلقاً ، حتى يصدق حكم الله :

﴿ وَلله العِزَّة وَلِرسُولِهِ ولِلْمُؤْمِنين ﴾ [١] .
﴿ كُنْتُمْ خَيْر أُمَّة أُخْرِجَتْ لِلنَّاس ﴾ [٢] .

وتسألنى : وأين هى العزة التى كتبها الله لنا ، وهذه حالنا ؟ وهل أمتنا الآن هى خير أمة وفيها ما فيها ؟ . .

وأقول لك لقد وضع الله لنا مبادىء العزة والخيرية ، وأمرنا باتباعها واتخاذها برنامجا ضرورياً فى حياتنا ، لنصل إلى العزة والنصر والخيرية ، فحين ننفذ مبادئه ونحقق دعوته تكون لنا العزة والخيرية ، وحين نهمل المبادىء يتحقق فينا عكس هذه العزة وهذه الخيرية ، أعنى الذلة والتأخر والتخلف ، وهذا أمر طبيعى فى كل شىء له أسباب .

والتخلف الذى أصاب الأمة الإسلامية لم يكن من صنع دينها ، بل كان نتيجة لإهمال المبادىء التى جاء بها الدين ، من هنا فلا يجوز مطلقاً أن نلصق تأخرنا وضعفنا بديننا والأولى بنا أن نعترف بإهمالنا وخطئنا ، ونراجع موقفنا ، ونعقد العزم على تصحيح اخطائنا واتخاذ المبادىء الإسلامية طريقاً لنهضتنا ، والله حينئذ كفيل بتحقيق وعده لنا :

﴿ وكانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴾ [٣] .

لقد تأخرنا علمياً عن غيرنا من الأمم الناهضة ، والذنب فى هذا هو ذنبنا نحن لا ذنب ديننا فديننا فى روحه ونصوصه وهدفه قائم على العلم ، واضع له وللعلماء فى المكانة الأولى أمر به فى كثير من نصوصه ، لا فرق بين علم وعلم ، مادام هذا العلم يزيد المؤمن ايمانا بربه ويزيده مكانة وقوة ورغداً فى حياته ،

١ ـ المنافقون آية : ٨ .
٢ ـ آل عمران آية : ١١٠ .
٣ ـ الروم آية : ٤٧ .

ولا قيد على العلم فى نظر الإسلام فى أى مجال أو فى أى فرع من فروعه المتنوعة ، إلا قيداً يحول بينه وبين التدمير والتخريب ، ويجعله لخير المسلم والإنسانية كلها .

وعلى هذا الأساس انطلق المسلمون الأول وفتحوا عقولهم لكل علم ، لم يقتصروا على علوم الدين واللغة العربية ، بل خاضوا بحور المعرفة ، وسبروا أغوارها ونبغوا فيها ، وأضاءوا العالم بمعارفهم وعلومهم فى الطب والكيمياء ، والهندسة والرياضيات ، والفلك والفلسفة والاجتماع وغير ذلك من العلوم ، واخترعوا نظريات وعناصر جديدة فى تلك العلوم مما يعترف به كل منصف من علماء الغرب ، ويمكن لأى شاب أن يعرف المزيد منه من الكتب التى ألفت فى فضل العرب على نهضة الغرب الحديثة ، وأذكركم شهادة للعالم الفرنسى (سيديو) يقول فيها : « لقد كان المسلمون منفردين بالعلم فى تلك القرون المظلمة ، فانتشر فى كل مكان وطئته أقدامهم ، وكانوا هم السبب فى خروج أوروبا من الظمات الى النور » .

كان ذلك يوم أن كان المسلمون يعملون فى حياتهم بوحى من دينهم ولكن حين أهملوا دينهم تأخروا ، فهل ترون أيها الشباب أننا بحاجة إلى حافز للنهضة وأساس لها نستورده من غير ديننا ؟ فهيا إلى منابع العزة من دينكم تحرسكم رعاية الله . . .

٥٠ لماذا ؟ وفى الاسلام الدواء ؟

كنت فى زيارة للدكتور فى منزله الذى يقوم على ربوة عالية من ربى لبنان بين الأشجار التى تتمايل حوله ، والتى انبثقت من بين الأحجار تمثل انتصاراً عليها : انتصار الإنسان الذى يعمر فى كل مكان ، وينثر حوله الخضرة والجمال . . .

وبين أولاده وجمع من الشباب المتفتح انساب بيننا الحديث إلى حالتنا التى تشغل كل إنسان منا ، وتفتت كبده ، وإلى الحالة الإجتماعية فى بلادنا التى يرى فيها أقوى العوامل لما صرنا إليه . .

وقال : إن موقف الأغنياء وأصحاب السلطان من الطبقات الفقيرة ، وتبذيرهم المال هنا وهناك فى غير ما يرفع مستوى الشعوب ، لم يعد مما يناسب هذا العصر الذى نعيش فيه ، وقد تفتحت العيون والأذهان إلى ما يجرى فى العالم من تيارات ، وأهمها التيار الشيوعى ، الذى يرى فى كل وضع فاسد فى أى مجتمع من المجتمعات ، أرضاً خصبة ، ينثر فيها دعوته ، التى تتخذ من شعار انصاف الطبقات المهضومة وسيلة إلى قلوب المحرومين والمغلوبين على أمرهم فى كل مكان . .

قلت له : هذا صحيح . . والذين لا يزالون ينصرفون الآن بأسلوب الماضى البعيد والقريب ، مع هذه الطبقات المحرومة ، سواء أكانوا من أصحاب الأموال أو السلطان ، دون رعاية جدية لها ، إنما يساعدون دعاة الشيوعية ، ويمهدون الأرض لهم ، إذ لم يعد من الممكن حجب التيارات التى تسود العالم الآن عن الشعوب فى عصر « الترانزستور » .

ومن الواقع الذى لا يمكن إنكاره ، ولا الغض من آثاره ، أن الدعوة الشيوعية التى ترفع شعار إنصاف هذه الطبقات ، والتى أصبحت لها قوة كبيرة تساندها ، كان لها أثر كبير فى التبدل الاجتماعى لدى شعوب العالم ، إذ قوت فيها روح التذمر مما تراه وتعانيه ، وفتحت أمامها آفاقا للتطلع إلى مجتمع أفضل من مجتمعها الذى تعيش فيها ، وإلى حياة خالية من الاستغلال الطبقى ، ومن إهمال المسؤولين لشؤون شعوبهم . .

كل هذا صحيح . . ولكن ماذا تراه من علاج ؟

قال فى ثورة وانفعال وبسرعة : العلاج فى رأيى هو أن نسير مع الشيوعية التى حولت روسيا القيصرية الضعيفة الممزقة الى دولة تعتبر واحدة من أقوى دولتين فى العالم . .

والتأخر الذى نعيش فى ساحته الواسعة ، والفساد الاجتماعى الذى يخيم على كثير من مجتمعاتنا ، والتواكل الذى يقضى على قوانا . . كل ذلك لا يمكن التخلص منه الا بالشيوعية !! .

وكانت اجابته هذه مفاجأة لى ، فهو أستاذ مسلم ، جمع بين الثقافة العربية الدينية والثقافة الفرنسية ، ويحتل مكاناً مرموقاً فى النشاط الأدبى وله تأثيره فى شباب الجامعة وهو يلقى محاضراته فى إحدى كلياتها ، وفى غيرهم ممن يسمعونه ويقرأون له فى لبنان ، وحولنا فى المجلس شباب ورجال مثقفون ينصتون له ، وقد يتأثرون به هم الآخرون . . وقد فزعت حقاً لهذه الإجابة السريعة . وخيل إلى أنها صادرة عن فكر مختمر عنده من قبل . . وأنه يتحدث هكذا فى كل مجالاته . .

فقلت له : ودينك يادكتور أى متحف قد اخترته له من الآن؟!!!

قا : لا نحن مسلمون ، وسنظل على إسلامنا ، والإسلام فى قلوبنا ، والشيوعية لا تتدخل فى الأديان ، بل تترك كل أنسان وما يدين به !!!!!

قلت له : نعم ؟ إنك إذن لم تقرأ عن الشيوعية شيئاً ، ويؤسفنى أن يقول مثلك هذا الكلام ، ويرسله إرسالاً ، دون أن يقرأ ما قاله ماركس ، وانجلز

مؤسسا الشيوعية ، ومن جاء بعدهما عن الدين ، وما دونوه أو نقل عنهم من آراء صريحة قاطعة فى عدم اعترافهم بوجود الله ، وفى وجوب محاربة الأديان باعتبارها أفيون الشعوب المخدرة لهم عن العمل والنهوض ، وأخذ الحقوق ، وكان آخر ما أطلعت عليه فى هذه الناحية خبراً نشرته جريدة الأخبار القاهرية فى ١٩٦٤/٣/٣ تقول فيه : اعترفت صحيفة ـ بارفدا الناطقة بلسان الحزب الشيوعى الرسمى ، بأن قسما من الشعب الروسى لا يزال متمسكا بالدين ، وطالبت بضرورة زيادة الدعاية اللازمة لوقف الإيمان بالله » .

قال : لكنهم يتركون الناس يصلون فى المساجد والكنائس !

قلت له : تلك هى مبادىء الشيوعية فى حربها للأديان . . أما أنهم يتركون الناس يصلون فيما بقى لهم من مساجد أو كنائس فتلك خطة مرحلية كما يسمونها . . ولقد عملوا منذ تسلموا زمام الحكم على أن يربوا الشباب على أن الحياة مادة . . وأنها موجودة بالتطور ، ولا خالق لها . . فإذا كان قد مضى عليهم وهم يمارسون هذه التربية مدة ، وتخرج على أساسها الأجيال الموجودة الآن حتى سن الستين ، فلا بأس عليهم حينئذ من أن تترك العجائز الذين يسيرون نحو الانقراض من الذهاب للمساجد ، وهم منعزلون انعزالاً تاماً عن تيار الحياة حولهم . . ولا يمكن أن ينتسب للحزب الشيوعى من تحوم حوله شبهة الميل للدين . ولا يمكن أن ينتسب لوظيفة فى الدولة من لا يدعمه الحزب ويرضى عنه . فأى مجال للدين والمتدينين ـ إذن ـ مع هذا كله ؟!

إن كل ما تراه من مظاهر بعد ذلك إنما هى خطط مرحلية عرفوا بانتهاجها ، ومظاهر لا غير ، اضطروا اليها لظروف اعلامية .

ثم قلت له : وما الضرورة التى تلجئك الى الأخذ بالشيوعية ؟

قال : حتى ننهض بسرعة كما نهضت الدول التى أخذت بها ، وننقضى على الاستغلال والبؤس اللذين يخيمان على مجتمعاتنا .

قلت : ألم تنهض فى العالم دول غير الدول الشيوعية ؟ وهل تعتقد أن الحكم الشيوعى قضى على البؤس ؟ وهل تعينت الشيوعية طريقا للنهوض والقضاء على الاستغلال والتخلف ؟ لو لم يكن أمامنا طريق غيرها ما كان لنا حرية الاختيار ،

أما وهناك طريق غيرها يضمن لنا النهوض ، والقضاء التخلف الذى نعانى منه فى مجتمعنا ، فلابد أن نبحث هذا الطريق الآخر ، ربما نجد فيه غايتنا ، دون أن نضحى بشىء من عقيدتنا وتعاليمنا وماضينا وتراثنا .

قال لى وهو يهز رأسه : وما هذا الطريق ؟

قلت له : ألست معى أولاً فى أن أى تشريع أو تقنين يكون نابعاً من ضمير الأمة وروحها يكون أدعى للقبول والنجاح ؟

قال : بلى . . . .

قلت : ألست معى كذلك فى أن من الضرورى أن نسلك الطريق الأكثر ضمانا لتحقيق غايتنا فى النهوض وبسرعة وبدون عقبات ؟

قال : بلى . .

قلت : تعال معى إذن إلى طريق الإسلام ، وقد درسته دراسة موسعة ، فهل ترى فيه حسب هذه الدراسة ما يحول بين اتباعه وبين النهوض والتقدم فى كل مجال من مجالات الحياة ؟

قال : لا . . بل أنه يدعو إلى ذلك وبقوة . .

قلت حسنا ، فهل تراه يقر استغلال غنى لفقير ، أو حاكم لمحكوم ، أو يقف عقبة فى سبيل تحقيق التكافل الإجتماعى وإنصاف الطبقات الفقيرة وإعطائها حقوقها المشروعة ؟

هل تعتقد أن الإسلام يقر هذا التخلف الذى نشكو منه ، أو يقر بعثرة المال على الشهوات والملذات والكماليات مع ترك كثير من أبناء الشعب جياعا عراة مرضى ؟

قال . . أعرف أن الإسلام لا يقر هذا بحال من الأحوال ؟

قلت : وتعرف أيضا حديث رسول الله ﷺ الذى يقول :

« ليس مؤمنا من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم » .

وتعرف أحاديث كثيرة مماثلة لهذا الحديث . . ولها يمكن للحاكم أن يعتمد عليها ـ لو لم يستجب القادرون لها ـ لكى يأخذ من أموالهم ما يسد حاجة

المحتاجين . . وتعرف أيضا ما قاله بعض الفقهاء : من أن الزكاة إذا لم تف بحاجة البلد ، كان للحاكم أن يأخذ فوقها من أموال الأغنياء ما بقى بها .

قال : أعرف هذا ، ولكن أين نجد الرجل الذى يقوم بما يوجبه الإسلام ويفرضه على المسلمين ؟ ونحن نرى الجميع يتكلمون عن الإسلام ، ولكنهم لا يستجيبون لهذه النواحى الإجتماعية ولا يعلمون على حسب ما يأمرهم به دينهم ؟!

قلت له : ومن أين لك بالرجل الذى يفرض الشيوعية ، ويتخذها طريقاً للإصلاح ؟ وإذا كانت المسألة مسألة فرض وإلزام ، ففرض التعاليم الإسلامية على الناس أهون وأكثر قبولاً لديهم من الأخرى لأنها تتفق مع دينهم ؟ أما الأخرى فأمامها أهوال وتضحيات لا حاجة لنا بها . والحكمة تقتضى سلوك الطريق البعيد عن التضحيات والشرور . .

قال : وكيف ؟

قلت له : أن الذى يحاول فرض الشيوعية على المسلمين سيصطدم بعقيدتهم الراسخة فى قلوبهم ، وبتقاليدهم الإسلامية التى ظلت سائدة بينهم منذ جاء الإسلام ، وسيضطر - لو أراد المضى فى سبيله - إلى خوض حرب عنيفة مع الشعب ونفسيته يذهب ضحيتها الكثير من النفوس والمصالح والاستقرار . والنجاح بعد ذلك غير مضمون .

أما الذى يفرض ما يمكن أن نسميه بالعدالة الإجتماعية أو التكافل الإجتماعى فى الإسلام ، فإنه سيفرضه على المسلمين باسم الله ورسوله ، وباسم دينهم الذى ارتضاه الله لهم ، فيجدون أن كل تشريع فى هذه الناحية صادر عن دينهم ، لا عن واحد من الناس فيكونون أقرب إلى الاستجابة والطاعة والتسليم ، ولا يتجرأ أحدا على الجهر بمخالفة دينه ، وعصيان أوامره ، فوق عصيان أمر الحاكم . . وكل إنسان يقف فى سبيل ذلك لا يستطيع أن يرتدى ثوب الدفاع عن دينه أو أمته ، بل إنه يكون فى نظرها خارجاً عليها وعلى دينه .

وبذلك ينفذ الحاكم إصلاحه بقليل من الجهد والعزم ، ويضمن استجابة

الناس له إن لم يكن طمعاً فى رضا الله ، فطمعاً فى السلامة من قالة السوء ، وغضب السلطة عليه .

هذا هو الفرق عندى بين الحالتين . ولاشك أن محبى الإصلاح يحرصون على تحقيق إصلاحهم دون إراقة دماء ، أو الوقوف أمام عقبات ، أو إحداث هزات لا تؤمن عواقبها . .

قال : هذا كلام منطقى لا غبار عليه . . وأنا معك فى هذا الذى تقوله . . ولكن من أين لنا بالرجل الذى يحتضن التعاليم الإسلامية ، ولا سيما المالية والإجتماعية اللتين تتغنى بهما الشيوعية ، وتدخل بهما على قلوب الغافلين ، فيهز بها مجتمعنا الراكد ويصلح على أساسها حالنا المتخلف الفاسد ، من غير تمسك بالقشور من الإسلام ؟ أين هذا الرجل ؟

قلت : الحمد لله . . صرت معى إذن ورجعت إلى سؤالك الأول عمن يقوم بهذا الإصلاح . . فادع الله معى أن يقيض للمسلمين من يحتضن هذه التعاليم فعلاً لا قولاً ، ويقيم العدالة الإجتماعية بين المسلمين ، ويرعى أمر الله فى مصالح شعبه ، ويحتكم الى تعاليمه فى نفسه ، فيقضى على متفجرات السخط فى مجتمعه ويحول بين المسلمين وبين ما لا يحبه ولا يحبونه . .

قال إننى معك أدعو الله أن يفيق المسمون إلى ما حولهم من تيارات ، ويتنبه من بيدهم الأمر إلى أن مرفأ الإسلام هو آمن مرفأ نلجأ إليه . وأن من الأولى أن نعتصم بديننا ليحمينا ويحمى مجتمعاتنا من الويلات التى نشاهد بعض المجتمعات تعانى شدائدها . . حتى نأمن الهزات العنيفة التى لا نأمن فيها على ديننا ولا على أموالنا . .

٥١ كفالة شعبية

مما يميز به الإسلام على غيره من المذاهب الاشتراكية الأوروبية أنه أقام مجتمعه المتكافل المتعاون على أسس نابعة من هديه الروحي متصلة أوثق الاتصال بعقيدة المسلم وعبادته التي يتقرب بها إلى مولاه .. وأهم هذه الأسس هي الأخوة والمساواة .. .

أخوة عامة بين المسلم والناس جميعاً قررها القرآن حين قال : ﴿ يَا أَيُّها النَّاس إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ من ذَكَرٍ وأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُم شُعُوبا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا ﴾ [١] .

فهم جميعاً من أصل واحد جعلهم الله منه أسراً وقبائل وشعوباً ليتعارفوا ويتعاونوا . .

وأخوة خاصة بين المسلم وأخيه المسلم المشترك معه في العقيدة الواحدة والاتجاه الواحد وهذه قررها القرآن حين قال : ﴿ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُون إِخْوَةٌ ﴾ .

ومن الأخوة العامة والخاصة انبعث مبدأ المساواة في حق الحياة والتمتع بما فيها من أرزاق حسب قدرة كل إنسان وكفايته ، وعلى هذين الأساسين : الأخوة والمساواة : قامت تعاليم الإسلام وتوجيهاته ولاسيما ما يتعلق فيها بتنظيم حياة الناس ، وحفظ حقوقهم ، وتوفير أسباب القوة والأمن لهم في مجتمعاتهم . .

فالتعاون فيما بينهم ضروري ، لأنه من مقتضيات الأخوة ، ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته .

---

١ ـ الحجرات من الآية : ١٣ .

والتناصح بينهم أمر تستلزمه هذه الأخوة حتى لا يترك المسلم أخاه تتعثر فى طريق الشر خطاه ولا ينقذه ، والدين النصيحة . .

والمعاملة بالحسنى من مستلزمات الأخوة كذلك لأن المسلم أخو المسلم ، ولا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه ويعامله بمثل ما يحب أن يعامل به ، فلا يظلمه ولا يخذله ولا يُسلمه ، ولا يهجره ، ولا يغشه أو يخدعه ، فإن من غش المسلمين فليس منهم . .

وهكذا نجد كل صلات المسلم بأخيه قائمة على الشعور بالأخوة التى أوصى الله بها وقررها وباركها ، فإذا تخلى المسلم عن هذه الأخوة وطعنها ، تخلى الله عنه وبرأ رسوله منه . .

فأيما رجل مات ضياعاً بين أغنياء فقد برئت منهم ذمة الله ورسوله . . لأنهم لم يقدروا معنى الأخوة ، حين تركوا أخاهم يسقط فريسة لجوعه وحاجته ، ولم يعاونوه على الحياة . .

ومن أجل هذا يقول الرسول صلوات الله وسلامه عليه :

« ما آمن بى من بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم » .

لأن مقتضى الايمان بالرسول ﷺ الشعور القوى بالأخوة التى تربطه بجاره . . فإذا تركه جائعا ، أو عرياناً ، أو فى حاجة إلى معونة ، كان فى إيمانه بالرسول لم يبلغ بعد الدرجة التى تشعره بمعنى الأخوة ومستلزماتها . .

ويقول : **« المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضا »** فالسملم قوة لأخيه إذا ضعف ، وزاد له إذا احتاج لا بتركه يسقط ، أو يضعف فى قافلة الحياة ، بل يأخذ بيده ويقويه ، حتى يكون كل منهما لبنة قوية فى بناء قوى ، فإذا تركه فى ضعفه أو فقره ، يكون قد فقد معنى الأخوة فى نفسه ، ولم يتكون البناء القوى ، فتتناثر اللبنات ، قويها وضعيفها تحت الأقدام .

وهكذا يربط الإسلام بين تصرفات المسلم ، وبين إيمانه ويحرص على أن تكون العلاقات بين أفراده نابعة من دين الإنسان وصلته بربه ، حتى يقدم المسلم على عمله وهو شاعر بأن قوة الله تسنده ورضاءه ينتظره . .

فهوى حين أوصى المسلم بالتنازل عن جزء من ماله لإخوانه المحتاجين ـ والمال عزيز عليه ـ حرص على أن يكون ذلك صادراً عن اقتناع وإخلاص ، وحب لاخوانه يفوق حبه لماله ، فيتنازل عنه قرير العين ، مطمئن النفس ، واثقاً أن الله سيعوضه عنه بركة الدنيا ، وثواباً جزيلاً فى الآخرة ، ويتقبل المحتاج هذا المال فى غير غضاضة ، معتقداً أنه صادر عن شعور بمعنى الأخوة الكريمة فيزدادا حبا له وارتباطاً به ، ويتم بذلك بناء المجتمع المتكافل المتحاب المتآخى الذى لا مكان فيه للحقد أو التشفى .

ولقد بلغ من حرص الإسلام على إيجاد هذا المعنى الكريم فى الإنفاق أن يقرر رسول الله ﷺ مبدءا اجتماعياً رائعاً وعظيماً فى حديث له صحيح يقول فيه : **« ما الذى يعطى عن سعة بأعظم أجراً من الذى يقبل إذا كان محتاجاً »** ، وذلك لأن الآخذ هيأ الفرصة للمعطى ، لكى يكتسب الثواب ، ويتقرب لله بإعطائه ، فكلاهما له فضل على الآخر هذا بماله ، وذاك بتقبله له .

ولحرص الإسلام كذلك على حراسة معنى الإنفاق وصايته من أن يتبعه من أو أذى ، أو ينتج عنه إذلال وحقد ، نجده يجعل للسرية فى إخراج المال ومعاونة المحتاج فضلا آخر ، فوق فضل البذل ، فيقول الله تعالى : **﴿ إن تُبْدُوا الصَّدقَات فَنِعِمَّا هِى وَإِنْ تُخْفُوها وتؤْتوها الفقَرَاء فَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ ﴾** .

ويحدثنا الرسول عن أناس من المسلمين يظلهم الله فى ظله يوم لا ظل إلا ظله فيذكر منهم رجلا **« تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شماله ما فعلت يمينه »** .

ذلك لأن العلنية فى الإنفاق كثيراً ما تفتح الباب للزهو والرياء والمن ، ويتبعها جرح لشعور المحتاج ، وإذلال لنفسيته قد يولد فيه الشعور بالحقد ! ويضيع بذلك معنى كريم من معانى البذل والتعاون .

ولذلك نراه يقطع على الناس هذه الروح الخبيثة روح المن والزهو بقوله تعالى : **﴿ قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرةٌ خَيْرٌ من صَدَقة يتْبَعُهَا أذى ﴾** ويقول بعدها : **﴿ أيا أيُّها الَّذين آمَنُوا لا تُبْطِلُوا صدقاتِكم بِالمَنِّ والأذَى ﴾** .

لذلك كانت السرية فى الإعطاء أفضل وأزكى ولا سيما فى وقت كثر فيه المتفاخرون بالبذل ، الحريصون على الدعاية والإعلان .

ومن الطرق المعروفة لضمان السرية والبعد عن المن والأذى وبالتالى لضمان الكثير من الثواب ، ومن المحافظة على شعور المحتاج إعطاء الزكاة أو التبرعات لجمعيات منظمة ، تتولى هى بمعرفتها ، توزيع المتجمع لديها ، على المستحقين المعروفين ، بعد خبرة ودراسة لأحوالهم ، فتضع كل قرش فى موضعه ، وهى بالحصيلة المتجمعة ، تستطيع أن تقوم بمساعدات فعالة سريعة ، للذين تنزل بهم كوارث الغرق والحريق ، وتستطيع أن تنشىء المصانع ، ليشتغل فيها العاطلون ، وتسد فراغاً فى عالم الإنتاج ، وتستطيع أن تقيم المؤسسات التى تضم العجزة ، وتنظف الشوارع من مناظرهم المؤذية وتستطيع أن تعين النابغين من الفقراء ، حتى يتموا دراستهم .

هكذا تكون ميزة تجميع الصدقات والتبرعات .

تستطيع بقروش قليلة حين تتجمع أن تقوم بمساعدات كبيرة فى الوقت الذى لا يجد فيه الأخذ غضاضة على نفسه مِنْ مَنّ أو إيذاء من فرد من الأفراد .

ومجتمعنا حقيقة فى مسيس الحاجة ـ ولا سيما الآن ـ الى تنظيم جمع الزكاة والتبرعات الخيرية بواسطة جمعيات منظمة ، موثوق بها ، تقوم بما لا تستطيع الدولة أن تقوم به ، وتتعرف مواطن الحاجة ، وتنفق فيها بدلا من هذه الإحسانات الفردية التى كثيراً ما تخرج من يدنا إلى أيدى مدعى العجز والفقر ، ممن يملأون الشوارع والمركبات ، ويسيئون إلى مجتمعنا وكرامتنا .

ان المسلمين فى حاجة الآن أكثر من أى وقت مضى لتنظيم أنفسهم فى جمعيات تنبث فى كل حى ، لترعى شؤون المحتاجين منهم ، وتنهض بمستواهم ، لا من حصيلة الزكاة فحسب ، بل بما يلتزم به كل مسلم شهرياً بدفعه لهذه الجمعية ، لتؤدى الواجب نيابة عنهم لإخوانه .

٥٢ كفالة فى ظل الدولة

قال عليه الصلاة والسلام :

« أنا أولى بالمؤمنين من أنفسهم فمن توفى من المؤمنين فترك دينا فعلى قضاؤه ، ومن ترك مالاً فهو لورثته » [1] .

* * *

إذا كان الاسلام قد دعا إلى العمل ، ورغب فى الكسب الشريف ، وأحاط العاملين الكادحين بعطفه وتشجيعه وكافأته ، فإنه مع ذلك لم ينس أولئك الذين يصابون بسوء الحظ فى الحياة أو الذين يقعد بهم العجز عن الكسب الشريف ، بل جعل الأمة والدولة مسؤولين عن ضمان العيش الكريم لهم ، باعتبارهم أفراداً ولَبْنات فى جسم الأمة وبنيانها .

والأمة جسم واحد ، إذا اشتكى بعضه اشتكى كله ، وبنيان مرصوص يشد بعضه بعضاً ، ويعيبه ويعرضه للإنهيار ، أن تضعف بعض لبناته .

ومن مقتضيات الإيمان وكماله أن يحب المؤمن لأخيه ما يحبه لنفسه ، فلا يتحقق الإيمان فيه إذا بات شبعان وجاره جائع إلى جانبه وهو يعلم ، وأيما أهل عرصة « أى حى أو قرية » أصبح فيهم امرؤ جائعاً فقد برئت منهم ذمة الله تبارك وتعالى .

والإمام الحاكم مع هذا كله راع ومسؤول عن رعيته ، يحمى ضعيفهم ،

---

١ ـ أخرجه أحمد فى مسنده والبخارى ، ومسلم ، والنسائى ، والترمذى وابن ماجه عن أبى هريرة رضى الله عنه .

ويساعد فقيرهم . ويوفر المعيشة الكريمة لمن لم ينهض المجتمع بتوفيرها له .

ولقد كان من الطبيعي - وهذه نظرة الإسلام الاجتماعية للفرد والجماعة ألا يترك العاجزين المتخلفين ، ولا سيئى الحظ المعدمين ، يقعد بهم العجز أو الفقر عن متابعة الركب الزاحف ، أو يمثلون فى جسم الأمة أمراضاً تضعفه ، ولذلك وجدناه يوصى - فى شدة - بالأخذ بيدهم وتوفير الحياة الكريمة لهم ، ويجعل ذلك منوطاً بإيمان الفرد والجماعة ومقياساً لصلاح الحاكم .

يقوم الأفراد بواجبهم ، كما يقوم الحاكم أو الدولة بواجبهما.

فعل الإسلام ذلك منذ نحو أربعة عشر قرناً ، ولم يعرفه الغرب إلا فى مطلع هذا القرن تقريبا . . ومع ذلك فإن الإسلام يمتاز فى تشريعه على ما وصل الغرب اله أخيراً بأمور :

* فالإسلام قد أقام هذا النظام ابتداء ، ولم يفعله تحت ضغط اضرابات ومشاكل كما فعل الغرب مضطراً .
* والإسلام قد ربط هذا النظام بإيمان الفرد والجماعة والحاكم حيث جعله عملاً ينبع من نفس المسلم ، ومن مقتضيات إيمانه وصلته بالله وهذا يضمن له سلامة التنفيذ ، وقطع طرق التحايل - الذى كثيراً ما يحصل - بالنسبة للقوانين العادية الوضعية .
* والإسلام قد شرع هذا النظام كاملاً محبوكاً من جميع نواحيه ، لأنه لم يفعله تحت ضغط فئة من الفئات ، ومشكلة من المشكلات ، التى تجد زمناً بعد زمن ، كما حدث فى الغرب .

فإن أول قانون صدر خاصاً بذلك كان فى ألمانيا سنة ١٨٨٣ م وكان ناقصاً مبتوراً ، ثم أخذ يكمل شيئاً فشيئاً ، لمجابهة ما يجد من مشاكل حتى استقر سنة ١٩٣٥ م . وأخذت به كثير من دول الغرب . .

وكان الغرض منه إصلاح المفاسد التى كانت تعوق نظام المجتمع ، ومقاومة العوامل التى تقلق الأفراد فى حياتهم ، لا سيما فى حالتى البطالة والشيخوخة .

ومعنى هذا أن الغرب لم يعرف الضمان الاجتماعى إلا بعد أن أقره الإسلام

وطبقه بنحو أربعة عشر قرناً .

نعم عرف الإسلام مبدأ الضمان الاجتماعى ضد الشيخوخة وطبقه ، وضد المرض والعجز وطبقه ، وضد الفقر والعوز وطبقه ، وضد النكبات العامة وطبقه ، منذ تكون المجتمع الإسلامى الأول ، وسعدت فى ظله الدولة الإسلامية عندما كان الغرب يتيه فى بحور الظلم والظلمات .

وتلك أمثلة واقعية من تاريخ الإسلام :

* رأى عمر رضى الله عنه يهودياً يسأل الناس فى المدينة فاستفسر منه عن سبب ما يفعله ، فعلم منه أن الذى الجأه الى ذلك إنما هو كبر السن ، فقال له : ما أنصفناك يارجل أن أكلنا شبيبتك ثم نتركك عند الكبر ، وأمر له ولأمثاله بمرتب من بيت المال .

* ومر عمر وهو فى طريقه إلى الشام براهب نصرانى مريض فى صومعته ، فأمر له بمرتب من بيت المال .

هذا وذاك هو الضمان الإجتماعى ضد المرض وضد الشيخوخة لكل من يستظل برعاية الدولة الإسلامية ولو لم يكن مسلماً .

قبل ذلك جاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال له : تحملت حمالة (أى استدنت ديناً) وطلب من رسول الله ﷺ أن يساعده على سداد دينه فقال له : أقم حتى تأتينا الصدقة ، فنأمر لك بها ، ثم قال الرسول يعلم الرجل ويرشده ويقرر المبادىء العامة لهذا النظام : يا قبيصة إن المسألة (أى طلب مال من بيت المال) لا تحل إلا لأحد ثلاثة : رجل تحمل حمالة فحلت له المسألة حتى يصيبها ثم يمسك ، ورجل أصابته جائحة ماله فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش ، ورجل أصابته فاقة حتى يقول ثلاثة من ذوى الحجى من قومه ، لقد أصابت فلانا فاقة فحلت له المسألة حتى يصيب قواماً من عيش . . . الحديث رواه مسلم . .

فهذا الحديث يحمل مع مبدأى الضمان ضد الفقر ، وضد النكبات العامة التى تصيب الرجل فى زراعته أو تجارته أو بيته ، يحمل مبدأ ثالثاً مهما لايزال للآن

وحيدا فى عالم التشريعات وتنقطع أعناق المشرعين الشرقيين والغربيين ، وأصحاب المذاهب الاشتراكية ولا أظن أنهم يصلون إليه .

ذلك هو مبدأ ضمان الدولة للغارمين الذين استدانوا للإنفاق على أسرهم ، أو للإصلاح بين الناس ، أو لمشروعات إصلاحية عامة ثم عجزوا عن سداد ديونهم ، فهؤلاء الذين لايزالون يتركون للحجز عليهم ، وانتزاع أملاكهم ، وتشريد عيالهم هؤلاء وجدوا ويجدون فى الإسلام عطفاً وعوناً وإنقاذاً . . لأنه قرر لهم حقهم بنص القرآن ، حيث جعل الغارمين ممن يستحقون فى بيت المال [1] ، وقرر لهم الرسول هذا الحق ، وطبقه ، وأصبحت الدولة بذلك ملزمة بمساعداتهم ، حتى يستردوا أنفاسهم ويستطيعوا أن يستأنفوا حياة الكسب من جديد . . . . ولا يذهبوا ضحية لشهامتهم ومروءتهم .

إن الإسلام حيث اعتبر الأمة أمة واحدة وجسماً واحداً جعلهم متكافلين متضامنين من كل ناحية من نواحى الحياة ، وجعل كل مسلم عوناً لأخيه لا يظلمه ولايسلمه ولا يخذله ، وأعلن أن من كان فى حاجة أخيه كان الله فى حاجته والله فى عون العبد مادام العبد فى عون أخيه ، ويد الله مع الجماعة وأعلن الرسول ﷺ باسم الحاكم أنه كفيل من لا كفيل له وان من مات بدين فهو أحق بقضائه ومن ترك مالاً فهو لورثته .

وإذا كان القرن العشرون قد امتاز بشيوع الدعوة الى تحقيق العدالة الإجتماعية كأمل تطرب له الشعوب ، ويرنو بصرها وقلبها إليه ، ويظن بعض الناس أن هذا المذهب أو ذاك ، هو مبتدع هذه الفكرة وصاحبها ، فالحقيقة التى لا جدال فيها هى كما عرفت من أربعة عشر قرناً .

ومع ذلك كله فالعدالة الإجتماعية ليست فى توفير لقمة العيش ووسائلها فحسب ، كما يقول بعض الناس ، بل هى مع ذلك تأمين الفرد فى حياته من ناحية العدل والمساواة فى الحكم وتوفير الشورى ، وحرية الرأى ، ووسائل العلم والصحة والإنتقال من مكان إلى آخر . . بحيث يشعر الفرد فى حياته بأنه أمن

---

١ ـ وذلك فى قوله تعالى : ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم ﴾ سورة التوبة : ٦٠ .

على معيشته وحريته ، أمن من الظلم والجهل ومن المرض .

وبهذا الفهم الواسع للعدالة الإجتماعية ، نجد الإسلام قد وضع أحكم المبادىء والنظم والوسائل لتوفيرها فى مجتمعه ، وقام الرسول ﷺ وصحابته رضوان الله عليهم ، والحكام الصالحون المسلمون من بعدهم بتطبيقها ، فسعدت المجتمعات الإسلامية فى ظلها .

ويكفى للتدليل على سمو هذه المبادىء وعلى صلاحيتها لقيام المجتمع الناهض ، أننا كلما قرأنا أو سمعنا عنها ، وعن أمثلة تطبيقها فى المجتمع الإسلامى الأول ، تمنينا أن تكون سائدة ومطبقة فى مجتمعاتنا ، واكتفى الآن بسرد بعض الوقائع والمبادىء فى هذه الناحية .

لقد خرج الرسول ﷺ وهو فى مرض موته فأعلن للناس من على منبره : « **من كنت جلدت له ظهراً فهذا ظهرى فليستقد منه ومن كنت أخذت له مالاً فهذا مالى فليستقد منه** » وبهذا دعم فى آخر حياته مبدأ المساواة بين الحاكم والمحكوم أمام شريعة الله .

فأين مثل هذا فى مجتمعاتنا المعاصرة .

ويقول عمر رضى الله عنه : « لو عثرت دابة فى العراق لسئل عنها عمر يوم القيامة لِمَ لمْ يعبد لها الطريق » وذلك شعوراً منه بمسؤوليته كحاكم ، لا عن توفير الأمن للناس من رعيته فحسب ، بل عن كل ما يملكون ، وهذا الشعور بالمسؤولية نتمنى أن يستقر فى نفس كل واحد منا كباراً أو صغاراً .

وحين دعا عمر رعيته إلى نصيحته وتنبيهه لأخطائه قام رجل ، فقال له : « والله لو رأينا فيك اعوجاجا لقومناه بحد سيوفنا » فلم يغضب عمر ، بل اعتبر أن هذا الرجل يقوم بوظيفته وواجبه إزاء الحاكم ، وإن كان قد بالغ ، وقال عمر : أحمد الله أن وجد فى أمة محمد من يقوم عمر بحد سيفه ، وكان ذلك تطبيقاً عملياً رائعاً لمبدأ الإسلام فى العدالة ، ومسؤولية الحاكم ، وحرية الرأى للمحكومين ، وليس له نظير ولا مثيل لا فى الماضى ولا فى الحاضر .

وحين رأى عمر أن هناك بعض الفائض من مرتبه الذى خصصته الدولة له ،

اعتبره زائداً عن حقه ، ورده لخزينة الدولة ، لأن الحاكم فى نظر الإسلام من جهة تصرفه فى مال الدولة ، كراعى مال اليتيم ، لا يأكل منه إلا بالمعروف ، ولا يأخذ قدراً زائداً عن حاجته ، ووضع بذلك مبدأ أن يكون الحاكم قدوة فى المحافظة على ماليتها .

فقولوا أيها الشباب لهؤلاء الذين يزينون لكم استيراد المبادىء والأنظمة أرونا مثل هذا أو قريباً منه فيما تدعوننا إليه .. وسيعجزون ..

قولوا لهم : وهل نستورد وعندنا هذه المثل وهذه المبادىء التى تهفو إليها البشرية كلها ؟

هل نستورد الخيش لنلبسه .. وعندنا الحرير وفره لنا ربنا رب العالمين ؟.

٥٣ طبيعة لا طبقية مرذولة

لله سبحانه وتعالى سنن وانظمه فى كل ما خلقه من سماء وأرض وإنسان وحيوان ونبات وجماد اقتضتها حكمته وعلمه فى تدبير أمر الكون وانتظام شؤون الحياة . بحيث لو اختل منها نظام واحد اختل معه شأن الكون والحياة . ومن هذه السنن ما نراه من تفاوت المخلوقات ، فالنجوم والكواكب تختلف فى الحجم والبعد والإشعاع ، كما تختلف النباتات فى الطول والقصر والشكل والألوان والثمار كما تختلف الحيوانات فى قدراتها وأشكالها وخصائصها ووظائفها . . كما يختلف الإنسان فى لونه ولغته ونوعه وإستعداده العقلى والجسمى والعاطفى . . ومظهر هذا التفاوت أو الإختلاف الذى نراه فى مخلوقات الله دليل من دلائل قدرته وحكمته فى تدبير أمر هذا الكون . .

﴿ وَمِنْ آياتِهِ خَلْقُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ واخْتِلاف أَلْسِنَتِكم وَأَلْوَانِكُم إنَّ فى ذَلِكَ لآيات للْعَالِمِينَ ﴾ الروم .

﴿ وفى الأرض قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ وجنَّات مِنْ أعناب وَزَرْعٌ وَنَخِيل صِنْوانٌ وغيْرُ صِنْوانٍ يُسْقى بماء واحِد ونُفضِّل بَعْضَهَا على بَعْضٍ فى الأُكُل إنَّ فى ذَلِكَ لآيات لقَوم يَعْقِلُون ﴾ الرعد ٤ .

﴿ وَهُوَ الَذى أنشأ جنَّاتٍ مَعْرُوشات وَغير مَعْرُوشات والنَّخْل والزَّرْع مُخْتَلِفاً أكُلُهُ وَالزَّيْتُون والرُّمان مُتشابها وغيْر مُتشابه ﴾ الأنعام ١٤١ .

﴿ أَلَمْ تر أنَّ الله أَنْزَل مِن السَّماء ماءً فأخرجْنا بِهِ ثمرات مُخْتَلِفاً أَلْوَانُهَا ومن الجبال جُدَدٌ بيضٌ وحُمْرٌ مُخْتِلفٌ أَلْوَانُهَا وغَرابيبُ سُودٌ . ومِن النَّاس والدَّواب

والأنعام مُخْتِلفٌ أَلْوانُهُ كَذلِك ﴾ ٢٧ ، ٢٨ فاطر .

فالتفاوت والاختلاف الحاصل بين مخلوقات الله مظهر من مظاهر قدرته وحكمة عليا من حكمه لانتظام أمور الكون وتدبير حياة الإنسان فيه . . ليس لعاقل من العقلاء أن ينكر هذا التفاوت ولا أن ينكر الحكمة العليا من وجوده .

ونجد فى الإنسان ـ كما قلنا ـ هذا التفاوت والاختلاف ، فليس كل الناس سواء فى أشكالهم ولغتهم واستعداداتهم العقلية والجسمية ولا فى مهنهم وحظوظهم فى الحياة . . فاختلاف المهن والتخصصات أمر ضرورى لانتظام الحياة وقضاء المصالح فيها . . لابد أن يوجد العلماء فى كل فرع ، ولابد أن يوجد الحرفيون والمهنيون الذين يمكن بهم جميعاً تدبير شؤون الحياة . . وكل واحد فى عمله ومهنته مسخر من حيث يدرى أو لا يدرى لخدمة الآخرين من خلال خدمته لنفسه وكسبه لمعيشته . . فالذى يصلح جهاز « الراديو أو التليفزيون » مثلاً يخدم نفسه ويخدم صاحب الجهاز كما أن صاحب الجهاز يخدم نفسه ويخدم الصانع حين يدفع أجره كل منهما خدم الآخر ، والله سخر كلا منهما للآخر هذا بفنه وهذا بماله

ومن أجل هذا قيل « الإنسان مدنى بطبعه محتاج إلى بنى جنسه » .

إذ لا يمكن للفرد أن يستغنى عن الاستعانة بغيره فى قضاء مصالحه المتشعبة ، صاحب المال محتاج لذوى العلم وذوى المهنة والخبرة لتنمية ماله وقضاء مصالحه كما أن هؤلاء محتاجون لصاحب المال أن يدفع لهم أجرهم على ما بذلوا من علم وخبرة ليعيشوا . وكل فريق قدم خدمة للفريق الآخر ولا منة لأحدهما على الآخر . . حتى الذى يدفع من ماله زكاة وصدقة محتاج إلى وجود الذين يقبلون منه زكاته وصدقته حتى يعينوه على أداء الواجب عليه نحو الله . . فكل منهما محتاج الآخر وقدم خدمة لصاحبه : هذا بماله وذاك بقبوله وكل له أجره على موقفه ومن هنا جاء الحديث يقول عن رسول الله ﷺ « ما الذى يعطى عن سعة بأعظم أجراً من الذى يأخذ إذا كان محتاجاً » .

وهكذا كل إنسان فى الحياة له دوره وعمله الذى يقوم به ، لخدمة بنى جنسه

من خلال خدمته لنفسه . منافع متبادلة ، ومصالح متشابكة ، موزعة على جميع الناس . كأجهزة الماكينة الكبيرة . كل مسمار فيها وكل ترس ، وكل قطعة صغيرة أو كبيرة لها دورها فى سير الماكينة لا يشمخ الكبير فيها على الصغير لأنه بدون الصغير لا تدور الماكينة . . فالفضل إذن للجميع ، وهو موزع على كل جهاز بقدر دوره ومكانه فى الآلة الكبيرة . .

ومن هنا يقول شاعرنا العربى معبراً عن هذه الحقيقة فى الإنسان .

الناس للناس من بدو وحاضرة
بعض لبعض وإن لم يشعروا خدم

لكن بعض الناس ممن فى قلوبهم مرض وفى نفوسهم غرض يعمدون إلى بعض الآيات الكريمة التى تقرر هذه الحقيقة العلمية الطبيعية التى تقوم عليها الحياة وينتظم أمرها ، ويموهون على ضعاف الفهم ، ويستعملون ألفاظاً مشبوهة فى طعنهم على الإسلام ليضعفوا من ولاء المسلمين له وتمسكهم به . .

فهم يعمدون الى قوله تعالى من آخر سورة الأنعام ﴿ وَهُو الذى جعلكُم خَلاَئِفَ الأَرْضِ ورفع بعْضُكُم فوْق بَعْض درجات لِيَبْلُوكُمْ فِيما أَتَاكُم ﴾ .

وإلى قوله تعالى من سورة الزخرف فى الرد على المشركين المتغطرسين الذين يعترضون على الله فى اختياره لرسول فقير وتركه للأغنياء .

﴿ أهُم يقسِمُون رَحْمة رَبِّك نَحْنُ قسمنا بيْنهُم معِيشَتَهُم فى الحيَاةِ الدُّنْيَا ورَفَعْنَا بَعْضَهُم فَوْق بَعْض درجات ليَتَّخِذ بعْضُهم بَعضاً سخرياوَرَحْمَةُ رَبِّكَ خَيْرٌ مِمَّا يَجْمعُون ﴾ الآية ٣٢ أى أنهم لم يستطيعوا التحكم فيما بين أيديهم من أرزاق ، فكيف يريدون التحكم فيما ليس بمتناولهم ؟ .

فيأتى هؤلاء المحدثون ويتهمون القرآن بأنه يقر الطبقية المرذولة ، وأنه دين الطبقات ، ويدعون هم أنهم يتبعون مذهباً لا يقر الطبقية ولا يعترف بوجود الطبقات . . والناس فى هذه الأيام قد صُبَّت فى آذانهم وقلوبهم كراهة الطبقية والطبقات فانتهز هؤلاء هذه الفرصة وهاجموا القرآن بهذه الألفاظ مستغلين ظاهر هذه الآيات . .

وهذه الآيات تقرر حقيقة علمية وطبيعية ـ كما قلنا ـ لا يمكن لذى عقل سليم أن ينكرها ولا يمكن أن تنتظم الحياة إلا بها . .

فالله سبحانه يقول أنه رفع بعضنا فوق بعض درجات . وهذه حقيقة مسلمة لدى كل أصحاب العقول حتى الصغيرة منها وإلا فهل كل الناس سواء فى علمهم ، وعقولهم وعاطفتهم واستعدادهم ، وقدرتهم ومهنتهم ، واختصاصهم وكسوتهم ؟

هل كل الناس سواء فى هذا ؟ أليسوا متفاوتين فى عقولهم رفعه الله بعضهم فى عقولهم عن الآخرين ؟ أليسوا متفاوتين فى علمهم . وفى فنهم ، وفى قدرتهم ، وتمكنهم من اختصاصهم ؟ كل له عقله وعلمه وقدرته وحرفته وخبرته . . وكل انسان مكلف بأن يستعمل أقصى ما وهبه الله أياه من عقل وعلم وخبرة ومال وقوة لخدمة البشرية . فهو فى اختبار وابتلاء ينظر الله اليه : كيف يتصرف فيما أتاه الله من هذه الأمور . ليبلوكم فيما آتاكم « هل يوجهها للخير أو للشر . والله له بالمرصاد » « أن ربك سريع العقاب وأنه لغفور رحيم » .

وهل يتجرأ انسان على إهمال هذا التفاوت بين الناس ، فيجعلهم جميعاً فى درجة واحدة ، وطبقة واحدة ؟ لا فرق بين عالم وجاهل ومجتهد ، وكسول ، ومحسن ومسىء . هل يستطيع أن يسوى بين من ينتج ومن لا ينتج ، هل يمكن أن ينجح نظام أو مجتمع لا يقر هذا التفاوت ؟

فى أحد المجتمعات التى قامت على مذهب حديث [١] حاول زعماؤه فى أول الأمر إهمال هذه الناحية ففشلوا وفسدت أجهزة الدولة . وضعف الإنتاج ، وأشرفت الدولة على الخراب مما جعل زعيمها يتراجع ويعلن فشله ويقول « أن سير التقدم قد تعثرت خطاه نظراً للطريقة التى يسير عليها العمال من اهمال وتكاسل » إذا أردنا المقدرة الصناعية فلابد أن يكون الأجر على درجات تحدد الفارق بين العامل الحاذق وغير الحاذق تحديداً دقيقاً ويجب أن يرفع الأجر لا على حسب حاجة العامل كما كان متبعاً بل على حسب ما أتم من عمل . إن هؤلاء القوم يحسبون أن نظامنا يستلزم المساواة فى مطالب العيش لكل فرد من أفراد

١ ـ هو المذهب الشيوعى .

المجتمع . الا ما أسخفه من رأى يخرج من فكر مشوش شتيت . أن المساواة التى نادوا بها أضرت صناعنا أكبر الأضرار .

وهكذا أجبروا على أن يعودوا الى طبيعة الحياة ، بعد تجربة مرة وفاشلة ، وقدروا كلا على حسب قدرته وإنتاجه ، وترتب على ذلك تفاوت فى الأجور والمرتبات ، فتكونت نتيجة تفاوت الدخول ، طبقات فى ذلك المجتمع بعضها فوق بعض . .

فكيف يأتى مرضى النفوس عندنا ـ هؤلاء الأجانب عنا فكرياً ـ فيعيبوا على القرآن أنه أقر طبيعة الحياة فى رفع بعض الناس فوق بعض درجات ، حسب قدراتهم ، ويعتبروا هذا طبقية بغيضة ؟ . .

لقد جربوا غير هذا ففشلوا فاضطروا للنزول على حكم القرآن والطبيعة البشرية التى خلق الله الناس عليها متفاوتين وتفاوتت تبعاً لذلك دخولهم وطرق معيشتهم ، فإن كان هذا عيباً فلماذا اتبعوه ؟ وليعيبوا أنفسهم به ـ إذن ـ قبل أن يعيبوا الآخرين .

وإذا كان الله سبحانه قد فاوت بين الناس فى عقولهم وقدراتهم وسلوكهم فكيف يمكن أن نسوى بينهم فى مجازاتهم ومكافآتهم ؟ ألا يعد هذا نوعاً من الظلم الصارخ الذى يزلزل بنيان المجتمع وكيف يمكن لمصلح أو نصف مصلح أن يقيم بنيان المجتمع على أساس التسوية بين الناس جميعا فى الأجور والمكافآت دون اعتبار لتفاوتهم فى العلم والعمل . وفى السلوك ؟ وهل يعد مثل هذا مصلحا أو مخرباً هدَّاماً ؟

ان الله ينطق بالعدل الذى تقبله النفوس السليمة حين يقول ﴿ أم نجعل الذين آمنوا وعملوا الصالحات كالمفسدين فى الأرض أم نجعل المتقين كالفجار ﴾ ؟

هذا غير ممكن ولا يستقيم مع شريعة العدل ولا تتقبله النفوس البشرية السليمة . ﴿ هَلْ يَسْتَوِى الَّذِينَ يَعْلَمُونَ والَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ﴾ .

فلابد إذن من التفاوت فى الجزاء والأجر حسب التفاوت فى علم الناس

وأعمالهم ، ولابد بالتالى من التفاوت بين الناس فى حظهم من المال والمراكز حسب استعداداتهم . . وعلى أساس هذا التفاوت تنتظم أمور الحياة . . فيوجد فيها العالم والصانع والزارع ، وكل واحد بعمله فى موقعه يخدم الآخرين أو مسخر من حيث يدرى أو لا يدرى لخدمة الآخرين كما سخر لنا الشمس والقمر .

وتلك هى حكمة الله فى خلقه التى يعبر عنها فى القرآن الكريم ﴿ **نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** ﴾ أى ليكون البعض مجنداً ومسخراً لخدمة البعض الآخر دون تحديد .

فصاحب المال يجند أصحاب المهن بماله وصاحب المهنة يجند صاحب المال بمهنته كل مجند لخدمة الآخر ، دون ظلم أو استغلال فهل يمكن أن يسمى مثل هذا طبقية ؟

إن العالم فوق الجاهل ومميز عليه فى العلم ، والجاهل له حرفة وعمل لا يحسنه العالم فهو لذلك يحتاج إليه . . والزارع فى مزرعته ومعرفته بأصول الزراعة متميز عن غيره ممن لا يعرفون معرفته . . وكل عمل يجب أن يوكل إلى المختصين به الفنيين فيه . .

﴿ **فاسْألُوا أهْلَ الذِّكْر إن كُنتُم لا تَعْلَمُون** ﴾ فكل إنسان مهما يكن محتاج إلى عمل غيره وهذا أمر بديهى ولابد منه فى الحياة فكيف يعاب على الإسلام إذا أقره وقرره .

يقول المفسرون فى تفسير قوله تعالى ﴿ **ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا** ﴾ أى ليسخر بعضهم بعضاً فى الأعمال لاحتياج هذا إلى هذا وهذا إلى هذا .

فليس معنى التسخير إذن الاستعباد والاضطهاد بل تبادل المنافع .

ويقولون ﴿ **رفع بعضكم فوق بعض درجات** ﴾ فى الخلق والخلق والغنى والفقر والقوة والضعف والعلم والجهل والعز والذل لينظر اليكم كيف تتصرفون

فيما أعطاكم فيرتب على ذلك جزاءكم .

وهذه دعوة إلى أن يستعمل كل إنسان مواهبه فيما يحبه الله حتى يحظى برضوانه فليس فى الآيات ما يشير الى طبقية مرذولة ، لأنها تشير إلى السنة والنظام الذى قام عليه أمر الكون مع الدعوة إلى حسن التصرف فى هذا النظام .

يقول ابن كثير فى تفسيره « فاوت بينكم فى الأرزاق والأخلاق والمحاسن والمساوىء والمناظر والألوان بقوله تعالى : ﴿ أنظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَللآخِرةُ أَكْبَرُ دَرَجَات وأَكْبَرُ تَفْضِيلاً ﴾ وذلك ليختبركم فى الذى أنعم به عليكم وامتحنكم به ليختبر الغنى فى غناه ، ويسأله عن شكره . . الخ .

فمن الذى ينكر على الله هذا النظام . وهل يتصورون الحياة بدون تفاوت فى مهن الناس وعلمهم ، هل يمكن أن تقوم الحياة على صنف العلماء وحدهم ، أو على صنف الصناع وحدهم أو على أصحاب المال وحدهم .

إذن لابد من تفاوت الناس واختلافهم فى حظوظهم من الدنيا وفى قدراتهم وسلوكهم ، وفى كل ما وهبهم الله إياه ، كل وهبه غير ما وهب الآخر ووجهه لأن يستغل موهبته لخدمة نفسه وخدمة مجتمعه والإنسانية كلها . ﴿ لِيَبْلُوكُم فِيما أتَاكُم ﴾ .

هذا هو ما يوضح قوله تعالى ﴿ ورفعنا بعضكم فوق بعض درجات ﴾ أى ميزنا بعضكم بميزات لم يتمتع بها الآخرون وذلك هو نظام الله الذى خلق فسوى والذى قدر فهدى .

ومن العجب ، بل من الضياع أن يتطاول إنسان على نظام ربه أو يعترض عليه . ﴿ وَهُوَ القَاهِرُ فَوْق عِبَادِهِ وَهُوَ الحكِيمُ الخَبِيرُ ﴾ .

ولندع هذه المناقشة العقلية جانباً لنسأل هؤلاء : هل فى المجتمعات التى تنتسبون اليها هناك وتبشرون بها هنا طبقات أو لا ؟ هل يعيش الزعماء مثل عامة الشعب ؟ وهل يعيش القادة مثل جنودهم ؟ وهل يعيش مديرو الإدارات ورؤساء الأقسام مثل بقية موظفيهم وعمالهم ؟ وهل المرتبات والدخول

متساوية ؟ وهل يعيش هنا هؤلاء ـ طويلو اللسان على الله ـ مثل العمال والموظفين العاديين حولهم ؟ أو أنهم يتقاضون الأجور والمرتبات العالية ، ويسكنون « الفيلات » والشقق الفاخرة ، فى أرقى الأحياء فى القاهرة ، كما نعرف ويعرف الجميع ؟

ألا فليدخلوا ألسنتهم إلى حلوقهم ، وليكفوا عن المتاجرة بالشعارات .

٥٤ أصلح الأسس للحكم

ترتفع الشكوى بين الحين والحين فى كثير من البلاد الإسلامية ، إن لم تكن فيها كلها ، من الروح السيئة التى تعيش فى جوها أنظمة الجهاز الحكومى ، سواء أكان ذلك من الأنظمة نفسها ، أم من المنفذين لها ، ويبذل الغيارى من المسؤلين جهودهم للقضاء على هذه الروح ، باصدار تعديلات للنظم القائمة ونداءات يناشدون فيها العاملين الإخلاص فى عملهم ، ومراعاة مصالح أمتهم .

ولكن كل هذه الجهود كثيراً ما تذهب هباء ، لأن هناك ما يشبه الفجوة بين هذه الأنظمة ، وبين روح القائمين بتنفيذها . وكثيراً ما ارتفعت الأصوات لمحاولة علاج هذه الحالة علاجاً جذريا يقوم على ربط النظم السائدة ، بدين الأمة وخلقها وثقافتها الأصيلة ، والدخول إلى البيوت من أبوابها ، وعدم الاعتماد على التقليد الصرف ، أو الإعتماد على الألفاظ الرنانة ، مثل الواجب ، والمصلحة الوطنية والقومية . . الخ لإثارة روح الإخلاص فى العاملين ، فإن هذه الألفاظ كثيراً ما تذهب مع الريح ، ولا تمس القلوب فضلاً عن أن تثيرها .

ولكن أصحاب الأصوات المخلصة كثيراً ما يتهمون بالرجعية والتخلف . . فتذهب أصواتهم هباء ، بينما تذهب جهود المصلحين للنظام هباء كذلك ، ويظل الفساد أو النقص يسير ويستشرى ، والشكوى ترتفع ، والثقة تضيع ، ومن بين هذا وذاك يدس دعاة الهدم أنوفهم ، ويستغلون سخط الساخطين ،

ليبثوا فيهم سمومهم ، ويصورون لهم الإنقاذ فى أنظمة ومبادىء مستوردة تقلب حياتهم رأساً على عقب ، وتسلبهم عقيدتهم وتراثهم ، بل إنسانيتهم وتحيلهم إلى تروس صماء فى آلة كبيرة ، يسيطر عليها فرد واحد .

ومن هنا يهب الخطر على البلاد الإسلامية ، ويصبح من واجب رجالها والمسؤلين عن كيانها ومصيرها ، أن يسارعوا إلى علاج الفساد فى مجتمعاتهم ، علاجا يقضى عليه قضاء تاماً ، ولا يدع مجالاً لساخط أو هدام منتهز للفرص .

ولا أعتقد أن هناك علاجاً جذرياً خيراً من استيحاء مبادىء الدين والثقافة الأصيلة للشعب ، فى سن الأنظمة والقوانين ، وربطها بعقيدة الشعب ، ومثله التى غرسها الإسلام فى نفوسهم ، ثم حراسة تنفيذها من الرؤساء على أساس من العدل الذى يطمئن الجميع على مصالحهم ، ويوفر لهم الاستقرار المنشود من سن القوانين . .

حينئذ يطمئن المحكوم ، ويخلص فى العمل ، ويضاعف من جهوده لوفرة الإنتاج والارتفاع بمستوى العمل الموكل به ، كما يطمئن الحاكم إلى انصراف الشعب إلى عمله بدقة وأمانة . .

هذه دعوة نادينا بها من قبل كما نادى غيرنا ، ولعل دعوتنا هذه صادفت من قال عنا : رجعيون متخلفون ، أو حالمون خياليون ، وهذا وان كان لا يفت فى عضدنا ، أو يثنينا عن دعوتنا ، الا إننا نحب أن نسوق للمفتونين دائماً بما يرد من الغرب ، والذين يعيشون على فتات موائده ، نسوق لهم اليوم بعض ما جاء فى تقرير لم يضعه علماء مسلمون ، يمكن أن يقال عنهم : إنهم متعصبون أو رجعيون .

وإنما وضعه خبيران استقدمتهما حكومة الجمهورية العربية المتحدة للبحث فى « تنظيم الإدارة الحكومية » بها ، وتقدما بهذا التقرير إلى اللجنة المركزية لتنظيم الإدارة الحكومية فى صيف سنة ١٩٦٢ والخبيران هما « لوثر جيوليك » ، و « جيمس هـ . يولوك » . .

قالا فى صدر هذا التقرير ، الذى عنى أولا بالمبادىء والأسس التى يجب أن

يقوم عليها أى نظام ناجح . .

« إننا ندرك حق الإدراك أن النظم الحكومية تتكيف وفق مقتضيات الجو الثقافى ، الذى توجد فيه ، ولا يمكن بحث خطط إعادة تنظيم جهاز أى حكومة أو إجراءاتها بمعزل عن تعرف التيارات العامة ، التى تسود حياة الأمة والمعتقدات الأساسية التى تدين بها » .

« غير أن الحكومة أيضاً تعتبر من القوى الإيجابية فى التغيير والتطوير ، وأية ذلك واضحة فيما تم خلال العشرة أعوام ، التى انقضت على قيام الثورة المصرية ، لهذا كان على من يتأمل المستقبل ، ويقترح إدخال تغييرات هامة أن يعنى حق العناية بدراسة قوتين كبيرتين :

أولاهما : التأثير القوى للثقافة الذى يميل إلى الابقاء على التقاليد الموروثة .

ثانيهما : القيم الأخلاقية المبدعة للجديد من الأفكار والنظم ، التى قد وضع شعب من الشعوب ، بأن تدفعه إلى حياة جديدة ذات قيم ومعتقدات جديدة .

ومن المهم أن نعترف منذ البداية بأن أمر جهاز الحكم ليس بأهم الأمور ، فالمعتقدات والقيم التى يرتكز عليها تفوقه أهمية وخطورة ، فإذا استطاع الجهاز الجديد أن يبعث هذه المعتقدات والقيم ، وأن يصوغها ويشكلها فى صورة نظم ، فإن التقدم الذى يحرزه الشعب حقا ، لا يكمن فى النظم الحكومية بل فيما تقوم عليه من قوة أخلاقية وفلسفية وروحية .

لهذا كان ـ على المسؤ لين عن إعادة تنظيم الجهاز الحكومى على نحو جذرى أن يستهدوا بهدى ثقافة الأمة ذاتها ، وفهم المعتقدات والقيم التى تسير عليها الأمة فى حياتها » .

« وكان من المتعذر علينا أن نفهم تلك المعتقدات والقيم ، لأننا ننتمى إلى ثقافة أخرى ، لهذا بذلنا جهداً متصلاً للتعرف عليها ، لا عن طريق القراءة فحسب ، بل كذلك عن طريق الاجتماع بالقادة فى ميادين الدين والأخلاق والفلسفة ، لكى نتبين تيارات الثقافة المصرية التى يبدو ينها لها تأثيراً أساسياً فى المشكلات التى نبحثها » .

« وقد راعنا خلال هذا البحث أن اهتدينا إلى عدد من المعتقدات الأساسية الوثيقة بتلك المشكلات ، وإننا لنورد تلك المعتقدات فيما يلى فى صورة بالغة الإيجاز خالية مما تستحق من إفاضة وتفصيل :

- شرع الله إقامة الدولة كنظام أخلاقى واقتصادى وسياسى ، وللإنسان أن يشكل هذا النظام بفضل مايتاح له من اتساع فى المعرفة والخبرة والتفكير، وذلك على أساس المبادىء الأخلاقية الأساسية المقررة .

- الناس سواسية أمام الله ، ومن ثم أمام القانون .

- ليس للحاكم ولا لرجل الدين ولا أى طبقة أو فئة أن تحول بين المرء وحقوقه وواجباته ، أو تفصل بينه وبين الله .

- الاستغلال الشخصى للنفوذ أمر يأباه الخلق الكريم .

- نظام القيادة نظام مستحب من حيث المبدأ ، ولكن كل راع مسئول أمام الله عن رعيته ، وبذا يكون مسؤولا عن رعاية شؤون الناس .

- الأخذ بالشورى فى مختلف المستويات أمر لابد منه فى اتخاذ القرارات والأعمال الحكومية .

- نظام الملكية الفردية حق مقدس ، ينطوى على ضرورة استخدام الممتلكات على نحو مثمر ، مع تخصيص قدر من الدخل فى عون المعوزين ، وخدمة المجتمع والضرائب (الزكاة والانفاق) .

- للمجتمع وللحكومة التى يقيمها المجتمع على أساس الشورى ، أن يقرر ما يدخل فى باب « المعروف » وما يدخل فى باب « المنكر » استناداً إلى المبادىء الخلقية والدينية المقررة .

- العمل له نبالته الخالصة ، ويستحق العامل أجراً عادلاً على عمله .

- الإنسان مكلف بكسب العلم وإعمال العقل ، واستخدام المعرفة التى حصلها على هذا النحو فى نفع الناس ومرضاة الله .

« ويتجلى لمن تعمق هذه النقط أن الثقافة الإسلامية من أصلح الأسس

للحكم الناجح فى العصر الحديث ، وليس هذا فحسب ، بل إنها كذلك تقدم للشعب المصرى المبادىء التى يمكن أن يقيم عليها ديمقراطيته الجديدة التى تتميز بالقيادة الإيجابية الفعالة ، ومشاركة الشعب فى الحكم وتحرص على استخدام الثروة الخاصة والعامة لخير الأمة » .

« إذا صح ما ذهبنا إليه فى تلك العجالة القصيرة فإن الثقافة الإسلامية تكون أبعد الأشياء عن إعاقة سير التقدم والتطور فى النظم الحكومية كما تكون أبعد الأشياء عن الدعوة العمياء ، أو التشبث بالتقاليد العتيقة ، ذلك أن الثقافة الإسلامية تشجع الإنسان على استخدام عقله فى تقدير مقتضيات العالم الحديث ، مع الاطمئنان الى القيادة المسؤولة وتبادل الرأى والمشورة وهذا على التحديد هو المنهج الذى صارت الحاجة ماسة إليه » أ هـ .

ـ هل يسمع هذا المؤمنون من الحكام . فيقبلوا على إصلاح شؤون امتهم على المنهج الإسلامى ، غير هيابين مما يقوله المدعون والمتخرصون ، والمفتونون بالغرب أو الشرق والاستيراد منه ؟ .

فإن مصلحتهم ومصلحة أمتهم مع طاعتهم لخالقهم ، أولى بالرعاية والاهتمام .

وهل يقرأ هذا أخواننا وأبناؤنا من المسلمين الذين وقعوا تحت تأثير الألفاظ البراقة ، التى يطلقها دعاة الهدم والتضليل ، ليصدوهم عن الاعتزاز بدينهم وثقافتهم وأمجادهم ، وينزعوهم من أحضان أوطانهم ويحملوهم على التنكر لتاريخهم ، ليعيشوا عبيداً وأتباعاً لغيرهم ؟ .

وهؤلاء الذين يحلو لهم ـ تبعا لهواهم ـ أن يربطوا بين الإسلام والرجعية ، ويدعون أن الإسلام قد استنفد أغراضه فى عصوره الأولى ـ ألا يسمعون كلمة الإنصاف من خبيرين غير مسلمين !

« الثقافة الإسلامية من أصلح الأسس للحكم الناجح فى العصر الحديث » .
فهل يخجلون !؟

٥٥ الكون والتشريع

خلق الله السموات والأرض بالحق ، وخلق كل شيء فيهما بنظام وإحكام وأودع فيه من الخصائص والمميزات ما يهيئه ليؤدى وظيفته ودوره المخصص له فى الحياة ، فللنبات خصائصه ، ولكل نبت نظامه ومميزاته وللحيوان خصائصه كذلك . وقد أودع الله فى كل حيوان من نظام الخلق ما يستطيع به أن يعيش ويؤدى دوره . وكذلك فى الحشرات كل حشرة خلقها الله بنظام وخصائص تحيا بها وتؤدى وظيفتها بواسطتها وفى جسم الإنسان من الأنظمة الدقيقة التى تتعاون فيما بينها لوجود الحياة فى الإنسان ومساعدته ليقوم بدوره ووظيفته ، والنجوم والكواكب أودع الله فيها من خصائص الخلق ما تؤدى بها دورها الذى خلقت له .

كل مخلوق فى هذا العالم خلق بنظام دقيق لا نقص فيه ولا خلل ويؤدى وظيفته ودوره بنظام وترتيب مستمر ، لم يكتشف واحدمن الناس ولا عالم من كبار العلماء خللا فى وحود مخلوق من المخلوقات ولا نقضاً فى تركيبه العام ولا فى خصائصه .

بل يرى العلماء من بديع الصنع ودقته ما يخشعون أمام عظمة خالقه وسبحان الله ﴿ الذى خَلَقَ فَسوَّى والَّذى قَدَّر فَهَدى ﴾ ﴿ والَّذِى أعْطَى كُلَّ شَيءٍ خَلْقَهُ ثُمَّ هَدَى ﴾ ﴿ مَاتَرَى فى خَلْقِ الرَّحْمن مِنْ تَفَاوُتٍ ﴾ فى دقة الخلق واكتمال الخصائص اللازمة لكل مخلوق .

ومعنى هذا كله أن كل شيء أوجده الله فى السموات والأرض وما بينهما قد تم خلقه وإيجاده بنظام وإحكام لا خلل فيه . . ولا يمكن لإنسان مهما كانت قوته أن

يدعى أن فى مقدوره أن يخلق شيئاً أو يوجده كما خلقه الله وأوجده . فعقول الناس جميعا وجهودهم قاصرة عن ذلك ولم نجد على مدى التاريخ من يدعى أن يخلق كخلق الله إلا مسلوبى العقول الذين يثيرون الضحك والسخرية بهم .

وهذا وإن كان أمراً مفهوماً ومعترفاً به من جميع الناس على اختلاف مستوياتهم إلا أننى أذكره هنا مقدمة لأمر أريد أن أتحدث فيه .

فالله الذى خلق الخلق بالحق وبالنظام الدقيق الذى لا يتسرب اليه خلل هو الذى أنزل القرآن . بالحق ﴿ وَبِالْحَقِّ أَنْزَلْنَاهُ وَبِالْحَقِّ نَزَلَ ﴾ وشرع للناس فيه الأحكام التى ألزمهم السيد عليها وطلب منهم ألا يخالفوها ليسعدوا فى حياتهم وإذا كنا قد رأينا مخلوقات الله لا يتطرق اليها نقص فإن الأحكام الصادرة عن الله كذلك لا يتطرق اليها نقص فالله متصف بكل صفات الكمال والكمال لا يصدر عنه ولا منه أى نقص لا فى الخلق ولا فى التشريع والأحكام . .

ولكن مما يثير الدهشة حقاً أن نرى بعض الناس يتطاول فى غرور على أحكام الله ويتهمها بأنها غير صالحة ، ومع أن العيب والنقص فيه لا فى الأحكام إلا أنه لغروره يتهم أحكام الله وكلام الله ولا يرضى بأن يقر ينقصه أو بوجود العيب فيه . . وما درى أنه بذلك يضع انفسه فى منزلة أعلى من الله ويوقعها فى الشرك ـ ويبعدها عن مجال الإيمان بالله .

ومن يك ذا فم مر مريض
يجد مرا به الماء الزلالا

ان الذى خلق الخلق جميعا هو الذى شرع لنا الأحكام كلها فكيف نرضى ونسر بما خلقه الله لنا وخلقنا عليه ولا نرضى بما سنه لنا من تشريع وأحكام والكل صادر عن الله . لماذا نتقبل نعمه ونرفض حكمه بل إن من العجب أن يتطاول بعض الناس على الله وعلى أحكامه مستخدماً النعم التى أنعم الله بها عليهم . أنعم عليهم بالعقل فجحدوه به ، وباللسان فتطاولوا به عليه وعلى أحكامه وهم لا يستحون ، ويمهلهم الله ولا يسلبهم نعمته ولا يخجلون ، والله لا يظلم الناس شيئاً ولكن الناس أنفسهم يظلمون .

٥٦ الشعور المرسلة والغزو الفكرى

قال لى لماذا تكره هذه الشعور المرسلة ، والسوالف واللحى الطويلة ، التى يحرص بعض الشباب على الظهور بها الآن . ألم يكن الرسول ﷺ يطيل شعر رأسه ويمشطه ويدهنه ؟ ألم يوص رسول الله ﷺ ، بإعفاء اللحى وعدم حلاقتها ؟ .

فقلت له : وهل تعلم أن إطالة السوالف بالشكل الجديد الذى يفعله بعضكم الآن إنما هى ظاهرة صهيونية قديمة يرجع أصلها إلى الأسرى اليهود ، الذين ساقهم بختنصر الملك البابلى الى بابل ، بعد أن قضى على ملكهم وهدم الهيكل ، فأجبرهم على أن يطيلوا سوالفهم ، تمييزاً لهم عن الوطنيين البابليين ، فقلبوها هم إلى ظاهرة لها أصل فى دينهم وتقاليدهم ، حتى لا يقال : إنها شارة الذل والعبودية ، بل شارة دينية ؟ وهم الآن يبثونها بين الشباب ويتلاعبون بهم ، كما يتلاعبون بكل شىء فى هذا العالم ، ولعلهم الآن يسرون حين يرون آثارهم فى شباب العالم .

فقال لى : نحن لا نعرف ذلك . قلت : يجب أن تعرفوه ، وتختاروا لأنفسكم الوضع الذى يناسب شخصيتكم وموقفكم من كل شىء له صلة بالصهيونية .

ثم هل تطيلون شعر الرأس وتتركون اللحى اقتداء برسول الله ﷺ أو تقليداً للموجة التى جرفت الكثير من شباب الغرب فى طريقها ؟ .

ان موضع اعتراضى هو تقليدكم لغيركم دون وعى . لا مجرد المظهر . وإلا

لو كنتم تفعلون ذلك من باب الاقتداء برسول الله وصحابته لكنت من أشد المرحبين بهذه الروح ، لأننى رأيت الكثير من علماء الهند ، يطيلون شعر الرأس ويدهنونه بالزيت والطيب ، اقتداء برسول الله ﷺ فكنت أسر بهذه الروح وأعجب بها .

وحتى لو فعلتم ما تفعلونه الآن بدافع من تفكيركم الذاتى ، لكان الأمر فيه هيناً وان الحديث عنه لا يتعدى أمر النظافة الواجبة فى هذه الحالة .

أما التقليد بلا وعى ، والإندفاع وراء كل تقليعة فى الأمم الأخرى ، حتى وجدنا بعض الشباب يلبس فى رقبته سلسلة ذهبية كما تفعل الفتيات ، فهذا شىء يجب صده والوقوف ضده لأنه حرام ، ولأن التقليد فى ذاته ضياع لشخصية المقلد وفناء فى غيره ، وتبعية فكرية لمن يقلده ، تجعله دائما تابعا غير شاعر بشخصيته ، ولا معتد بعقله وفكره وتقاليد أمته ، والتبعية الفكرية للغير أخطر على كيان الأمة من التبعية السياسية ، التى تأتى عن طريق القهر والغلبة ، لأن الأمة تكون دائماً شاعرة بما أصابها من قهر ، عاملة على التخلص منه .

أما التبعية الفكرية والإعجاب بكل ما يفعله الغير حتى ولو كان شاذاً فى مجتمعنا فهذا يزين للناس عبوديتهم لغيرهم ، فيقبلونها عن طيب خاطر ، ويظلون تابعين ، لا يحاولون التخلص من هذه التبعية ، وذلك هو الخطر على كيان الأمة ، ولهذا وجدنا المستعمرين لا يهتمون بالتبعية السياسية ، قدر ما يهتمون بربط أفكار الأمم التى استعمروها بأفكارهم وثقافتهم . ورأينا غلاة المستعمرين يشيدون بما تركوه من آثار فكرية وثقافية فى الأمم التى جلوا عنها بعد احتلالها ، لأنها تعنى فى رأيهم ربط هذه الأمم التى تحررت سياسيا ربطها بهم فكرياً وثقافياً ، وهذا له أثره الطويل الفعال الذى يضمن به المستعمرون ربط عجلة هذه الأمم بهم بعد رحيل جنودهم عنها .

فالأمر إذن ليس أمر مظاهر ، ولا يقف عندها ، بل يتسرب إلى أعماق النفوس التى تظل متعلقة بغيرها ، معجبة به ، سائرة وراءه ، تاركة بذلك دينها وتقاليدها ومصالحها ، مهدرة بذلك شخصيتها وكيانها ، ومن أجل هذا وجدنا رسول الله ﷺ وهو المربى والقائد لأمته فى أمور دينها ودنياها يحرص الحرص كله

على أن يجنب أمته شرور التبعية والتقليد ، والتشبه بالأمم الأخرى ، فى مظاهر حياتها الخاصة بها فيقول عليه الصلاة والسلام محذراً ومنذراً ؛ « من تشبه بقوم فهو منهم » والحديث هنا يعنى التشبه والتقليد بغرض التشبه والتقليد ، أنه يصير حينئذ من القوم الذين تشبه بهم فكرياً وذهنياً ونفسيا ، لأنه معجب بهم فى هذه النواحى الخاصة بهم .

فليس كل تشبه مذموماً ، ولكنه التشبه فى المظاهر والتقاليد الخاصة بالغير ، باعتبار أن كل أمة لها مظاهرها وتقاليدها الخاصة وطابعها المميز . . وليس مما يشرف أمة أن تستعير طابع غيرها أو تقاليده إلا إذا إرادت أن تكون أضحوكة الأمم ، كما يفعل بعض المقلدين لإضحاك الناس . . وأعيذ أمتى وشبابها أن يكونوا كذلك .

أن الأمم المحتلة عسكريا تناضل وتقدم التضحيات الغالية فى سبيل جلاء الجنود المحتلين عن أراضيها هذا ما نراه ونلمسه .

حتى إذا تحررت من الاحتلال العسكرى أخذتها النشوة بالحرية التى حققتها وبدأت فى بناء نفسها ، وأول خطر يجب أن تنتبه إليه وتعمل على التحرر منه هو الاحتلال الفكرى والثقافى ، فهو أخطر كما قلت من الاحتلال العسكرى ، والشباب الذى يعتز باستقلاله السياسى ، يجب عليه أن يعتز أكثر باستقلاله الفكرى والثقافى ، ويحرر نفسه من كل تبعية للغير . . ويتجه إلى أرضه ، إلى بيته ، إلى تقاليده ، ويستمد منها وجوده وكيانه ، فلا يعيش كالطفيلى على موائد الغير .

وأحب من الشباب أن يفرقوا بين ما يتصل بتكوين الشخصية المستقلة من فكر وثقافة وتقاليد ، وبين ما يتصل بالعقل والعلم ، فشخصية الأمة بثقافتها وتقاليدها أمر خاص بها ، أما العلم فهو تراث الإنسانية كلها . كل أمة شاركت فى وضع لبنة فى صرحه وفى تكميل ما بدأه الغير فيه ، دون حرج ، بل بالفخر والاعتزاز ، ولم تجرؤ أمة من الأمم على أن تدعى بأن علماً من العلوم خاص بها ، وبشعبها ، ولم تشعر أمة من الأمم بأن مساهمتها فى تقدم العلم الذى فكر فيه وبدأه غيرها ، ينقص من قدرها ، ويجعلها تابعة ، بل إنها تجتهد فى هذه

المساهمة والإضافة ، وتشجع عليها بالمال والجهد ، وهى فخورة بذلك معتزة به ، حتى أصبح سجل الشرف بكل أمة الآن فى التاريخ مرتبطاً بما تقدمه من كشوف واختراعات ، وتقدم فى مجال العلم ، بل أصبحت قوة الأمم الآن مرتبطة كل الارتباط بسبقها للغير فى ميادين العلم .

لذلك كان استغلال ما لدى الغير من علوم ونظريات فى الصناعة والزيادة عليه أمرا واجبا ، يدعو إليه صراع الحياة وغريزة البقاء وحب التفوق .

وليت شبابنا الذين برعوا فى تقليد المظاهر ، وتفننوا فى هذا التقليد ، يحاكون الأمم الأخرى ، المتقدمة علمياً وصناعياً ، فيما برعوا فيه من علوم وصناعة ، ويتجهون إلى سبقهم فى هذه الميادين . . فهذا أجدى عليهم وعلى أمتهم من هذه التوافه والمظاهر التى يجرون وراءها ، ويشوهون وجه الأمة بها . .

ولهذا وجدنا الرسول المربى القائد عليه صلوات الله وسلامه وجزاه عن أمته خير الجزاء ، فى الوقت الذى يشدد فيه على منع التقليد والتشبه بالغير للانمياع والذوبان فيه ، يحرص على أن يعلم أصحابه القراءة والكتابة عن طريق الأسرى المشركين فى معركة بدر ، ويجعل فداء الأسير الذى يعرف القراءة أن يعلم عشرة من المسلمين ، ويوجه زيد بن ثابت ـ صاحبه وكاتب وحيه ـ لأن يتعلم اللغة العبرية من أعدائه اليهود ، حتى لا يحتاج إلى يهودى يقرأ له أو يكتب بالعبرية . . ولم ير فى ذلك أية غضاضة عليه وعلى المسلمين ، لأن العلم مشاع بين الجميع .

ويقول ﷺ يوجهنا إلى العب من العلم والتقاطه أينما وجدناه : « **الحكمة ضالة المؤمن أنى وجدها فهو أحق بها** » سواء أخذها عن مسلم أو غير مسلم ، المهم أن يحصل على ضالته من الحكمة ، والحكمة هنا تشمل كل نافع من المعلومات فى أمور الدين والدنيا .

ولم يجد كبار المسلمين وصلحاؤهم من العلماء غضاضة فى أن يطلعوا على علوم الأولين من اليونان والروم والفرس ، ويستغلوها لصالحهم وصالح دينهم وأمتهم جرياً على توجيه الإسلام .

فلا يخلط الشباب إذن بين ما نطلبه منهم من الاستفادة بعلوم الغير وصناعته والزيادة عليها ، وما نحذرهم منه من تقليد الغير فى مظاهره وثقافته الخاصة به وطابعه المميز له .

لأن العلم تركة مشاعة بين الأمم كلها ، أما ثقافة الأمة وتقاليدها فهى تركة خاصة بها ، لا يليق بأحد من غير أبنائها أن يتطفل عليها ويأخذ منها . .

تقليد . . وتقليد

وخير ما أضعه أمام الشباب والمسؤولين عنهم بهذه المناسبة حديث لرسول الله ﷺ يعلمنا فيه كيف نبنى شخصيتنا المستقلة ، ولا نكون إمعات تابعين لغيرنا ولا أسرى لتقاليد باطلة . يقول فيه : **« لا يكن أحدكم إمعة يقول إن أحسن الناس أحسنت ، وإن أساءوا أسأت ، ولكن وطنوا أنفسكم إن أحسن الناس أن تُحسِنوا ، وإن أساءوا أن تجتنبوا إساءتهم »** .

وهذا الحديث الاجتماعى الشريف فتح أمامنا جبهة أخرى من التقاليد لابد أن نوجه عناية الشباب وغيرهم اليها . ونحذرهم من أن يظلوا أسرى لها . وتلك هى التقاليد التى تسود مجتمعنا ، ولا صلة لها بديننا ولا بتراثنا وبعاليدنا العريقة ، وليست متفقة مع عقولنا ومصالحنا التى نحرص عليها .

ونسأل أو نسائل ، ولماذا التمسك بها بعد ذلك ؟ فيكون الجواب : تقاليد ورثناها ونخشى كلام الناس لو تركناها . . وتكون النتيجة الاستسلام التام لهذه التقاليد الضارة خوفا من كلام الناس . . مع أن الواحدمنا لو تذرع بشىء من الشجاعة وحطم التقاليد ، الضارة ، لوجد من الكثيرين استحساناً ، وتشجيعاً على مجاراتنا فى التخلص من هذه التقاليد .

وأقول لو تذرع بشىء من الشجاعة لأن التقاليد الموروثة فى الحقيقة لها سلطانها القوى على النفوس ، الذى يفوق أحيانا سلطان الدين والعقل ، ولهذا وجدنا القرآن يركز فى مواضع متعددة من الآيات على تحطيم سلطان التقليد وتفتيته ، ويصم الذين يعيشون أسرى لهذا السلطان بأنهم كالأنعام بل أضل من الأنعام ، وليس بعد هذا زراية بالذين يقعون تحت وطأة التقليد الضار الذى ينفر من العقل والدين .

ان بعض التقاليد عندنا مع عدم استساغة الدين والعقل لها تتحكم فى حياتنا كالأغلال التى تقيدنا ويتعدى ضررها إلى إفساد العلاقات الإنسانية وزرع الخصام ، والشقاق والتقاطع فيما بين الأسرة بعضها مع بعض ، وبينها وبين أصدقائها وجيرانها ، حين يكون هناك خروج على هذه التقاليد .

من هذه العادات على سبيل المثال :

الإفراط فى مظاهر المآتم وتحميل مالية الأسرة فوق طاقتها ، وهى فى حاجة إلى ما أنفق على هذه المظاهر !! وتسأل : ولماذا ؟ فيقال لك خوفاً من كلام الناس . . وهل من أجل ذلك نهدر العقل ومصلحة الورثة ؟

ومن هذه التقاليد مظاهر الحزن فى اللبس والمآكل بلبس السود ، وتحريم بعض المأكولات ، حتى ليقاس عمق الحزن بقدر المحافظة على الأسود ، والامتناع عن ألوان من الطعام ولفترة أطول !!

ولقد أعجبنى ما رأيته فى بعض البلاد العربية وفى الأوساط الاسلامية فى البلاد الأخرى التى زرتها ، وأقمت فيها زمناً ، حيث لا يوجد إفراط فى هذه المظاهر والمآتم ، ولا تمسك بملابس الحداد ، ولا صياح على الميت ، ولا خروج للنساء وراء نعشه صائحات نادبات .

أعجبنى ذلك لأنه أثر من آثار التعاليم الإسلامية ، التى لايزال لها سلطانها على النفوس فالاسلام لا يمنع الحزن ، لأنه أمر طبيعى ، ولكنه يكره المبالغة فى مظاهره ، ولا يقر الجلوس لتقبل العزاء أياما ، مع الانقطاع عن مزاولة العمل ، كما لا يقبل من النساء التشبث بمظاهر الحداد إلا زوجة على زوجها . فرسول الله يقول : **« لا يحل لامرأة تؤمن بالله واليوم الآخر أن تحد على ميت فوق ثلاث ليال ، إلا على زوج أربعة أشهر وعشراً »** .

ومما يؤسف له أنه بينما نرى إفراطاً فى التمسك بالتقاليد الضارة نرى تفريطاً وتهاونا فى التمسك بديننا وتقاليدنا الطيبة ، وهذا شىء يدعو إلى أن يراجع كل إنسان منا نفسه ، لتصحيح الأوضاع والسير على الطريق الذى يرسمه ديننا وتتقبله عقولنا . . .

وأحب بهذه المناسبة أن ألفت نظر بعض الشباب الذين يتمردون على كل تقاليد لدينا ، ولو كان صالحا وفيه الخير كل الخير لأسرنا ومجتمعنا ، ليحدوا من غلوائهم ، ويعملوا على تدعيم التقاليد والآداب الصالحة ، ويوجهوا تمردهم إلى التقاليد والعادات الضارة بمجتمعنا ، المخالفة لآدابنا وتعاليم ديننا ، لعلها تتوارى كما تتوارى الجراثيم الضارة ، فيتوفر لمجتمعنا الصحة فى سيره لاحتلال مكانه بين الأمم القوية الناهضة .

والله مع العاملين . .

٥٧ إلى الشاردين

أخاطب بكلمتى فريقاً من شبابنا أعزاء علينا ، وعلى وطنهم ، الذى ينعمون بخيراته ، وينتظر منهم أن يكونوا بارين به ، مخلصين له ولقضاياه ، وتراثه وتاريخه .

أخاطب فريقاً من الشباب زينت لهم أهواؤهم أو ربما قست عليهم ظروفهم ، فلعب بعقولهم دعاة السوء وزينوا لهم أن الخير فى اتباع طريق آخر ، غير طريق آبائهم وأجدادهم ، أو وربما تجمعت كل هذه الظروف عليهم ، فساقتهم الى أن يكونوا نشازاً ، يرقصون على نغمة غير نغمة وطنهم ودينهم ، وحصرت أفكارهم فى دائرة ليست على أية حال من دوائر الوطنيين ، أو المسلمين المخلصين .

وأنا أقول لهذا الفريق من أبنائنا الشبان : إنكم بسيركم فى هذا الطريق ، تعزلون أنفسكم عن بيئتكم المسلمة ، وتتنكرون لوطنكم ، الذى ظل على مدى قرون ، منذ شرفه الله بالإسلام حاملا لواء الفكرة والدعوة الإسلامية ، وحامياً لها ، فأحله العالم الاسلامى مكان الزعامة فى القلوب .

وأنكم بولاتكم لغير دينكم تسيؤون إلى وطنكم ، وتعملون بكل كلمة تصدر منكم ، أو تصرف من تصرفاتكم ، على أن تغضوا من شأنه ، وتفقدوه مكانته العالمية ، وتجعلوه تابعاً لا متبوعاً . فهل لمثل هذا يعدكم وطنكم . ويغدق خيراته عليكم ؟

اننا نعرف أنكم تعلنون إخلاصكم لوطنكم ، وغيرتكم عليه ، ولكن

لا يمكن أن يجتمع الاخلاص للوطن ، مع الهدم لتاريخه ومكانته ، التى كسبها بعمله وجهده وتضحياته على مر السنين . لا يمكن أن يجتمع الاخلاص للوطن ، مع العمل على أن يكون تابعاً لغيره . .

ولقد جرب غيركم من قبل ـ ونحن شباب ـ الطريق الذى تسيرون فيه ، وادعى ما تدعون ، وأعلن ما تعلنون ، ولكن سرعان ما أنكشف أمره ، وظهرت الخيوط التى تشده وتحركه فسقط كما تسقط أوراق الخريف « فأما الزبد فيذهب جفاء ، وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض » .

وتلك سنة الله .

وبقيت وستبقى مصر العريقة فى اسلامها ، العميقة فى تدينها ، أشد عراقة وعمقاً وإقبالاً على عقيدتها ، وحماية لها . . فهل تريحون أنفسكم من هذه اللعبة ؟ .

أريحوا أنفسكم وتعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم وهى الإخلاص لهذا الوطن وتاريخه وتراثه ، والعمل على النهوض به ، والحفاظ على مكانته ، بالطرق السليمة الأمينة ، البعيدة عن الهزات والمطبات .

ادرسوا أيها الشبان منهج الإسلام فى الإصلاح والنهوض ، كما درستم المناهج الأخرى ، ستجدون أن الإسلام بمناهجه ومبادئه كفيل بالاصلاح السليم ، كفيل بتحقيق ما نرجوه لأمتنا من قوة وأمن واستقرار . ونهضة وتقدم ، فى كل مجالات الحياة ، فادرسوا ، ولا تغلقوا عليكم النوافذ ، ولا تعصبوا عيونكم حتى لا ترى النور .

إن ما ترونه ونراه من تخلف ليس مرجعة الإسلام ، بل مرجعه إلى أننا لا نحتكم لمبادىء الاسلام وتعاليمه ، ولا نعمل على تطبيق منهجه فى حياتنا .

إن الإسلام لايقر هذا التخلف الخلقى أو الحربى أو الصناعى أو الاجتماعى ، أو غير ذلك من مظاهر التخلف ، بل أنه ينكر على المسلمين أن يعيشوا متخلفين ، ووضع لهم العلاج السليم ، لكل مرض ، وجعل الحرية والشورى أساس كل تحرك للنهوض ، والقضاء على التخلف ، احتراماً منه

لكرامة الإنسان وعقله . ودوره فى أداء واجبه لوطنه ، فلا يسوقه للعمل سوق الأغنام ، ولا يعتبره ترساً فى آلة ، أو مسماراً فى ترس ، حتى كان من تقديره للحرية أنه أمر رسوله ﷺ أن يستشير أصحابه حين قال له :

﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ .

فإذا كنتم يا أبنائى تريدون الخير لوطنكم حقاً ، فادرسوا الإسلام ومناهجه فى الإصلاح ، تجدوا الخير والأمان والاصلاح والاستقرار .

أبنائى عودوا إلى حمى دينكم ووطنكم يحميكم الله ويرعاكم .

٥٨ لستم وحدكم ياشباب

حينما نتجه بحديثنا إلى الشباب فإنما يعنى ذلك اهتمامنا بدورهم والمسؤولية التى تنتظرهم فى النهوض بوطنهم .

ويعنى ذلك أيضاً شدة حبنا لهم وغيرتنا عليهم ، ورغبتنا فى أن ينجحوا ، وينهضوا بوطنهم ، ويحققوا له مالم تساعدنا ظروفنا على تحقيقه .

ونحن حينما نوجه لهم حديثنا ، ندرك تماماً أن للشباب ظروفه وطبيعته ، ففيه نزعة للتمرد والتجديد ، وهذه فى حاجة إلى حراسة ، حتى لا تصل نزعة التمرد فيه إلى نزعة الهدم لكل شىء . .

وفيه مع ذلك نزعة التطلع ، والعشق للنظم والمثل ، والقيم العليا ، وهذه يجب أن ننميها ونزكيها ، ونمهد الجو لرسوخها ، ونحذر أن نضعف فيه هذا التطلع ، أو نصدمه فيه بتصرفاتنا نحن الكبار ، حتى يتمزق الشباب ويستهتر بالقيم والمثل . . وهذا حق الشباب على جيل آبائهم ومربيهم . .

ولقد وصلتنى رسائل من بعض الشبب واستمعت إلى الكثير منهم بعد أن استمعوا لأحاديثى الماضية ، ومن واجبنا أن نفسح صدورنا لهم ، ونستمع اليهم ونتعرف على تصوراتهم ، وآرائهم ، ووجهة نظرهم . .

لم يعترض الشباب على ما وجهناه إليهم ، ولكنهم قالوا لسنا وحدنا الملومين ، إننا نحتاج جو نعيش ونتربى فيه . . والذين يصنعون هذا الجو هم الكبار ، فنحن لم نجد توجيهاً لنا مركزاً على القيم الدينية والخلقية ، التى تدعونا اليها حتى فيما نقرؤه من كتب ومجلات ، بل ربما وجدنا فى بعض الأقلام أوالكتب

والمجلات ما يباعد بيننا وبين ديننا وقيمنا التى تدعونا إليها .

ثم ماذا نصنع أمام هذا الجو الذى أنصرف فيه أغلب البنات والسيدات إلى هذا المظهر الذى نراه فى الجامعة والشارع والمكاتب ؟

نحن نتطلع إلى مجتمع فاضل ، تتوفر فيه القيم ، وينصرف فيه كل إلى عمله ، وتذهب أمه أو أخته أو زوجته أو بنته للجامعة ، أو العمل أو السوق ، ولا تسمع كلمة نابية أو تجد تصرفاً يؤذيها . .

نحن نريد مجتمعاً يؤدى فيه كل إنسان واجبه ، ولا يهمل فيه . ولا يتطاول على غيره .

ولكننا نرى أمامنا من جيل الآباء والمربين من يصدموننا فيما نتطلع اليه .

إننا نتمزق حينما نرى إستاذاً يعامل طلبته ، أو موظفاً يعامل المترددين عليه ، بغير ما نتوقعه منه .

إننا نتمزق حينما نرى إهمالاً وتراخياً من الموظفين المسؤولين فى واجباتهم .

وقد يدفع ذلك بعضنا إلى التمرد والاستهتار ، ولكن إلى متى يستمر ذلك ، وهل نبقى نحن وحدنا الملومين . . ؟

لا يا شباب . . لستم وحدكم . هذا لا شك فيه .
ولكن المستقبل لكم وحدكم ، لن نشارككم فيه .

فقاوموا كل عوامل الفساد والضعف بهمتكم وعزيمتكم وعشقكم للمثل العليا ، لتكونوا أسعد حظاً من جيل المربين والآباء .

وثقوا أننا سنكون بذلك ـ لو عشنا ـ من أسعد السعداء والله معكم .

٥٩ للمسؤولين عن الشباب

هذا حديث لا أوجهه للشباب وحدهم ، ولكنى أوجهه كذلك لإخواننا المسؤولين عن تربية الشباب وتقديم المادة العلمية لهم فى دروسهم .

والذى دعانى لهذا هو ما تقرره كتب الأحياء التى تدرس لأولادنا عن نظرية دارون فى التطور من أن الإنسان تدرج من خلية تطورت على مر الزمن حتى صارت قرداً وتطور القرد حتى صار إنساناً .

وهذه الكتب تعرض هذه النظرية على أنه حقيقة وصحيحة ١٠٠٪ مع أنها لا تزال نظرية فرضية لم تبلغ حد الحقيقة ولها معارضون كثيرون حتى من زملاء دارون وتلامذته .

ولكن مؤلفينا يضفون عليها ثوب الحقيقة المقررة ، ويوقعون الطلاب فى شك من أمر دينهم قد يؤدى بهم إلى رفض وتكذيب ما تحدث عنه القرآن الكريم من قصة خلق آدم .

فالطالب يتعلق بما يدرس له على أنه حقيقة علمية ويصبح من السهل عليه أن يتحلل مما يجده فى القرآن الكريم ، وينظر إليه على أنه كتاب مخالف للحقائق العلمية المقررة . وكان على مؤلفينا أن يلتزموا الدقة العلمية فيذكروا أن هذه النظرية لم تثبت بعد ، وأنها لا تزال افتراضية ، ولها معارضون كثيرون ، حتى يكونوا أمناء على العلم ويذكروا بجوار ذلك نظرية القرآن الكريم فى خلق الإنسان الأول التى جاءت فى آيات كثيرة منه حتى يكونوا أمناء على دينهم ودين الطلاب وعلى العلم أيضا ، فالقرآن الكريم يخبرنا عن خلق الإنسان الأول

فيقول ﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشراً من صلصال من حما مسنون فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين ﴾ [١] كما يذكر القرآن تعلم آدم الأسماء وسجود الملائكة له فى الجنة إلا إبليس ثم هبوط آدم وحواء من الجنة فى عدة سور منه .

ولا يمكن لمسلم أن يهمل هذا الكلام وهو كلام رب العالمين ولا يليق به أن يقرر معلومات تؤدى إلى رفضه وإنكاره وتكذيبه . لاسيما والنظرية لاتزال افتراضية . لم تثبت كحقيقة علمية لاشك فيها . .

ان القرآن الكريم لا يرفض التطور بصفة عامة ولكنه يرفض رأى دارون فى تطور خلق الإنسان من حيوان .

ومع الأسف الشديد ، فإن مانشغل نفسنا به الآن ونعانيه ونشكو منه هو النتيجة النهائية لما رسمته الصهيونية وخططت له من زمن بعيد بخصوص هذه النظرية دون أن ندرى .

جاء فى كتابهم السرى « بروتوكولات حكماء صهيون » .

« لقد رتبنا نجاح دارون وماركس ونيتشه بالترويج لأرائهم ، وإن الأثر الهدام الذى تنشئه علومهم المادية فى الفكر غير اليهودى واضح لنا بكل تأكيد » .

« إن دارون ليس يهودياً ولكنا عرفنا كيف ننشر آراءه على نطاق واسع ، ونستغلها فى تحطيم الدين . يجب أن نعمل لتنهار الأخلاق فى كل مكان فتسهل سيطرتنا . . »

وهكذا وقعنا فيما خططت له الصهيونية باسم العلم ، كما وقعنا ووقع العالم فى أمور كثيرة أخرى من تخطيطهم الخبيث .

وقد جاءت الأبحاث بعد ذلك فأثبتت عدم صحة هذه النظرية وتنبهت لذلك أمم ، فمحت من كتبها ما يفيد أنها حقيقية . . فقد نشرت الأهرام فى صفحتها الأولى بتاريخ ٨ نوفمبر سنة ١٩٧٢ م ، تقول :

---

١ - سورة الحجر آيات ٢٨ ، ٢٩ .

كشيفت عمره ٢,٥ مليون سنة يهز نظرية دارون عن التطور ، فقد تم اكتشاف بقايا عظام جمجمة انسان مع عظام لساق بشرية .

وهذا الاكتشاف يقلب النظريات القائمة بشأن التطور ويدل على أن المخلوق الإنسان المنتصب ذا الساقين لم يتطور عن المخلوق البدائى الذى يشبه القرد كما تقول نظرية دارون .

كما نشرت جريدة الأخبار فى مارس الماضى ما نشرته مجلة الأيكومونومست البريطانية فى ١٠ مارس أن المجلس التعليمى فى ولاية كاليفورنيا الأمريكية قرر بأن تشير جميع الكتب المدرسية الخاصة بالعلوم إلى نظرية الارتقاء الداروينية بأنها نظرية افتراضية وليست حقيقية .

وان ما قيل عن أصول الحياة لا يعدو على أحسن تقدير أن يكون مجرد افتراض ذكى .

وقالت المجلة أن هذا يعتبر انتصاراً للعلماء الذين قاموا بحملات ضد نظرية دارون منذ ٦٣ سنة .

وأقول أن هذا يعتبر انتصاراً كذلك للمؤمنين بالله والكتب المقدسة التى تحدثت عن خلق آدم وذلك لأن دعاة الإلحاد هنا وفى العالم ، اعتمدوا على نظرية دارون فى التطور ، وأنكروا وجود إله خالق للكون ، واجتهدوا بوسائلهم الكثيرة وبمساعدة الصهيونية فى نشر هذا الالحاد على أوسع نطاق لهدم الإيمان والقيم الخلقية .

وكان من تقليدنا الأعمى للغرب ولما ينشر فيه من آراء أن آخذ علماء الأحياء المسلمون بهذه النظرية متجاهلين عقيدتهم وقرآنهم . . مع الأسف الشديد - واجتهدوا فى تلقينها لأبنائنا كحقيقة علمية مسلمة حتى لا تجد متخرجاً أو طالباً إلا وهو يردد هذا الكلام دون أن يدرى خطره . .

ولهذا أرجو أن يدارك المعنيون بأبنائنا هذا الموضوع رعاية للأمانة العلمية ورعاية لعقيدتنا وعقيدة أبنائنا حتى لا يقعوا فريسة فى مخالب الملحدين .

٦٠ يد الله مع الجماعة

جرت سنة الله فى الكون ، وفى حياة الأمم ، أن يكن ، التجمع والتوحد دائما اساس الوجود ، وسبيل القوة والمنعة ، ومصدر الخير والنجاح ، وأن يكون التفرق والتشتت نذير الشر والفناء نلاحظ هذا فى أنفسنا ، وفى كل مظهر من مظاهر الكون أمامنا .

فالمجموعة الشمسية تسير منتظمة حول مركزها ، وحدة لا تنفك ولا تتغير ، ﴿ لَا الشَّمْسُ يَنبَغِى لها أَنْ تُدْرِكَ القمر ولَا اللَّيْلُ سابِقُ النَّهارِ وكُلٌّ فى فَلَك يَسْبَحُونَ ﴾ (١) .

والأشجار والنباتات تظل مزدهرة مثمرة ورقة مادامت الفروع والأغصان والثمار قائمة على أصولها فى وحدة متناسقة ، فإذا شذ عنها فرع ، أو سقطت منها ورقة أو غصن أصابه الذبول والموت . « ومن شذ شذ فى النار » « وإنما يأكل الذئب من الغنم القاصية » .

والماكينة التى يصنعها الإنسان لا تدور ولا تنتج ، إلا إذا تعاون كل ترس ، وكل مسمار وجزء فيها صغير أو كبير على أداء مهمته ودوره ، فى تناسق وتضامن .

والإنسان نفسه فى أصل وجوده وفى استمرار هذا الوجود ، مثل حى على قيمة التجمع والتوحد والتضامن فى الحياة ، وقوة الإنتاج ، فهو لا يحيا ولا تتوفر له الحة إلا إذا تجمعت كل أجهزة جسمه ، وتضافرت على أداء مهمتها

---

١ - سورة يس : ٤٠ .

ووظيفتها ، وهكذا نرى العمل الجماعى المتناسق سر وجود هذه الحياة ، وما فيها من سماء وأرض ، وهو كذلك سر انتظام هذه الموجودات وأدائها لمهمتها ووظيفتها . .

تلك هى سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا .

لن تجد لهذه السنة تحويلاً كذلك فى حياة الإنسان وسلوكه ، وفيما يريده لنفسه من خير ، فقد اقتضت إرادة الله أن الإنسان لا يستطيع أن يوفر لنفسه القدر الممكن من الخير والنجاح والسعادة ، فى هذه الحياة ، إلا إذا كان مراعياً لهذه السنة ، متعاوناً مع غيره ، مخضعاً رغباته وجهوده لمصلحة المجموع ، معتقداً أنه عضو فى جسم كبير ، لا يمكن أن ينفصل عنه ، أو يعمل ما يتنافى مع سلامة هذا الجسم ، أو ما يضر كيانه ، ويضعف بنيانه .

على هذه السنة الطبيعية جاء الإسلام ، وقامت كل مبادئه وتعاليمه لتربية الإنسان ، وإرشاده . فأتباعه لابد أن يتجمعوا حول رب واحد ، يخصونه بالعبادة والخضوع والتقديس ، وحول رسول واحد يطيعونه ويقتفون أثره ، ﴿ مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ ﴾ .

﴿ فَلاَ وَرَبِّكَ لاَ يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُ ثُم لا يجدُوا فى أَنْفُسِهِمْ حرجاً مِمَّا قضيْتَ ويُسَلِّمُوا تَسْلِيماً ﴾ [1] وحول كتاب واحد هو القرآن الكريم يسيرون على ضوئه وهداه ، ﴿ واعتصِمُوا بِحَبْلِ الله جَميعاً وَلاَ تَفرَّقُوا ﴾ [2] .

﴿ وانَّ هذا صِراطِى مُسْتَقِيماً فاتَّبِعُوهُ ولا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتُفرَّق بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [3] وحول قبلة واحدة يتجهون إليها فى صلاتهم ﴿ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ المَسْجِدِ الحَرَامِ وَحَيْثُما كُنْتُمْ فَوَلُّوا وجُوهكُمْ شَطْرَهُ ﴾ [4] ثم أعلن أن المؤمنين أمة واحدة متناصرة .

﴿ والمُؤْمِنُون والمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بعْضٍ ﴾ [5] وانهم أسرة واحدة متآخية ﴿ إِنَّمَا المُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ ﴾ [6] .

---

١ ـ النساء : ٦٥ .
٢ ـ آل عمران : ١٠٣ .
٣ ـ الانعام : ١٥٣ .
٤ ـ البقرة : ١٥٠ .
٥ ـ التوبة : ٧١ .
٦ ـ الحجرات : ١٠ .

وجعل الخروج عن هذه السنة الطبيعية وتفريق وحدة المسلمين جريمة يستحق مرتكبها غضب الله وعذابه .

﴿ وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ ما تَبَيَّنَ له الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِين نُوله مَا تَولَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّم وَسَاءتْ مَصِيرا ﴾ [١] . وذلك لأن الخروج عن هذه السنة تمزيق لوحدة المسلمين ، وإضعاف لقوتهم ، وتحطيم لشوكتهم ﴿ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُم ﴾ [٢] .

وكانت حياة الرسول العملية مع أصحابه تطبيقاً نموذجياً لهذه الروح الجماعية ، وتدعيماً لها ، فكان مع أصحابه كأحدهم ، يكره أن يتميز عليهم ، ويستشيرهم ، ويستجيب لآرائهم ، ويعلمهم أن يحب المسلم لأخيه ، ما يحبه لنفسه ، ويصور لهم الأمة الإسلامية كجسد واحد ، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الأعضاء بالسهر والحمى ، وان المؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضا ، ويحذرهم من التفرق والشذوذ عن الجماعة فيقول لهم : « **من فارق الجماعة قيد شبر فقد خلع رقبة الإسلام من عنقه** » ويدعوهم للحرص على الجماعة ، والانتظام تحت لوائها ، وتنظيم أنفسهم . حتى فى السفر ، فيقول لهم «**إذا خرج ثلاثة فى سفر فليؤمروا عليهم أحدهم**» .

بهذه الروح الجماعية ربى الإسلام أتباعه ، وكون مجتمعهم الأول ، فانطلقوا إلى رحاب الأرض يبنون ويعمرون ، ويكونون المجتمعات الإسلامية ، فى البلاد التى فتحوها ، على هدى من دينهم ، وعلى أساس من التعاون الصادق ، والمحبة الخالصة ، والإيثار على النفس ، فلم تقف أمامهم صعوبات ، ولم يعرفوا المستحيل ، وأدهشوا من عاصرهم ، ومن أتى بعدهم ، بما حققوه من انتصارات ، وما أسسوه من حضارات ، وما خلفوه وراءهم من أمجاد .

ثم أتى عليهم حين من الدهر خمدت فيهم هذه الروح الجماعية واستشرت فى نفوسهم الروح الفردية ، وطغى عليهم حب النفسية . والانعزال ، فتحققت فيهم سنة الله ، من الضعف ، والخور وتسلط الغير عليهم ، وعلى مقدراتهم ،

---

١ ـ الأنفال : ٤٦ .

٢ ـ النساء : ٧٥ .

وثروات بلادهم ، ولن يتخلصوا من هذا الحاضر المؤسف إلا بشيوع تلك الروح الجماعية التى تصنع المعجزات ، ولعلهم يهتدون .

٦١ الوحدة سر الحياة

فى حديثنا للشباب عن المعانى الكريمة والأهداف السليمة ، يجدر بنا أن نستفيد من ظواهر الحياة أمامنا ، ومن سنة الله الجارية فى خلقه ، وتستمد منها العبرة .

لقد جرت سنة الله سبحانه فى القرآن الكريم على لفت الأنظار والعقول الى ظواهر الخلق فى السموات والأرض لنخرج من هذا بنتيجة تنفعنا فى حياتنا . .

واتباعاً لهذه السنة الكريمة نحب ـ أن نستعرض بعض مظاهر الوجود أمامنا ونستمد منها ما يخدم هدفنا ، ونأخذ منها الدليل الذى ترتاح إليه عقولنا .

فالكرسى الذى نجلس عليه ، والسيارة أو الطائرة التى نركبها والماء الذى نشربه ، والطعام الذى نأكله ، والبيت الذى نسكنه وجسمنا الذى يتحرك . كل واحد من هذه الأشياء مركب من أجزاء تجمعت ، وتفاعلت ، وتعاونت ، ليؤدى الشىء فى النهاية وظيفته أو عمله الذى خصصه الله له . .

فلو تفككت هذه الأجزاء وتفرقت فقد الشىء قيمته ، وتوقف عن أداء عمله ووظيفته .

معنى هذا أن عجز أى شىء عن أدائه لوظيفته سببه تفرق أجزائه ، وتباعد عناصره بعضها عن بعض، فالحياة إذن سرها التجمع ، والفناء والموت سره التفرق .

هذه سنة الله الجارية فى خلقه ، وعليها قامت السموات والأرض والجماعات والأمم فى حياتها وقوتها ، وموتها أو ضعفها ، خاضعة لهذه السنة الالهية .

فالأمة تحيا حياة كريمة ، ويقوى شأنها ، إذا تجمع أفرادها وتكتلوا ، وأدى كل منهم واجبه ، متعاوناً مع الآخرين .

وتموت الأمة ، أو يضعف شأنها ، وتذل رقابها ، ويضيع . . سلطانها ، إذا اختلف أفرادها ، وتفرقت قلوبهم وجهودهم تبعاً لأهوائهم ، ولم يتعاون كل فرد مع الآخرين فى أداء الواجب عليه ، تماماً كالسيارة إذا اكتملت أجزاؤها وأدى كل جزء فيها وظيفته تحركت ، وإذا تناثرت أجزاؤها وأدى كل جزء فيها وظيفته تحركت ، وإذا تناثرت أجزاؤها أو اختل جزء منها ، فقدت قوتها على الحركة وجرتها عربة يجرها حمار .

هذه الظواهر التى أمامنا لابد أن نتأملها جيداً حين نفكر فى تهيئة أسباب القوة لأمتنا ، لنعلم علم اليقين أن أول حجر فى بناء هذه القوة ، إنما هو التجمع والتكتل والتوحد ، لتكون الأمة كلها جسماً واحداً ، ينبض بقلب واحد فى اتجاهها لهدفها وغايتها .

ومن هنا كان سر تشبيه الرسول ﷺ للمؤمنين بالجسد الواحد حين قال :

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد ، إذا اشتكى بعضه اشتكى كله » وفى رواية أخرى **« إذا اشتكى عضو منه تداعى له سائر الأعضاء ، بالحمى والسهر »** [١] . **فالجسم كله يعتل ويمرض ، ويتألم ، ولا يستطيع أن يقوم بوظيفته وعمله ، إذا أصيب عضو منه بمرض ، وكان تصويره أيضاً للأمة بأنها « بنيان مرصوص »** كل فرد فيها لبنة وجزء من هذا البنيان ، يكمل بعضها بعضا حين قال ﷺ : **« المؤمن للمؤمن كالبنيان المرصوص يشد بعضه بعضاً »** .

فانظر يا أخى ماذا يكون مصير هذا البنيان لو تفرقت أجزاؤه ، وتناثرت لبناته لتعرف أن الامة حين تتحلى عن وحدتها ، تتخلى عن وجودها وعزتها وكرامتها ، وهل يرضى أحد أن يتنازل عن وجوده أو يفرط فى عزته وكرامته ؟ . . اللهم إذا كان مما تحدث عنه الشاعر :

---

١ ـ أخرجه أحمد فى مسنده ومسلم فى صحيحه عن النعمان بن بشير رضى الله عنه .

ولا يقيم على ضيم يراد به
إلا الأذلان : عير الحى والوتد

الاتحاد على عقيدة :

ولهذا نجد المولى سبحانه وتعالى فى تربيته للأمة الإسلامية وتبصيرها بعامل العزة والقوة الأساسى فى حياتها ، يوجهها عن طريق الأمر الإلهى أن تتجمع وتتحد ، وأن يكون عامل هذا التجمع هو إيمانها بربها ورسولها ، واتخاذ القرآن الكريم هادياً لها فى حياتها فيقول سبحانه وتعالى :

﴿ يا أَيُّها الَّذِين اتَّقُوا الله حَقَّ تُقَاتِهِ ولاَ تَمُوتُنَّ إلاَّ وأَنْتُمْ مُسْلِمُون وأعتصِمُوا بِحَبْلِ الله جَمِيعاً وَلاَ تَفَرَّقُوا ﴾ (١) وحبل الله الذى يأمرنا أن نتجمع حوله ونلوذ به ، ونعتصم بحماه ونوره وهديه هو القرآن الكريم ، الذى يصفه الرسول ﷺ فيقول :

« إن هذا القرآن هو حبل الله المتين وهو النور المبين ، وهو الشفاء النافع ، عصمة لمن تمسك به ، ونجاة لمن اتبعه » (٢) .

وكثيراً ما يتجمع الناس حول فكرة وعقيدة يقتنعون بها ويدافعون عنها ويضحون فى سبيلها ، وقد تكون خطأ أو صواباً ، لكن حين تكون الفكرة أو العقيدة بارشاد من الله العلى الحكيم ، وتوجيه من رسوله الكريم ، فإنها لا تكون إلا حقاً وصدقاً :

﴿ وَمَنْ يَعْتَصِمْ بِالله فَقَدْ هُدِى إلى صِراط مُسْتَقِيم ﴾ .

ومع ما تضفيه هذه العقيدة الإلهية على أتباعها من عزة ومنعة فى دنياهم لارتباطهم بالله ، فانها تكون لهم كذلك نعم الزاد والحارس فى أخراهم .

وهذا هو الفرق بين العقيدة أو الفكرة الأرضية التى يجتمع الإنسان عليها ، ويدافع عنها ، وبين العقيدة الإلهية التى تصل الإنسان بخالقه ، وتشعره فى بذله وتضحيته بالاطمئنان أو هذا هو الفرق بين التجمع حول عقيدة أو فكرة أرضية ، لا ولن ترقى الى السماء ، وبين التجمع حول العقيدة الإلهية التى

---

١ ـ آل عمران : ١٠٣ .

٢ ـ رواه الإمام على رضى الله عنه وفى سنده الحارث الأعور وهو ضعيف .

يحرسها كتاب الله الذى : ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه ﴾ والتى ترقى بالإنسان إلى السمو أو السماء ، فيعلو على كل ما فى الأرض من منافع وأهواء ، فى سبيل اعزاز عقيدته ورضاء خالقه .

ومع أمر الله سبحانه للمؤمنين أن يعتصموا ويتحصنوا بعقيدتهم وقرآنهم . فإنه يبصرهم بأخطار الطريق وما تهب عليه من عواصف تفرق جمعهم ، ويحذرهم من أن يبتعدوا عن حصنهم ، فيتيهوا ، فيقول لهم : ﴿ وأنَّ هَذَا صِرَاطِى مُسْتقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلاَ تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتفَرَّقَ بِكُم عَنْ سَبِيلِهِ ﴾ [١] ويقول :

﴿ وأطِيعُوا الله وَرَسُولهُ وَلاَ تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهب رِيحُكُم وَاصْبِرُوا ﴾ أمام نوازع الهوى وعوامل التفرقة ، حتى تتغلبوا عليها ، وتحافظوا على وحدتكم وقوتكم : ﴿ إن الله مع الصابرين ﴾ [٢] بعونه ورعايته وحمايته ونصره .

ويضع الرسول ﷺ أمامنا النذر من أحداث الماضى ، لنعتبر بها ، ويبين لنا سنة الله الجارية فى الأمم على اختلاف أزمانها ، وأجناسها ، وأديانها ، فيقول لنا : « لا تختلفوا فإن من كان قبلكم اختلفوا فهلكوا » . لنكون على بصيرة من أمرنا ، ولا نسعى الى الهلاك والذلة ، وتمكين عدونا منا باختلافنا وتفرقنا ، وتشتت شملنا .

فإنه لا يشفع لنا حينئذ أننا نشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، لأننا لم نعطها حقها من العمل ، ولم نلتزم بما توجبه علينا من سلوك فالعبرة فى النهاية دائما بالعمل والسلوك ، لا بمجرد القول والشعارات .

ولذلك نجد الرسول ﷺ يقول لأتباعه :

« لا ترجعوا بعدى كفاراً يضرب بعضكم رقاب بعض » [١] .

قالوا : ونحن نشهد أن لا إله إلا الله وأنك لرسول الله ؟ قال : « نعم » .

---

١ ـ الأنعام : ١٥٣ .

٢ ـ الأنفال : ٤٦ .

١ ـ اخرجه احمد فى مسنده والبخارى ومسلم والنسائى وابن ماجه عن جرير وأخرجه احمد فى مسنده أيضا والبخارى وأبو داود والنسائى وابن ماجه عن ابن عمر وأخرجه البخارى والنسائى عن أبى بكرة . وأخرجه البخارى والترمزى عن ابن عباس وهو حديث صحيح . انظر فيض القدير .

ذلك لأن نطقهم بالشهادة لم يمنعهم من أن تتفرق قلوبهم ، وتتلاعب الأهواء والأحقاد بنفوسهم ، فلم يحققوا فى مجتمعهم أخوة الإسلام ولا مقتضيات الإيمان .

فحقت عليهم سنة الله فى الضعف والخذلان . . وارتفعت عنهم رعاية الله ، وتركهم لأنفسهم واحقادهم ، ليأخذوا الدرس من واقعهم ، وما أقساه من درس تمر به الأمم ، ولا سيما نحن المسلمين ، وأمامنا عبرة التاريخ ، وفى يدنا كتاب الله وسنة رسوله الذى يقول : « **تركت فيكم ما إن تسمكتم بهما لن تضلوا بعدى أبدا : كتاب الله وسنتى** » .

اللهم أهدنا صراطك المستقيم . . . .

٦٢ الوحدة الاسلامية والوحدة العربية

لقد وحد الله سبحانه بين المسلمين حين أعلن فى كتابه وعلى لسان رسوله ﷺ أنهم أخوة على اختلاف أجناسهم ولغاتهم وألوانهم وأوطانهم . وكانت هذه الوحدة وهذه الأخوة من صنع الله ، لأنها تستمد روحها وقوتها من الإيمان بالله ورسوله وبما جاء به من عند الله .

وقد فعلت هذه الوحدة الأخوية فعلها فى النفوس ، فجمعت شمل العرب المتفرقين ، ثم لفت تحت لوائها الأمم الأخرى من غير العرب ، وأصبح الجميع بفضل الله إخواناً متعاونين متحابين ، يشعر الواحد منهم فى أقصى المشرق ، بشعور أخيه فى أقصى المغرب ، ويهب لنجدته ويفرح لفرحته ، غير ناظر إلى جنسه أو لونه أو لغته ، بعدما صهرت أخوة الإسلام كل هذه الفوارق وأصبح شعاره :

« المسلم أخو المسلم لا يظلمه ولا يخذله ولا يخفره ولايسلمه »
« المسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدانهم وهم يد على من سواهم » .

وبهذه الأخوة العظيمة ، والوحدة المكينة ، طورى المسلمون الدول العظيمة التى حولهم ، حين خرج العرب من شبه الجزيرة ، يبشرون بمبادىء الإسلام : دين الأخوة والعدل والمساواة فنشروا لواء الإسلام شرقاً وغرباً ، وأسس المسلمون حضارة فاضلة سعد الجميع فى ظلها ، وإستمدت أوربا منها حضارتها

وللأخوة الإسلامية ـ دائما سحرها وقوتها فى ربط الأمم بعضها ببعض ،

وتكوين قوة بشرية وروحية لها وزنها وتأثيرها فى مجرى الحوادث العالمية ، ولاسيما فى عالم تسعى دوله الآن للتكتل المصطنع .

وبمقدار قوة الإيمان فى النفوس ، والإستجابة له وتغليبه على كل ما عداه يكون إزدهار هذه الأخوة وقوتها فى ربط الأمم الإسلامية وتوحيدها .

وهنا يقفز فى الأذهان تسأول : إذا كانت الأخوة والوحدة الإسلامية ، تتخطى حواجز الجنس والوطن ، فماذا يكون موقفها من الدعوات الوطنية والقومية ؟

هل تتصادم مع قيام أوطان متعددة ومستقلة للمسلمين ، لكل وطن حاكمة المستقل فى تدبير شؤونه ؟

وهل تتصادم مع الدعوة لتكتيل قوم من المسلمين لهم خصائصم المميزة لهم من جنس ولغة ، إذ كان هذا التكتل لمصلحتهم ومصلحة المسلمين عامة ؟ . . .

هل ترفض استغلال الروح القبلية أو الإقليمية مثلا لبعث روح التنافس الخير والعمل المنتج لرفع مستوى القبيلة أو الإقليم وتوحيد جهود أبنائه للوقوف فى وجه المعتدين عليهم من أعدائهم ؟

الذى أعتقده أن الإسلام يضع أمام المسلمين مثلاً أعلى فى حياتهم ، وهو : وحدتهم الشاملة تحت حكم واحد ، لو كان ذلك مستطاعاً . .

لكنه مع ذلك لا يصادم الظروف ، ولا يقف أمامها جامداً ، ولا يمنع ـ تحت ظروف خاصة ـ قيام أوطان إسلامية متعددة ، لكل وطن ظروفه ، لكن على أساس السير فى الإتجاه الإسلامى ، وتحت لواء الأخوة الإسلامية مع الأوطان الأخرى ، بحيث يكون هناك تجاوب بين الجميع فى السراء والضراء .

بل ان الإسلام لا يمنع إثارة العصبية القروية مثلا فى سكان القرية ، لينهضوا بها ، ويتعاونوا فيما بينهم لتحقيق مصالحها العامة ، كما تفعل القرية أو القرى المجاورة .

فإثارة العصبية الأسرية ، أو القبلية أو القروية ، أو الأقليمية ، أو الوطنية ، أو القومية ، لتوحيد الصفوف وتكتيل الجهود فى جزء من العالم الإسلامى ، وفى

سبيل الخير والمصلحة لجماعة من المسلمين أمر لا يرفضه الإسلام ، بل يباركه ، ولا يتنافى مع الوحدة أو الأخوة الإسلامية ، مادام التكتل ليس موجها ضد مصالح المسلمين الآخرين ، بل يخدمهم ، ويرفع شأنهم ، باعتبار أن قوة أى جزء من الوطن الإسلامى قوة لبقية الأجزاء ، ونهوض أى وطن إسلامى ، يعود بالخير على الأوطان الإسلامية الأخرى . .

والذى يمقته الإسلام ويحاربه ، ويتصادم مع الأخوة والوحدة الإسلامية ، إنما هو إثارة العصبية ، من أى نوع كان ، للتفرقة والهدم ، وبذر بذور العداء بين المسلمين ، الأمر الذى ـ يضعف شأنهم ، ويطمع فيهم أعداءهم ، ويفتح الطريق لسيطرة الأجانب عليهم ، ونهب خيراتهم .

إنه ليس من مصلحة الإسلام والمسلمين أن ننكر على إنسان وطنى مسلم ، قام فى وطنه الإسلامى الصغير ، يستغل الروح الوطنية فى أبنائه ، ويثير فيهم عصبيتها ، ليطردوا المستعمرين ، ويبنوا فى بلدهم نهضة صناعية وزراعية وحربية ، . . لا ننكر ذلك بحجة أنه يتنافى مع الأخوة أو الوحدة الإسلامية ، مادام الداعى متأدباً وملتزماً بآداب الإسلام .

ليس من مصلحة الإسلام ولا المسلمين ، أن ننكر على زعيم فى قبيلة أو قرية استنفر أبناءها باسم التعصب لقبيلة أو قرية ليرفع مستواها ، وينهض بها ، بحجة أن إثارة العصبية يتنافى مع الأخوة الإسلامية ؟

ليس من مصلحة الإسلام ولا المسلمين أن ننكر على ملك ورئيس فى أية دولة من الدول الإسلامية الحاضرة ، قام يدعوهم ليوحدوا صفوفهم ، وينبذوا الخلافات التى بينهم ، ليطهروا بلادهم من النفوذ الأجنبى ، ويحموا مقدساتهم ويستعيدوا أمجادهم ، باعتبار أنهم جنس واحد ومصالحهم مشتركة ، ولغتهم واحدة وتقاليدهم واحدة . . . وعدوهم واحد . . بحجة أن دعوته هذه تتنافى مع الوحدة والأخوة الإسلامية !!

نعم ليس من مصلحة الإسلام والمسلمين أن ترتفع بعض الأصوات لتهدم باسم الإسلام مثل هذه الجهود التى تبذل ، للنهوض بجزء حساس من الوطن الإسلامى ، إذا عز شأنه عز المسلمون جميعاً ، وإذا قوى كانت قوته لخدمة

المسلمين جميعاً وحماية مصالحهم ـ لاسيما إذا رأينا مع هذه الجهود التى تبذل لتوحيد العرب ، وتكتيل قواهم ، جهوداً اسلامية ضخمة تبذل فى الوقت نفسه ، لتقوية الإسلام ورفع شأنه وجمع شمل المسلمين فى كل مكان فى العالم . . فرسول الله ﷺ يقول : « **إذا عز العرب عز الإسلام** » .

ولو أن الدعوة لتوحيد العرب تناست الدين ، أو أغفلته ، أو غضت من شأنه ، كبعض الدعوات التى ارتفعت فى بعض البلاد العربية ، مغفلة للإسلام ، لاستحقت أن توجه إليها السهام من الغيورين على الدين ، وكنت فى مقدمتهم جندياً صغيراً . .

أما إذا كانت الدعوة للوحدة العربية ، تقوم بجوارها دعوة وجهود إسلامية محسوسة ملموسة فى كل مكان فى العالم الإسلامى وغير الإسلامى ، فليس من مصلحة الإسلام والمسلمين هدمها ، أو الغض منها ، والعمل على التشكيك فيها . .

ذلك لأن الإسلام لا يمنع إثارة العصبية القومية أو استغلالها فى قوم لهم ظروفهم ، ومن أجل مصلحتهم العامة ، التى هى فى الوقت نفسه مصلحة المسلمين .

لا أقول هذا عن هوى أو مسابرة ، فإن إيمانى بدينى فوق كل شيء فى هذه الحياة ، ولكنى أقوله عن بصر بدينى ، واقتناع تام بما أقوله ، مقدراً مسؤولية الكلمة التى أقولها أمام الله ، ومشفقاً على الإسلام أن يحمله المتحمسون ما لا يحتمل ، ويقولوه ما لم يقل ، ويصوروه متعارضاً مع المصلحة العامة الملموسة . . . مقرراً فى الوقت نفسه أن الوحدة الإسلامية العامة هى غايتنا ، وأملنا ومثلنا الأعلى ، الذى تهفو إليه قلوبنا ، ولا تشغلنا عنه الوحدة العربية التى نعتبرها شوطاً كبيراً فى درجات السلم للوصول إلى هذا المثل الأعلى .

ولا أحب أن يخلط المتهجمون على وحدة العرب ، بين الدعوة اليها ، وبين ما يرونه أحيانا من شطط أقلام بعض الكتاب عندنا ، مما يمس التعاليم والأهداف الإسلامية ، فإن هذا الشطط مما يجب الضرب على أيدى مرتكبيه لأنه يسيء لأهدافنا وهو عبث لا أقره ، ولا يقره أحد من العقلاء ، الذين يتحملون

تبعة الأمور ، وإن كان ظاهرة حدثت وتحدث فى كثير من الأوقات ، ووجدت وتجد من يتصدى لتقويضها وتقويمها باستمرار .

ولا أحب كذلك أن انتهى من حديثى حتى أقدم شاهدا من تاريخنا الذى نعتز به . فقد وجد خالد بن الوليد رضى الله عنه فى حرب المرتدين باليمامة ، وجد ظروفاً تستدعى استغلال روح العصبية القبلية بين جموع جيشه ، لتتحد كل قبيلة ، وتتكتل ، وتستميت فى حرب الأعداء ، دفاعاً عن دينها ، وشرفها ، وسمعتها .

وذلك حين انهزم الجيش الإسلامى أولا أمام المرتدين ، لما ثار بينه من خلاف وتناحر حتى رمى المهاجرون والأنصار أهل البوادى بالجبن ، وبادلهم أهل البوادى نفس الاتهام .

وكان لابد من علاج لهذه الحالة فرأى خالد وهو القائد الملهم ، الذى يعرف مواطن الضعف ، فيسارع إلى معالجتها ـ رأى أن يقضى على خلافاتهم ، ليقابلوا عدوهم متحدين . فصاح فيهم : « امتازوا أيها الناس لنعلم بلاء كل حى ، ولنعلم من أين نؤتى » .

ودخلوا المعركة ، وكل قبيلة لها موقفها وجبهتها ، وروح العصبية تلهبها وتدفعها للهجوم على العدو ، حتى تم نصر الله ، وحقق خالد بذلك للإسلام فتحاً جديداً انساب منه بعد ذلك إلى خارج الجزيرة . .

أفرأيت كيف أثار خالد روح العصبية القبلية فى جنوده . لتتكتل كل قبيلة أو جماعة ، وتحارب بكل عزمها وقوتها ؟ .

أفكان خالد بذلك مخالفاً للوحدة أو الأخوة الإسلامية العامة ؟

وهل قام أحد من كبار الصحابة وحفاظ القرآن فأنكر عليه ذلك ؟ لا هذا ولا ذاك . .

وبعد . فمن الذى سيكسب بنجاح الوحدة العربية ومن الذى سيخسر ؟

بالجواب عن هذا يتحدد موقف المهاجمين للوحدة العربية ودعاتها . .

إن المسلمين هم الذين يكسبون ، وأعداءهم هم الذين يخسرون لأن العرب حين ينهضون ، سيحملون رسالة الإسلام ، كما حملوها من قبل إلى كل مكان ، وسيحمون الدعوة الإسلامية فى كل مكان كما حموها من قبل ، وهذا هو الذى يخشاه أعداء الإسلام .

وأسمع ما يقوله الأستاذ « مورو بيرجر » أستاذ الشرق الأدنى فى جامعة برنستون الأمريكية فى كتابه : « العالم العربى اليوم » وهو يتحدث عن أسباب معارضة الغرب للوحدة العربية . يقول :

« لقد ثبت تاريخياً أن قوة العرب تعنى قوة الإسلام ، ونفس الشىء يمكن أن يتكرر اليوم حيث يحرز الإسلام انتصارات واسعة فى أفريقيا » .

فمن ذا الذى يكره بعد هذا نصراً له ولإخوانه المسلمين العرب بوحدتهم ؟ . . . من الذى يكره قوة العرب ووحدتهم ، حتى يقف موقف الغربيين فى مهاجمة الداعين اليها متستراً وراء الغيرة على الإسلام .

وقوة العرب قوة للإسلام ، تحمى كتابه ومقدساته وأتباعه ، وترهب أعداءه .

إن توحيد العرب أمل نرجو أن يسارع الجميع لتحقيقه من أجل قوتهم وعزتهم وعزة الإسلام والمسلمين فى كل مكان ، من أجل طرد هؤلاء الأشرار ، الذين زرعهم الاستعمار فى قلب البلاد العربية ، فان العرب قبل غيرهم هم الذين يكتوون بشرهم ، وهم المحيطون بهم ، والمطالبون بتكتيل قواهم للقضاء على عدوهم ، ووسائل الوحدة ودوافعها موفورة بينهم ، وليس لهم عذر إذا ابطأوا . .

وإذا كان توحيد المسلمين جميعا أملا يراود قلوبنا ، ويشغل خواطرنا ، فانه أمل طريقه ووقته طويل .

أما توحيد العرب فالطريق اليه قريب ، وهم فى الوقت نفسه توحيد لقلب العالم الإسلامى ، وليس من العقل ولا من الحكمة أن نهمل الوصول والسعى إلى الأمل القريب ، انتظاراً لتحقيق أمل بعيد . . ونترك عدونا يحتل أرضنا وينهش فى لحمنا وعظامنا ويقضى علينا . . حتى يتحقق هذا الأمل البعيد . . .

العالم الإسلامى ، وليس من العقل ولا من الحكمة أن نمهل الوصول والسعى إلى الأمل القريب ، إنتظاراً لتحقيق أمل بعيد . . ونترك عدونا يحتل أرضنا وينهش فى لحمنا وعظامنا ويقضى علينا . . حتى يتحقق هذا الأمل البعيد . .

وقف ايزنهاور قبيل قيام حرب سنة ١٩٦٧ بأيام يذيع من خلال الإذاعة المرئية ويقول ان مصر لو انتصرت فستحول البحر الأبيض إلى بحيرة عربية تقفل فى وجوهنا بوغاز جبل طارق وتتجدد القوة العربية التى عرفناها فى التاريخ . . ! !

ووقف أحد زعماء اسرائيل يخطب فى اجتماع يهودى فى أمريكا بعد الحرب يقول إن بقاء اسرائيل رهن بقيام امبراطورية اسلامية يعنى قيام الوحدة العربية القوية !

ولا أظن أن هذه المعانى تغيب عن ذهن عربى واحد . .

ومع ذلك ، نسمع جعجعة ولا نرى طحنا ! !

ومع ذلك ، نرى جهود العرب فى تمزيق وحدتهم ، أو زيارتها تمزيقاً ، أقوى من جهودهم لتوحيد قواهم وكلمتهم ! !

فإلى متى ؟

لو كان للعرب قوة ووحدة لاستطاعوا أن يحموا المسلمين فى كل مكان .

لو كان لهم قوة ، لعمل الذين يقتلون فى المسلمين ، ويهتكون أعراضهم حساباً لهذه القوة !

لو كان لهم قوة لاستعاد المسلمون هيبة المعتصم حين سير جيوشه الجرارة لتقتص لامرأة مسلمة اعتدى جماعة من الروم عليها حين أثارت فيه استغاثتها « وامعتصماه » نخوته الإسلامية .

كم فى عالمنا الإسلامى الآن من إستغاثات « وامعتصماه » ؟ ولا معتصم فى الميدان ! !

كتبت هذا وأذعته من مدة ، استناداً على الواقع الذى كنا نعيشه حين كتبت وقبله ومرت سنون . . وهذا النداء وغيره يدوى فى الآذان ، ويهيب بالنفوس . . وفجأة كانت الشرارة فى العاشر من رمضان سنة ١٣٩٣هـ السادس من أكتوبر سنة

١٩٧٣ م الشرارة التى أطلقها والمعركة التى خاضها الجيشان المصرى والسورى والـظفـر الـذى أحرزناه ، وإنطلق العملاق العربى من القمقم من المحيط إلى الخليج ورأيناه فى كل ملك وكل رئيس وكل عربى مؤمن معتصماً آخر فى القرن العشرين وتـوحـدت الأمـة العربية وتماسكت بصورة لم يسبق لها مثيل منذ فجر التاريخ الإسلامى والحمد لله ، وأصبحنا نعيش على أمل مرتكن على الواقع ، بن يبقى هذا البنيان المتماسك بعد أن لمسنا آثارة فى جميع أنحاء العالم ، وذقنا حلاوته حتى يتحقق لهذه الأمة ما تصبو إليه من مجد ، وتأخذ مكانتها التى هيأها لها دينها وتاريخها وموقعها وإمكانياتها ، ويبعد الله عنها الشياطين من المنافقين والمتلاعبين والأنانيين .

٦٣ العابثون بوحدتنا

هذا حديث لا أوجهه للشباب وحدهم ، كما تعودت معهم ، وتعودوا معى ، ولكنى أوجهه لجميع الذين ينعمون ـ كما نعم أجدادهم من قبلهم ـ بخير هذا الوطن ومفاخره . . وأوجهه بصفة خاصة لحراس الأديان ودعاتها ، وأستعيد لهم هنا الآن ما قلته فى مؤتمر يوم السلام العالمى الذى أقامته الكنيسة الكاثوليكية فى مصر فى ديسمبر سنة ١٩٧١ م وحضره سفير الفاتيكان ورجال الأديان . . قلت لهم :

« ولقد آن الأوان لنا نحن الأديان جميعاً ، أن نؤمن حقاً بأن تعميق المعانى الخيرة للدين ـ أى دين ـ وتدعيم الإيمان بالله ، وبالمثل العليا فى نفوس المؤمنين ، خير ألف مرة ، بل ملايين المرات ، من تكثير الأعداد المنتسبة لهذا الدين ، أو ذاك ، ومن تشكيك المؤمنين الآخرن فى دينهم ، وإثارة الأحقاد بين الآمنين من أهل الأديان .

فإن العبرة دائماً بالكيف لا بالكم ، والخير إنما يتحقق للبشرية على يد المؤمنين ولو كانوا قلة ، لا على يد الملايين من غير المؤمنين .

على أن الأديان التى تؤمن بالأله الخالق وتعبده تعيش كلها الآن فى محنة ، ومواجهة مكشوفة وحادة ومعسورة ، أمام منكرى الألوهية ، دعاة الألحاد والمادية الكالحة .

ومن الخير لدعاة الأديان جميعا أن يكرسوا جهودهم لمواجهة هذا التحدى ، لا للنيل من بعضهم البعض وإضعاف بعضهم لبعض ، مما يخدم فى النهاية دعاة الالحاد والهدم ، ويمهد الطريق أمامهم للزحف إلى غايتهم » .

ذلك ما قلته يومذاك فى مؤتمر يضم رجال الدين الإسلامى والدين المسيحى بجميع مذاهبه ـ وأقوله الآن ، وفى كل وقت ، كحقيقة يجب أن يؤمن بها دعاة الأديان ، حتى لا يكونوا كأهل قرية شبت النار فيها فاختلفوا وتشاجروا ، وتركوا النار ترعى بيوتهم ، فيكونوا شراً على أنفسهم وأمتهم .

ليس الاسلام ولا المسيحية بحاجة إلى تكثير أعداد المنتسبين لهما بقدر الحاجة إلى توعيتهم ، ليتمسكوا بقيم دينهم واخلاقه ، ورجل الدين العاقل الواعى هو الذى ينجح فى تعميق الإيمان فى نفوس اتباعه والمستمعين له . . لا الذى يشغل نفسه ويشغل اتباعه بالطعن على دين الآخرين ، وإثارة الأحقاد عليهم . . فليس هناك ما هو أخطر على المجتمع من اثارة الأحقاد والنزعات الدينية بين أبناء المجتمع الواحد . وأمامنا المثل الحى البشع مما يحدث من مذابح للمسلمين فى الفليبين على يد المسيحيين وفى ايرلندا بين البروتستانت والكاثوليك ، وإن كانوا جميعاً مسيحيين ، ولهذا كنت أشم رائحة الخيانة لهذا الوطن العزيز ، كلما وقفت على بعض الأشياء المثيرة وأقول : لمصلحة من كل هذا ؟، وفى هذه الظروف بالذات ؟ .

أليست النتيجة لمثل هذا العبث واضحة لو سار إلى نهايته ؟ . لقد عشنا جميعاً ـ مسلمين ومسيحيين على أرض هذا الوطن إخوة متجاورين ومتحابين ومتعاونين فى السراء والضراء ، منذ دخل الإسلام مصر ، ونعم أهلها بالاسلام وعدالته فأقبلوا على اعتناقه ، وما من مسلم أو مسيحى إلا وله جيران وأصدقاء ، يتعاون معهم ، ويعزهم ممن ليسوا على دينه ، وكلنا سواء فى همومنا وأفراحنا . .

فلمصلحة من تثار هذه الحساسية فى هذه الظروف الحرجة ؟

إنها قطعاً ليست فى صالحنا كمواطنين وليست فى صالح بلدنا وإنما هى لصالح أعدائنا . .

كم أخذ منا هذا الموضوع ويأخذ من مجهود ، كان من الأولى أن نصرفه للأعمال الايجابية ، التى تحتاج البلاد اليها فى هذا الظرف ؟ .

أما يكفينا تجمع الأعداء الخارجين علينا ، حتى يثير الجهال من الدعاة ضيقوا الأفق ـ وهذا أحسن وصف لهم ، وحسن ظن بهم ـ وإلا فأعمالهم وتحركاتهم تدمغهم بالخيانة لبلدهم .

أما يكفيهم أعداؤنا فى الخارج ، حتى يثيروا بين الأمنين الوادعين المتعاونين من المسلمين والمسيحيين ، من أبناء الوطن ، مثل هذه الرياح السامة ، ليضعفوا قوتهم ويفتتوا صلابتهم . . ؟

إن الإسلام أدب اتباعه بهذا الأدب الربانى : ﴿ لا ينْهاكم الله عن الْذين لَمْ يقاتلُوكم فى الدِّين ولَمْ يخْرجُوكم من دياركم أن تبروهُم وتقْسطوا إليهم إن الله يُحبُّ المُقسطين ﴾ [1]

وأدبهم بهذا الأدب النبوى :
« من أذى ذميا فأنا خصمه ، ومن كنت خصمه خصمته يوم القيامة » [2]
وقد تأدب المسلمون ، أو يجب أن يتأدبوا بهذا الأدب الذى أمرهم الله به ، ولكن نحو أولئك الذين لا يعتدون على الإسلام ولا ينالون منه ومن مصلحة أتباعه .

ان حب الوطن من الايمان ، وليس من الحب للوطن ولا من الإيمان اثارة مثل هذه النزعات .

فليتق الله فى وطنهم وإخوانهم أولئك الذين يلعبون بالنار ، فإن القائمين على هذا البلد ، الحراس على مصالحه ، والمخلصين لترابه ، لن يتركوا العابثين يعبثون . . .

﴿ وسيعلمُ الذين ظَلَموا أى منقلب ينقلبون ﴾ .

---

١ ـ الممتحنة : ٨ .
٢ ـ أخرجه الخطيب عن ابن مسعود وقال حديث حسن .

٦٤ عدونا يعيش على تفرقنا

حينما أردت أن أتحدث عن الاتحاد ونتائجه الطيبة بالنسبة لنا قلت : وهل هناك أحد ينكر فضل الاتحاد ؟ إن كل إنسان يعرف فوائده ، ويتحدث بذلك لمن حوله على مختلف المستويات ، فلماذا أتحدث إذن عن الاتحاد إلى أناس يعرفون فضله وقيمته ؟

ولكني قلت أن الأمر فى هذا كما يقول الله سبحانه وتعالى :

﴿ وَذَكِّرْ فإنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ المُؤمِنِين ﴾ وكما يقول سبحانه عن المؤمنين [1] :

﴿ إنَّمَا المُؤمنُون الَّذين إذَا ذُكِرَ الله وَجلتْ قُلوبُهُمْ وإذا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادتْهُمْ إيمَاناً وعَلَى ربِّهِمْ يتَوَكَّلُون ﴾ [2] .

فالمؤمن فى حاجة دائماً إلى تذكرة ، وإلى تأمل فى آيات الله ، ليزداد تمسكاً بإيمانه وقرباً من ربه . . ونحن المسلمون فى أشد الحاجة ، ولاسيما فى ظروفنا الحاضرة ، إلى أن نحس أحساساً عميقاً معنى الاتحاد ، والأساليب التى تحققه ، والمكاسب التى نجنيها من ورائه ، كما أننا فى حاجة بجوار ذلك إلى أن نكون يقظين دائماً ، وعلى حذر من عوامل الدس والوقيعة ، التى يبذرها خصومنا ، لتفريق صفوفنا ، حتى نظل ضعافا أمامهم ، فهم لا يخشون شيئا كما يخشون اليوم الذى تتجمع فيه قلوبنا ، وتتوحد صفوفنا ، وتتعانق أهدافنا ومصالحنا ، ولذلك فهم لا يرون بادرة اتحاد بيننا ، إلا نشطو لنشر عوامل التشكيك فيها ، والدس لها ، أملا فى القضاء عليها فى مهدها . . .

---

١ ـ الذريات : ٥٥ .

٢ ـ الأنفال : ٢ .

ولقد كان للقرآن الكريم موقف مع أمثال هؤلاء الذين لا يعيشون إلا على حساب التفرقة بين المسلمين ، يحسن بنا أن نستعيده الآن للذكرى ، والذكرى تنفع المؤمنين .

حين هاجر الرسول ﷺ وحد بين الأوس ، والخزرج بعد خلافات وحروب بينهم ، طال أمدها ، وعاش يهود المدينة زمناً طويلاً على حسابها . .

فلما اتحدت القبيلتان حول رسول الله ﷺ ، خشى اليهود على أنفسهم ومصالحهم ، فعملوا على إثارة الأحقاد القديمة بين المؤمنين ، حتى كادت الحرب تقع بينهم . . فأدركهم النبى سريعاً ، وقال لهم :

« أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم » ؟. فكفوا وعانق بعضهم بعضا . فنزل قوله تعالى :

﴿ يَا أيها الذين آمنوا إن تطيعُوا فريقا من الَّذين أُوتوا الكِتابَ يَرُدوكم بعد إيمانكم كافِرين . . . وكيف تكفُرون وأنْتُم تُتْلى عليْكُم آيَاتُ وَفِيكُم رسُولُه ، وَمَنْ يَعْتَصِمْ بالله فقدْ هُدِىَ إلى صِرَاط مُسْتقِيم ﴾ إلى أن قال : **﴿ واعْتَصِموُا بِحَبْل الله جَميعاً ولا تفرَّقُوا ﴾** (١) .

نذكر الآن بهذا الموقف ، لتعرف أمتنا أن عدوها من قديم لم ينم ، ولن ينام إلا إذا نجح فى تفريق صفوفنا ، لأنه يستمد وجوده وحياته من ضعفنا واختلاف كلمتنا . .

ان الاتحاد قوة ، وهو أمل يسعى كل فرد فينا لتحقيقه ، لا على مستوى ثلاث أو أربع منا ، بل على مستوى الأمة العربية كلها ، ثم على مستوى الأمة الإسلامية ، والعمل الكبير يبدأ صغيراً ثم يكبر ويقوى ، وعلى كل واحد منا أن يرعى هذه الخطوة ، ويقويها ليكبر الصغير ، وتتسع رقعة الاتحاد ، ويتحقق الحلم الذى عاش له أسلافنا ونعيش له الآن . .

ونسأل الله أن يحرس ويبارك خطوات العاملين من أجله . . .

١ ـ آل عمران : ١٠٠ ، ١٠٢ .

٦٥ التبشير خطة موضوعة

أمام الأحداث التى تمر بأمتنا ، والتكتلات التى تحاول تحطيم معنوياتنا . وهضم حقوقنا وكسر شوكتنا ، وتعويق نهضتنا .

أحب أن أقف معكم وقفة تأمل وتذكر فى ماضينا وحاضرنا « والذكرى تنفع المؤمنين » . . ونحن أمة إذا التفتنا إلى الماضى البعيد ، وجدنا لنا ميراثاً ضخماً من المجد الروحى والمادى .

نحن أمة اختارها الله لتحمل رسالة الاسلام ، خاتم الأديان ، ورسالة القرآن كتاب الله الذى أنزله هدى وشفاء لما فى الصدور .

وقد حمل أجدادنا هذه الرسالة ، وحافظوا عليها ، وأخلصوا لها ، فسادوا العالم ، وقدموا له حضارة ، لا تزال أرقى الحضارات التى تجمع بين سمو الروح ، وقوة المادة ، وحقق الله لهم وعده الكريم :

﴿ وَعَدَاللهُ الَّذين آمنُوا وَعَملُوا الصَّالحات لِيَسْتَخْلفَنَّهُم فى الأرْض كما اسْتَخْلف الذين مِنْ قَبْلِهِمْ وليمكْنَنَّ لَهُمْ دينهُمُ الَّذى ارتضى لَهُمْ وَلَيُبدلنَّهم مِنْ بَعْد خَوْفِهِم أمْنا يعْبُدُونِنى لا يُشْرِكُون بِى شيْئاً ﴾ [1] .

وقد ظلت لهم قوتهم وهيبتهم ما حافظوا على دينهم ومبادئهم . . فلما اغتروا بملكهم الواسع ، وركنوا إلى أهوائهم وشهواتهم ، واستجابوا لمطامعهم ونزواتهم ، بدل الله أمنهم خوفا وقوتهم ضعفا ، وذلك فى الوقت الذى بدأ فيه الغرب يستيقظ ، ويفتح عيونه على خيرات الشرق وكنوزه ، وتدفعه عصبيته

١ ـ النور : ٥٥ .

التى الهيها رجال الدين فيه ، إلى محاولة القضاء على الإسلام وعلى ما للمسلمين من نفوذ أو سلطان . . . وبدأوا يضعون المخططات للوصول إلى أهدافهم .

وكان من أول ماعنوا به وركزوا حرابهم وقذائفهم عليه : هو إضعاف العقيدة فى نفوس المسلمين ، وبذر بذور الشك فيها ، وفى تعاليم دينهم ، ومحاولة إبعادهم عن جو القرآن وتقديسه والتمسك به ، لأنه الأساس الذى قام عليه مجد العرب ، وجعل منهم دولة مرهوبة الجانب .

فبدأ مع الغزو الأوروبى المسلح للبلاد الإسلامية غزو فكرى وثقافى للإسلام ، تمثل فى الإرساليات التبشيرية التى فتحت المدارس والجامعات والمستشفيات فى بلادنا لتربى أبناءنا كما تريد ، وتباعد بينهم منذ صغرهم وبين دينهم ، فقدموا لنا نحن المسلمين فى هذه المدارس والجامعات والمستشفيات السم فى الدسم ، وعمل المحتل الذى يحكمنا على تشجيعها ، وفى الوقت نفسه على إهمال تعليم الدين فى برامجنا ، لينشأ الأولاد لا يعرفون من أمر دينهم شيئا . .

واضطررنا نحن من جانبنا إلى أن نرسل أبناءنا للتخصص فى العلوم الحديثة إلى الغرب دون أن يتحصنوا هنا بالعقيدة القوية والفكرية السليمة عن دينهم . فبهرتهم أضواء الغرب وبهارجه . فانساق كثير منهم وراءها ، وبدأ ينظر الى دينه نظرة إستهانة محاولا بقلمه أو لسانه الغض من شأنه والتخلص من تعاليمه ، مجتهدين فى إدخال التقاليد والمظاهر الغربية فى مجتمعنا الإسلامى ، ليتسنى لهم الانطلاق كما يحبون . . وربما وصل كثير من هؤلاء إلى المراكز الكبيرة بمساعدة المستعمرين أو بغير مساعدتهم فاستعمل سلطانه فى محاربة دينه ، أو على الأقل عدم الإصغاء لصوته أو العناية به .

كل ذلك أحدث فجوة بيننا وبين ديننا . حتى أصبح وكأنه غريب عنا ، وكأننا لسنا أهله وحماته ، فإذا حدثت مشكلة كان الدين آخر ما نفكر فيه .

وبدأت أجيالنا تتربى فى هذا الجو ، فبرامجنا التعليمية التى وضع أسسها المستعمرون وتلامذتهم منا ـ ولانزال متأثرين بها للآن مع الأسف الشديد ـ لا تهتم بالدين اهتمامها بالرسم أو الموسيقى أو التربية البدنية ، وسلوكنا فى الحياة لا يرتبط بالدين . . فقد نعتنى بحفلة موسيقية فيها طرب ولهو وعبث

ولا نعتنى بحفلة دينية فيها ذكرى وموعظة وغذاء للأرواح ، وهداية إلى الله . .

وقد يحظى المتنكر لدينه ولماضى أمته بما لا يحظى به المخلص لدينه ولأمته . . وقد . . وقد . . مما تعرفونه وتلمسونه . ويعتبر نجاحاً ملموساً للتخطيط الذى وضعه اعداء الاسلام للنيل منه . والمباعدة بينه وبين نفوس اتباعه المسلمين ليضعفوا من شأنه وبالتالى من شأنهم ، ويحولوا بينهم وبين البعث الجديد ، الذى تكفل به دينهم وكتابهم ، لو اتبعوه وجعلوه حكماً فى شؤون حياتهم . .

قال قائلهم فى حقد مسموم : (متى توارى القرآن والكعبة من بلاد العرب يمكننا حينئذ أن نرى العربى يتدرج فى سبيل الحضارة التى لم يبعده عنها إلا محمد وكتابه) . . فهم يريدون أن نكون مثلهم فى حضارتهم المادية وتبعاً لهم ، ولن يكون ذلك فى رأيهم ، إلا إذا أبعدونا عن الرسول والقرآن . . . وهذا هو هدفهم .

ونسى هؤلاء أن الاسلام صنع حضارة فاضلة استمرت أجيالا كانوا أثناءها يعيشون كالحيوانات فى غاباتهم ، وتمنى المنصفون منهم أن لو استطاع العرب المسلمون أن يخضعوا أوروبا كلها لهم ، ويدخلوا حضارتهم فيها ، واعتبروا هزيمة المسلمين فى فرنسا ، وعدم استطاعتهم السيطرة على أوروبا ، نكبة عظيمة لا للمسلمين ، بل لهم . لأنها حرمتهم خير هذه الحضارة الاسلامية الفاضلة التى كانت سائدة يومذاك فى الأندلس والبلاد الإسلامية . .

يقول أحد كبار الكتاب الفرنسيين : (لولا انتصار جيش شارل مارتل الهمجى على تقدم العرب فى فرنسا سنة ٧٣٢ م لما وقعت فرنسا فى ظلمات القرون الوسطى . ولما أصيبت بفظائعها . ولولا ذلك لما تأخر سير المدنية ثمانية قرون ، نحن مدينون للشعوب العربية بكل محامد حضارتنا فى العلم والفن والصناعة وحسب تلك الشعوب أنها كانت مثال الكمال البشرى مدة ثمانية قرون ، بينما كنا يومئذ مثل الهمجية) . .

وحينما عمل الاحتلال فى مصر على انعقاد مؤتمر المبشرين فى القاهرة عام ١٩٠٦ م ، وقف أحد هؤلاء المبشرين ، وقدم اقتراحا بانشاء مدرسة جامعة مسيحية ، تتولى كل الكنائس الانفاق عليها ، لتتمكن من مواجهة الأزهر

والقضاء على نفوذه الدينى بين المسلمين وقال : « ربما كانت العزة الالهية قد دعتنا إلى اختيار مصر مركز عمل لنا لنسرع بانشاء هذا المعهد المسيحى لتنصير الممالك الاسلامية » !

وقد كانت الجامعة الأمريكية فى ذلك الوقت هى ثمرة هذا الاتجاه الخبيث والتخطى المسموم ، وكذلك كانت الجامعة الأمريكية فى بيروت .

وحين دخلت الجيوش الإنجليزية مدينة القدس منتصرة على جيش الخلافة فى الحرب العالمية الأولى اهتزت أسلاك البرق بين القائد الانجليزى ورئيس وزرائه فى انجلترا تعلن ماتنظوى عليه نفوسهم من حقد وتعصب تقول) (اليوم انتهت الحروب الصليبية) . . يعلنون بذلك عن الحقد الذى توارثوه مئات السنين ، بعد أن طهر صلاح الدين بيت المقدس منهم . وكأنهم يعلنون أنهم أخذوا بثأرهم منه !!!

وحين انتصر الفرنسيون على المقاومة السورية فى أعقاب الحرب العالمية الأولى ، ودخلوا دمشق ، ذهب القائد الفرنسى من فوره إلى قبر البطل صلاح الدين بجوار المسجد الأموى وقال يخاطب رمسه أو تراب قبره ويمد رجله نحوه فى خسة ونذالة) (لقد عدنا يا صلاح الدين) يسترجع ما حدث من مئات السنين حين طردهم البطل من بلاد الشرق وطهرها منهم .

إنه حقد الأجيال الطويلة على المسلمين وعلى بطلهم ينفثه هذا القائد على قبر صلاح الدين . . « قد بدت البغضاءُ من أفواههم وما تخفى صدورهم أكبر » . وكان على كل مسلم أن يعلم أولاده ويخبرهم بهذه المواقف الحاقدة . . .

إن هؤلاء رجال يؤدون واجبهم لدينهم وبلادهم فى اخلاص ، وهم فى اتجاههم هذا اعداء لك ولدينك ، ولا يمكن أن تعيب على العدو المحارب حسن استعداده ونشاطه ، ومهارته فى الوصول إلى هدفه فى التغلب عليك . . .

ولكن الذى عليك أن تفتح عينيك وتعرف كيف يحاربك عدوك ، وتستعد له ، وتعمل على احباط خططه ، والانتصار عليه وأنت فى بلدك سيد نفسك ومالك أمرك .

وربما كنت فى الماضى معذوراً أو شبه معذور ـ أما الان فلا عذر لك

إن المسألة ليست مسألة دين وحسب ، وحتى لو كان كذلك فإن ديننا يجب أن يكون أعز شيء وأقدسه على نفوسنا ، فإنه « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب اليه مما سواهما » . كما يقول الرسول عليه الصلاة والسلام . . ولكن المسألة مسألةدين وحياةوعزة وكرامة ومصير مصيرنا ومصير أبنائنا وأجيالنا القادمة .

إن واجب كل فرد من المسلمين أيا كان موطنه وعمله ، أن يتنبه لما يراد به من زمن بعيد ، ويؤدى واجبه ، ويوقن أن تهاونه فى أمر دينه ، ليس مجرد تقصير يؤدى به إلى النار فحسب ، يوم يحاسب المرء على ما قدمت يداه ، بل هو كذلك تقصير وجرم فى حق وطنه يشارك به اعداءه فى هدمه القضاء على كيانه ، وكيان أمته وتمكين أعدائها منها .

لا تظنوا أن الأمر سهل . أو أن العزة التى تريدونها لأنفسكم يمكنكم أن تنالوها وأنتم بعيدون عن الله مهملون لدينه وسنته فى خلقه فإن الله قد حملكم كتابه ودينه أمانة فى أعناقكم . وعلى قدر اخلاصكم فى عملكم ، وصيانتكم للأمانة يكون مصيركم ، ﴿ ذلك بأن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ورسولنا ﷺ يقول : « مازلتم متصورين على أعدائكم مادمتم متمسكين بسنتى ، فإن خرجتم عن سنتى سلط الله عليكم من أعدائكم من يخفيكم فلا ينزع خوفه من قلوبكم حتى تعودوا إلى سنتى » . . .

فهل تعودون لتعود إليكم أمجادكم ؟ .

٦٦ اين وعد الله

قال الله تعالى : ﴿ يا أَيُّهَا الَّذين آمَنُوا إنْ تَنصُرُوا الله يَنْصُرْكُمْ ويُثَبِّتْ أَقْدَامكُمْ ﴾ [١] . . .

هذا وعد الله ، ولن يخلف الله وعده ، فإذا رأى بعض الناس وعد الله لا يتحقق فيهم ، فعليهم أن يبحثوا عن سبب ذلك فى أنفسهم ، وفى تصرفاتهم ، وسيجدون أن موطن العلة فيهم ، وأن عدم نصر الله لهم إنما يرجع إليهم ، وإلى سلوكهم ، فإن الله لا يخلف الميعاد ، ولم يبذل وعده إلا للمؤمنين الصادقين .

وليس الايمان بالتمنى ، ولكن ما وقر فى القلب ، وصدقه العمل .

ليس الإيمان مجرد أدعاء أو كلام ، ولكنه اعتقاد راسخ فى الله ، يملك على الانسان حسه ونفسه ، ويغمر قلبه ، حتى تنبعث منه الأعمال الصالحة ، فى كل مجال المجالات التى يعيشها الناس ، وتتطلبها الحياة الجادة القوية ، التى يجب أن يحياها المسلم .

ولقد قال الله تعالى فى آية أخرى ﴿ وَلَيَنْصرنَّ الله مَنْ يَنْصُره ﴾ [٢] وقال :

﴿ وكَانَ حقّاً عَلَيْنَا نَصْرُ المُؤْمِنِين ﴾ [٣] والله سبحانه قوى عزيز ، غنى حميد ، ليس فى حاجة إلى نصر له من عباده بالمعنى المعروف ، فمعنى نصرنا لله ،

١ ـ سورة محمد : ٧ .

٢ ـ سورة الحج : ٤٠ .

٣ ـ سورة الروم : ٤٧ .

نصرنا للمبادىء والتعاليم والقيم التى وضعها لسعادة البشرية ، وجاء بها وحيه وسجلها قرآنه ونادى بها رسوله ، وطبقها فى حياته ، وهى فى الحقيقة نصر لنا . .

فإذا نحن سرنا على هدى هذه المبادىء ، كنا مؤمنين حقاً ، ومستحقين لأن يمدنا الله بنصره وعونه ، تحقيقاً لوعده الكريم ، وهذا هو الذى تنطق به آية أخرى تقول .

﴿ وَعَدَ الله الَّذين آمَنُوا مِنكُم وَعَمِلُوا الصَّالِحَات ليستخْلِفنَّهُمْ فى الأرْض كَمَا اسْتَخْلَف الَّذِين مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمكِّنن لَهُمْ دِينَهُم الذى ارْتضى لَهُمْ وليُبدلنَّهُم مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أمْناً يَعْبُدُوننى لا يُشْرِكُون بِى شيْئاً ﴾ [٢] . وآية أخرى تقول :
﴿ ولَيَنصُرَنَّ الله مَنْ يَنصُرُهُ إنَّ الله لَقَوىٌّ عَزِيزٌ ، الذين إنْ مكنَّاهُم فى الأرْض أقامُوا الصَّلاة وأتُوا الزَّكاة وأمَرُوا بالمَعْرُوفِ ونهوا عن المُنكر ﴾ [٣] .

فالوعد لم يبذل إلا للمؤمنين العاملين ، الذين تسلحوا بالعقيدة السليمة فى الله ، واتجهت قلوبهم إليه ، فى كل عمل يعلمونه : فى صلاة ، أو صوم ، أو زراعة ، أو تجارة ، أو معاملة مع الناس حولهم ، فاتقنوا أعمالهم ، وأحسنوا سلوكهم . . .

سيقول بعض الناس أننا والحمد لله مؤمنون نصلى ونصوم ، ونقرأ القرآن ، فأين إذن وعد الله وأين ما كتبه الله من عزة للمؤمنين . والأمم القوية غير المسلمة حولنا تتخطفنا وتتحكم فى مصائرنا ؟ .

وإنى أقول لهؤلاء ما قاله الرسول ﷺ : ليس بالإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وان قوماً غرتهم الأمانى ، وقالوا : نحن نحسن الظن بالله ، وكذبوا ، لو أحسنوا الظن لأخلصوا العمل » .

نعم ليس الإيمان بمجرد أدعاء ، وليست العزة مائدة تنزل عليهم من السماء ، ولكنها ثمرة إيمان يتغلغل فى أعماق الصدور ، وكدح وكد ، وسعى وجهد ،

---

٢ - سورة النور : ٥٥ .

٣ - سورة الحج ٤٠ . ٤١ .

وعمل مخلص متقن ، وخلق كريم صالح ، فابحثوا أين أنتم من هذا كله ، ثم أطلبوا بعد ذلك نصر الله . . . .

إن العقيدة القوية والعمل الصالح هيأ للمؤمنين القليلين يوم بدر نصراً ساحقاً على الكثرة المشركة ، تحقيقاً لوعد الله وسنته فى الحياة ، ويسجل القرآن الكريم هذا فيقول :

﴿ وَلَقَدْ نَصَركُمُ الله بِبدْرٍ وَأنْتُمْ أذِلَة فاتَّقُوا الله لعلكُم تَشْكُرون ﴾ [١]

ويقول : ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ ولكِنَّ الله قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إذْ رَمَيْتَ ولكنَّ الله رَمى ﴾ [١] وهيأ الله لعباده المؤمنين الصادقين وسائل النصر حتى انتصروا وكانت آية وعبرة كما يقول الله .

﴿ قدْ كانَ لكُم آيَةٌ فى فئتَيْنِ الْتَقتَا فِئَةٌ تُقَاتِلُ فى سَبِيل الله وأخرى كافِرة يَرَوْنَهُم مثْليهم رأىِ العينْ والله يُؤَيدٌ بنصْرِهِ مَنْ يَشَاءُ إنَّ فى ذلك لعِبْرَة لأُولى الأبْصارِ ﴾ [٢] .

وذلك لأنهم آمنوا وعملوا واتخذوا الأسباب الطبيعية للنصر .

ولقد رأينا أن التعاون فى العمل ولو مع حسن العقيدة عرض المسلمين للهزيمة بعد النصر يوم أحد ، ولما تساءل المسلمون : كيف نهزم ونصاب بما أصبنا به ؟ وكأنهم يقولون أين وعد الله لنا بالنصر ؟ رد الله عليهم وقال لهم : « أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا ؟ قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شيء قدير » [٣] فدلهم على أنهم سبب الهزيمة ، حين تهاون الرماة فى تنفيذ أوامر الرسول ، وتركوا أماكنهم الاستراتيجية التى أمرهم الرسول ألا يتركوها ، ويقول لهم ذلك فى آية أخرى صراحة .

﴿ ولقدْ صَدَقَكُمُ الله وَعْدَهُ إذْ تَحُسُونَهُمْ بِإذْنِهِ حتى إذا فَشلْتُم وَتَنازَعْتُمْ فى

---

١ ـ سورة آل عمران ١٢٣ .

١ ـ سورة الأنفال ١٧ .

٢ ـ سورة آل عمران ١٣ .

٣ ـ سورة آل عمران ١٦٥ .

الأمروعَصَيْتُهم مِنْ بَعْد مَا أرَاكُمْ ما تُحِبُّون مِنْكُم منْ يُريدُ الدُّنيا وَمُنكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرة ثم صَرَفَكُمْ عَنْهُم لِيَبْتَلِيَكُم ﴾ (١) .

وحصل مثل هذا الدرس لهم فى غزوة حنين حين داخلهم الغرور وأعجبوا بكثرتهم ، وتهاونوا فى منازلة عدوهم ، فأصيبوا بالهزيمة .

﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجبتْكُم كَثْرتُكُمْ فَلم تُغن عَنْكُمْ شَيْئا وَضاقتْ عَلَيْكُمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُم وَلَّيْتم مُدْبرينَ ﴾ (٢) .

فالنصر الذى كفله الله للمؤمنين قد وضع لهم قواعده ، وسن لهم طريقه ، فان ساروا على هذا الطريق تحقق لهم وعد الله الذى لا يخلف الميعاد .

سيقول بعض الناس ولكننا نرى غير المؤمنين حتى ممن يحاربون الله ورسوله ينتصرون كما رأينا فى غزوة أحد ، وكما نرى الآن ؟

ونحن نقول لهؤلاء أن غير المؤمنين لا ينتصرون ولا يسودون إلا إذا تخلى المؤمنين عن إيمانهم ومبادئهم ، وطريقة سلوكهم التى سنها لهم دينهم ليكونوا خير أمة وحينئذ يفتحون الطريق لقوى الشر أن تنتصر بفضل ما أعدت من عدد مادية ، ونفسية لم يوفرها المؤمنون لأنفسهم فالله سبحانه أعد للمؤمنين وسلحهم القوى الروحية ، وأوصاهم أن يأخذوا بأسباب القوة فى الحياة ، والتفوق فيها ، ليكونوا حراس الخير والأمن والعدالة فى الأرض ، فإذا أهمل المسلمون ذلك ، تخلوا عما يريده الله لهم من مكانة ، وتركوا لغيرهم السيادة تلك سنة الله ولن تجد لسنته تبديلاً .

إن المؤمنين حقاً هم حزب الله وجنده ، وقد ضمن الله لهم السيادة والعزة فى الدنيا والسعادة فى الآخرة ، أما الذين يبذلون منهم أورواحهم صيانة لمبادئهم وقيمهم وأوطانهم وأعلاء لكلمة الله فى الأرض فإن الله يكرمهم وينزلهم أعلى جناته ﴿ فرحين بما أتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم ألا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾ (٣) .

١ ـ سورة آل عمران : ١٥٢ .

٢ ـ سورة التوبة : ٢٥ .

٣ ـ سورة آل عمران : ١٧ .

وقد غرس الله فى قلوب المؤمنين به أن تنطق قلوبهم وألسنتهم .

﴿ قُلْ هَلْ تَرَبَّصُونَ بِنا إلاَّ إحْدى الحُسْنَيَيْنِ وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أن يُصيبكم الله بعَذاب مِنْ عِنْده أوْ بِأيْدينَا فَتَرَبَصُوا إنَّا مَعكُم مُتَربِصُونَ ﴾[٢] .

وعلى هدى هذا كله تتحقق العزة لهم ويجدون وعد الله أمامهم والله لا يخلف الميعاد .

---

٢ ـ التوبة : ٥٧ .

٦٧ الايمان والصبر

لقد كان من حسن حظ هذه الأمة ورعاية الله لها ولدينها أن تعهد بحفظ القرآن الكريم وصيانته حيث قال : ﴿ إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ ﴾ [١] كما وجه المسلمين ووفقهم إلى المحافظة على تراث رسولهم ، والعناية بتتبع آثاره ، وأحداث حياته ، وروايته جيلا بعد جيل .

وإلى أن تقوم الساعة ستظل هذه الأمة تعيش فى كنف القرآن الكريم ، والسنة النبوية ، وتنعم بهديهما .

ولقد كانت السنة النبوية تتميماً وتفسيراً ، وبيانا لما جاء فى القرآن الكريم من توجيهات وإرشادات ، وكان ما عرف من الرسول فى حياته ، أطيب زاد يستعين به الإنسان فى حياته ، فى كل شأن من شؤونه التى تخصه أو تصله بخالقه أو تصله بالناس مما جعل الرسول ﷺ يقول فى مرض موته وهو مطمئن البال :

« تركت فيكم ما إن تمسكتم به لن تضلوا بعدى أبداً : كتاب الله وسنة رسوله » [٢] .

وكان عليه الصلاة والسلام محروسا بعناية الله ورعايته وتوجيهه فى كل ما يصدر عنه من أقوال وأفعال ، فكانت حياته بذلك حياة ربانية خالصة ، تغرس فى نفس كل مؤمن به الثقة التامة ، والاطمئنان الكامل ، إلى الفوز برضا الله ، وهو يقتدى برسوله ويسير على نهجه وخطاه ، وكان هذا هو الفرق

---

١ ـ الحجر : ٩ .

٢ ـ الحاكم فى المستدرك عن أبى هريرة رضى الله عنه .

بين من يتبع الرسول ويحبه ، ويتفانى فى حبه ، والاقتداء به ، وبين من يتبع زعيما ، أو فيلسوفا ، ويحاكيه ، ويتعصب له ، ولأفكاره وخطواته ، لأن حياة أى زعيم أو فيلسوف وتوجيهاته تنقصها الرعاية الربانية ، التى أحاط الله بها رسوله .

ومن أجل هذا كانت طاعة الرسول طاعة الله ، وحبه حباً لله ، ومعصيته معصية لله ، كما يصرح بذلك القرآن الكريم فيقول : ﴿ مَنْ يَطِعِ الرسُول فقدْ أطَاعَ الله ﴾ .

ويقول : ﴿ قُلْ إن كُنتُم تُحبُّون الله فاتبِعُونِى يُحبِبكُمُ الله وَيَغْفرْ لكُمْ ذُنُوبكُمْ ﴾ (١) .

ويقول : ﴿ فَلَيحْذرِ الَّذينَ يُخَالِفُون عنْ أمْرِهِ أن تُصِيبَهم فِتْنَة أوْ يُصيبهُم عَذابٌ ألِيم ﴾ (٢) .

ومن هنا كان منهج الرسول وطريقه ، وطريقة حياته فى دعوته ، ومعاملته للناس ، وبناؤه للمجتمع ، خير منهج وطريق يسلكه طلاب النهضة ، ودعاة الإصلاح ، لاسيما أولئك الذين يسيرون على مبدأ الطريق ، يشقون لأمتهم فى وسط الظلام والانحلال طريقاً إلى النور والقوة ، ويكافحون لبناء مجتمعهم ، وإقامة نهضتهم ، على دعائم قوية ، تصونها من التعثر والانتكاس ، وتطهرها من معاول الهدم وسوء الأخلاق .

فقد عنى ﷺ فى بناء مجتمعه الجديد ، أن يكون حجر الأساس فى هذا البناء ، هو الإيمان بالله ، إيماناً خالصاً قوياً ، ينأى بأصحابه عن دنس الشرك ، وسوء الأخلاق ، ويغرس فيهم حب الله والناس .

وقضى فى دعوته وإرساء هذا الأساس لبناء أمته ، كثيراً من سنى رسالته ، كانت من أصعب السنين التى مرت به فى حياته ، باعتبارها فترة تأسيس ، بدأ فيها نقل الأمة من الشرك إلى التوحيد ومن الفوضى إلى النظام ، ومن تقديس التقاليد البالية ، إلى التحرر العقلى والوجدانى ، واحترام الإنسان لعقله

١ - سورة آل عمران : ٣١ .

٢ - سورة النور : ٦٣ .

وانسانيته .

وكان يعلم ثقل هذه المهمة ، ويعيش فى شدائدها ، ومع ذلك لم يتردد ولم يتهيب ولم يضعف ، بل مضى فى سبيله يشق طريقه وسط الصعاب المحيطة به ، يقول لربه يناجيه : « إن لم يكن بك على غضب فلا أبالى » فصبر واحتمل كل مارآه من عنت وإرهاق ، حتى كان ذلك وقوداً له ، يمده بالقوة والإقدام ، ورفض كل المحاولات التى حاولها أعداؤه ، ليثنوه من عزمه ، ويصرفوه عن وجهته ، حتى ضاق ذرعاً بمحاولاتهم ، فأعلنها صريحة قاطعة تحدد مابينه وبينهم ، حين قال : « **والله لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ما تركته ، حتى يظهره الله أو أهلك دونه** » .

وانطلقوا بعد ذلك يحاربونه بكل سلاح ، وهو لا يبالى ، وكان موقفه هذا درساً قوياً ، تعلم منه أتباعه الذين يحيطون به ، سمو الإخلاص فى المبدأ ، أو العقيدة ، كما كان درساً لكل من يأتى بعده ، ولاسيما دعاة الإصلاح ، يعرفون منه ويتعلمون ، أن الايمان بالله حين يعمر القلوب ، يهزأ بكل الصعاب ، ويزلزل الجبال ولا يتحرك ، ويسمو على الشدائد ولا يضعف ، بل يزداد قوة ومضاء ، كلما ازداد﴿ لهيب العذاب والاضطهاد ، يعرفون منه ويتعلمون أن المرء كلما ازدادت صلته بالله وقوى إيمانه به ، كان أمضى عزماً ، وأشد تصميماً ، وأكثر احتمالاً وصبراً ، وأنه على قد الإيمان والصبر يكون الفوز والنصر .

كانت هذه المعانى أو هذه المبادىء ، هى الدروس الأولى التى تركها لنا الرسول ﷺ ، وهو يضع اللبنات الأولى فى مجتمعه الجديد ، ومن الخير كل الخير لنا ، ولكل من يتصدى لدعوة أو إصلاح ، أن يعى هذه الدروس تماماً ، ويستمد منها مبادئه وخطته التى يسير عليها فى حياته ، وفى دعوته للإصلاح فى مجتمعه ، فإن أية نهضة أو دعوة لا تقام دعائمها على أساس من الإيمان بالله ، والإخلاص به لا ترتفع على ساق ، ولا يتحقق لها نجاح ، ولا يكتب لها النصر الذى وعده الله لرسله وللمؤمنين به ويكتابه الكريم حين قال : ﴿ إنا لَنَنْصُرُ رسُلنا والذين آمنُوا فى الحَياةِ الدُّنيا وَيَوْم يقومُ الأشهادْ ﴾ .

الصبر ضرورى للنجاح :

ومما يؤسف له أن بعض الناس يدعى أن دعوة القرآن الكريم والسنة والنبوية الى الصبر ، فى كثير من المواضع ، إنما هى دعوة إلى الرضوخ للظلم والذل ، والاستعباد ، والاستسلام للأمر الواقع مهما يكن سيئاً ، ومهما تكن القدرة على تغييره ومن هنا وصفوا الدين بأنه مخدر للشعوب وهم بهذا يصورون الدين بصورة لا تتفق مع الحياة ، ولا مع نزعة الإنسان وحبه للإنصاف والسيادة وكراهيته للظلم لحاجة فى نفوسهم لا تخفى على أحد .

فهذا الفهم للصبر الذى دعا إليه الإسلام إنما هو فهم خاطىء وظالم ، يفرض علينا الإسلام أن نقاومه ونبدده ، ضمن برنامجه لمقاومة الظلم حتى نصحح لهؤلاء فهمهم الخاطىء للصبر الذى يدعو إليه الإسلام ، بل ودعت إليه كل الأديان ، بل وكل دعوة تأخذ على عاتقها تصحيح الأوضاع الفاسدة فى المجتمع .

إن الإسلام فى روحه ونصوصه دين يغرس العزة فى نفوس أتباعه ، وينفر من الذل والرضوخ للظلم ، ويدعو المسلمين لمقاومته وللتضحية بنفوسهم وكل ما يملكون من أجل هذه المقاومة ، ويعتبر كل من يرضون بالهون فى حياتهم ، ويقيمون على الضيم والذل ، ظالمين لأنفسهم ، ويتوعدهم من أجل ذلك بأسوا مصير .

﴿ إن الَّذين توفَّاهُمُ المَلائِكة ظالِمِى أَنْفُسِهِمْ قالُوا فِيم كُنْتُم قالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِين فى الأرْضِ قالُوا أَلَمْ تكُنْ أَرْضُ الله وَاسِعة فتُهاجِرُوا فِيها فأولئِك مأوَاهُمْ جَهَنَّمُ وسَاءتْ مصِيرا ﴾ [1] .

بل إن القرآن الكريم يستنهض همم المسلمين لإنقاذ إخوانهم المظلومين ، ولو أدى الأمر للقتال .

﴿ وَمَا لكُم لا تُقاتِلُون فى سَبِيل الله والمُسْتضعفِين منْ الرِّجَال والنِّسَاءِ والوِلْدان الذين يقُولُون ربَّنا أَخْرِجْنا مِنْ هَذِهِ القرْيةِ الظالِمِ أَهْلُها واجْعل لنا مِنْ

---

١ ـ سورة النساء : ٩٧ .

لدُنْك وليا واجْعَلْ لنا من لدُنْكَ نصيرا ﴾ [١] بل ليس هناك ما هو أقوى تعبيراً من وجهة نظر الإسلام من الظلم والراضين به من وصفه المناهضين له ، الثائرين على البغى والذل ، فى صف واحد مع ﴿ الَّذين اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاة وأمْرُهُمْ شورى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رزقْنَاهُم يُنفقُون ﴾ فيقول بعد هذا مباشرة : ﴿ والَّذين إذا أَصَابَهُمْ البَغْى هُمْ يَنْتَصِرُون وجزاءُ سَيِّئةٍ سَيِّئَةٌ مِثْلُهَا ﴾ فلا يسكتون ولا يستسلمون .

واعتقد أن هذا ـ وهو قليل من كثير لا يتفق مطلقاً مع دعوى القائلين عن دعوة الإسلام للصبر ، بأنها دعوة للرضى بالظلم والاستعباد والاستسلام للأمر الواقع .

فما المراد إذن من الصبر ؟

ان الصبر الذى يدعو اليه الإسلام إنما هو الإصرار على تخطى الحواجز والعقبات ، وهو الثبات أمام أحداث الحياة وشدائدها ـ وما أكثرها ـ ، وبذل أقصى ما يملكه الإنسان من جهد للتغلب عليها ، وتغيير الواقع السيء حتى ولو أدى الأمر الى تضحية المسلمين بأرواحهم .

فالصبر إذن ـ سلاح لابد منه لنجاح المسلم بل أى إنسان فى حياته وتغلبه على أعدائه .

وبدون الصبر والإصرار ، لا ينجح مشروع ، ولا يتم عمل من الأعمال التى تحتاج إلى جهد .

وبدون الصبر ينهار الإنسان أمام المصائب التى تنزل به وتتحطم أعصابه .

وبدون الصبر لا يثبت جندى فى ميدان القتال ولا يتحقق للمسلمين انتصار . . .

ومن أجل هذا نجد القرآن يوصى بالصبر عند لقاء الأعداء ﴿ يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا إذا لقِيتُمُ الَّذين كَفَرُوا زَحْفاً فلا تُولُّوهُمُ الأدْبارَ [٢] ﴾ .

---

١ ـ سورة النساء : ٧٥ .
٢ ـ سورة الأنفال ١٥ .

﴿ إذا لقِيتُم فئة فاثْبُتوا واذكُروا الله كثيراً لَعَلَّكُم تُفْلحُون وأطيعُوا الله وَرَسُولَهُ ولا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وتذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إن الله مَع الصابِرين ﴾ ويقول [١] :

﴿ ثمّ إنَّ رَبَّكَ لِلَّذِين هَاجرُوا مِنْ بَعْدِ ما فُتِنوا ثُم جَاهَدُوا وَصَبَرُوا ﴾ . فمن ذا يعيب الإسلام على توصيته وأمره بالصبر فى هذه الحالات ؟

ولما كان من سنة الحياة أن يتعرض الناس أحيانا لبعض الأزمات المادية والنفسية ﴿ ولنبلونكم بشيء من الخوف والجوع ونقص من الأموال والأنفس والثمرات ﴾ ، فإن الإسلام لم يترك الإنسان تنهار أعصابه أمام هذه الأزمات ، بل وجهه إلى جرعة من الصبر تحفظ توازنه ﴿ وبَشِّرِ الصَّابِرِين الَّذين إذا أَصَابَتْهُم مصيبَة قالُوا إنا لله وَإنا اليه رَاجعُون ﴾ فلله ما أعطى ، وله ما أخذ ، فتتنزل عليهم السكينة ﴿ أُولَئِك عَلَيْهِمْ صَلَوات منْ رَبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ وَأُولئك هُمُ الْمُهْتَدُون ﴾ [٢] فمن ذا يعيب الإسلام على توصيته بالصبر فى هذه الحالات ؟ . .

فالصبر إذن ـ علاج للشدائد التى يتعرض لها الإنسان ، ولا يجدى معها علاج آخر ، إلا أن يتماسك هذا الإنسان ويصبر ، لينتصر على أعدائه ويجتاز الأزمات النفسية أو المادية التى تصيبه ليواصل حياته ، دون أن يختل عقله ، وتنهار أعصابه ، بينما جعل مقاومة البغى والظلم فى صف واحد مع الصلاة والزكاة لكسب رضا الله . .

وتلك الخطوط التى رسمها الإسلام ، هى التى تتمشى مع الحياة ، وتتجاوب مع العقل السليم ، وتصل بنا فى النهاية إلى الحياة الطيبة التى نحبها جميعاً .

﴿ يا أَيُّها الَّذين آمَنُوا اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا واتَّقُوا الله لَعَلَّكُمْ تُفلحُون ﴾ [٣] .

---

١ ـ سورة الأنفال : ٤٥ ، ٤٦ .
٢ ـ سورة البقرة : ١٥٥ ومابعدها .
٣ ـ آخر آل عمران .

٦٨ الغيبيات بين المؤمنين والمتمردين

يخرج علينا بين الحين والحين بعض الكتاب العرب جنساً ، الأجانب فكراً واتجاهاً ، بمقالات وكتابات موجهة مقصورة وفى أسلوب ملتو أحياناً يدسون خلالها أفكارهم الشرقية أو الغربية المستوردة ، التى يقصدون بها اخلاء قلوب الأمة الإسلامية من ايمانها بربها ومبادىء دينها . . لتتهيأ النفوس لقبول أفكارهم .

ومنذ سنوات وبعد حرب سنة ١٩٦٧ وهؤلاء الكتاب يدقون على نغمة واحدة ويتجهون بضرباتهم على مبدأ الايمان بالغيب ويعتبرون أن ايمان المسلمين بالغيب هو سبب تأخرهم وهزيمتهم ، يريدون هدم الأعمدة التى يتكون منها الايمان ﴿ ذلِكَ الكِتَابُ لا رَيْبَ فِيهِ هُدىً للمُتقِينَ الَّذِينَ يُؤمِنُونَ بالغَيْبِ ويُقِيمُونَ الصَّلاةَ ﴾ .

والإيمان بالغيب أى بما غاب عن حواسنا يشمل الإيمان بالله وبالملائكة واليوم الآخر من البعث والحساب والجزاء . .

والإيمان بذلك جزء من العقيدة التى جاءت بها الأديان السماوية جميعها ويؤمن بها كل اتباع هذه الديانات وفيهم اليهود والغربيون المسيحيون فلو كان الإيمان بالغيب عاملاً من عوامل التخلف والهزيمة لما انتصر الصهيونيون وما تقدم الغربيون الذين نرى آثار تقدمهم فى كل المجالات ظاهراً وبارزاً .

والعجيب أن هؤلاء الكتاب يتركون كل الأسباب الظاهرية للتخلف والهزيمة ويتجهون رأساً إلى مبدأ من مبادىء العقيدة وركن من أركانها ويدعون أنه السبب . . ويلقون هذا الكلام والنفوس مجروحة تبحث عن أسباب ما أصابها

من جراحات . . وإذا تحدثوا عن أسباب تقدم أمة من الأمم مروا سراعاً على الأسباب الحقيقية لنهضتها وعدوا إلى القول بأن السبب هو عدم إيمانهم بالغيبيات وإيمانهم فقط بالأشياء المادية التى يحسونها فما معنى هذا يا شباب ؟ أليس اليهود مؤمنين بالغيب .

أليس المسيحيون فى أوروبا وأمريكا مؤمنين بالغيب ؟ فهل ترى هؤلاء متخلفين ؟

فالسر فى التخلف والهزيمة إذن ليس فى ميدان الإيمان بالغيب ولكنه فى العوامل الكثيرة التى يعرفها الجميع .

ولكن هؤلاء يريدون أن يرفض المسلم الإيمان بالله لأنه ليس مادة تدرك بالحواس يريدون أن يرفض المسلم إيمانه باليوم الآخر والملائكة ويصبح مثلهم مادياً .

وأنا لا أريد الآن أن أعتمد فى مناقشتهم على آيات من القرآن والحديث ، ولا على تاريخ المؤمنين بالغيب قديماً وحديثاً ، وما أحرزوه من مجد وتقدم .

ولكنى أقول لهم . . أن مبدأ الإيمان بما غاب عن حواسنا هو فى الحقيقة أمر فطرى وأصل من أصول النهضة ، وتقدم العلوم والاختراعات . .

إذ لو اقتصر الإنسان على الإيمان بالمحسوسات حوله ، ولم يتطلع لما غاب عنها ، لما جرى العلماء حول الغيبيات ، والفروض التى يفترضونها بعقولهم ، ليصلوا إلى اكتشاف أو اختراع ،

ومن القواعد المقررة لدى العلماء أن عدم إدراك حواسنا لشىء ، لا يعنى مطلقاً عدم وجوده ، لأن حواسنا قاصرة ، ولها حدودها فى الإدراك ، ولربما كان ذلك من رحمة الله لنا ، لنعيش فى هذه الحياة . . ولذلك اخترع العقل الإنسانى آلات يستطيع بها أن يسمع ما لا تسمعه الأذن العادية ، ويرى أشياء لا يدركها بصره العادى ولكن حين يريد . . .

ثم إن أكثر معلومات الإنسان قائمة على النقل والثقة فى الذى ينقل الينا معلومات غائبة عن حواسنا . . فكيف نصدق مثل هذا ، ونبنى حياتنا عليه ،

فإذا جاء رسول وأخبرنا عن الله ، أن هناك كذا وكذا رفضنا كلامه ، وقلنا لا نؤمن بما غاب عن حواسنا ؟

لقد ثبت علمياً وبالمشاهدة أن بعض الحيوانات والطيور والحشرات تتفوق على الإنسان أحياناً ، بما يجرى حوله وحولها ، والإنسان نفسه لا يدرك حتى الآن كثيراً مما يجرى فى جسمه ، فكيف يريد أن يحكم حواسه ويجعلها ميزاناً للإيمان بالله ؟ . إن هؤلاء يرددون هنا نغمة قديمة أتت الجمهرة الحديثة من علماء الطبيعة وغيرهم فأبطلوها واستهتروا بها . ولكن هؤلاء يرددونها لحاجة فى أنفسهم لا تخفى على المؤمنين .

فمما لاشك فيه أن إنسانا سوىّ العقل سليم البحث لا يمكن أمام ما يدركه عقله ، وما يصل إليه من حقائق عن النظام الدقيق لهذا الكون ، لا يمكنه إلا الاعتراف التام بوجود إله خالق ومدبر لهذا الكون . . .

إن التطور فى حد ذاته أمر يقره الإسلام بل يقرره فى أمور كثيرة ، عرض لنا القرآن أمثلة له فى تطور الجنين إلى إنسان ، وتطور الحبة إلى شجرة باسقة إلى غير ذلك . . .

ولكنه لا يقف عند هذا بل يلفت نظرنا مع ذلك إلى القدرة الكامنة وراء هذا التطور ، لأن التطور نفسه قائم على نظام دقيق ، لا على الصدفة ، وهذا يؤدى بالعقل إلى الإيمان بالذى أوجد ووضع هذا النظيم الدقيق .

فالخلية الأولى لم توجد نفسها ، ولم تنظم عوامل تطورها وانقساماتها ، لذلك نجد العلماء الذين يعتنقون نظرية التطور ، لا ينكرون وجود الله بل يعترفون بوجود قوة عليا وراء هذا التطور فهذا أحدهم يقول : « إن تطور الإنسان وتقدمه فى الطريق المرسوم للرقى يستحيل من غير استمداد من قوة معنوية كما يستحيل فى مطبعة جمع كتاب من تمثيليات شكسبير بإلقاء الحروف كيف اتفق بدون تفكير ، وحتى دارون نفسه صاحب هذه النظرية يعترف بوجود الخالق فيقول : « إنى أرى الأحياء التى عاشت على هذه الأرض جميعاً نفخ الخالق فيها نسمة الحياة » .

ويقول اينشتين ، وهو من أكبر علماء الكون والرياضة : « إن دينى هو إعجابى فى تواضع بتلك الروح السامية التى لا حد لها ، تلك التى تتراءى فى التفاصيل الصغيرة القليلة التى تستطيع إدراكها عقولنا الضعيفة العاجزة ، وهو إيمانى العاطفى العميق بوجود قدرة عاقلة مهيمنة تتراءى ، حيثما نظرنا فى هذا الكون المعجز للأفهام . إن هذا الإيمان يؤلف عندى معنى الله » .

ويقول الدكتور موريسون رئيس أكاديمية العلوم فى نيويورك « إن وجود الخالق تدل عليه تنظيمات لا نهاية لها تكون الحياة بدونها مستحيلة » .

فهل هؤلاء العلماءُ الأفذاذ ومئات من أمثالهم ، وآلاف الملايين ، من المؤمنين بالله ، وبالغيب ، حال إيمانهم بينهم وبين التقدم الذى نراه .

إن بعض هؤلاء الذين يهاجمون الإيمان بالغيب بدعوى اشفاقهم على هذه الأمة وتخلفها ، يفضح عن هدفهم وغايتهم كلام لهم آخر يدعون فيه الأمة وقادتها إلى نسف الدين من الجذور ، وبدعوى أشفاقهم على هذه الأمة أيضاً .

وهم بهذا يقدمون دليل إدانتهم ، ودليل غربتهم عن هذه الأمة ، بل وعدائهم أيضاً لها ، ولمصيرها .

وإذا كان حال هؤلاء يدعو للعجب والاستنكار ، فإن ما هو أعجب وأغرب أن نأتمنهم على أمر من أمور هذه الأمة أو نصدقهم فى دعواهم الإشفاق عليها ، وهذا هو قول الله وتوجيهه الحكيم :

﴿ وَلَا تَرْكَنُوا إلى الَّذين ظلمُوا فتمسَكُمُ النَّارُ ﴾ .

نار الدنيا والآخرة ، وقانا الله ووقاكم ووقى بلادنا العزيزة شرها [١]

---

١ ـ أذعت هذا فى وقت انتهز فيه أصحاب « مكاتب الاستيراد الفكرى » هزيمتنا فى حرب ١٩٦٧ وهجموا على الدين وحملوه مسؤولية الهزيمة . والآن اكتفى معهم بهذا السؤال : ماذا تقولون فى انتصار جيوشنا فى حرب العاشر من رمضان ؟ هل كان انتصارها بسبب تخليها عن ايمانها ، أو أنه كان بسبب ايمانها الذى تحدث به الجيش قبل غيره ؟! لقد أحسوا موقفهم أمام هذه الظاهرة الايمانية والنصر ، فتحركوا بلسان واحد منهم فكتب فى الأهرام يقلل من شأن الايمان ويعيب على الجيش والأمة حديثها عن الايمان وأثره فرد عليه الكثيرون وكنت واحدا منهم واستنكرت الأمة كلها نغمته ، وكان الجيش اشد استنكارا لأنه هو الذى قاتل بايمان وأحس رعاية الله له فى أشد مواقفه حرجا . وكان انتصاره ثمرة ايمانه الذى حمله على الاستبسال والإقدام على التضحية ، وثباته الذى مكنه من استعمال اسلحته التى يتقن تدريبه عليها .

إن هؤلاء الذين يحملون الدين مسؤولية الهزيمة سنة ١٩٦٧ جبناء أو مغرضون ، لأنهم يعرفون تماما السبب فى هذه الهزيمة وهم القادة على المستوى الكبير والصغير ، وسوء التخطيط ، وإدارة المعركة .

ولكنهم لايريدون أن يقولوا مايقوله المختصون ، وأعلنوه . . ثم يأتون اليوم وقد بهتوا فيحاولون الغض من شأن الإيمان فى كسب النصر . . ويسمون الايمان أمرا لا عقلانيا ! لايليق بنا أن نعطيه أى اعتبار . لأن الاعتبار الوحيد انما هو للأسلحة الشرقية الروسية !!! وقد كانت هذه الأسلحة فى يد الجيش حينما هزم سنة ١٩٦٧ ولكنهم لايستحون !!

وقد رأيت ـ تكملة للصورة أن أسجل فى مكان آخر ردى على مانشرته « الاهرام » لأحد هؤلاء ، وإن كان غير داخل فى نطاق ما أذعته من حديث للشباب ، لكنه فى الموضوع . .

٦٩ ايمان بالبعث من أجل الحياة

القارىء للقرآن الكريم يلاحظ عناية خاصة من الله سبحانه وتعالى بعقيدة البعث ومناقشة المشركين فى إنكارهم لهذه العقيدة وإيراد كثير من الأدلة المتنوعة على أن الله سبحانه سيبعث الناس من قبورهم ويحاسبهم على أعمالهم فقد كان المشركون ينكرون البعث ويستبعدون أن الله يحيى الموتى بعد أن يصيروا تراباً متفرقاً شتتاً فى كل واد ويورد الله فى القرآن وجهة نظرهم هذه فيقول : ﴿ **وقالوا أئذا كنا عظاما ورفاتا أئنا لمبعوثون خلقا جديدا** ﴾ (الإسراء) فيرد عليهم بعد ذلك مباشرة :

﴿ **أوَ لمْ يَرَوا أنَّ الله الَّذى خَلَقَ السَّموات والأرْض قادِرٌ على أن يَخْلُقَ مِثْلَهم وَجَعَلَ لَهُم أجَلاً لا رَيْبَ فيه** ﴾ [1] .

وفى السورة نفسها يقول فى موضع آخر :

﴿ **قُلْ كُونُوا حِجَارةً أوْ حَدِيداً أو خلْقاً مّا يكبُر فى صُدُورِكُم فَسَيَقُولُون مَنْ يُعيدُنا ؟ قُلِ الذى فطركُمْ أوَّل مَرَّة** ﴾ [2] .

وفى سورة يس يورد تساؤلهم .

﴿ **من يحيى العظام وهى رميم** ﴾ .

ويرد عليهم ﴿ **قُلْ يُحْيِيها الَّذى أنْشأها أوَّل مرَّة وهُو بكُلِّ خلْقٍ عَلِيم** ﴾ إلى أن يقول :

---

١ ـ الإسراء : ٩٩ .

٢ ـ الإسراء : ٥٠ ، ٥١ .

﴿ أَوَ لَيْس الَّذى خَلَقَ السَّمَوات والأرْض بقادرٍ عَلَى أَنْ يَخْلُق مِثْلَهُم بَلى وَهُوَ الخَلاَّقُ العَلِيم ﴾ وفى آية أخرى يقول لهم :

﴿ وَهُوَ الَّذى يَبْدأُ الخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُه وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ ﴾ وفى مواضع أخرى من القرآن يضرب الله للكفار المنكرين مثلاً واقعا ملموساً أمامهم من إحياء الأرض الميتة إذا نزل علها الماء ويقول لهم ﴿ إنَّ الَّذى أَحْيَاهَا لَمُحْيِى المَوْتَى ﴾ وفى موضع آخر يقول لهم ﴿ كَذَلِكَ تُخْرجُون ﴾ أو ﴿ كذلك النشور ﴾ . .

آيات كثيرة من القرآن تثبت عقيدة البعث بأدلة متنوعة وكلها تقوم على المنطق الملموس المشاهد أمامهم حتى ليتساءل الإنسان عن هذه الظاهرة : ولم كل هذه العناية ولم هذا الإصرار على الإيمان بعقيدة البعث حتى لا يعتبر الإنسان مسلماً إذا لم يكن مؤمناً بها وبما يتلوه يوم القيامة من حساب وجزاء ؟ هل يمكن أن يكون ذلك كله اعتباطاً ولا هدف له يتصل بحياة الناس ؟ . .

ونقول : تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . . فما من شيء أمر به أو نهى عنه إلا كان لأمره أو نهيه حكمة تتجلى فى مصالح الناس فى حياتهم الدنيا ومصلحة البشر وإسعادهم وتوفير الأمن والاستقرار لهم فى الحياة هو الغرض الأول من كل عقيدة الهية فى كل نظام ربانى شرعه الله للعباد . .

فحين أمر الله عباده أن يعتقدوا بوجوده ويوحدوه فى عبادتهم ويلتمسوا منه وحده العون والنفع ودفع الضر والشر لم يكن ذلك لأن من ورائه نفعاً لله ـ تعالى عن ذلك ـ فالله هو الغنى الحميد ولو لم يعترفعباده بذلك .

وإنما أراد الله بذلك تكريم البشرية ورفع مستواها العقلى والفكرى عن أن تخضع وتذل لمخلوق ترهبه وترغبه وتعفر جباها بالسجود له فلكل مخلوق مهما علا شأنه نهاية وهو محتاج إلى خالقه ولا يملك لنفسه ضراً ولا نفعاً ومن إذلال المرء لنفسبه وامتهانه لعقله واحتقاره لكرامته أن يلتمس القوة من ضعيف أو يتوجه بالتعظيم لمحتاج ولهذا لم يرض الله لعباده هذا المصير وهذا الإذلال ، فوجههم جميعاً وفرض عليهم أن يرفعوا رأسهم للسماء ولا يخضعوها للأرض وأن يتجهوا جميعاً بالعبودية والخضوع للقوى الأعلى الذى لا تأخذه سنة ولا نوم الذى بيده الملك وهو على كل شيء قدير وبذلك يتجردون من الخوف إلا من الله ومن

الخضوع للعبودية إلا له ، ويشعرون ـ بذلك ـ أنهم جميعا أمام الله سواء أفضلهم أكثرهم طاعة له واستجابة لأمره ويحسون عزة انتسابهم لله القوى القادر الذى يعلم الحياة ، والأرزاق وله الخلق والأمر يعيشون أحراراً أعزاء وينطلقون فى حياتهم لتحقيق ما يريده الله لهم دون خوف إلا منه ولا رجاء إلا فيه فعقيدة التوحيد تحطيم لقيود الاستعباد ، استعباد المخلوق أو سيطرته عليه وفى هذا مصلحة للإنسان وتكريم له ورفع لشأنه . .

والأمر كذلك فى عقيدة البعث التى أهتم الله بها لا لأنه سبحانه يريد سيطرة أو نفعاً تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً بل لتقليم أظافر الشر فى المجتمع وتوفير السعادة حتى لا ينطلق الناس فى حياتهم كالسباع يفترس قويهم ضعيفهم ويستبد صاحب السلطة بمن لا سلطة له دون شعور بالخوف من حسيب أو رقيب له السلطة العليا وإليه المرجع والمصير .

﴿ يوْم لا تَمْلِكُ نفْسٌ لِنَفْسٍ شَيْئاً والأمر يومئذ لله ﴾ . .

فشعور الإنسان وإيمانه بأن أمامه موقفاً يحاسب فيه عما عمله فى دنياه وأنه فى هذا الموقف يجرده الله من سلطات وأسباب قوته ثم يجازيه على عمله ﴿ **فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره** ﴾ . .

أقول شعور الإنسان بهذا يردعه عن الاسترسال فى شره ويجعله يفكر قبل أن يعتدى ويظلم لأنه أن أفلت فى الدنيا فالقصاص ينتظره فى الآخرة فيكف عن ظلمه واعتدائه ويحاول أن يكسب منزلة عند الله بالخير يفعله وبالصالحات يقدمها ، وبذلك تصلح الحياة ويسعد الإنسان فيها ويصور الله هذا المعنى فى قوله :

﴿ تبارك الذى بيده الملك وهو على كل شىء قدير الذى خلق الموت والحياة ليبلوكم أيكم أحسن عملا وهو العزيز الغفور ﴾ .

ففى هذه الآية يحدد الله وظيفة الدنيا بالنسبة لحياة الإنسان فيها .

﴿ الَّذى خَلَقَ المَوْتَ والحَيَاةَ لِيَبْلُوكُمْ أيُكُمْ أحْسَنُ عَملا ﴾ فهذه الحياة التى نحياها هى مدة امتحان يمتحننا الله فيها هل ننجح فى آداء ما علينا أو نفشل

والحساب على ذلك لا يقتصر على الدنيا وإنما سيكون ذلك فى يوم آخر هو يوم القيامة » . .

ولم هذا الامتحان وهذا الحساب ؟ هل ذلك أمر ضرورى ؟

نعم إنه أمر ضرورى بالنسبة لحياة الإنسان وبالنسبة لعدل الله بعد أن اقتضت حكمته أن يجعل هذه الحياة الدنيا ميدان عمل يتصارع فيها البشر وقد خلقهم الله مزودين بغرائز وميول وآمال وجعلهم متفاوتين فى قدراتهم وفى طبائعهم وعقولهم وأرزاقهم وحظوظهم فى الدنيا ثم أرسل لهم الرسل ليحددوا لهم الطريق الذى يسلكونه فمنهم من استجاب ومنهم من تمرد . . وطغى واستبد وظلم الناس ونحن نلاحظ أن المؤمنين قد يستبد بهم ظالم ويعتدى على حقوقهم بينما يتمتع الظالم بدنياه ويتوفر له المال والمنصب ، تنقضى حياة هذا وذاك : هذا ظالم وذاك مظلوم ولو وقف الأمر عند هذا لما توفر أو تحقق عدل بين عباده ولذهب الظالم بدنياه دون قصاص منه وذهب المظلوم دون أن يقتص له . . وهذا مناف لحكمة الله وعدله بين عباده . .

لذلك كان من الضرورى أن يكون هناك حساب وعقاب فى يوم آخر غير أيام هذه الدنيا وهو اليوم الذى يبعث الله فيه الخلائق ويحييها من القبور ليحاسبها على ماقدمت فى دنياها ﴿ وَنَضَع الموازين القِسْطَ لِيَوْم القيامة فَلَا تُظْلَمُ نَفْسٌ شَيْئاً وَإِنْ كَانَ مِثْقَال حَبَّة مِنْ خَرْدَلٍ أَتَيْنَا بِهَا وَكَفى بِنَا حَاسِبِين ﴾ وبهذا يتحقق عدل الله الذى قامت عليه الدنيا ﴿ وخلق السموات والأرض بالحق ولتجزى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ فكما أن السموات والأرض قامتا وانتظمتا على أساس من الحق والعدل فلا يخرج شىء فيهما عمار سمه الله كذلك كان من العدل والحق أن يكون هناك نظام محكم للبشر يقضى بأن تجزى كل نفس ماكسبت ولما كان ذلك لايتم فى الدنيا فانه قطعاً يتم فى الآخرة ليتحقق هذا العدل . .

بهذا وضع الله الإنسان أمام امتحان ونتيجة هذا الإمتحان لا مفر منها ولاشك أن كل إنسان عاقل يحرص على أن يجتاز هذا الإمتحان بجدارة وأن يحضر له أو يتخذ كل الأساليب التى تهىء له النجاح فيه لاسيما إذا عرف أن كل

عمل يعمله وكل كلمة يقولها حسوب أو محسوبة عليه فى كتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها وإن ﴿ مَنْ يعْملْ مِثْقال ذرَّة خَيْرا يرهُ وَمَنْ يعْمل مِثْقال ذرَّة شراً يرهُ ﴾ وإنه ﴿ ما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد ﴾ ﴿ وإن الله عليمُ بِذاتِ الصُّدور ﴾ وإن الإنسان لا يستطيع أن يداور أو يحاور أو يغالط أمام ربه يوم القيامة .

﴿ يوْمئِذ تُعْرضُون لاَ تَخْفى مِنْكُم خَافِيةُ ﴾ .

﴿ يوْم تَشهَدُ عليْهِم أَلْسِنَتُهُم وأَيْديهم وأرْجُلُهم بما كانُوا يَعْملُون ﴾ .

﴿ يوْمِئذ يُوفِّيهمُ الله دِينَهُم الحَقّ وَيَعْلمون أنَّ الله هُو الحقُّ المُبِينُ ﴾ وعلى أساس من العمل والسلوك يكون الجزاء إما إلى جنة وإما إلى نار . . ﴿ يَوْم يفِرُّ المرْءُ مِنْ أخي وأمِّه وأبِيه وصَاحِبَتِهِ وبنِيهِ لِكُلِّ امْرىء مِنْهُم يَوْمئِذ شأنٌ يُغْنِي ﴾ ويقول : نفسى نفسى من هول مايرى . .

لاشك أن كل إسنان يعرف ذلك ويؤمن به فى دنياه إيماناً يخالط دمه ويملأ قلبه سيحرص الحرص كله على أن يكون فى حياته تطبيقاً عملياً لتعاليم ربه ويضع نصب عينيه أن يرضى الله ولو أسخط الخلائق وأن يتحاشى كل ما يغضب مولاه ولو كان فى ذلك رضاءُ كل البشر عنه فكلهم لا يستطيعون دفاعاً عنه أمام ربه ﴿ يوْم لا تَمْلِكُ نَفْسٌ لِنَفْس شَيْئا والأمْرُ يوْمئِذ لله ﴾ .

إن إيمان الإنسان الحقيقى بالجنة يحيله فى حياته مشتاقاً اليها دائما يشم ريحها ويندفع فى كل عمل يقربه إليها ولقد سمع أحد الصحابة رسول الله يخبر بأنه ليس بين المؤمن والجنة إلا أن يقوم فيقاتل فيقتل شهيداً ، وكان فى يده ثمرات يأكلها فرمى بها وقال إننى إذن لخاسر إذا بقيت حتى آكل هذه الثمرات.واندفع للقتال فى سبيل الله يحصد رؤوس المشركين حتى استشهد . . فإيمان هذا الصحابى بالبعث وبالجنة للشهداء جعله يسارع اليها ويعتبر اللحظات التى تؤخره عنها لحظات ضائعة ويقبل مشتاقاً على الاستشهاد . . والجود بالنفس أقصى غاية الجود . .

وهكذا حمل الإيمان هذا الصحابى على أن يجود بروحه وهكذا يحمل كل مؤمن على أن يسمو بنفسه عن كل ما يغضب ربه فلا يترك واجباً فرضه الله عليه ،

ولا يقرب معصية نهاه الله عنها ويكون نموذجاً طيباً للإنسان الذى يريده الله ويحبه هذا إذا كان الإيمان نابعاً من القلب أما إذا كان مجرد أقوال نرددها وندعى بها أننا مؤمنون فإن مثل هذا الإيمان لا يلجم النفوس عن نزواتها ولا يردع الأشرار عن شرورهم مثلما نشاهد الآن . ولمثل هؤلاء نذكر لهم قول رسول الله ﷺ : « **ليس الإيمان بالتمنى ولكن ما وقر فى القلب وصدقه العمل ، وإن قوماً غرتهم الأمانى وقالوا نحن نحسن الظن بالله وكذبوا .. لو أحسنوا الظن لأخلصوا العمل** » . .

٧٠ كيف نؤدى واجبنا

الواجبات التى نلتزم أداءها كثيرة متنوعة ، يقابلها دائماً حقوق لنا نطالب الغير بأدائها ، والنفوس بطبيعتها ميالة الى التحدث عن حقوقها ، والحصول عليها . فى الوقت الذى لا تراعى فيه حقوق الغير الواجب عليها أداؤها ولذلك كانت فى حاجة إلى كابح يكبحها ، ويحد من اندفاعها وراء ميولها ، ويذكرها بما للغير من حقوق ، يجب عليها أن تحرص على أدائها ، حرصها على حقوقها . .

وقد جاءت الأديان وقامت القوانين لتحدد الواجبات والحقوق وترشد الإنسان إلى أن يوازن بينها ، ويحرص على أداء ما عليه من واجبات ، حرصه على ماله من حقوق ، ويعامل الناس بما يجب أن يعاملوه به .

ولا أظن أن هناك مشكلة حول معرفة الحق الذى لنا ، والواجب الذى علينا ، ولكن المشكلة حقيقة هى فى الاقتناع بهذه المعرفة ، والتزام النفس ورضائها بالعمل على هديها .

فهل يجدى القانون والقوة المنفذة له فى إقناع الناس بذلك ؟

الحق أنه لا يجدى كثيراً . مالم يكن مستنداً إلى قوة روحية . يقدرها الناس ، ويخضعون لها .

ثم هل تجدى محاولاتنا لإقناع الناس بفعل الواجب ، لأنه واجب وشىء جميل للنفس أن تعمله ؟

الحق كذلك أنها لا تجدى تماماً ، لأنها إن أفلحت فى إقناع بعض الخواص من الناس من أصحاب العقليات العالية ، والحساسية المرهفة ، نحو الخير والجمال

والواجب ، فلن تفلح فى اقناع غيرهم من الجماهير وعامة الناس .

فقد رأينا قديماً وحديثاً فلاسفة دعوا إلى هذا المذهب ، مذهب فعل الواجب لأنه واجب وجميل ، مثل الفلاسفة الرواقيين ، والفيلسوف « كانت » الألمانى وبعض الفلاسفة الإسلاميين ، ورغم مافى دعوتهم من جمال وخير مصفى ، إلا أنها فشلت عملياً لأنها دعوة لا تخاطب ولا تقنع إلا طبقة خاصة ، من ذوى الاستعدادات العالية ، والسمو النفسى ، أما بقية الناس ـ وهم الكثرة الساحقة ـ فلا تمس نفوسهم هذه الدعوة ، لأنهم ممن يغريهم الثواب ، ويرهبهم العقاب ، ولا تسمو نفوسهم إلى أداء الواجب لمجرد ما فيه من خير وجمال . .

لذلك كان الدور الحقيقى لإقناع الناس على اختلاف ميولهم واستعداداتهم بالواجب ، ودفعهم لأدائه ، هو دور الدين وحده ، الدين الذى يستطيع شحن النفوس ، بطاقة قوية دفاقة من الإيمان بهذا الواجب ، ويجعل الإنسان يستهين بالشدائد ، ويقبل حتى على الموت من أجله ، سواء كان من ذوى الاستعدادات العالية الذين يفعلون الواجب لا طمعاً فى جنة ولا خوفاً من نار ، أم من يفعلونه انتظاراً للثواب ورهبة من العقاب . .

وقد رأينا الإسلام يعنى عناية تامة بتربية النفوس على حب الواجب والتفانى فى أدائه ، لكى يجعل من كل مسلم لبنة قوية صالحة فى بناء مجتمع متكافل ، متين البنيان ، فنراه يربط الإيمان بالواجب ، وأدائه . كما ينبغى ، بالإيمان بالله ورسله ، فيقول الرسول ﷺ « لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه » وتأتى الآيات الكثيرة فى القرآن فتقول ﴿ الَّذين آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالحاتِ ﴾ فتضع الأعمال الصالحة بجوار الايمان ، مما جعل كثيراً من ذوى الرأى فى الإسلام ، يعدونها جزاءاً من الإيمان ، أو الصورة التنفيذية العملية له ، فإيمان لا ينبعث عنه أداء الواجب ، وعمل الصالح إيمان ناقص ، مبتور مهلهل ، لا يستر صاحبه أمام الله . .

ونجد النصوص الكثيرة فى القرآن والحديث ، تُذْكى فى النفوس روح المراقبة لله ، وأداء الواجب للناس ، فيقول الله سبحانه ﴿ فلا تَخْشوا الناس

وَاخْشَوْنِ [١] ﴾ ﴿ والَّذِين هُمْ لأمانَاتِهم وَعهْدِهِمْ رَاعُون ﴾ [٢] ﴿ يا أيُّهَا الَّذين آمنوا لَا تَخُونُوا الله والرَّسولَ وخُونُوا أمانَاتِكُمْ وَأَنْتُمْ تَعْلَمُون ﴾ [٣] ﴿ الَّذين يُنفِقُون أمْوَالهم باللَّيْلِ والنَّهَار سِراً وَعَلانية ﴾ [٤] ﴿ إنْ تُبْدُوا الصَّدَقَاتِ فَنِعِمَّا هِى وإنْ تُخْفُوهَا وتُؤْتُوهَا الفُقَرَاءَ فَهُو خَيْرٌ لكُم ﴾ [٥] ويصف الرسول أحد الذين يفوزون برحمة الله وظله يوم لا ظل إلا ظله فيقول « **ورجل تصدق بصدقة فأخفاها حتى لا تعلم شاله مافعلت يمينه** » ويجيب السائل عن الإحسان فى العبادة فيقول له : « **أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك** » .

وعبادة الله هى فى أداء الواجبات المفروضة ، على الإنسان ، للخالق والمخلوقين .

ونرى الإسلام يحمل حملة عنيفة ، لا على المقصرين فى أداء الواجب فحسب ، بل على الذين يفعلونه رياء ونفاقاً ، دون اقتناع نفسى بفعله ، فيعلن أن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار وأن أعمالهم لا جدوى منها ومثلها ﴿ كَمَثَل صَفْوان (أى حجر أملس) عَلَيْهِ تُرابٌ فأصَابهُ وابِلٌ (أى مطر شديد) فتركهُ صَلْداً ﴾ وأزال المطر كل آثار التراب . وكذلك الرياءُ ، يزيل كل أثر للأعمال ، وهذه الأعمال لا تقبل عند الله ، ولا يرضى عنها ﴿ لَنْ يَنَال الله لُحُومُهَا وَلَا دماؤُها وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقوى منْكُم ﴾ [٣] .

ذلك لأن الواجب تزلفاً وتملقاً أو خوفاً من القانون أو من الناس ، صورة قبيحة للنفاق ، الذى يضر المجتمع ولا يفيده ، وهو يمثل خلاء نفسيا قبيحاً فى الإنسان وضعفاً مزرياً ، سينتهز صاحبه أول فرصة ليتخلى عنه ، ويظهر على حقيقته ، مهملاً فى أداء واجبه ، ضاراً للناس ، مفسداً للمجتمع ، فالإسلام لا يكتفى بصورة أداء الواجب ، ولكنه يعنى أولاً بالباعث على أدائه . .

---

١ ـ سورة المائدة : ٤٤
٢ ـ سورة المؤمنون ، : ٨
٣ ـ الأنفال : ٦٠ . . : ٢٣
٤ ـ ١ ـ سورة البقرة : ٢٧٣ : ٢٧١
٥ ـ سورة الحج : : ٧٣

وهكذا يحيط الإسلام النفس ، بوسائل كثيرة من التربية ، ويعنى بإصلاحها داخلياً ، لينبعث منها بعد ذلك كل عمل صالح ، ومن هنا كان الفرق الشاسع بين التربية الدينية ، التى تعنى قبل كل شىء بالداخل ، والتربية العلمية المادية التى لا تعنى إلا بالسطح ، فإن الذى تصاغ نفسه من صغرها ، على مراقبة الله ، وأداء الواجب ، طمعاً فى رضاه ، سيؤدى ما عليه ، ولو كان بعيداً عن الناس ، وسطوة القانون ، لأن الذى يراقبه ويخشاه مطلع عليه ، أما الذى يخشى القانون ، ويراقب الناس ، ويستطيع فى كثير من الاحوال ان يتخلص من القانون ويختفى عن اعين الناس وتظهر نفسه على حقيقتها . لا خير فيها ولا تهذيب ،

ولهذا كان لابد لنا إذا أردنا إيجاد مجتمع قوى ، مدرك لواجباته ، مؤد لها على الوجه الأكمل ، أن نعنى بغرس روح المراقبة لله ، والخوف منه ، روح الإيمان به إيماناً قوياً ، ينبعث منه كل خير للفرد والمجتمع .

وإن ما تشكو منه من فساد فى الذمم ، وسوء فى الأخلاق ، وجشع عند بعض الناس ، وركود فى النهوض بالمستوى الذى نبتغيه ، وتفكك فى الروابط ، إنما يرجع قبل كل شىء إلى اخلاء النفوس من هذه التربية ، الى عدم شعورها بالواجب ، الى عدم تعهدها من صغرها بالتربية الدينية ، التى تقوى فيها هذا العنصر الهام فى حياتها ، وحياة المجتمع ، وهو حب أداء الواجب خضوعا لله وطمعاً فى رضاه .

أنه يكفينا أن نعنى بغرس هذه الروح فى النفوس منذ صغرها ، لكى نجد رجالاً يعرفون مسؤولياتهم ، ويراقبون ربهم فى تصرفاتهم - وهم معهم اينما كانوا - ويعرفون كيف يؤدون واجباتهم ويتحاشون الوقوع فيما يسخط الله والناس ، فلا يغشون ، ولا يسرقون ، ولا يرتشون ولا يهملون عملاً ، ولا يسيؤون إلى الناس ، ولا يخونون ، لأن لهم حارساً عليهم من داخل نفوسهم ، يعرف الله ويراقبه ويخشاه . .

وهذا هو الطريق الصحيح ، والوحيد ، لبناء الرجال .

وما أحوجنا إلى رجال مؤمنين مخلصين ، يعرفون كيف يؤدون واجبهم وهو نفس الطريق الذى ارتاده وعبده رسولنا ﷺ ، فبنى فى مدرسته الكبرى رجالاً ،

رفعوا على كواهلهم مجد هذا الدين ، ومجد أتباعه المسلمين ، رجالاً تحدث ببطولتهم وإيمانهم وحي السماء ، قبل أن يلهج بذكرهم لسان التاريخ ﴿ رِجَالٌ صَدَقُوا ما عَاهدُوا الله عَليْهِ ، فَمِنْهُمْ مَنْ قَضى نَحْبَهُ ، وَمِنْهُم مَنْ يَنْتَظِرُ وما بدَّلُوا تبْديلاً ﴾ (١) .

---

(١) الأحزاب ٢٣

٧١ ذكرى نزول القران

يقول عليه الصلاة والسلام :

« ما أتى على المسلمين شهر خير لهم من رمضان » .

وهل يشك فى ذلك عاقل ، وقد نزلت هداية الله للبشرية فيه ؟

إن من الأزمان ما يسعد ، ويحظى بالتقدير والذكر الحسن كالإنسان ، وينتظر الناس قدومه حتى إذا قدم استقبلوه بالحفاوة كما يستقبلون عظماءهم النابهين فيهم ، غير أن الإنسان لا يخلد ذكره أو تعلو مكانته إلا بما يبذله من عرق وجهد وما يقدمه من خدمات ويقوم به من بطولات . . أما الأزمان فتحظى بالخلود والتقدير لمجرد ما يقع فيها من أحداث يكون لها أثرها فى تغيير مجرى حياة الناس فيظلون يذكرونها ، ويحنون اليها ويستجلون قدومها ويعدون الأيام أو الشهور الباقية عليها حتى إذا أقبلت عليهم ، تفتحت قلوبهم لها وتسابقوا فى إظهار شعورهم وتقديرهم نحوها واحتفلوا بها بالأسلوب الذى يتفق وجلالها ويتناسب وآثارها ، ويعبرون عن ذلك بمختلف المظاهر التى تبرز مكنون شعورهم فيقيمون الزينات ويرفعون اللافتات ويخطبون أو يكتبون معددين مآثر الحدث أو الأحداث التى وقعت فيها ويعملون على أن تعم الفرحة بها كل قلب وتدخل كل بيت ، مجددين العهد أن يظلوا على ولائهم لها وحفظهم لذكراها .

يحدث مثل هذا فى الأحداث الدينية أو الوطنية التى تمر بأية أمة من الأمم وعن قدر درجة هذه الأمة من الوعى والتقدير . .

ولقد كان شهر رمضان فى حياة البشر لوعقلوا وفى حياة الأمة الإسلامية بوجه

خاص شهراً محظوظاً بين شهور السنة كلها حين اختاره الله ليفتتح فيه انزال القرآن على عبده الذى اختاره ليكون خاتم الأنبياء والمرسلين محمد عليه الصلاة والسلام فكان الشهر الذى استقبلت فيه الأرض أول أنوار السماء . . . وتجلت فيه رحمة الله على الإنسانية كلها حين نزل أمر السماء على رسول الله ﴿ اقْرأ باسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ خَلَقَ الإنسانَ مِنْ عَلَق اقْرأ وَرَبُّك الأكْرَمُ الَّذى عَلَّم بِالْقَلَم عَلَّمَ الإنسانَ ما لَمْ يَعلَم ﴾ ثم توالى إنزال القرآن بعد ذلك نوراً وشفاء لما فى الصدور وهدى ورحمة لقوم يؤمنون . فأنار الطريق للإنسانية التى ضاعت بين الناس معالمها . وهدى البشرية بعدما انحرف بها طريقها وأرسى دعائم العدل والحرية والمساواة بعدما اختلط على الانسان أمرها ، وخط الناس تشريعاً وسطاً يلبى حاجة الجسم فى غير إسراف ، ويوقظ الروح فى غير إعنات .

لم تعهد البشرية من قبل كتاباً مثله فى رفقه بالطبيعة البشرية وفى عمومه وخلوده . فقامت على هديه أمة لم يكن من المنتظر لها أن تتجمع وتقوى ويكون لها دولة وصولة ودخلت التاريخ من بابه الواسع ، حين حملت هذه المبادىء ، وبشرت بها واستظلت برايتها وسارت شرقاً وغرباً تركز هذه الراية ، وتحمى الناس فى ظلها من الجور والجهل ، وفى سرعة غير معهودة ، وبفضل هذه المبادىء التى جاء بها القرآن قامت فى الرقعة الواسعة الممتدة من الصين الى المحيط أمة متماسكة وحضارة مزدهرة ، ويقظة واعية تتركز كلها على دعائم الإيمان والحرية والعدل والمساواة وإنصاف الإنسان واحترام عقله وبهرت هذه الحضارة أهل الغرب الغارقين فى ظلام الجهل والتأخر ، فأخذوا يتوافدون على مراكزها فى الشرق وفى الاندلس ، ويتتلمذون عليها حتى كانت حضارتهم التى تلمس الآن آثارها ـ والتى يمكن لكل منصف أن يقول أنها امتداد لحضارة المسلمين وجهودهم العلمية أو أنها وليدة ، حضارتهم ـ ويقول أيضا وهو واثق من صدق قوله إن تاريخ العالم كان لابد أن يتغير عما هو عليه وإن هذه الحضارة العلمية التى تظلنا الآن ما كانت تصل إلى ما وصلت اليه لو لم ينزل القرآن ويضطلع المسلمون على ضوء مبادئه بالدور القيادى ، والحضارى الذى اضطلعوا به تلك الحقبة الطويلة من الزمن .

وكان شهر رمضان هو الشهر الذى بدأت فيه شرارة الانطلاق لتكوين أمة وقيام حضارة ومن أجل ذلك كانت الليلة التى حصل فيها هذا البدء من ليالى شهر رمضان خيراً عند الله من ألف شهر بل خيراً من مئات الآلاف من السنين التى تمر على البشرية دون توجيه أو هداية .

إن بعض الأمم لا تزال تحتفل بالثورة الفرنسية لأنها فى نظرهم كانت الشرارة التى ألهبت فى الإنسان روح . . التمرد على الظلم ومكنته من تقرير حقوقه وإعلانها ، فكانت بدء انطلاق الإنسان الأوروبى ليحطم الباستيل ويقضى على تحكم الملوك والبابوات فى مصيره وفى تفكيره ، ويحتفل العالم الآن بذكرى إعلان الأمم المتحدة لحقوق . . الإنسان وتكتب الصحف والمقالات تهيب بالتمسك بها وتحقيقها .

وما كان كل ذلك بشىء بجانب ما قرره القرآن وحققه المسلمون منذ أربعة عشر قرنا لإنصاف الإنسان .

لقد كان القرآن بمبادئه وتعاليمه التى حرص المسلمون على تنفيذها ثورة إصلاحية كبرى سبقت كل ما فعله الإنسان وسمت عليه سمو تشريع الله على تشريع البشر وحققت له من قرون عديدة فى المجتمع الإسلامى ما يجاهد الآن للوصول اليه فى المجتمعات التى تتحكم فيها حضارة الغرب .

« أفلا يجب علينا نحن أتباع القرآن . . وهذا شأنه وأثره الباقى الخالد ـ أن نحتفل بالشهر الذى بدأ ينزل فيه وقد علمنا أن الله كرمه وكرم إحدى لياله التى نزل القرآن فيها وجعلها خيراً من ألف شهر .

نعم لقد كرمه الله بالأسلوب الذى يتفق مع جلاله ، فجعله موسم خير شامل على عباده موسم خيرحين اختاره لعبادة من أفضل العبادات وقربة من أخلص القربات ، وأخبر عن ذلك فى حديثه القدسى حين قال « كل عمل ابن آدم له إلا الصوم فإنه لى وأنا أجزى به يترك طعامه وشرابه من أجلى » .

موسم خير حين جعله شهرا « أوله رحمة وأوسطه مغفرة وآخره عتق من النار » موسم بر حين أمر فيه بزكاة الفطر حتى تجف دموع المحرومين ويشعروا

بالفرحة مع الآخرين وكل هذا من أجل إنزال القرآن فيه وإرسال رسول إلى العالم من العرب . . . فما واجب اتباع القرآن ومحمد عليه الصلاة والسلام فى هذه الذكرى المجيدة .

ان الله احتفل بهذه الذكرى من أجلنا من أجل هدايتنا . . ومن واجبنا أن نحرص على الاحتفال بها بالصورة التى أرادها الله .

لقد احتفل الله بها فجعلها موسم عبادة له فلنخلص فى عبادتنا كما أراد ولنخلص قبل ذلك للقرآن وكل ما جاء به ولنعرف فضله علينا ونعظمه لا بمجرد تلاوته أو الاستماع اليه بل مع ذلك بتعظيم مبادئه والأخذ بها فى سلوكنا ومعاملاتنا وعدم تفضيل أى سلوك أو أية مبادىء أو تعاليم أخرى على مبادئه وتعاليمه . واحتفل به فجعله موسم رحمة لنا فيجب أن نتعلم من ذلك أن تكون رحماء لنستحق رحمته فنكرم المساكين . . . ونكفكف دموع البائسين حتى يكون لرحمة السماء صداها فى الأرض ويكون رمضان شهر الرحمة العامة . وجعله موسم صفح ومغفرة لذنوبنا فلنتعلم من ذلك الصفح والمغفرة لإخواننا والتجاوز عن إساءتهم لنا ﴿ ولْيعْفُوا ولْيصفحُوا ، ألا تُحبُّون أن يغفِر الله لكُم ﴾ حتى يكون رمضان شهر الصفح والمغفرة فى السماء والأرض . .

ولقد صدق رسول الله ﷺ وهو يجمع كل هذا فى قوله « ما أتى على المسلمين شهر خير لهم من رمضان » .

٧٢ ذكرى معركة المصير فى بدر

إن الأمم حين تصحو من نومها ، كإنسان حين يستيقظ من رقاده ، لابد له من أن يتذكر أمسه ، ليصل به يومه ، ويبنى عليه عمله . .

وأمتنا مر عليها زمان طويل ، وكأنها كانت فى نوم عميق ، بينما كان العالم حولها يقظاً ، يستغل غفلتها ونومها .

فلما بدأت تستيقظ وجدت مقدراتها فى يد أعدائها ، يسيطرون على سير الحياة فيها ، ويحاولون أن يطمسوا معالم أمجادها ، ويشككوها فى تعاليم دينها ، وفى تاريخها ، أو بمعنى جامع ، يحاولون أن يفقدوها ذاكرتها ، حتى يقطعوا حاضرها عن ماضيها ويقضوا على معالم شخصيتها ، فلا تملك حينئذ إلا الارتماء فى أحضانهم ، والسير على منوالهم ، واعتناق مثلهم ومبادئهم ، وتمجيد تاريخهم وعظمائهم .

ولكن إذا جاز لأية أمة أن تفقد شخصيتها ، أو تنسى ماضيها أو تخضع لما يريده أعداؤها لها ، فلن تكون هذه الأمة هى الأمة الإسلامية ، لأن القرآن يقف بينها مذكراً مرشداً ، وحارساً يقظاً ساهراً ، كالديدبان الأمين ، وكالمولد الكهربائى القوى المستمر ، . . ولأن تاريخها حافل بأمجادها ، وبما سجلته فى صحائفه ، وقدمته للعالم ، من معانى القوة والعزة والحق والعدل والخلق الكريم . .

وأمة لها مثل هذا التراث ، لا يمكن أن تفنى مهما طال رقادها ، أو امتد بها ضعفها ، لأن الأمة التى تبدد ميراثها ، وتدوس أمجادها ، هى أمة كالسفيه الذى

يبدد ميراثه ، ولا يراعى مكانة أسرته . وأمتنا ولله الحمد ليست من هذا النوع ، وهى لا تحتاج لكى تتلمس طريق النهوض ، وتباشر مهمتها ، وتسترجع مكانتها ، إلا إلى تذكيرها بكتاب ربها ، وبتاريخ أسلافها .

ونحن الآن نحاول كما يحاول غيرنا من المخلصين فى العالم الإسلامى أن نذكر المسلمين وبخاصة الجيل الصاعد منهم بذكرى من أعز الذكريات ، وأعظمها خطراً فى تاريخ الدعوة الإسلامية وهى ذكرى معركة بدر . . ولا نريد من هذا مجرد الكلام ، ولكنا نريد ـ والله يعلم ـ أن تنفذ معانى هذه الذكرى وعظاتها ودروسها إلى القلوب ولاسيما فى هذه الفترة الحرجة من حياة الأمة فننتفع بها فى حياتها . والذكرى تنفع المؤمنين . .

والأمة الإسلامية ولا سيما فى العالم العربى فى أشد الحاجة الى أن تدرس معركة بدر ، وتنتفع بما كان فيها من دروس .

إن المسلمين فى كل مكان فى حالة ضعف بالنسبة لغيرهم ، يهابون أن يقفوا أمام أعدائهم ، وهم مجروحون أمام العالم كله بما حدث لهم على يد قلة زرعت فى قلب ديارهم ، ولكنهم لا يقتلون ولن يقبلوا أن يستمر هذا الجرح أو أن يبقى زمام المبادرة فى يد أعدائهم .

ويكاد هذا الموقف يشبه موقف الرسول (ﷺ) وصحابه الكرام ، حين أخرجوا من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا ربنا الله . . وأجبروا على ترك أموالهم يتمتع بها أعداؤهم . .

وهنا يجب أن نقف جميعاً وقفة تأمل وندرس ماذا فعل الرسول وكيف انتصر فى معركة بدر ؟ إن الرسول (ﷺ) وصحابته لم يستكينوا لمصيرهم فى المدينة ، ولم يركنوا للدعة ولا للبكاء على الوطن السليب ، والحق الضائع ، بل أخذ الرسول (ﷺ) يعمل على توفير الاستقرار فى المدينة بتوحيد صفوف أهلها برغم اختلاف أديانهم ، حتى يتفرغ لأعدائه الذين أخرجوه ، والذين لن يتركوه آمنا فى المدينة .

ثم أخذ يرسل بعض قواته من الصحابة ، وكان يخرج هو على رأس بعض

هذه القوات ، لتأمين ما حول المدينة ، ولكى يفزع أعداءه فى مكة ، حتى لا يظنوا به ضعفاً ، ويطمعوا فى مهاجمته .

وبعد مرور سنة وشهور على هجرته ، خرج فى رمضان على رأس جماعة من أصحابه ، لم يزيدوا عن الثلثمائة إلا قليلا ، ليستخلصوا بعض حقوقهم من قافلة المكيين التجارية العائدة من الشام . . . فكانت موقعة بدر . .

كان المسلمون يطمعون أن يستردوا بعض حقوقهم المالية من القافلة ، ويعودوا بها إلى المدينة ، ليحسنوا حالتهم المادية وليرهبوا بذلك أعداءهم . . ولكن الله أراد غير ما أرادوا . أراد أن يعلى كلمة الحق بعد ما تهيأت لذلك أسبابه ، وأراد أن يعلم المسلمين أن ذلك هو ما يجب أن يخوضوا المعارك من أجله ﴿ وإذ يعِدُكُم الله إحْدى الطَّائِفَتَيْنِ أنها لكم وتوَدُّون أنَّ غيْر ذات الشوكة تكُون لكُمْ وَيُرِيدُ الله أن يُحق الحَق بكَلِماتِهِ ويقطع دَابَر الكافرين ليُحِق الحق ويُبْطل البَاطِلِ وَلو كره المُجْرِمُون ﴾ [1] كانت موقعة بين فريقين غير متكافئين فى القوة لاعددا ولا عدا . . ولكن اراد الله ان يرينا على مر الزمان ايه على ما يحققه الايمان والصبر فى الحياة من انتصار هذا الايمان الذى وجدنا صورة منه فيما قاله سعد بن معاذ احد زعماء الانصار لرسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يستشيره « امض بنا يارسول الله لما اردت نحن معك إنا لصبر فى الحرب ص ووالله لو خضعت بنا هذا البحر (يشير الى البحر الاحمر) لخضناه معك ما تخلف منا رجل واحد »

ثم نرى صورة من سمو الإيمان على كل ما يحبه الإنسان عندما وقف الرسول (ﷺ) ينظر الى قتلى المشركين ومعه صاحبه أبو حذيفة بن عتبة ، يرى فيهم جثث أبيه وأخيه وعمه ، وهو شاحب الوجه مكتئب ، فنظر الرسول إليه مشفقاً وقال له : يا أبا حذيفة : لعله دخلك من أمر أبيك شيء ؟ . فقال « لا والله يارسول الله ، وما شككت فى مصرع أبى ، ولكنى كنت أرى فيه رأيا وحلما وفضلاً ، وكنت أرجو أن يهديه ذلك للإسلام ، فلما رأيت ما أصابه بعد الذى كنت أرجو له أحزننى ذلك » فلم يحزن إلا لأن أباه قتل على غير الإيمان بالله ورسوله . صورة رائعة من سمو العقيدة على كل ما عداها مما يتعلق به الإنسان

---

١ - سورة الأنفال ٧ .

فى الحياة .

ولهذا الذى يعلمه الله من سمو الإيمان فى نفوس المؤمنين أراد أن تتم المعركة ، فتدخل فيها قبل أن تبدأ ، كما تدخل أثناءها ، حتى ليخيل للإنسان أن الله سبحانه كان هو الذى يوجه المعركة ، ويصدر تعليماته للمحاربين .

ولنستعرض معا بعض ما يقصه القرآن قبل ابتداء المعركة فيقول ﴿ إِذْ يُرِيكَهُمُ اللهُ فى مَنَامِكَ قليلاً وَلَوْ أَرَاكَهُم كَثِيراً لَفَشِلْتُم وَلَتَنَازَعْتُم فى الأَمْرِ وَلَكِنَّ اللهَ سَلَّمَ ﴾ (١) وذلك لتقوية الروح المعنوية على خوض المعركة .

ثم كانت الصورة عند بدء المعركة ﴿ وإِذْ يُرِيكُمُوهُم إِذ التَقَيْتُم فى أَعْيُنِكُم قَليلاً ، وَيُقَلِّلُكُم فى أَعْيُنِهِم لِيَقْضِى اللهُ أَمْراً كانَ مَفْعُولاً ﴾ (٢) وذلك ليغرى كل فريق بالآخر ، ويتم الله ما أراد .

وأثناء المعركة . . ﴿ إِذْ يُغشيكم النُّعاس أَمَنَةً منْه ، وينزل عليْكُم مِنَ السَّماءِ ماءً لِيُطهرَكم بِهِ ويُذْهِبَ عنكم رِجْزَ الشيطان وليَربطَ على قُلُوبِكُم ويُثَبِّت بِهِ الأقدام ، إذ يُوحى رَبُّك الى الملائكة أَنِّى معكم فَثَبِّتُوا الذين آمَنُوا سَأُلقى فى قُلُوبِ الذين كَفَروا الرُّعْبَ ﴾ (١) ثم يعلمهم كيف يضربون فيقول ﴿ فاضربوا فوق الأعناق واضربوا منهم كل بنان ﴾ تماماً مثل تعليمات قائد المعركة . . ولكن من الذى يقودها ؟ الله القوى القادر .

ونحن حينما نقرأ عن غزوة بدر فى سورة الأنفال أو فى كتب التاريخ نستطيع تماماً أن نعرف لماذا شمل الله المسلمين فى هذه الغزوة بنصره وعونه ومدده من الملائكة . . فهذا النصر والعون يجرى مجرى سنة الله فى خلقه ، ولا يكون إلا حيث توجد التربة الصالحة لتلقيه ، وتوجد النفوس المؤمنة المستحقة له .

إن الله لا ينصر المتخاذلين المتفرقين ولا يعين مزعزعى العقيدة والإيمان ، لأنهم بتخاذلهم وتفرقهم وبضعف أيمانهم يصبحون غير أهل لمدد الله ونصره ،

---

١ ـ الأنفال : ٤٣

٢ ـ الأنفال : ٤٤

١ ـ سورة الأنفال : ١١ ، ١٢

ولا لتحقيق وعده الذى سجله فى كتابه ﴿ ولينصرن الله من ينصره ﴾ [١] ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ [٢] ﴿ إنْ تَنْصُرُوا الله ينْصُرْكم وَيثبتْ أقدامكم ﴾ [٣] .

فالدرس الذى يجب أن نعيه ونفهمه من غزوة بدر هو أن النصر لا يكون إلا مع الصبر والإيمان والعزم والتصميم ، وإن الله لا يمد أحداً بقوته ، مالم يكن هو أهلاً لهذا الإمداد وقد قال الله تعالى ﴿ بلى إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين ﴾ [٤] فالصبر والتقوى شرط للمدد والعون والنصر . .

نحن العرب المسلمين فى معركتنا الآن لاسترداد حقوقنا وكرامتنا يجب أن نضع ذلك أمام أعيننا ، ونتيقن تماماً أننا سوف لا نحقق النصر الذى نرتجيه ، إلا إذا انتصرنا ـ أولاً ـ على أهوائنا ، وشهوات نفوسنا ، وبعنا أنفسنا وكل ما نملك لله ، وتجردنا عن كل غرض شخصى فى سبيل أعلاء كلمة الله والمؤمنين . .

إن المؤمن حينئذ يكون قوة تقهر أمامها قوى الشر مهما تكن فى عددها . ولنا فى غزوة بدر عبرة حيث كانت تعبر عن هذه الحقيقة : « كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين » [٥] .

ومهما يبلغ الضعف بالمؤمن فإنه يجب أن ينتصر على عدوه ، وإن كان فى قوته ضعف قوة المسلمين ﴿ الآن خفَّف الله عَنْكُم وَعَلمَ أنَّ فِيكُمْ ضِعْفاً فإنْ يكُنْ مِنْكم مِائة صَابرَة يَغْلبُوا مِائتَيْن وإنْ يكُنْ منْكُم ألف يَغْلبُوا ألْفيْن بإذنِ الله والله مع الصَّابرين ﴾ [٦] وقفوا معى عند هذا الشرط « مائة صابرة » لا مجرد مائة ، ومجرد ألف ، فالمهم أولا هو الروح المعنوية روح الإيمان التى تستهين بالصعاب

١ ـ سورة الحج ٤٠

٢ سورة الروم : ٤٧

٣ « القتال » محمد : ٧

٤ آل عمران ١٢٥

٥ البقرة ٢٤٩

٦ الأنفال ٦٦

وتقهر الشدائد . .

وهذه سنة الله التى لا تتخلف فى النصر والهزيمة ، وجدنا شاهداً لها فى غزوة بدر حين انتصر المسلمون على ضعف فى عددهم وعددهم . . ثم وجدنا هذه السنة تتحقق بصورة أخرى فى معركة أحد ، حين انهزم المسلمون ـ بعد انتصارهم فى بدء المعركة ـ لمخالفتهم أوامر القيادة النبوية ، بعد أن لاحت لهم تباشير النصر .

ويقول الله فى هذا ﴿ وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسونهم بِإِذْنِه حتَّى إذا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فى الأمْر وَعَصَيْتم مِنْ بعْد ما أراكم ما تُحِبُّون مِنْكُم مِنْ يُرِيدُ الدُّنيا ومِنْكُم مَنْ يُرِيدُ الآخرة ثم صَرَفَكُمْ عنْهم لِيَبْتَلِيَكُمْ ﴾ [٢] ويقول إن الذِين تَوَلَّوا منْكم يوم التقى الجَمْعان إنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطان بِبَعْض ما كَسَبُوا ﴾ [٣] .

ويقول ﴿ أوَ لَمَّا أَصَابَتْكُم مُصيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِثْلَيْها قُلْتُم أنى هذا قُلْ هُو مِنْ عِنْد أَنْفُسِكُم ﴾ .

ويقول فى معركة حنين ﴿ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتكم كثْرتُكم فَلَم تُغْنِ عنْكُم شَيْئاً وَضَاقَتْ عليكُمُ الأرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُم وَلَّيْتُم مُدْبِرِين ﴾ [١] لأن هذه الكثرة لم تكن معبأة بالروح المعنوية القوية ، واستولى عليها الغرور .

ثم نرى شاهداً آخر لسنة الله فى حياتنا حين أجمعت الجيوش العربية لتقاتل قلة من اليهود وكيف انهزمت الكثرة العربية أمام القلة اليهودية وأسباب تلك ذلك معروفة لا داعى لذكرها . . ولازلنا نحاول تضميد جراحنا ولكن لما تتهيأ نفوسنا بعد لكى تتلقى نصر الله وعونه . . كالتلف الذى يصيب جهاز الاستقبال فلا يلتقط ما فى الأثير من أصوات .

إن الطريق الذى رسمه الله لنا فى معاركنا الحربية لكى ننتصر قد ذكره صريحا فى قوله سبحانه ﴿ يَا أَيُّها الَّذين آمنوا إذا لقيتُم فئة فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا الله كَثِيرا لَعَلَّكُمْ تُفْلحون وأطيعُوا الله وَرَسُوله ولاَ تَنَازعوا فَتَفْشَلُوا وَتَذهب رِيحُكم

---

١ ـ ال عمران : ١٥٢

٢ - آل عمران : ١٥٥

٣ - الأنفال ٤٥

واصبِروا إن الله مَعَ الصَّابِرين ﴾[1] .

اثبتُوا ، واذكُرُوا الله . . وأطيعُوا الله ورسُوله . . ولا تنازعوا ، واصبروا . هذه هى التعاليم والأسس التى وضعها الله أساساً لاكتساب النصر : ثبات ، وذكر الله ، وطاعة له فى كل صغيرة وكبيرة وعدم اختلاف أو تنازع ، وصبر ، ثم تكون النتيجة ﴿ إن الله مع الصابِرين ﴾ بعونه وتأييده ونصره . .

كانت هذه هى عدة النصر فى معركة بدر ، وهى عدته فى كل معركة يخوضها المسلمون مع أعدائهم ، يجب أن نعيها ونسلح أنفسنا بها ، ونحن نخوض معارك الشرف والمصير من أجل كرامتنا وكرامة الأجيال المقبلة .

وإذا كان كل واحد منا يتساءل : متى يكون أمة مرهوبة الجانب ، ولها وزنها وكلمتها فى تقرير مصيرها ومصير العالم ؟ فالأولى أن يسأل نفسه قبل هذا : ماذا فعلت ، وماذا قدمت من ثمن وجهد لتحقيق هذه الأمنية .

إننا سنقضى وقتاً نتحدث اليكم ، وستقضون معنا هنا وأمام الشاشة والمذياع وقتا تستمعون فيه وتشاهدون . وأظن أننا سنخرج من هذا بتعليقات . . هذا أجاد . . وهذا قال . . لا أيها الأخوة . . لا نريد هذا لنا ولا لكم . . ولكنا نريد أن نأخذ من هذه الذكرى شحنة من الإيمان والعزم ، والتصميم على أن نغير حياتنا إلى ما نرجوه من حياة أفضل وأكرم ، فإن لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم .

والذكرى تنفع المؤمنين . .

---

١ ـ الأنفال ٤٦

٧٣ ذكرى الاسراء والمعراج

جرت عادة الأمم حديثاً أن تحتفل بذكرياتها وأمجادها الماضية المتصلة بدينها أو بحوادث هامة غيرت مجرى تاريخها ، أو بذكرى رجال عظماء من أبنائها كان لهم أثر ملموس فى حياتها ، وهى تعتبر هذه الاحتفالات نوعاً من الوفاء والإخلاص للذكريات التى تحتفل بها والتقدير لأصحابها ووسيلة من وسائل التربية للجيل الحاضر لتذكى فيه روح الحماس الدينى ، أو الوطنى ، وتثبت فى نفسه حب القيم والمثل العليا وروح القدوة والتأسى بأصحاب هذه الذكريات التى تحتفل بها .

وسلفنا الصالح فى الصدر الأول وما تلاه من قرون لم يكونوا يحتفلون كما نحتفل الآن بليلة الإسراء ولا بالمناسبات الدينية كمولد الرسول ﷺ ، ورأس السنة الهجرية ـ لا لأنهم كانوا أقل غيرة منا أو التفاتا أو تعظيما لدينهم وما يتصل به بل لأنهم كانوا أكثر منا التصاقاً بالقرآن والتفافاً حوله واستمداداً من يتابيعه الصافية واستهداء بهديه الكريم .

أما الآن فقد تعددت الوسائل التى تصرف الناس وتلهيهم عن القرآن والتأمل فيه واحياء معانيه وتوجيهاته فى النفوس ، وهجمت علينا أضواء المدنية الغربية وشدت أبصارنا وبصائرنا اليها ، وأصبحنا سريعى التأثر بكل ما يأتينا من الغرب ، بل ربما أكثر معرفة بتاريخه من تاريخنا وبأمجاده من أمجادنا وعظمائه من عظمائنا . حتى أحس الغيورون منا الخوف على كياننا ومقوماتنا من هذا السيل الجارف وأشفقوا على جيلنا أن يغزوا الغرب عقله وروحه ويطبعه بطابعه وينسيه أمجادنا ومفاخرنا وعظماءنا ومقومات ديننا أو على الأقل يشككه فى كل ذلك

وينتزع من نفسه روح الاعتزاز به ليعيش بلا ماض يفخر به .

لذلك أصبح من الضرورى لنا أن ننتهز كل مناسبة دينية أو وطنية ونتخذ من إحيائها والاحتفال بها وسيلة من وسائل التربية وطريقة من طرق التعريف بماضينا وأمجاده ومبادئنا وسموها ورجالنا وعظمتهم وآثارهم فى الحياة وفضلهم على الإنسانية .

ومن هنا كان الاحتفال بالاسراء والمعراج ورأس السنة الهجرية ومولد الرسول ﷺ أمراً ضرورياً لاسيما بعد أن نسى بعض المسلمين شخصيتهم وأخذوا يحتفلون ـ كما يحتفل الغربيون ـ بعيد الميلاد ورأس السنة الميلادية . . فهو وإن كان أمراً مبتدعاً ومستحدثاً إلا أنه بدعة حسنة وسنة طيبة بل ضرورية الهدف منها شريف والغاية كريمة . .

نهدف إلى التذكير والتعليم « وذكر فان الذكرى تنفع المؤمنين » .

ولكن ماذا فى الاسراء والمعراج من معان نقف عندها ونتأملها ونستمد منها زادا من القيم والمثل العليا نغذى به أرواحنا وهديا نهدى به نفوسنا .

إننا كلما تذكرنا الإسراء والمعراج آمناً أو إزددنا إيماناً فإن الله لا يخلف وعده لرسله والذين آمنوا بل يرعاهم برعايته ويحرسهم بعنايته ، ويعوضهم عما يلاقونه من أذى السفهاء وبطش الأغبياء . رضا منه ورحمة ، وقوة وعزة . . وإلا فهل هناك لإنسان كائنا من كان أن يطمع فى أسمى وأجل من قول الله لرسوله ﴿ واصبر لحكم ربك فإنك بأعيننا ﴾ .

إن روح المؤمن بربه الواثق من نصره تشدو وهى تتمثل ربها يخاطبه ويناجيه ، يقول الشاعر :

فيا ليت مابينى وبينك عامر
وبينى وبين العالمين خراب
اذا صح منك الود فالكل هين
وكل الذى فوق التراب تراب

لقد كان رسول الله ﷺ قبل الإسراء والمعراج يستبد بنفسه الحزن العميق

والهم الثقيل بعد مامات النصيران : عمه أبو طالب وزوجه خديجة وخلا الجو للسفهاء أن يتطاولوا عليه ويتفننوا فى إيذائه حتى لم يستطع أن يدخل مكة ـ وهو عائد من رحلته القاسية للطائف ـ إلا فى حماية رجل من أعداء دعوته .

فى هذا الوقت الذى تجمعت على الرسول فيه كل أسباب الهم والحزن وأغلقت فى وجهه الأبواب فى الأرض تفتحت له أبواب السماء واستضافه الله عنده فى الملأ الأعلى بطريقة غير معهودة لدى أهل الأرض ، ليعلموا جميعا أن يد العناية الإلهية ترعى هذا الرسول المجاهد الصابر ، وسترعاه حتى يكون نصر الله والفتح المبين . . وليستمد الرسول من هذا التكريم زادا فوق زاد من الإيمان بربه ، والثقة بنصره ويأخذ طاقة فوق طاقة تعينه على المضى فى دعوته وجهاده غير عابىء بالمعاندين حوله حتى يمكن لدين الله فى الأرض . . وقد كان .

وليس هناك أجمل من أن يثنى الله على نفسه لأنه كرم الرسول هذا التكريم وبهذا الأسلوب الخارق للعادة « سبحان الذى أسرى بعبده » فيعظم الله نفسه ويعلمنا تعظيمه لأنه سبحانه بقدرته هو الذى تولى أمر هذه الرحلة التى كلت فى إدراكها العقول وبقى واجبا على اتباع محمد الذى يعد تكريمه تكريما لهم أن تلهج قلوبهم وألسنتهم : « سبحانك ربى لك الحمد فى السموات والأرض وأنت العزيز الحكيم وعلى كل شىء قدير » .

وأن يعرفوا أن الله لا يتخلى أبدا عن المجاهدين فى سبيله ، بل يفتح لهم الأبواب التى تفرج كربهم ، وتزيل شدتهم ، وتعينهم على المضى فى رسالتهم ، وكم لفرج الله من أبواب .

ونذكر كلما ذكرنا الإسراء والمعراج أن الحكيم الخبير انتزع الرسول وقتا من الزمن من بحار الحزن والهم التى كانت تلفه قبل أن يلفه النوم الطويل فى تلك الليلة ، ومن الجو القاسى المعتم الذى كان يحيط به ، والشدائد التى كانت تعصر نفسه انتزعه من وسط هذا كله واستضافه عنده ، ليرفع من قدره ويمده بطاقة جديدة من الاحتمال وليعطيه الدواء الشافى ، والعلاج الناجع للضعف النفسى بهذا التكريم ، ويدله على أمضى سلاح لمجابهة هذا الضعف أمام الشدائد ، وأقرب الطرق للوصول الى رضا الخالق ، الى الصلاة التى جعلها الله معراجا

لروح كل انسان يقف بين يديه ، ويناجيه ، حتى يرتفع على كل أشواك الأرض ويتغلب على عقبات الحياة .

ويفعم قلبه ببرد الرضا والتسليم ﴿ واسْتعِينُوا بالصبر والصلاة وإنَّها لكبيرة إلا على الخاشعين ﴾ فكان الرسول ﷺ يستعمل هذا العلاج أو السلاح للتغلب على الشدائد فكان إذا حز به أمر (أى اشتد به) لجأ الى الصلاة ، ووقف بين يدى الله تعالى يناجيه « الحَمْدُ لله رب العالمين . الرحمن الرحيم . . مالك يوم الدين إياك نعبد وإياك نستعين . . » فتسمو روحه ، وينسى همومه ويستأنف نشاطه ، ولم يكن بعد ذلك من عجب أن يعرف الرسول قدر الصلاة ومنزلتها فيقول : « **وجعلت قرة عينى فى الصلاة** » تلك التى فرضها الله عليه وعلى أمته لا بواسطة جبريل ينزل بأمره الى الارض بل كان فرضها فى احتفال الملأ الأعلى برسوله وحبيبه ومصطفاه ، حين استضافه واستدعاه . . ومن هنا ندرك أهمية الصلاة عند الله ومركزها فى الإسلام بين الفروض الأخرى وندرك سر غضب الله على من يهملونها ولايهتمون بأدائها كأنهم فى واد والله ورسوله فى واد آخر .

ثم كان موقف الرسول ﷺ حين أشرق صباح ليلة الإسراء والعراج موقفا يعلمنا كيف الثبات على الحق والجهر به ، فقد أصر على أن يحدث الناس بما رأى فى تلك الليلة ، برغم الجو المشحون حوله بالعداء له ، وتحفز المشركين للانقضاض عليه ، وتلمسهم لاسلحة الدعاية ضده ، والتشهير به ، وإضعاف دعوته ، وبرغم مايعرف فى حديثه لهم من غرابة على عقولهم ، يزيدهم إغراء به ، وهجوما عليه ، وبرغم تحذير أم هانىء بنت عمه له ، وتعلقها بثيابه ، ترجوه : ألا يحدث الناس ، ويمكنهم من حربه ، برغم ذلك كله لم يحجم عن الجهر بما أراه الله ، وأقبل على القوم يحدثهم به ، حديث الواثق من ربه ، غير مبال بموقفهم ، وبما يثيره هذا الحديث له من متاعب ومضايقات .

ذلك موقف وإن لم يكن غريبا على الرسول بعد أن قال لعمه من قبل « **والله ياعم لو وضعوا الشمس فى يمينى والقمر فى يسارى على أن أترك هذا الأمر ماتركته حتى يظهره الله أو أهلك دونه** » إلا أنه يدلنا على إصرار الرسول دائما على الجهر بكلمة الحق التى يؤمن بها ، ولو زمجرت الدنيا أمامه ، وتتعتعت

الجبال من أمكنتها .

ذلك موقف كلما ذكرناه ربا فى قلوبنا حب الحق والجهر به ، والتضحية فى سبيله ، ولنا فى رسول الله أسوة حسنة . وعلى سير الأنبياء والصالحين المخلصين أيها الأخوة تعتمد وسائل التربية الحديثة ومن قبلها القرآن والسنة فى غرس المثل العليا فى النفوس ﴿ وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين ﴾ ﴿ لقد كان فى قصصهم عبرة لأولى الألباب ﴾ ﴿ وكلا نقص عليك من أنباء الرسل ما نثبت به فؤادك ﴾ ،

وفى ذكرى الإسراء والمعراج تهفو قلوبنا الى المسجد الأقصى الأسير المحترق منتهى الإسراء بالرسول من مكة وموضع صلاته بالأنبياء ، وبدء عروجه الى السماء . . تهفو قلوبنا الى هذا المسجد الذى بارك الله حوله والذى أصبح أسيرا تعبث به العصبة الاثمة أشد الناس عداوة للذين آمنوا ، ونحس ما بذلته أمريكا من عون لليهود لانتزاع هذه البقعة المباركة من أيدى المسلمين .

بل نرى الآن تحرك الفاتيكان لاسترضاء اسرائيل وأشعارها بعطفه ليزيد هذا التكتل ويباركه ليتم لهم جميعا مايريدون من إقصاء المسلمين عن المسجد وماحوله ليعمقوا الجرح الذى أصابوا به قلوبنا ، يوم انتزعوا منا جزءا حبيبا علينا وطردوا منه أحبابنا وإخواننا .

إن الجرح كلما ترك وأهمل اتسع وسرت جراثيمه فى الجسم كله حتى تقضى عليه ، فهل يكون فى تذكرنا للإسراء والمعراج ، وفى إدراكنا للواقع المر ، وللأخطار المحدقة بنا الآن ، وفيما نراه من تحركات مريبة لتوحيد الجبهات المعادية للإسلام ، هل يكون فى ذكل كله صوت النذير . . الذى ينبه الغافلين ويوحد جهود المختلفين من المسلمين ، ليقفوا صفا واحدا أمام هذه الأخطار ، مضحين بالنفس والمال والمصالح الشخصية ليستردوا كرامتهم ، ويمسحوا وصمة العار من جبينهم ، ويحققوا لأنفسهم العزة التى جعلها الله من خصائصهم . . . فـ ﴿ إن الله لا يغير مابقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ﴾ ؟ .

إننا إن فعلنا ـ وما أحرانا أن نفعل ـ استطعنا أن نمرر على العالم كلمتنا ، ونفرض ارادتنا ونستعيد أمجادنا ، ونرفع فوق هامات الزمان بنودا ، ونبنى على صرح الخلود خلودا .

٧٤ ذكرى النصر المبين فى عرفات

فى هذا اليوم العظيم ، يوم عرفات يلتئم شمل الحجاج فى ساحاتها الواسعة ، ضيوفا على الله وعلى بيته الحرام . . . ناداهم الله فلبوا نداءه ، يلتمسون منه عفوا عن ذنوبهم ورفعا لدرجاتهم ، وقد تركوا أوطانهم وأولادهم . ومصالحهم . وهاجروا إلى الله ، ولاذوا بجنابه ، يغسلون بالتوبة الخالصة أوزارهم ، ويزدادون إيمانا بربهم ، وهم يخطون فى أرض القرآن ، وموطن النبى عليه الصلاة والسلام حيث عاش رسول الله وبعث وجاهد واحتمل فى سبيل ربه وتنزلت عليه آيات الله تهديه وترشده وتشد أزره وتسنده . .

يجتمع فى ساحة عرفات مئات الألوف من ضيوف بيت الله وكأنهم فى استعراض أمام خالقهم عدتهم فيه سلاح الإيمان ، وطهارة القلوب ، يتنافسون بذلك فى القرب من الله ، والفوز برضاه ، تعمر قلوبهم بذكره ، وترتفع أصواتهم بالاستجابة لأمره « لبيك اللهم لبيك ، لبيك لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لا شريك لك لبيك ، إن الحمد والنعمة لك والملك ، لاشريك لك » ويلحون على الله فى الرجاء والسؤال ، كما علمهم رسول الله « اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم إنى أسألك العفو والعافية فى دينى ودنياى وأهلى ومالى ، اللهم استر عوراتى ، وآمن روعاتى ، واحفظنى من بين يدى ومن خلفى ، للهم لك صلاتى ونسكى ومحياى ومماتى ، وإليك مآبى اللهم إنى أعوذ بك من عذاب القبر ، ووسوسة الصدر ، وشتات الأمر ، اللهم اغفر لى خطيئتى وجهلى ، وإسرافى فى أمرى ، وما أنت أعلم به منى » .

وفى هذا الإستعراض الخاشع ، يكرم الله ضيوفه ، ويفرح بتوبتهم ، ويباهى ملائكته بهم ويتجلى بمغفرته ورضوانه عليهم . .

يقول عليه أفضل الصلاة والسلام « الحجاج والعمار وفد الله إن دعوه أجابهم وإن استغفروه غفر لهم » ويقول : « ما من يوم أفضل عند الله من يوم عرفة ، ينزل الله تبارك وتعالى إلى السماء الدنيا فيباهى بأهلى الأرض أهل السماء . فيقول : انظروا إلى عبادى جاءوا شعثا غبرا ضاحين (أى بارزين فى موقفهم غير مستخفين) جاءوا من كل فج عميق يرجون رحمتى ، ولم يروا عذابى . فلم ير يوم أكثر عتقا من النار من يوم عرفة » .

وعن أنس بن مالك رضى الله عنه قال : « وقف النبى ﷺ بعرفات وقد كادت الشمس أن تئوب (تغرب) فقال : يابلال ، أنْصت لى الناس . فقام بلال فقال : انصتوا لرسول الله ﷺ فأنصت الناس . فقال : يامعشر الناس أتانى جبريل عليه السلام آنفاً ، فأقرأنى من ربى السلام ، وقال إن الله عز وجل غفر لأهل عرفات وأهل المشعر الحرام وضمن عنهم التبعات » . فقام عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، فقال : يارسول الله هذا لنا خاصة ؟ فقال : « هذا لكم ، ولمن أتى من بعدكم الى يوم القيامة » فقال عمر رضى الله عنه « كثر خير الله وطاب » .

هذا يوم عرفة ومنزلة الوقوف فى ساحتها عند الله . . وفضله على كل سباق اليه . ولعلنا نفهم من هذا شيئا من السر فى قوله ﷺ « الحج عرفة » فإن من فاته الوقوف بعرفة من الحجاج ، فاته الثواب الجزيل ، وفاته غفران الله . . ونفهم حكم الشريعة فى أن من فاته الوقوف بعرفة فلا حج له ، وعليه أن يعود ليصحح حجه ويقف بعرفات ليفوز بما فاز به أهلها من رحمة وغفران .

ومن الجدير بنا كلما جاء يوم عرفات أن نتذكر أول حج حجه المسلمون بشكل جماعى بعد فتح مكة حينما جعل الرسول ﷺ أبا بكر رضى الله عنه أميرا للحج فى السنة التاسعة ، وأرسل على أثره عليا رضى الله عنه ليبلغ للناس آيات نزلت من سورة براءة ويعلن المشركين بها ، ووقف هو وأبو بكر رضى الله عنه يبلغان للناس رسالة الرسول وتعاليمه الا لا يحجن بعد هذا العام مشرك

ولا يطوفن بالبيت عريان ﴿ وكان يوماً فاصلاً أعلنت فيه السيادة التامة فى مكة وفى مناسك الحج للإسلام ﴾ .

وبعد هذه السنة ، لم تطأ قدم مشرك مناسك الحج ولم يرتفع فيها إلا صوت المؤمنين الموحدين بعد أن كانت محرمة عليهم . وكان ذلك تمهيدا لحج رسول الله (ﷺ) فى السنة التاسعة التى تليها .

وحينما حج الرسول (ﷺ) حجة الوداع لم تقع عينه فيها إلا على مؤمن بالله ولم تسمع أذنه صوتا يرتفع لسواه . . وكانت نعمة على الرسول وعلى المؤمنين سجلها الله فى آية من كتابه الكريم نزلت فى يوم عرفات ﴿ **اليوم يئس الذين كفروا من دينكم فلا تخشوهم واخشون ، اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ، ورضيت لكم الإسلام دينا** ﴾ فكان نزولها تتويجا من الله لجهاد حمل الرسول (ﷺ) وصحابته أعباءه منذ بعث . وكان تسجيلا ربانيا لوثيقة النصر يطمئن بها الرسول وأصحابه لما بلغه الإسلام من قوة ومجد وكمال بفضل مابذلوه من النفس والجهد والمال .

ولكن عمر رضى الله عنه فهم ـ بفطانته ـ أن مهمة القائد الرسول انتهت أو أوشكت أن تنتهى فبكى فى ساعة إعلان تمام هذه النعمة لما توقعه من قرب فراق الرسول الحبيب لهذه الدنيا .

إن إعلان النصر وتمام النعمة والرضا من الله بعد سنين طويلة من الجهاد المر يعتبر من أثمن ما يعتز به المجاهدون ومن يأتى بعدهم من أمتهم . . واليوم الذى يتم فيه هذا الإعلان يجب أن يتميز من بين الأيام وتظل ذكراه حية فى النفوس تعتز به اعتزازها بأعظم الذكريات فى تاريخها .

ولقد كان صلح الحديبية فى السنة السادسة ، وفتح مكة فى الثامنة وماتم فى حجة أبى بكر بالمسلمين فى التاسعة ، كان ذلك كله تمهيدا لهذا اليوم الذى نزلت فيه هذا الآية على الرسول (ﷺ) يوم عرفات فى السنة العاشرة من الهجرة .

﴿ اليَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتى وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلَامَ دِيناً ﴾ .

روى أن يهوديا قال لعمر رضى الله عنه يا أمير المؤمنين آية فى كتابكم ، لو علينا معشر اليهود نزلت لاتخذنا يوم نزولها عيداً يريد آية اليوم أكملت لكم دينكم فقال له عمر : قد عرفنا ذلك اليوم والمكان الذى أنزلت فيه على رسول الله ﷺ وهو قائم بعرفة يوم الجمعة بعد العصر . وكأن عمر فى رده على اليهودى يقول له « لقد عرفنا فضل ذلك اليوم ولدينا عيد فى صبيحة نزولها هو عيد النحر . .

لكن هل يذكر المسلمون مع العيد ذكرى نزول هذه الآية عصر يوم عرفة . .

وإذ كنا نبث فى النفوس إحياء ذكراها فإننا لا نريدها مجرد ذكرى عابرة لكننا نريدها ذكرى تجدد الأمل وتحمل النفوس على حسن القدوة والعمل . . فإن الإسلام لم يبلغ ما بلغ من السيادة والمسلمين لم ينتزعوا مكة والبيت الحرام من المشركين ولم يخلص لهم النفوذ والسلطان فيهما إلا بفضل إيمانهم العميق وتضحياتهم المخلصة فى سبيل إعلاء كلمة الحق كلمة الله . فإنه لا يوجد مجد إلا بتضحية وبذل ، ولا يتحقق انتصار إلا بإيمان وعزم وإقدام . .

ومن أراد العلا عفوا بلا تعب　　قضى ولم يقضى من إدراكها وطرا

هذا ماتوحيه إلينا ذكرى هذه الآية فى يوم عرفات . وهو ما يجب أن نؤمن به ونعمل له عملنا وسعينا فى سبيل اللقمة التى نزدرها بل أشد فإنه لا قيمة للعيش ولو كان هنيئا مع الهوان والصغار ، ولا لذة للحياة مع الذلة والإنكسار . .

إن هذا العيد الذى هلت بشائره بيوم عرفة وهو عيد الأضحى أو عيد التضحية ، يذكرنا كذلك بموقف لسيدنا إبراهيم وابنه الصبى إسماعيل عليهما الصلاة والسلام موقف بلغ القمة والذروة فى التضحية بأعز ما يسيطر على الإنسان من عاطفة إنسانية ، لقد ضحى إبراهيم بعاطفته نحو ابنه حين شمر عن ساعديه وتناول السكين ليذبح وحيده وهو شيخ كبير ورضى إسماعيل بأن يضحى بحياته كل ذلك تنفيذا لأمر ربهما وطاعة له . .

وإذا كان الإسلام قد أحيا ذكرى هذا الموقف العظيم وهذه التضحية البالغة منتهاها فى البذل فسن لنا أن نذبح شاة ونريق دما فإن الإسلام لا يريد منا مجرد

الوقوف عند هذه الظاهرة ولكنه يريد منا أن نتعلم من ذلك الحرص على التضحية بأعز رغباتنا وعواطفنا الإنسانية البريئة وبكل ما نملك لا بشهواتنا فقط وذلك فى سبيل طاعة الله واكتساب رضاه .

« هذا حديث يوم عرفة وهذه ذكرياته والذكرى تنفع المؤمنين » .

ومن المعتاد فى التحدث عن هذا اليوم أن نبرز ما فى الحج من مؤتمر إسلامى كبير يضم مسلمين من كل لون وكل جنس وكل لغة . . وحقيقة يعتبر الحج فرصة لتعارف المسلمين وتوثيق الصلات فيما بينهم . .

وهذه فرصة اتاحها الإسلام لأبنائه . . ليجتمعوا ويتدارسوا شؤونهم وهم فى جو من الروحانية الصافية بجوار بيت الله الحرام .

ولقد مرت القرون تلو القرون . وهذه الناحية من مقاصد الحج ، تكاد تكون معطلة ، ثم بدأت محاولة لجمع المسلمين أو زعمائهم لتحقيق هذه الغاية . . ولكنها لاتزال فى مهدها . . ولا يزال موسم الحج يمر كما مر غيره فى القرون السابقة . . أناس طيبون يجتمعون بمئات الآلاف . ليست عندهم فكرة عن الحج إلا مجرد أداء مناسكه . حتى ولو حاولوا الاتصال والتعارف قام اختلاف اللغات بينهم حاجزا يحول دون تفاهمهم .

إننا نريد أن يكون الإجتماع فى ظل البييت الحرام اجتماعا رسميا ايضا على مستوى الحكومات يهرع إليه ممثلوها ، كما يهرعون إلى الأمم المتحدة ، ويتدارسون أحوال الأمم الإسلامية ويتبنون قضاياها ، ويدافعون عنها بكل ما يملكون . .

نطمع فى هدم الحواجز التى تحول دون التقاء ممثلى الحكومات الإسلامية ، حتى يمكن أن يكون لها مؤتمر إسلامى رسمى له دوره وفعاليته فى حياة الأمم الإسلامية .

وإنه لا توجد فى العالم أمم مهضومة الحقوق كما نرى فى الأمم الإسلامية ، ولا نرى أقليات مضطهدة كما نراها فى الأقليات الإسلامية . . وكل ذلك يجب أن ينفذ إلى قلوبنا وتكون له آثاره فى أعمالنا . . فالمسلم أخو المسلم ،

والمسلمون تتكافأ دماؤهم ويسعى بذمتهم أدناهم وهم يد على من سواهم .

فهل نطمع فى أن تكون الحكومات الإسلامية جميعا على مستوى المسئولية التى حملها الله إياها ، وتتناسى ماقد يكون هناك من اختلاف بينها فى خطوط السياسة العامة حتى تنهض بمسئوليتها وتقوم بما تفرضه عليها الأخوة الإسلامية .

وإذا كانت قد برزت للوجود بعض محاولات طيبة للوصول إلى هذا الهدف فإننا نراها غير متناسبة مع قوة الهدف ونبله ، ومن أجل هذا نرجو أن يكون المسئولين فينا على مستوى أهداف شعوبهم وأهدافهم التى يتحدثون عنها لهذه الشعوب .

والله من وراء القصد

٧٥ مؤمنون وانتهازيون

كلما قرأت القرآن الكريم أمر بآيات كريمة منه نزلت على رسول الله ﷺ لتعالج وضعا اجتماعيا أو تداوى ظاهرة مرض اجتماعية حدثت فى المجتمع الذى كان يعيش حول الرسول ﷺ ، ومع بُعْد الزمن بيننا وبين أيام الرسول ، وتغير الأوضاع الاجتماعية الآن عما كانت عليه فى المجتمع العربى فى المدينة إلا أننى أحس كأن الآيات نازلة الآن تعالج المرض الإجتماعى نفسه الذى يتفشى فى بعض الأفراد والجماعات الآن فى عصرنا الحاضر .

فقد حدث فى أيام الرسول عليه الصلاة والسلام أن بعضاً ممن كانوا يعلنون الإسلام ويقولون آمنا بالله ورسوله ، إذا عرضت لهم مشكلة ، أو كانت لهم قضية من القضايا مع غيرهم ، ودعوا إلى الله ورسوله ليحكم بينهم ، فإنهم يقبلون هذا التحكيم إذا ظهر لهم أو ظنوا أن الحق فى جانبهم وان الحكم سيكون فى صالحهم فاذا احسوا ان الحق ليس معهم ، وأن حكم الله ورسوله لن يكون فى صالحهم ، ولن يتمشى مع أغراضهم وأهوائهم ، رفضوا الإحتكام إلى رسول الله . والتمسوا الحكم عند غيره ممن يرضون أهواءهم وغرورهم . ويسايرون شهواتهم وحينما اقرأ هذا فى أسباب نزول هذه الآيات أحس الماضى يتكرر فى أيامنا ، وألمس هذه الظاهرة المرضية فى مجتمعنا ومن هنا كان إحساسى بأن هذه الآيات كأنها نازلة الآن تعالج فينا هذا المرض الإجتماعى وتحذر المسلمين من أن يتفشى فى نفوسهم وأوساطهم ، واسمع معى إذن قول الحق تبارك وتعالى من سورة النور ، ﴿ وَيَقُولون آمنًا بالله وبالرسُول وأطعْنَا ، ثُمْ يتولى فريق مِنْهُم مِنْ بعْدِ ذَلِكَ وما أولئك بالمؤمِنِين ، وإذا دُعُوا إلى الله ورسوله لِيحْكُم بيْنَهُم إذا فريق مِنْهُم مُعْرِضُون ، وإنْ يكُنْ لَهُمْ الحقُّ يأتُوا إليه

مُذْعِنين ﴾ فالمهم عندهم أهواؤهم ومصلحتهم الخاصة ولذلك قال الله عنهم بعد ذلك : ﴿ أفي قُلوبِهِمْ مرضٌ . أم ارْتابُوا ، أمْ يخَافُون أنْ يحيف (أى يجوز) الله عليهم ورسُولُه ﴾ وذلك كله لا يليق بالمسلمين الصادقين ولذلك وصفهم ودمغهم بقوله ﴿ بل أولئك هم الظالمون ﴾ ظلموا أنفسهم وعرضوها لسخط الله والناس .
فالناس يمقتون مثل هذا النوع الى يعيش لأهوائه ومصالحه الذاتية (وبعد هذه الآية مباشرة يضع الله مواصفات الإنسان المؤمن الصادق فيقول :
﴿ إنّما كانَ قَوْلَ المُؤْمنين إذا دُعُوا إلى الله ورسوله ليحْكُم بَيْنهُم أن يقُولُوا سمِعْنَا وأطعْنَا وأُولئِك هُم المُفلحُون ﴾ فيقبلون حكم الله ولو كان ضد أهوائهم ومصالحهم ، ولذلك حكم الله بأنهم المفلحون لأنهم يلتزمون بالحق ويحمونه ويعلون رايته ، ومثل هؤلاء يعيشون مطمئنى الضمير ، يسعدون وتُسعد بهم أوطانهم ، ويلقون ربهم يوم يلقونه سعداء فرحين . إلا تحسون معى صلة هذه الآيات بحاضرنا ومعالجتها لمرض من أمراضنا الإجتماعية ؟ .

من أجل هذا أسوقها وألفت اليها نظر الذين تتحكم فيهم أهواؤهم من الأفراد والجماعات ، ولايرون فى حياتهم إلا مصلحتهم الشخصية ، أولئك الذين يضرون أو يهدمون أنفسهم ومجتمعهم ﴿ ولو اتبع الحق أهْواءهُم لفسدت السموات والأرض ومن فيهن ﴾ وصدق الله العظيم ﴿ ومنْ يُطْع الله ورسُولَهُ ويخْش الله ويتقْه فأولئِك هُمُ الفائِزُون ﴾ ألا تحِبُّون يا قوم أن تكونوا من الفائزين المنتصرين ؟ ذلكم هو الطريق فاسلكوه والله معكم .

٧٦ العاشر من رمضان(١)

آمال عشنا طويلاً ومن مئات السنين نحلم بها ونرجو تحقيقها فجاء العاشر من رمضان المبارك وهذا ما يجب أن نعطيه عنوانا لهذه الحرب « حرب العاشر من رمضان » لينضم هذا اليوم المجيد إلى أيام رمضان المجيدة فى تاريخنا ، جاء هذا اليوم لنرى على أرض الواقع بشائر هذه الآمال تتحقق ونشعر جميعاً بفضل الله علينا بتحقيق هذه الآمال :

وكان أول هذه الأمنيات أن يغمر جنودنا وقادتهم المقاتلين روح الإيمان العميق الذى يزلزل الجبال ويجعل كلا من الجندى والقائد يحب الإستشهاد أكثر من حبه للحياة . . وتتجلى عليهم لذلك حراسة الله وعونه فى الميدان . . حتى لم يبق سراً علينا ولا على الأعداء ولا علي العلقين والمراسلين الحربيين ولا على الدنيا كلها ما تمتع به جيشنا المحارب من روح الإيمان ولا ما ردده هؤلاء الجنود وأقسموا عليه مما شاهدوه وأحسوه من مظاهر تأييد الله وحراسته لهم وهم فى أشد المواقف بأساً وشدة تحقيقا لوعد الله : ﴿ وإن تصبروا وتتقوا لا يضركم كيدهم شيئا ﴾ وقد زاد ذلك جنودنا إيماناً وثباتاً واستبسالاً فى الحرب . وزاد شعبنا المؤمن الذى سمع وقرأ ما أحس به هؤلاء الجنود من تأييد الله زاده تحقيقا لوعد الله ﴿ وإن تَصْبروُا وَتَتَّقُوا لا يَضركُم كَيْدُهم شيئا ﴾ وقد زاد ذلك جنودنا يقينا بحتمية الإيمان وضرورته فى المعركة وفى سير حياتنا .

« ١ » سنة ١٣٩٣ هـ السادس من أكتوبر الذى عبر فية الجيش المصرى الشجاع القناة وحطم خط بارليف وإنتصر على أسطورة الجيش الإسرائيلى المغرور وذلك فى الساعة الثانية بعد ظهر يوم السبت وهو الوقت الذى دخل فيه الجيش السورى الشجاع المعركة .

وثانى هذه الأمنيات التى تحققت بفضل روح الإيمان ما قام به جيشنا الباسل من تحطيم الغرور العسكرى الإسرائيلى والقضاء على اسطورة الجيش الذى لا يقهر ، وعودة روح الثقة بالنفس فى نفوس المحاربين والشعب معهم . وهذا النصر الذى حققه جيشنا البطل حدث لم يشعر العرب بمثله منذ مئات السنين . فمنذ انتصار الجيش المصرى بقيادة المظهفر قطز سنة ٦٥٨ هـ . ١٢٩٠ م فى عين جالوت على جيوش التتار المغرورين لم يشعر العرب بلذة نصر فى ميادين الحرب ضد أعدائهم كما أحسوا نشوة الإنتصار فى هذه الأيام .

وثالث هذه الأمنيات التى سعدنا جميعا بتحقيقها أن رأينا أملنا فى وحدة الأمة العربية يصير ملموسا يضم الشعوب والملوك والرؤساء فى وحدة قوية من المحيط إلى الخليج . وحدة تتحرك بحركة واحدة وتتحدث ، بلسان واحد وتلقى بثقلها كله فى ميدان المعركة : روحاً ومالاً وبترولاً وجنداً وعتاداً مما لم يكن يتصوره أشد الناس تفاؤلاً . . ولكن أصالة هذه الأمة ومعدنها رُدَّ إليها بفضل من الله وتوفيقه فى أشد اللحظات الحرجة فى تاريخنا ، وصدق الله العظيم ﴿ **لَوْ أنفقت ما فى الأرض جميعا ما ألفت بين قُلُوبِهِمْ ولكن الله ألف بَيْنَهُم** ﴾ . وهذه من أعظم نعم الله على هذه الأمة نشعر بها جميعا ونسعد ونشكر الله عليها بالحرص الشديد على بقائها حصناً وسنداً لنا فى مسيرتنا المقبلة لإتمام النصر إن شاء الله .

أيها الإخوة أيتها الأخوات وفى كل مكان . إنها نعم الله علينا ونحن فى أشد الأوقات حاجة إلى نعمه وفضله والله سبحانه يقول : ﴿ **لَئِنْ شكرتُمْ لأزَيدنَّكُمْ** ﴾ فاستزيدوا من فضله بشكر نعمه والحرص عليها والله أكبر .

٧٧ امسكو السنتكم

فى وقت الأزمات والأخطار يستنشق الناس الأخبار ، وتقوى فيهم شهوة الكلام والتعليقات والتعليلات والأستنباطات وترديد الإشاعات وربما يتقمص الواحد منهم شخصية العليم ببواطن الأمور .

أو يضفى على نفسه صفة المتصل بالمسئولين ، المطلع على الأسرار .

وينطلق فى الحديث والثرثرة دون أن يضع لنفسه قيوداً أو حدوداً ، وهذه الحالة تضر الدولة ولا تخدمها ، وتسيء للمصلحة العامة ولا تحسن إليها . ومن أجل ذلك وجدنا القرآن الكريم يندد بهذه الصورة واصحابها ويصور أصحابها صورة الذين لا عقل لهم ولا تفكير ، وإنما لهم ألسنة تتحرك آلياً وتردد ما تسمعه من إشاعات دون وعى وتفكير ، وذلك فى أسلوب بلغ منتهى الذروة فى البلاغة والتصوير فيقول الله عن هؤلاء الذين يشيعون الباطل ويرددونه بلا تعقل ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم وَتَقولُون بِأفواهِكُمْ ما ليْس لَكُمْ بِهِ علمٌ ﴾ وتلقى الكلام يكون طبيعيا عن طريق سماعه بالأذن أولا ، وعرضه على العقل ، ثم يتكلم اللسان بما يرتضيه العقل ويستحسنه ، وهذا هو الطريق الطبيعى الذى يليق بالعقلاء ، ولكن لما كان هؤلاء يرددون الإشاعات دون عرضها على العقل ودون وعى وفرز وتمحيص لما يصح أن يقال أو لا يقال . . صورهم كأنهم لا عقول عندهم وإنهم لا يملكون إلا الألسنة التى تردد الكلام آلياً وتتحرك به تحرك الشريط المسجل وترده ترديد الببغاوات . عقلها فى أذنيها تسمع ولا تفهم وتردد ما تسمعه ﴿ إِذْ تَلَقَّوْنَهُ بِأَلْسِنَتِكُم ﴾ ؛ فاللسان يتحرك بمجرد سماع الكلمة ولذلك وضحه أكثر بقوله بعد ذلك ﴿ وتقولون بأفواهكم ماليس لكم به علم ﴾ ثم بين نتيجة ذلك

ومسئوليته فى قوله ﴿ وَتَحْسَبُونَهُ هينا وَهُوَ عِنْدَ الله عَظِيمٌ ﴾ أى وتظنون ما ترددونه أمراً هيناً لا أثر له ولا مؤاخذة عليه . بينما آثاره خطيرة ومسؤوليته عند الله عظيمة ، يؤاخذ عليه كل إنسان متلبس به ، وينزل به العقاب العظيم ، المناسب لعظم ما اقترف من ذنب عظيم . وهذا التصوير البشع لمرددى الإشاعات وبيان مسئوليتهم وجرمهم دعوة قوية لكل مؤمن أن يكون عاقلاً حذراً يزن ما يقول بمزيان العقل والمصلحة . ولا يستهين بأية كلمة يرددها : ﴿ وتَحْسَبُونَهُ هَيِّناً وهو عِنْد الله عظيم ﴾ أى عظيم الضرر عظيم الذنب .

وهناك آية أخرى فى هذا الموضوع تعلم المؤمنين أدب الحديث ولاسيما فى وقت الخطر والأزمات وتوصيهم بألا يرددوا أو يذيعوا كل ما يعرفون من أخبار الأمن أو الخوف ، بل يتركوا الأمر لأرباب الفطنة العالمين ببواطن الأمور الذين يعرفون الحقائق ويميزون بين ما يجوز أن يقال وما يجب ألا يقال . حفاظاً لمصلحة الأمة وتماسكها . هذه الآية تعيب جماعة من المؤمنين وتنكر عليهم أنهم مفلوتو اللسان يتحدثون بكل ما يسمعون ، وترسم لهم فى الوقت نفسه الطريق السليم للتصرف حين يسمعون أخباراً فيقول الله تعالى :

﴿ وإذا جاءَهمْ أمْرٌ مِنَ الأمن أو الْخَوْفِ أذاعُوا به ولَوْ ردّوهُ إلى الرَّسُول وإلى أولى الأمر مِنْهُم لعِلمهُ الذين يسْتَنْبِطونهُ منْهم ﴾ أى لعرفوا الحقيقة والصورة كاملة وميزوا بين ما يقال وما لا يقال . ثم يردف الله هذا بقوله .

﴿ وَلَوْلاَ فَضْلُ الله عليْكُم ورحمَتُهُ لاتبعْتُمُ الشيْطان إلا قليلا ﴾ فرب كلمة تقال بدون وعى أو نية سيئة تكون لها آثارها الخطرة على الأمة وعلى الجيش .

فلابد إذن من أن يمسك الإنسان لسانه ويحتكم إلى العقل وإلى مصلحة أمته ، ويتأدب بهذا الأدب الربانى .

أخى : أرأيت كيف يهتم القرآن بالإشاعات وترديدها ، ويرسم للمجتمع كيفية التصرف السليم فيما يسمعه من أخبار ، ليكون فى منجاة من الأخطار لاسيما عند الحروب والأزمات .

إن هذا الهدى القرآنى حصانة للأمة من التأثر بالحروب النفسية التى يشنها الأعداء عليها للنيل منها . وحصانة لأسرارها كذلك . فلنحرص عليه حرصنا على سلامتنا وتحقيق آمالنا ورضا الله عنا .

٧٨ كلنا مقاتلون

قرأت فيما قرأته من المعلومات العسكرية أن الجندى المحارب فى الميدان يحتاج - لكى يتفرغ لسلاحه يتعامل به مع العدو - إلى بضعة أفراد وراءه يمدونه بالذخيرة والوقود والماء والمئونة وتحديد مواقع الضرب وطريق الكر والفر . . والإسعاف إذا جرح وحينما قرأت هذه اتجه فكرى رأسا إلى حديث : لرسول الله ﷺ يقول فيه : ﴿ **من جهز غازيا فقد غزا ، ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا** ﴾ يعنى من جهز مع عدوه فإن له كذلك ثواب المجاهد المحارب فى الميدان . . (وذلك لأن المحارب الذى يقف من وراء مدفعه أو الذى يقود دبابته والذى يطلق منها قذائفه على العدو لا يتيسر للواحد منهم أن يؤدى واجبه إلا إذا كان هناك من يمده بالقذائف التى يطلقها وبالوقود التى تسير به دبابته وبالماء والمئونة التى يعيش عليها وبالمعلومات الدقيقة التى توجه لإصابة هدفه وإلا إذا كان هناك من يسعفه إذا جرح أو ينقله إلى حيث يجد العلاج أو يصلح له دبابته أو مدفعه . . كل ذلك يحتاج إليه المحارب وكل إنسان يوفر للمحارب المجاهد حاجته فهو مجاهد محارب مثله له ثواب المجاهدين الذين يخوضون بأسلحتهم ومدافعهم وطائراتهم ميدان الحرب (. . وإذا كان العسكريون قد ذكروا فى كلامهم ما يحتاج إليه الجندى من معونة مادية فى ميدان القتال فإن حديث رسول الله ﴿ **من جهز غازيا فقد غزا** ﴾ قد شمل المعونة المادية للجندى المحارب فى الميدان وشمل كذلك المعونة النفسية التى تطمئنه على من وراءه من أسرته الصغيرة وأسرته الكبيرة أعنى أمته . . وهذا التجهيز النفسى يعنى أن يطمئن الجندى المحارب أن اسرته فى قريته أو مدينته تلقى العناية الكافية من الرعاية كما

أن أمته تقف من وراءه صفا قوياً يؤدى كل فرد فيها واجبه نحو المعركة ويضحى بما يستطيع من جهد ومال ، ويحس أنه سيلقى العناية الكافية إذا جرح وأن أولاده وأبويه سيلقون الكفالة والرعاية إذا استشهد كل ذلك يدخل فى باب التجهيز والإعداد النفسى للمحارب الذى اعتبره حديث رسول الله ﷺ نوعا من الجهاد ويستحق كل من يقوم به ثواب المجاهدين وهنا تأتى تكملة الحديث « **ومن خلف غازيا فى أهله بخير فقد غزا** » وهنا نذكر ما تقرره الدولة من أفضليات لأسر المقاتلين والشهداء .

كما يدخل فى باب الإعداد والتجهيز المادى أن يضاعف المنتجون من إنتاجهم الزراعى والصناعى ويضاعف العاملون فى مرافق النقل من نشاطهم وعنايتهم بما ينقلون كما يضاعف الموظفون من عنايتهم بأعمالهم وسرعة إنجاز ما وكل إليهم حتى يسير دولاب العمل فى كل ناحية بانتظام وسرعة تكفل للمحارب الإطمئنان على نفسه وأمته وتوفر له إجادته لفن الحرب والقتال .

ويأتى حديث آخر للرسول القائد ﷺ وكأنه يعلن فيه أن الأمة حين تكون فى حرب مع عدوها فإنها تكون فى حالة تعبئة عامة وأن لكل فرد فيها أن يشترك فى هذه التعبئة بأى نوع من أنواع المشاركة يحسنه ويقدر عليه ثواب المجاهد . يحصل عليه وهو يؤدى عمله الذى يساعد به الجندى المحارب لكى يقهر العدو فيقول ﷺ : « **إن الله ليثيب بالسهم الواحد ثلاثة : صانعه ومناوله والرامى به** » وهذا يعنى أن كل إنسان يشترك فى إمداد الجندى بما يحتاجه لكسب الحرب يكون له ثواب المجاهدين ، وهذا كله يعنى أن فرض الجهاد والدفاع يمكن أن يؤدى بصور متعددة كفرض الصلاة ولا يعفى من أدائه أى إنسان . . .

ثم يأتى مع هذا إنذار شديد من رسول الله لكل متقاعس عما تتطلبه الحرب من عمل وجهد وعناية ، لكل إنسان لا يشعر مع أمته وجيشه بأنهم فى حرب ولا يشاركهم أية مشاركة فيها يوجه لهذا وأمثاله اللامبالين هذا الإنذار القارع « **من لم يغز أو يجهز غازيا أو يخلف غازيا فى أهله بخير أصابه الله بقارعة قبل يوم القيامة** » أى فى حياته الدنيا أما بعد أن تنتهى حياته الفارغة ، ويلقى ربه فله جزاؤه وعذابه الذى يستحقه لتفريطه فى حق أمته . أيها الأخ

والإبن أيتها الأخت والبنت فى كل مكان هذه أبواب الخير أبواب الجنة قد فتحت حين دوى النفير لدحر أعداء الله وصاح جندنا صيحتهم الكبرى « الله أكبر » .

٧٩ كانوا ثم لعنهم الله

اختار الله موسى عليه السلام حاملاً لرسالة الحق والخير والتوحيد فى عالم غارق فى وثنيته متخبط فى همجتيه وكان الذين آمنوا بهذه الرسالة من قومه فى ذلك الوقت خير أهل الأرض باعتبارهم متمسكين برسالة السماء وساعدهم الله من أجل ذلك ، فكانوا أهل دولة ورسالة سماوية ، وأقام داود وسليمان عليهما السلام ملكاً قوياً قائماً ومؤسساً على هدى رسالة السماء وقد عبر القرآن الكريم عن ذلك وهو يعدد نعم الله على بنى اسرائيل فى تلك الفترة السحيقة من التاريخ فقال : ﴿ **ولقد آتينا بنى إسرائيل الكتاب والحكم والنبوة ورزقناهم من الطيبات وفضلناهم على العالمين** ﴾ وقال : ﴿ **وإذ قال موسى لقومه ياقوم اذكروا نعمة الله عليكم إذ جعل فيكم أنبياء وجعلكم ملوكاً وآتاكم مالم يوت أحداً من العالمين** ﴾ فلما خرج بنو إسرائيل على رسالة السماء وتمردوا على شريعة الله وعاشوا فى الأرض الفساد حتى قتلوا أنبياءهم الذين يدعونهم للرجوع إلى شريعة الله ، سلب الله عنهم نعمته وأرسل عليهم نقمته وصب عليهم غضبه ولعنته ، وسلط عليهم من الوثنيين الملوك الذين حولهم من أذلهم ، وقضى على ملكهم ، وشتت شملهم ، وسجل الله ـ خروجهم على شريعته واستحقاقهم للعنته فى قوله : ﴿ **لُعِنَ الذِينَ كَفَرُوا مِنْ بنى إسْرائيل على لِسَانِ دَاوُدَ وعيسَى بِنْ مَرْيَمْ ذلِكَ بِمَا عَصَوْا وكانُوا يعتَدُون** ﴾ ذلك أنهم لما فسدوا وأفسدوا وتمردوا على شريعة موسى أرسل الله إليهم عيسى فكفروا به وحاربوه وحاولوا قتله ، واستمروا فى طغيانهم ثم حاربوا محمداً رسول الله (ﷺ) ورسالته فلم يعودوا أسلاً لتكريم من الله بل لغضبه ونقمته فدمغهم الله بالذلة ﴿ **وضربت عليهم**

الذلة والمسكنة وباءُوا بغضب من الله ﴾ ولم يعودوا لذاتهم أهلاً لتكوين مجتمع ودولة يشعرون فيها بقوة ، إلا اعتمادا على غيرهم كما نرى الآن من اعتمادهم على أمريكا وعلى غيرها من قبل .

وإذا كان الله قد أمدهم بعونه ، فكانوا دولة فى تاريخهم القديم فلأنهم كما قلنا كانوا حملة رسالة سماوية وكانت دولتهم فى ذلك كنقطة فى بحر ممن حولهم ، فساعدهم الله لمزيتهم على غيرهم من الوثنيين ، أما وقد زالت هذه ـ الميزة فلن يكتب لأى تجمع لهم البقاء مهما اصطنعوا من مظاهر التجمع ، ومن عوامل البقاء ، وإذا كانوا قد أقاموا لباطلهم دولة فى غفلة أهل الحق . وتقصيرهم فى الإنتصار لحقهم ، وفى العمل لحراسته ، فإنه من المحال وقد استيقظ أهل الحق وشدوا عزائمهم ، ووحدوا صفوفهم ، وأجمعوا أمرهم ، من المحال أن يكون للباطل المصطنع وجود أو كلمة إلا إذا سمحنا له ومددناه بحبل وجوده وقتا سينتهى أمره طبيعيا بعده .

فإن جسمنا العربى السليم يلفظ كل جسم غريب عنه وسيتحدث التاريخ بعد ذلك عن دولة إسرائيلية قامت زمنا واعتدت وعربدت فلم يتحمل جسمها الصغير عربدتها ولا الضربة القاصمة التى تلقاها ، سيكون هذا تاريخا أيها الإخوة فى كل مكان إذا نحن حافظنا على قوتنا ووحدتنا وزدنا إصرارا على السير فى طريقنا طريق الثأر وإصرارا على أن نستزيد من نشوة النصر التى أحسننا لذتها وحلاوتها يوم عبر جيشنا الباسل إلى سيناء وحطم اسطورة الجيش الذى لا يقهر والله مع المؤمنين العاملين بنصره وتأييده . . والله أكبر .

٨٠ من ذاق عرف

حقق جيشنا العظيم نصراً كنا نرجوه من زمن بعيد ، نصرا أذهل العالم كله بالعبور وتحطيم تحصينات الخط الذى تصوروه سد ذى القرنين ، وإنزال الهزيمة بالجيش الإسرائيلى المغرور . . هذا أمر نردده بفرحة ويردده العالم معنا مع التقدير والإعجاب .

وقد حصلت ثغرة ألمت بفرحتنا وكانت نتيجة خطأ فى التقدير ، وهذا أمر يحصل لكل جيوش العالم ، والحرب ميزان يعلو ويهبط ولكن من ضحك أخيرا ضحك كثيرا . . (والأمل فى الله كبير أن نتدارك هذا الخطأ ونعوضه بضربة تجعل العدو يندم أشد الندم على مافعله وفرح به بالأمس) .

ولست أريد أن أقف عند هذا ولكنى أريد أن أتحدث إلى جيشنا الباسل وأمتنا العظيمة وأعلق على أمر سمعه الكثيرون وسمعته من قادة وضباط كبار وصغار عما أحسوه من رعاية الله وعونه لهم وللجنود فى أشد المواقف حرجاً وكان ذلك بلا شك نتيجة إعدادهم وإيمانهم وإقدامهم وأقول إن ما رأيناه وأحسسناه من فضل الله ورعايته إنما هو « عينة » ونموذج صغير مما عنده تعالى للمؤمنين الذين يخوضون الحروب دفاعاً عن عقيدتهم وكرامتهم وشرفهم ولا يدخرون وسعاً فى الإعداد للحرب ولا يهابون الموت فى سبيل أهدافهم ، أعطاكم الله وأعطانا هذا النموذج من النصر وأذاقنا حلاوته لنستزيد منها « ومن ذاق عرف » ونكون أكثر حرصا على صلتنا بالله وعلى حسن الإستعداد والإقبال على الإستشهاد ، ففى موقف من مواقف الشدة التى مرت بالمسلمين وانتصروا فيه يذكرهم الله بفضله ويقول : ﴿ هو الذى أنزل السكينة فى قلوب المؤمنين ليزدادوا إيمانا مع

إيمانهم ﴾ فالله قد أيد المؤمنين بنصره لا ليغتروا ولا ليتهاونوا بل ليزدادوا إيماناً مع إيمانهم ، وإصراراً على الإنتصار الكامل فوق إصرارهم واستعداداً لمقابلة الشدائد فوق استعدادهم ، وهم فى هذه الحالة سيجدون معاونة من الله أكبر ، ويحققون نصراً أعظم ﴿ ولله جنود السموات والأرض ﴾ يسخرها لمصلحة عباده الذين كان نصر الله لهم فى بعض مواقفهم سببا فى تقوية إيمانهم وارتباطهم بالله وتوفير كل وسائل النصر المادية كما أمر الله ﴿ وأعدوا لهم ﴾ .

إن المؤمن الحقيقى هو الذى يدفعه إيمانه إلى العمل وإلى اليقظة والحذر والإستعداد المستمر وهو يسمع قول الله : ﴿ يا أيها الذين آمنُوا خُذُوا حِذْركُم ﴾ خذوا حذركم من عدوكم واستعدوا له أقصى ما يكون ـ الإستعداد وليس لكم عذر أى عذر إذا تهاونتم ، فأنتم تقاتلون فى سبيل الحق ، والله هو الحق ، وعدوكم يقاتل من أجل الباطل ، ولن ينتصر الباطل إلا فى غفلة أهل الحق وتهاونهم ، وخوفهم من المشقة والتضحية . ومن أجل هذا يوجه الله للمؤمنين هذا الأمر الحربى ﴿ ولا تهنُوا فى ابْتغاء الْقوْم ﴾ ويبين لهم السبب فى هذا الأمر فيقول : ﴿ إنْ تكُونُوا تألْمُون فإنَّهُمْ يَألْمُون كما تَألْمُون ، وتَرْجُون مِنَ الله مَالاَ يَرْجُون ﴾ ترجون رعاية الله وعونه لكم ، والجنة لشهدائكم والله محقق رجاءكم . ﴿ الذين آمنُوا يُقاتِلُون فى سبيل الله والذين كفرُوا يُقاتلون فى سبيل الطَّاغُوت فقاتِلُوا أوْلياء الشَّيْطان إنَّ كيْد الشيطان كان ضعيفا ﴾ ﴿ قُلْ هَلْ تَربَّصُون بنا إلا إحدى الحُسْنيين ، ونحنُ نتربصُ بكُم أنْ يصِيبكم الله بعذاب مِن عِنْدِهِ أوْ بأيْدينا فتربَّصُوا إنَّا معكُم مُتربِّصُون ﴾ .

٨١ النصر والهزيمة فى ميزان الإسلام(١)

الذين يتابعون المعارك التى خاضها الرسول ﷺ ، ويتبعون المعارك الحربية التى خاضها المسلمون بعد ذاك يجدون أن سنة الله فى الحرب وفى أسباب النصر والهزيمة ، طبقت على الرسول ﷺ ، كما طبقت على المعارك التى خاضها المسلمون بعد ذلك .

وكان من الممكن أن يكرم الله رسوله فينصره على أعدائه بدون حرب ، يخوضها ، ويلقى الشدائد فيها ويذوق ألم الجراح وألم الهزيمة بجوار ألمه وحزنه لاستشهاد بعض أصحابه . نعم . كان من الممكن أن يعفى الله رسوله من تطبيق هذه السنة عليه ، وهو أكرم الخلق عليه وحامل رسالته ، ورسالة الحق والهداية والمدافع عنها ، ولكن الله العليم الحكيم أراد أن يربى هذه الأمة تربية عملية . فجعل لها من رسولها قدوة فى النضال والدفاع وخوض المعارك دفاعا عن الحق وحماية له فى دنيا يخفت فيها صوت الحق وتضيع معالمه مالم تحميه القوة . ويدعمه بأس المؤمنين به . . ﴿ ولوْلاَ دفْعُ الله النَّاس بَعْضَهُم بِبعْضٍ لهُدِّمتْ صوامع وبيع وصلَوَاتٌ ومساجد يُذْكرُ فيها اسْمُ الله كثيراً ﴾ .

وقد لفت نظرى أن الله سبحانه وهو يسجل أحداث معركة الأحزاب الذين

---

(١) أصل مقال نشر فى الأهرام رداً على ما أثاره الدكتور فؤاد زكريا وهو أحد الذين أفزعتهم موجة الإيمان التى عمت الجيش فحاولوا الفض منها وزعزعتها ، وأنكر أن تكون هناك رعاية من الله للمؤمنين المستعدين ـ لأن رعاية الله فى زعمهم تهدر أثر السلاح الروسى فى المعركة .

تجمعوا وحاصروا مدينة الرسول ليقضوا عليه وعلى رسالته ويصف الشدائد والمخاطر التى تعرض لها هو وصحابته ويذكر قلة تزلزلت عقيدتهم وتفتتت عزائمهم ، وكثرة قد زادتهم هذه الشدائد والمخاطر التصاقا بربهم ، وإيماناً برسولهم ، وثباتاً أمام أعدائهم ، فى سياق تسجيل هذه الأحداث يقرر الله سبحانه هذه الحقيقة التى ظهرت أمام الجميع : ﴿ لقدْ كان لكُم فى رسُول الله أسْوةٌ حسَنةٌ لِمَنْ كان يرْجو الله والْيوم الآخر وذكر الله كثيراً ﴾ .

وما كان الله سبحانه ليقرر هذه الحقيقة ويدعوهم وهم المشاهدون لمواقف الرسول الحربية ويدعو كل المؤمنين من بعدهم إليها دعوة مطلقة بدون قيد ولا استثناء إلا والرسول الكريم قد بلغ الذروة فى التخطيط والإعداد للحرب والقمة فى الشجاعة والبأس حين تدور رحى المعركة ، فقد كان ﷺ مع شدة إيمانه ووثوقه بربه وبالحق الذى يدافع عنه لا يترك أمرا يقدر عليه من أمور الحرب والتجهز لها إلى المصادقة أو إلى ماقد يسمى عند بعض الناس خطأ بالإتكال على الله وهو إهمال وتواكل بل كان يخطط للحرب ، ويأخذ برأى الفنيين فيها ، ويعد كل ما يستطيع من أسلحة لها ، ويستعمل أساليب التعمية والحرب النفسية على الأعداء كما يهتم بالإستطلاع وتقصى أخبار العدو ، ومعرفة عدد قواته وتجهيزاته ويعنى بتنظيم مواقف الجيش وتوزيعه حين المعركة . ثم يخوض المعركة بجيشه وهو فى مقدمته معتمدا ومتوكلا على الله موصول القلب به ، مستمدا منه العون والنصر ﴿ فإذا عزَمْتَ فَتَوكَّلْ على الله ﴾ وكان كلما سارت المعركة على ما خططه الرسول ، والتزم المحاربون معه بهذا التخطيط ، وبما يدعوهم إليه إيمانهم من بيع أرواحهم لله ، وجدوا العون والنصر من الله ﴿ وكان حقا علَيْنا نصْرُ الْمُؤْمِنين ﴾ . فإذا قصروا فى التزام ما خططه أو ما دعا إليه ، وجدوا نتيجة ذلك انتصار عدوهم عليهم كما حدث لهم فى معركة أحد حين خالف الرماة أمر الرسول وتركوا أماكنهم بعد مارأوا تباشير النصر ، وفى معركة حنين حين أصابهم الغرور والاعتداد بكثرتهم فتراخت عزائمهم : ﴿ ويوْم حُنَيْنٍ إذْ أعْجَبَتْكُمْ كَثْرتُكُمْ فَلَمْ تُغن عَنْكُمْ شيئا وضاقتْ عَلَيْكُمُ الأرض

بما رحبَتْ ثمَّ ولَّيتُمْ مُدبِرين ﴾ ، وانفضوا من حول الرسول ولكنه ثبت وحوله نفر من أصحابه فخجل الفارون ورجعوا إلى صوابهم وارتدت إليهم عزائمهم فانتزعوا النصر من عدوهم .

﴿ ثُمَّ أنْزل الله سَكينَتَهُ على رَسُولِهِ وَعَلى المُؤْمِنين وأنْزَل جُنُوداً لَمْ تَرَوْهَا وعَذَّ ب الذين كَفَرُوا ﴾ (٢٥ - ٢٦ من سورة التوبة) .

وقد كان الرسول أشجع الناس وأسرعهم لملاقاة العدو . وما من شجاع إلا كانت له هنة إلا رسول الله ، يقول ابن عمر رضى الله عنها : « مارأيت أشجع ولا أنجد من رسول الله » . ويقول على رضى الله عنه : « كنا إذا اشتد البأس ، واحمرت الحدق (العيون) اتقينا برسول الله فما يكو ن أحد أقرب إلى العدو منه . ولقد رأيتنى يوم بدر ونحن نلوذ بالنبى وهو أقربنا إلى العدو » . وقد فزع أهل المدينة ليلة فانطلق أناس نحو الخطر الذى ظنوه فتلقاهم الرسول عائدا وهو على فرسه والسيف فى عنقه قد تعرف الخبر وقال لهم : « لن تراعوا » فليس هناك خطر . .

هذه نبذة من حياة الرسول الحربية يعرفها المسلمون ويعرفون معها ، يقين أنه ﷺ مع قوة إيمانه وقربه من ربه لم يهمل الأخذ بالأساليب التى تكفل له النصر ، ولم يحجم عن خوض المعارك اتكالاً على مجرد إيمانه ومنزلته عند الله ، حتى صار ذلك أمراً بديهياً لدى المسلمين لا يحتاج إلى توضيح وإن كان يحسن التذكير به ﴿ فإنَّ الذكْرى تَنْفعُ المُؤْمِنِينَ ﴾ .

وإذا كان بعض الناس لا يدركون المعانى الكامنة وراء الإصطلاحات الدينية ويسيئون الظن بفهم الكثيرين لبدهيات دينهم . وبالدعاة الذين يدعون الناس إلى مزيد من الإيمان . ومزيد من الإلتزام بواجباته ومقتضياته . ومزيد من طاعة الله واتقاء معصيته فإنهم مع الأسف لم يدركوا مايدركه الدعاة حتى ولا البسطاء ، فليس هناك حتى ولا أمى مسلم يظن أن مجرد الإيمان يغنى عن العمل ويكفى للنصر بدون جيش شجاع ولا عتاد حربى ، أو يكفى مجرد الايمان ليحصد الفلاح دون أن يحرث ويزرع ويخدم زرعه ، وأمام المسلمين جميعا أمر القرآن الصريح : ﴿ وقُل اعْمَلُوا ﴾ وقوله : ﴿ وأعدوا لهُم ما اسْتَطعْتُمْ مِنْ قُوَّة

ومِنْ رِباطِ الخَيْل تُرْهِبُون بِهِ عَدو الله وعَدُوكُمْ وآخرين مِن دُونِهِمْ لا تعلمُونَهُم ﴾ (٦ الأنفال) وهو أمر بالإعداد للحرب أقصى مايكون كالأمر بالصلاة حتى تكون قوة المسلمين رادعة لكل قوة فى العالم حتى لا تحدث أحدا نفسه بالتحرش بهم . أما أن يعتقد المسلم أن الله يحرسه ويرعاه ، ويسدد رميته وخطاه حين يأخذ أهبته ، ويحكم خطته ويوفر للميدان أسلحته ، ويبذل كل ما فى وسعه ، فهذا ليس بخرافة بل هو الذى يجب أن يؤمن به انطلاقا من إيمانه بربه ويصدق وعده : ﴿ إنَّ الله يُدافعُ عن الذين آمنُوا ﴾ والمؤمنون هم حزب الله وأتباعه الذى يحميهم ويدافع عنهم ويسخر الأسباب لنصرهم : ﴿ وما يَعْلَمُ جُنُود رَبِّك إلا هُو ﴾ .

وقد هيأ الله للمؤمنين فى بدر وهم فى حالة خوف وعلى قرب من خوض المعركة ـ شيئا من أمن نفوسهم يتمتعون فيه بنعاس استردوا به قوتهم بعد تعب وإرهاق ، وأنزل على مكانهم فى ميدان المعركة شيئا من المطر ثبت به الرمال وأعطاهم فرصة للتطهير واستعادة النشاط وحرم من ذلك اعداءه فأحسوا فضل الله عليهم وقويت روحهم المعنوية وهذه أمور طبيعية سخرها الله لتقوية الروح المعنوية للمؤمنين . بجانب عوامل أخرى .

﴿ إذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعاس أمنة منْهُ وينزل عليْكُمْ من السماء ماءليطهِّركُمْبه ويذْهب عَنْكُمْ رجز الشَّيطان وَليرْبط على قُلوبِكُم ويثبِّتَ به الأقدام ﴾ (الآية ١١ من سورة الأنفال) .

وفى معركة الأحزاب سخر الله الرياح العاصفة التى أثارت على معسكر الأعداء الغبار والحصى واقتلعت خيامهم فأثارت الرعب والقلق فى صفوفهم ﴿ وإذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبِّتوا الذين آمَنُوا سألقى فى قلوب الذين كفورا الرُّعْب ﴾ بالإضافة إلى ما أثمرته خديعة رجل أسلم سراً وسخره الله لخدمة المسلمين بالإيقاع بين المشركين وحلفائهم اليهود : ﴿ يا أيُّها الذين آمنُوا اذْكرُوا نِعْمة الله عَليْكمْ إذْ جَاءُوكُمْ جُنُودٌ فأرْسَلْنا عَليْهمْ ريحا وجُنُودا لمْ تَرْوها . . ﴾ ﴿ إذ جَاءُوكُمْ مِنْ فوْقِكُمْ وَمنْ أسْفل منْكُم وإذْ زاغت الأبصَارُ وَبَلغت القُلُوب الحناجِر ﴾ (٩ ـ ١٠ سورة الأحزاب) .

وهذه عوامل لم تكن منظورة ولا محسوبة بل خارجة عن قدرة الرسول سخرها الله لهم رعاية ودفاعا عنهم لأنهم كانوا كما وصفهم العليم بهم : ﴿ وَلَمَّا رأى الْمُؤمِنُون الأحْزاب قالوا هذا ماوعدنا الله ورَسُولُه وصدق الله ورسُولُهُ وما زَادَهمْ إلا إيمانا وتسْليما من الْمُؤمنين رجال صَدَقُوا ما عَاهَدُوا الله عليه فمِنْهُمْ من قضى نحْبَه ومنهم من ينتظِر وما بدلوا تبديلا لِيَجْزى الله الصادقين بصِدقِهِمْ ﴾ الصادقين فى ايمانهم وفى بذلهم وتضحياتهم كما عاهدوا الله .

وحينما اجتمع صحابة الرسول حوله فى الحديبية وبايعوه على الموت فى سبيل الله قال الله عنهم : ﴿ لقَدْ رضى الله عن الْمُؤمِنين إذْ يُبايعُونَكَ تحْت الشَّجرة فعلم مافى قلوبهم فأنزل السكنية عليهم وأثابَهُمْ فتحاً قريبا ﴾ الآية ١٨ الفتح .

وقد وعد الله المؤمنين هذا الوعد : ﴿ وإن تَصْبِروا وتَتَّقُوا لا يضُرُّكُمْ كَيْدُهُم شيئا ﴾ وأمر المؤمنين :

﴿ يا أيُّها الذين آمنوا اصْبِرُوا وصابِرُوا ورابطوا واتقوا الله لعَلكُمْ تُفْلِحُونَ ﴾ وأمرهم :

﴿ إذا لقيتُمْ فئة فأثبتوا وأذكروا الله كثيرا لعَلَّكُم تُفْلِحون وأطيعُوا الله ورسُولهُ ولا تنازعُوا فتفشلوا وتذهب ريحُكُمُ واصْبروا إن الله مع الصابرين ﴾ وهذه كلها أوامر حربية من أجل الفلاح والنصر على الأعداء ، وليست التقوى التى يوصى الله بها المحاربين إلا الإلتزام بالواجب . وصيانة النفس ووقايتها من الوقوع فى تقصير أيا كان هذا التقصير ، ولو كان فى التدريب على السلاح ، فإذا فعل المسلم ذلك ونفذ هذه التعليمات الحربية ضمن النصر فإن قصر لم يكن متقيا ولا صائنا نفسه من عقوبة الإهمال ولو كان مؤمنا . ولم ينتصر المشركون الوثنيون على الرسول لأنهم كانوا مؤمنين أو لأن إيمانه قد اهتز ، بل لأن بعض أصحابه قصروا وعصوا تعليماته لهم ، ولم ينتصر اليهود علينا فى الماضى لأنهم أتقى منا ولكن لأننا أهملنا ولم نتق التقصير فى واجباتنا كما نعرف جميعا وقد كتب عمر رضى الله عنه انطلاقا من فهمه الألمعى للإسلام - إلى سعد بن أبى وقاص قائد جنده يوصيه وجنده بتقوى الله ويحذرهم من معصيته اتكالا على أنهم مؤمنون وعدوهم كافر ولن يسلطه الله عليهم فلربما سلط الله على قوم من هو شر

منهم آخذا لهم بمعاصيهم وذلك ليسرعوا بالعودة إلى الله والتخلص مما قصروا فيه .

وهذا هو الذى حدث بالنسبة لنا حيث وعينا الدرس القاسى الذى أخذناه فى الماضى فتلاشينا العيوب وأعددنا للمعركة وخضناها بأسلحتها متوكلين على الله فأحسنا جميعا رعايته وعونه لنا فى كل ما انجزناه ، وقوادنا وجنودنا أول من أحس ذلك وتحدث به حتى ليقول الفريق الشاذلى : « إنها أولا وأخيرا رعاية الله لنا التى مكنتنا من تحقيق المفاجأة بالصورة التى تمت بها » فهل المنزعجون من نغمة رعاية الله لنا أشد إشفاقا على الجيش وفوزه وقوة روحه من قادته والمسئولين عنه .

« مزيدا يارب من عونك ورعايتك حتى تتم علينا نعمتك » ،

وفى اليوم الثانى لما نشره الأهرام أذاعت لى إذاعة القاهرة فى مساء الثلاثاء ١٩٧٣/١٢/٤ هذا الحديث :

بعض الناس اساء فهم ماتحدث به إخواننا وأبناؤنا من رجال الجيش الباسل مما أحسوه من رعاية الله ومساعدته وتوفيقه لهم ، وهو فى أشد المواقف حرجا وشدة ، أو أفزعته هذه الموجة من الايمان التى عمت الجيش والشعب ، وأخذ يتحدث أو يكتب من خلال تفكيره المادى مستنكراً لهذه الروح لأنها فى رأيه روح لا عقلانية ومن شأنها كما يدعى أن تهدر قيمة الإعداد العلمى والمادى والمجهود الذى بذله جيشنا فى هذه الحرب . ولا أظن أن الذين يرددون هذه النغمة ، أكثر فهما بمتطلبات الحرب ، ولا أشد حرصا على إظهار المجهود الذى بذل ، ولا على تحقيق النصر من قادتنا وأقربهم حديثا الفريق سعد الدين الشاذلى ، رئيس أركان الحرب ، الذى سجل فى حديث صحفى له ، ما أحسه من رعاية الله ومساندته ، فيما أحرزه الجيش من نصر فقال : « إنها أولا وأخيرا رعاية الله لنا التى مكنتنا من تحقيق المفاجأة بالصورة التى تمت بها » .

وهذه هى روح الجندى المؤمن بالله ، الذى لايستغنى عن رعاية الله وتوفيقه ، مهما بذل من جهد وتخطيط . .

بل إن هذه الروح المؤمنة تعرف يقينا من القرآن الكريم ، أن رعاية الله

لا تكون للقاعدين الكسالى ، بل تكون للذين يبذلون الجهد والعرق والدم ، ويعملون كل ما يستطيعون لتحقيق الهدف ، ثم يستمدون مع ذلك العون والتوفيق للنجاح فى خططهم وهدفهم ، فيستجيب لهم ويتوج جهودهم بالنجاح .

وهذا هو منطق القرآن : العمل أولا ، وتأتى حراسة الله .

يقول الله للمؤمنين ﴿ وإنْ تَصْبِرُوا وتَتَّقُوا لا يضُرُّكُم كَيْدُهُمْ شيئاً ﴾ والصبر معروف ، ونعبر عنه بالثبات والصمود .

أما التقوى فقد يظنها بعض الناس أمرا يقتصر على الصلاة والصوم والمظهر ، وهذا خطأ ، لأنها معناها : أن تتقى فى حياتك العادية أو فى ميدان الحرب كل مواطن الذل والتقصير فيما يجب عليك أن تعمله ، سواء كنت فى المسجد أو البيت أو المصنع أو ميدان الحرب . .

معناها صيانة نفسك ووقايتها من التقصير فى الواجب الذى عليك .

وكأن الله يقول للمؤمنين ، إذا ثبتم فى مواضع الثبات ، وأديتم الواجب عليكم ، كان الله معكم بعونه ورعايته ، وحراسته لكم من كيد أعدائكم ، والله مع المؤمنين ، ومع الصابرين ، ومع المتقين .

وقد أعلن رعايته ودفاعه عن المؤمنين : ﴿ إن الله يُدافِعُ عن الذين آمنُوا ﴾ وقد دافع عنهم وحقق لهم النصر ، حين كانوا على المستوى الإيمانى والعملى الذى يستحقون به الرعاية والنصر .

وتخلى عنهم حين قصروا وأهملوا فى علمهم . والتزام التخطيط الذى وضع لهم .

وهذه قضايا بدهية عند المؤمنين ، لا أدرى كيف يتهجم عليها فى هذا الظرف بعض الناس ، ويثيرون مناوشات جانبية ، لا أعتقد أنها للمصلحة العامة يدعون . ولكنها لحاجة فى نفوسهم نعرفها .

وقد أثار قضية أخرى ، وهى إذا كان انتصارانا متوقفا على التقوى ، فكيف

انتصر علينا اليهود سنة ١٩٦٧ م ؟ وهل هم أتقى منا ؟ نقول لهم انتصروا حينذاك لتقصيرنا ، فتخلى الله عنا من أجل هذا التقصير .

وقد كتب عمر رضى الله عنه لأحد قواد جيشه « سعد بن أبى وقاص » يحذره من معصية الله ، وتقصيره أو تقصير الجيش فى واجباته ، اتكالا على أنهم مؤمنون وعدوهم كافر فإن الله قد يسلط على العاصى من هو شر منه ، تأديبا له .

ونحن حين أخذنا أهبتنا المادية والروحية فى الحرب ساندتنا رعاية الله ، ومن الذى يستغنى عن رعاية الله وتوفيقه ومساندته ، حتى الجاحد فى وقت الشدة يستنجد بالله .

وسيتم الله علينا نعمته بالنصر المبين ، مادمنا معه ، نؤدى الواجب ، ونبذل الجهد ، ونتكل عليه وحده .

﴿ فإذا عَزَمْتَ فَتَوكَّلْ على الله إن الله يُحِبُّ المُتَوكلين ﴾ .

فهرست